

الجزء الثاني

مَجْلَدُ الْمَنَهْلِ

وَأَثَرُهَا فِي النّهْضَةِ السَّعُودِيَّةِ

الدكتور السيد نفى الدين



دار نهضة مصر للطبع والنشر
الغجالة - القاهرة

الدكتور السيد نفى الدين

مِحْلَةُ الْمُنْهَلِ وَأَشْرُهَا فِي الْهَضْبَةِ السَّحَابِيَّةِ

الجزء الثاني

دار تحفة مصر للطبع والنشر

القجالة - القاهرة

الفصل السادس فن القصص

من المقالة إلى القصة — ثورة على أدب المقالة والقصيدة — تاريخ القصة
العربية السعودية — في أصول القصة — عناصر العمل القصصي — استخدام
العامة في حوار القصة .

اتجاهات القصة القصيرة في السعودية :

(أ) الاتجاه النفسي والرمزي عند الأفغانى :

- ١ — حضاد الشهوة في (الثأر) .
- ٢ — سبحات في عالم الفكر والروح والضمير من خلال (عودة سعيد) ..
- ٣ — الرمزية والتحقيق الوهمي لل رغبات في (أحلام) ..
- ٤ — الرمز إلى الحرية والمعرفة في (شهر زاد) .
- ٥ — ما يعجز العقل عن فهمه في (المصباح السحري) .
- ٦ — العقل الباطن وأحلام اليقظة في (الرأس المقطوع)
- ٧ — ما يعجز الشيطان عن منحه في (المحنون) .

(ب) سيكولوجية التسامى والمراهقة عند عبد السلام هاشم حافظ :

- ١ — التحقيق المقنع للرغبات المكبوتة في (فاطمة) .
- ٢ — غرام المراهقين في (لها ماض) .
- ٣ — هل يتنازل إنسان لآخر عن فتاة أحلامه في (وفاء)

(ج) الاتجاه الاجتماعي وقصص الأسرة السعودية :

أولا : محمد علي مغربي :

يو (المترهبة) ضحية الحب الأعمى :

ثانيا : محمد أمين يحيى :

بين زوجة الابن والام في (فاطمة) .

ثالثا : محمد مليبارى :

ولحة زوماتسية عن أزمة الوفاء في (الإحسان الضائع) .

رابعا : محمد حسن سعيد :

والترابط الأسرى الطاهر في (نبل ووفاء) .

خامسا : محمد سعيد العامودي :

مع الأم والطفل الوحيد أمام مشكلة الفقر في (مأساة أم) .

من المقالة إلى القصة :

وهكذا تمضي سيرة الفنون الأدبية في السعودية من الرسالة إلى المقالة ومن المقالة إلى القصة فكل فن يؤدي دوره في زمن معين وفي مجال معين وإذا كان فن الرسالة قد أوشك أن يختفي فإن المقالة ما تزال تؤدي دورها وكذلك القصة ما تزال تؤدي دورها ، أدت المقالة دورها على نحو ما مر بنا واصططعت مع أدب الحوار فكان ذلك إرهاصا بميلاد القصة السعودية الحديثة . لقد أدت المقالة وما تزال تؤدي دورها في المجال الديني والأدبي والفلسفي والرمزي والسياسي والنقدي وكانت لها جولات داخل المملكة وخارجها وقد خلفت وراءها تراثا ضخماً من العلم والثقافة والأدب والنقد دل على أن وراء الأكمة ما وراءها ، نقول هذا ونحن نستقبل الحديث عن فن القصة السعودية ذلك لأننا شاهدنا نهجوماً عنيفاً ضد فن المقالة بالرغم من آثارها الخالدة ليس في الأدب السعودي الحديث وحده وإنما في الأدب العربي الحديث كله . ولقد قاد هذه الحملة في السعودية الأستاذ أحمد رضا حوحو فزعم أن الأدب الحي هو أدب القصة وأن أدب المقالة أدب ميت ، إنه يشترك مع الأنصاري في الحملة على أدب المقالة ، الأنصاري يزعم أن الناس ملئوا أدب المقالة ومن ثم فهو يريد أن يأخذ بيدهم إلى أدب الحوار

وحوحو يزعم أن أدب المقالة قليل النفع ومن ثم فهو يدعو لأدب القصة
ويزدري أدب المقالة (١).

وهذا مالا نقره عليه فكونه يحب أدب القصة أو أدب المسرح وأن
جمعاً غفيراً من الناس يشاركونه هذا الحب وهذا التقدير كل هذا لا يقلل من
قيمة أدب المقالة فإن جانباً كبيراً من الأدب الحديث قائم على المقالة منذ
نشأة الصحافة : أدب الإمام محمد عبده وطه حسين وأحمد حسن الزيات
وأحمد أمين وغيرهم كثير ، أدب هؤلاء في شطر كبير منه قائم على المقالة
وله قراؤه والمعجبون به فحديث الأربعاء وحافظ وشوقي وغيرهما لطف حسين
« ووحى الرسالة » للزيات و « فيض الخاطر » لأحمد أمين كل هذه الكتب
قائمة على المقالة فهي مقالات نشرت في الصحف والمجلات وتلقاها الناس
بشغف وهم يقتنونها معترزين بها حريصين عليها لأنها أدب نفيس فحين يأتي
الأستاذ أحمد رضا حوحو ويقول إن أدب المقالة دون أدب القصة فإننا
لا نقره على ذلك ونرى أن هذا لون أدبي له عشاقه ومريدوه وذلك لون
آخر له عشاقه ومريدوه وللناس فيما يعشقون مذاهب وحين نشأت الصحافة
نشأت معها المقالة ثم فسحت صدرها للقصة القصيرة والمسرحية ذات
الفصل الواحد وأينع أدب الأقصوصة كما أينع أدب المقالة في ظلال
الصحافات العربية كلها .

ثورة على أدب المقالة والقصيدة :

وعلى كل حال فينبغي أن ننصت للأستاذ أحمد رضا حوحو وهو
يقول :

المقالة تكتب لطيفة محدودة من القراء وتقتصر على النثر اليسير من
المثقفين يتبدى القارئ في قراءة القصة ويبقى أسيرها لا يستطيع التخلص
منها مالم يفرغ من قراءتها .. ويأخذ في قراءة المقالة مهما كانت سلسلة

(١) المنهل بعد ربيع الأول ١٣٦٠ هـ تحت عنوان (الأدب الجي بين أدب القصة وأدب

ممتعة وهو يحمل نفسه قهراً على إتمامها ، وقد يمر وقت على الإنسان خلع
الضرس أهون عنده من إتمام قراءة مقال .

ومهما يكن من أمر فإن أدب القصة أهم من أدب المقالة وأكثر قراءة
وأعظم نفعا وأشد تأثيراً وأصدق تصويراً منه .

وليس هذا خاصاً بالمقالة النثرية فحسب بل كذلك المسرحية المنظومة
بالنسبة للقصيدة أو المقطوعة الشعرية ويا حبذا لو يتقل شعراؤنا من القصيدة
والمقطوعة إلى الرواية الشعرية ويخرجون لنا مسرحيات رائعة تتناول شتى
الأغراض والمقاصد الجليلة .

إننا نستطيع أن نعالج أمراضنا الخلقية والاجتماعية بالقصة ، ونستطيع أن
نزيد عدداً وافرأ من القراء بالقصة التي من السهل أن تكون في متناول كل
الأيدي ويستفيد منها حتى البسطاء من القراء مع روعة فنها وحيويتها . ولكن
من الغلط أن نعتقد أن عامة القراء تستفيد من مقالاتنا وتهتم بقراءتها بل أراهن
أن خمسين في المائة من المثقفين لا يقرؤون من هذه المقالات والقصائد سوى
العنوان والأسطر الأولى والتوقيع فقط .

إن الأستاذ أحمد رضا حوحو يريد أن يكون الأدب كله قصة أو
مسرحية لعموم نفعهما وتقاسمهما في عالم الأدب بينما المقالة والقصيدة نفعهما
محدود وقراؤهما قليلون .

إن القصيدة فن راق فن الإيجاز والتركيز وتحتاج إلى قارئ خاص حقا
ولكنها كما قلنا تمثل قمة من قمم الأدب كما أن المقالة الميسرة المقالة الصحفية
قراؤها كثيرون ونفعها عظيم وخير لأدبنا وأدبائنا أن يعنوا بجميع الفنون
الأدبية لتزدهو شجرة الأدب كلها بدلا من أن تزهو بعض الأغصان ويذبل
البعض الآخر .

وقد يكون لثورة الأستاذ أحمد رضا حوحو ما يبررها فقد لاحظ على
بعض المجالات تقصيراً تجاه فن القصة فلم يرض عن هذا التقصير ونحن معه في

ضرورة العناية بالقصة والمسرحية وتشجيع كتابتهما ولكنه يريد أن يعالج الداء بداء مثله فيهاجم المقالة والقصيدة ويرى أن جلدواهما محدودة فيختل بذلك شأنهما أو يحرض على عدم الاهتمام بهما فيكون في ذلك إضعاف لفنّين أدبيين لهما وزنهما وقيمتها . إن التقصير في شأن القصة لا يدعو إلى التحريض على التقصير في شأن المقالة والقصيدة وإنما الأوفق أن ندعو إلى العناية بالقصة وتلافي الأخطاء التي تعرضت لها .

نحمد للأستاذ أحمد رضا حوحو غيرته الشديدة على فن القصة ولا نقره على مهاجمة الفنون الأخرى .

تاريخ القصة العربية في السعودية :

أدب القصة قديم قدم التاريخ والقرآن الكريم وهو دستور المسلمين مليء بأدب القصة يرويه لنا في عبرة وحكمة وموعظة ونأس . وقد عرفت القصة حتى عند الإنسان البدائي إذ كان أول أدب عرفه الإنسان حتى قبل أن يعرف القراءة وقد كانت القصة عند الإنسان البدائي وسيلة لتزجية الفراغ والتسلية وما أكثر فراغ الإنسان في أول عهده بالحياة . وتطور أدب القصة بتطور أذن وتقدم الإنسان في ميادين الحضارة والثقافة والعلم والأدب وبقيت محتفظة بطابعها كفن له قيمته ومكانته بين جميع الشعوب (١) .

وقد بدأ تطور القصة في الحجاز منذ العهد الجاهلي فقد أخذت شكلاً متحضراً حين كان يجتمع سمار العرب فيتندرون بالحكايات والشعر ثم ارتقت أكثر حين ظهر الإسلام وبدأ ينشر أنواره وبلغ أدب القصة أوج مجده في عصر الخلفاء والأمويين والعباسيين وإن كان أدباً قديماً إلا أنه يتفق وروح ذلك العصر وطابعه .

وأخذ أدب القصة بعد ذلك في السمو تارة والهبوط تارة حتى أتبع له

(١) المنهل عدد المحرم وصفر ١٣٧٥ هـ من مقال بهذا العنوان للأستاذ محمد أمين يحيى .

في القرن الثالث عشر الهجري أن يستعيد مكانته الكبرى في الغرب والشرق وإن كان في الغرب أقوى وأوسع وأضحى على أن الشرق لم يتخلف فنهض بأدب القصة نهضة تسالت إلى عقول الكتاب وبلغت هذه النهضة المملكة العربية السعودية فأخذت بنصيبها الوافر وإن كانت مصر قد أخذت مكان الصدارة .

ولقد مرَّ عهد على الحجاز جسد فيه فن القصة إلا من قصص تافهة وحكايات عادية وإلا ما كنت تسمعه من (العنترية) وحكايات أبو زيد والوزير تقرأ في المقاهي ويستمتع لها طبقة العامة ذلك العهد هو الذي سبق الحكم السعودي وقبض الله لهذه الباز أن تنهض نهضة شاملة بعد الحكم السعودي فنهض أدب القصة وعاد يأخذ مكانه المرموق .

يقول الأستاذ أحمد رضا حوحو^(١) : أخذت القصة عندنا منذ أربع سنوات تتقدم بخطوات محمودة وتطوّرت تطوراً ملموساً وكانت قبل ذلك بذرة مهجورة لا يلتفت إليها أحد اللهم إلا محاولات يسيرة لم يعيروها أدنى انتباه ثم صدرت مجلة (المنهل) وكان من حسناتها العديدة وخدماتها الجليلة التي أسديتها لأدبنا الفتي دعوتها إلى أدب القصة واعتناؤها بتقديمه ومعالجته بشتى الوسائل ، وفعلاً أحرزت مجلتنا في دعوتها بعض النجاح فسرعان ما ثبتت تلك البذرة المهجورة وأخذت تنمو نمواً محسوساً حيث أقبل عدد لا يستهان به من الأدباء على كتابة القصة واعتكفوا على ترقيتها وتغذيتها حتى صارت المنهل تنشر في كل عدد من أعدادها قصة أو قصتين في مختلف المبادئ ما بين مسرحيات وغيرها .

وتطوّرت القصة السعودية تطوراً جيداً وتقدمت تقدماً طيباً ويكفي أنها استطاعت في سنوات قليلة أن تلفت الأنظار إليها وأن تجعل نفسها محل المناقشة والحديث .

(١) المنهل عدد ربيع الأول ١٣٦٠ هـ تحت عنوان (الأدب الحى بين أدب القصة وأدب المقالة) .

وعلى كل حال فإن رواد الأدب من الناشئة والشباب قد حاولوا منذ نحو من ثلث قرن نسج نخيوط (ادب المقالة) و (القصيدة) قبل محاولتهم لرسم الخطوط الأولى (لأدب القصة) ولقد كان ذلك امرأً طبيعياً ومعقولاً بالنسبة لموقفهم وللأدب. نفسه فإن أدب المقالة أسلس قياداً وأقرب جانباً وأخف مؤونة من أدب القصة (١).

فأدب القصة ما يزال شيئاً جديداً لما ينضج ثمرة في العالم العربي كما ينضج في العالم الغربي ، وأدب القصة في حاجة إلى ثقافة عالية واتساع أفق وتغلغل في ألوان الحياة وممارسة لعقده وحلوله وتكوين أبطاله واستنطاقهم وحبك فكرة شاملة عن موضوع حتى وتقديمها في ثوب قشيب مقبول لا هو بالغامض ولا الركيك المبتذل .

وقد أسهم بعض الناشئين والشباب في نعاطي أدب القصة وكانت منهم محاولات في هذا الشأن استمرت في بعض وانقطعت في بعض وكان من أوائل من ساهموا في هذه المحاولات القصصية الأساتذة : محمد حسن فقي عبد القدوس الأنصاري - عبد العزيز ضياء الدين وغيرهم وقد تتابعت هذه المحاولات في عهد ما قبل الصحافة السعودية فأنشئت أقاصيص وروايات بعضها ظل طي الكتمان وبعضها طبع مستقلاً ومنه رواية (التوأمان) لعبد القدوس الأنصاري فلما أنشئت صحيفة صوت الحجاز وجد المحاولون فيها ميداناً واسعاً لأقلامهم .

ولما صدر (المنهل) بعدها رام النهوض بالقصة إلى أبعد مدى عما كان فظل يوالى نشر القصص في أعداده تباعاً وواظب على هذا الصنيع .

وحينما عادت صوت الحجاز للصدور بعد الحرب العالمية الثانية باسم (البلاد السعودية) عنت بالقصة عناية أكثر من ذي قبل .

(١) المنهل عدد رجب وشعبان ١٣٧٤ هـ مارس وإبريل ١٩٥٥ من مقال (قصة القصة عندنا) للأستاذ عبد القدوس الأنصاري .

ولما صدرت مجلة (الرياض) أخيراً ساهمت في هذا السبيل .

وبعض كتاب القصة السعودية اكتبوا بنشر قصصهم في الصحف مثل محمد سعيد العامودي - أحمد رضا حوحو - محمد عالم الأفغاني - أمين يحيى - حسين سرحان - عبد الله عريف - عبد السلام هاشم حافظ وغيرهم وثمة نفر آخرون لم يكتبوا بنشر اقصيصهم في الصحف بل تجاوزوا هذه المرحلة إلى نشر قصصهم مستقلة نذكر من هؤلاء الأساتذة : أحمد سباعي في قصص (فكرة) و (مطوفون وحجاج) و (أبو زامل) ومحمد علي مغربي في قصته (البعث) وحسين سرحان في قصته (غرام ولادة) وهي رواية مسرحية شعرية هي الأولى من نوعها كما يقول الأستاذ الأنصارى في الأدب السعودي وغيرهم وكل هذه المحاولات أدت بلا شك إلى تقدم فن القصة السعودية وإن كان تقدماً نسبياً .

والقصة اليوم هي الباب الواسع الذى يدخل منه هواة المطالعة من مختلف الطبقات بما يجلونه من قول مثير للذيد وموضوعات شيقة وعرض منسجم لا يضنى الدماغ ولا يرهق التفكير كما يقول الأنصارى .

في أصول القصة :

إن الرواية تصوير دقيق وافر لفترة من الحياة بكل ما فيها من آلام وأحلام ونخير وشر وحق وباطل وتعبير عن هذه الفترة تعبيراً صادقاً صحيحاً جميلاً ولا حدود لسعتها فقد تضم من الشخصيات سواء أكانت أصلية أو ثانوية عدداً كبيراً وتتناول الحوادث التى ألت بها بالتفصيل لا بالإجمال وتتناول الملابسات تناولاً واسعاً فيه شرح وإسهاب .

أما القصة فتقوم على شخصية واحدة أو عدد محدود من الشخصيات ولا تتسع لتفصيلات حياة هذه الشخصية ولا لكل الملابسات والحوادث الدقيقة الجزئية التى تتسع لها الرواية في ثنايا السياق ومن هذه القصة « فكرة » للأستاذ أحمد سباعي .

والأقصوصة تصوير لحالة نفسية مفردة أو رسم سريع لشخصية أو فترة من الزمن من خلال حادثة كبيرة أو عديد من الحوادث الصغيرة تلتقى في الشخصية أو في الزمن والأقصوصة غير قابلة كالقصة لتعدد الشخصيات ولا تتسع كالرواية لخطوط سير الحوادث ولا تشرط في الأقصوصة الحادثة ولا أن يكون لها بدء ونهاية في حدود الزمان لأنها قد تكون مجرد تصوير لحالة نفسية مفردة (١) .

الزمان والمكان :

كل حادثة تقع لابد أن تقع في مكان معين وزمان بذاته وهي لذلك ترتبط بظروف وعادات ومبادئ خاصة بالزمان والمكان اللذين وقعت فيهما والارتباط بكل ذلك ضروري لحيوية القصة ينبغي أن نذكر هذا ونحن نتحدث عن القصة السعودية حتى نهاية ١٣٨٣ هـ .

وإذا كان للسعودية منزلتها الخاصة لمكان الحرمين الشريفين منها ولأن فجر الإسلام شع منها وهي تقيس أمور دنيها وأخرها بمقياس الإسلام كما أن الفترة الزمنية التي نتحدث عنها شهدت ميلاد الأقصوصة من مرحلة النشأة والتكوين إلى مرحلة الازدهار . والأقصوصة السعودية من خلال الصحافة مرآة للمجتمع السعودي في تلك المرحلة وما فيها من شخصيات يمثل ذلك المجتمع على ما سيجيء أثناء عرض النماذج الفنية .

على أننا حين نبحث عن مصدر إعجابنا بقصة قرأناها سنجد أن فكرتها كان لها أثر في هذا الإعجاب ولكن هل نحن نقرأ العمل الفني لفكرة فحسب ؟ إن القصة صورة للحياة ونحن نعرف الحياة معرفة جيدة وننتظر من القصة دائماً أن تكون صادقة حية مقنعة كالحياة الواقعة ولكن القصة تمتاز عن الحياة بأن لها صورة فنية خاصة فالكاتب يقدم إلينا قصة معينة ذات فكرة ، وهنا تحدث مفارقات غريبة فقد تكون القصة ناجحة من حيث

(١) المنهل عدد ذو القعدة وذو الحجة ١٣٦٧ هـ من مقال للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار

بعنوان (من أدبنا المعاصر) .

الإطار الفني ولكنها تنطوي على فكرة لا تروقنا وهناك أيضا قصص ممثلة بالحياة ومع ذلك تفقد الشكل الفني .

فلتكن فكرة الكاتب في موضوع كموضوع الطمع في مال الزوجة وجحود الزوج ومكره فإن الزوج هو المسئول عن تدمير زوجته على نحو ما نشاهد ذلك في « قصة في قصة » للأستاذ السيد إبراهيم هاشم فلاي (١) وسنحللها فيما بعد فإن الكاتب لكي يحقق هذه الفكرة يبني قصته على النحو الذي يحققها فإذا نحن أعجبنا بفكرة القصة فإننا نكون في الوقت ذاته قد أعجبنا بالصورة التي أدبت فيها هذه الفكرة وأي خلل في هذه الصورة سيكون له أثره في الفكرة .

وقد كان ظهور القصة القصيرة في الأدب السعودي نتيجة لظهور شعب قارئ وحاجته إلى ما يقرأ من مادة أدبية . كما كان للصحافة دور بارز مهم في ازدهار القصة القصيرة فهي تحتاج كل يوم وكل أسبوع وكل شهر لمئات القصص والصحافة بحكم الحيز والناحية الاقتصادية تفضل القصة القصيرة .

ومن الصعب ان نجد تحديداً نهائياً لمنهج القصة القصيرة فلكل كاتب منهجه الخاص فمنهم من يعنى بعنصر الحادثة ، ومنهم من يعنى بالمواقف ، ومنهم من يركز على الشخصية ومنهم من يركز على عواطف الشخصية وهكذا .

والدراسة التحليلية للقصة القصيرة من خلال الصحافة في السعودية وفي ضوء الأصول الفنية التي عرضنا لها من قبل كفيلة بأن تعطينا صورة واضحة عن حقيقة هذا الفن .

استخدام العامية في حوار ^(١) القصة :

استعمال العامية في القصة العربية ضرب من الرجعية والتقهقر والنكسة إن العالم كله يسير اليوم على روح من التوحد واللغة العربية الفصحى هي القاسم الأعظم المشترك بين الشعوب العربية فالزامها إنما معناه للتحرر من الجمود والقيود والانطلاق نحو التقدم العربي العام والتوحد العربي العام . على أن اللغة العامية عاجزة عجزاً ملحوظاً عن الإيضاح بكل المرام ولهجة قوم العامية لا يفهمها قوم آخرون من العرب ، ولذلك لا يكون لنشر القصص فيها الفائدة المزدوجة المرجاة هذا بالإضافة إلى أن استعمالها في هذا اللون معناه محاولة إيجابية لإنجاح الدور الرهيب الذي طالما دعا إليه الغرب الماكر محاولة منه لو أد هذا اللسان المبين الذي كان أول جامعة عربية طبيعية للعرب قبل جامعتهم السياسية وقد كان ولا يزال أنفذ مفعولا وأقوى سريانا وأفيع جريانا وأشرق لمعانا في نفوس جميع العرب في جميع أقطارهم .

الأفغانى في عالم القصة :

(١) مذهبه الفنى واتجاهات القصة القصيرة عنده :

- ١ - حصاد الشهوة في (الثأر) .
- ٢ - سباحات في عالم الفكر والروح والضمير من خلال (عودة سعيد) .
- ٣ - الرمزية والتحقيق الوهمى للرغبات في (أحلام) .
- ٤ - الرمز إلى المعرفة في (شهر زاد) .
- ٥ - ما يعجز العقل عن فهمه في (المصباح السجى) .
- العقل الباطن وأحلام اليقظة في (الرأس المقطوع) .
- ما يعجز الشيطان عن منحه في (المجنون) .

(١) المنهل عند جمادى الأولى ١٣٧٧ هـ من حديث للأستاذ عبد القدوس الأنصارى بعنوان (أدبنا في معترك الآراء) .

يذكر الأستاذ محمد عالم الأفغانى أن صديقاً قال له مرة وهو يحاوره (١) :-
إن ما تكتبه ليس قصصاً لأن الجيد منه نكاد نشم من بين سطورها رائحة
الأرض التى تجرى حوادثها عليها ، ولا ينكر الأستاذ الأفغانى على هذا
الصديق قوله بل يوافقه على أن كثيراً من القصص الجيدة تنمى أن نعيش
فيها طويلاً وأن نقرب من أرضها كثيراً وأن نشاركها وجدانياً حيناً .

ثم يذكر الأستاذ الأفغانى مصادر مذهبه الفنى فى القصة واتجاهاته فيها
ورأيه فى النفس البشرية فيقول :

المذهب الطبيعى فى الفن يقرر :

أنه ليس من سبيل إلى فهم الشخصيات والحوادث فهما منطقياً ما لم
نتبصر فيها أثر الوراثة والبيئة سواء أكان الغرض من ذلك درسها أو إبداعها
ويقول فيلسوف الفن والجمال « تين » إنه ينبغى أن ندرس الجنس والبيئة
والزمن لشخص ما قبل أن نشرع فى درسه .

ولكن ما كل الكتاب يرتضون هذا المذهب دون غيره فإميل زولا فى
« أسرار مرسيليا » عنده نفحات من تلك الرومانتيكية الحاملة الهائمة ولديه
صور تنبع من الذات وليست من الموضوعية فى شىء .

أما القصص التى تكتب على صورة اعترافات فهى تخضع للرومانتيكية .
كلما كان الاهتمام منصرفاً إلى بطل واحد وكان المقصود أن تترك فى نفس
القارئ حزناً مترقراً حائراً وتقرب من الواقعية كلما اتجهت النية إلى
توزيع الحياة فى أشخاص القصة على حد سواء .

ومن ثم فنحن نجد عند الأستاذ الأفغانى أنماطاً من القصة منها الواقعية كما
فى قصة (الثأر) والقصة بين الواقعية والرومانسية كما نجد فى قصة (عودة
سعيد) والقصة الرومانسية الرمزية كما فى (أحلام) وكما فى (شهر زاد) .

(١) المنهل : عدد جمادى الثانية ١٣٦٦ هـ من مقال : « فى القصة » .

التي نظن أنه تأثر فيها بطله حسين وتوفيق الحكيم . وعلى كل فهو من أمهر كتاب القصة القصيرة في السعودية وإليك نماذج من أقاصيصه :

١ — حصاد الشهوة في (الثار) (١) :

قبل أن يأخذ الأديب في سرد قصته استطرد إلى عدة قضايا فتساءل عن الانتقام والمتقمين . لماذا ينتقمون ؟ الفائدة ترجى من ورائه ؟ كلا . لا أدري ورائه إلا إشباع شهوة لا أكثر ولا أقل آه لو كنا نؤمن النظر فيما نحن مقدمون عليه من دمار وخراب إذن لأقلعنا عنه ولكن أين إيمان النظر في العواقب ؟ .

ثم يتحدث الأديب عن القصاص سائلاً : أليس هو أنجح دواء للقلوب المظلمة المفجوعة في فقيدها أو ليس هو أحسن بلسم للعواطف المحروجة .

ويقدم الأديب لمحة خاطفة عن بطلة القصة يحكيها على لسان العنيدة فيتحدث عن هذه المرأة التي يشبه وجهها وجه الأموات وأنها كانت مالكة قصر فخم وسهول منبسطة خصبة صارت الآن مجذبة قاحلة .

مامضى من حديث كان بمثابة التهيئة والإعداد الذي يضع القارئ في موقف المشتاق إلى أن يعرف مجريات الأحداث بعد أن سيع الانتقام والقصاص والتحول من عز إلى ذل ومن سعادة إلى شقاء .

ولقد عرفت الآن من شخصيات القصة العبد راوى القصة ، وهذه المرأة الحزينة تطيل النظر إلى قصرها الخرب البائد .

قال الراوى : ذهبت يوماً إلى القصر فخلت أن خطاباً وصل من أحمد — زوج هذه المرأة — ولما كنت أنا الوحيد الذي يعرف القراءة والكتابة في القرية فمن المحتم أن أطلب ولكنى ما كدت أفتح باب السور حتى رأيت أحمد يهرع إلى فيستقبلني ويعانقني معانقة الأخ للأخ برغم ما كنت أعهد منه من الخطرسة والكبرياء فعجبت لأمره وكيف تحول في مدى ستة

أشهر فقط هذا التحول وقلت لعل في الأمر سرّاً ، وكانت ظلمة الليل قد أخذت تبسط أجنحتها على الآفاق وهنا كوى في الفضاء صدى طلقتين ناريتين وعقبتهما صرخة مكبوتة فصحت مدعوراً وأنا أهول نحو القصر وكان الإلغاز قد تكشف .

وقفت بالقرب من سرير أحمد وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة لأن الطلقتين قد أصابتا قلبه وكتفه فتزف الدم غريزاً ولم يصل الطبيب إلّا بعد أن أصبح العلاج بدون جدوى .

وإلى هنا أمسك الراوى عن الحديث لحظة ليفلسف الأحداث ويتحدث عن علاقته بالقتيل وأنها لم تكن على ما يرام .

أما امرأة القتل فقد فطرت على مكارم الأخلاق وأما ابنهما فقد كان كقطعة من قلبى لما كنت أشاهده لى من الاحترام منذ نعومة أظفاره حتى بلوغه شرح الشباب وعنفوانه .

فويل لى إذا لم أفد هذه الأسرة بدى ومهجنى ، ولكن يكذب الإنسان حين يقول : أفدى بنفسى فلانا فأين هو الفداء ألا إنها لكلمات لا يقوها إلا كل جبان كاذباً أو لا ترانى حيا أعيش وهم تحت أكداس التراب ؟ .

ثم عاد الراوى يذكر حلقة أخرى من حلقات هذه الأقصاصة ويقول كنت أرى الأوفق استبقاء جميل فى القرية لكنها أصرت لإصراراً عجيباً على إرساله ليتقلد منصب أبيه فى الجيش ، لا أكتمك إنها كانت حقوداً فكانت ترمى إلى الانتقام من وراء تقلده المنصب فيكون قاتل أبيه بالقرب منه . ليستطيع أن يثار منه .

ثم قطع الراوى حديثه مرة أخرى ليحدثنا عن شخصية حواء ممثلة فى المرأة . فيقول : كنت أعجب لقلب هذه المرأة الذى يلين تارة فيدر الشفقة والحنان ثم يقسو أخرى فيقتبس غرائز الوحوش فى حب الافتراس ... إن هذا الجنس اللطيف الناعم الملمس الدقيق البدن الذى لا تعرف التحشونة.

سبيلا إلى جسمه البض يحمل قلبا كقلب الوحش إذا ثار إذن فلا ينبغي أن
تخدعنا ظواهر الأشياء فلا تحكم على شيء حتى نعرف كنهه .

ثم عاد الراوى إلى إتمام الحلقة السابقة فقال : رحل جميل برغم
معارضتي الشديدة في سفره ، وكنا نتلقى منه كل أسبوع خطاباً أو خطابين .
ووقفت خطاباتاه بعد ثلاثة أشهر فجأة فساورنا قلق شديد ثم عرفنا الحقيقة .
المرّة ووصلت إلينا في القرية ولما أبرحها فقد لى حتفه مثل أبيه . أى قلب
امرأة يتحمل منية الزوج والابن في أيام معدودة .

ثم انتقل الراوى إلى حلقة أخرى من حلقات هذه الأقصوصة فقال :
جاء إلى قريتنا أربعة شبان وسيو الوجوه حسنو الهذام تبدد عليهم مظاهر
الآبهة والغنى فأردت أن أنزلهم في منزل يليق بهم فلم أر سوى قصر هذه
الأسرة البائسة تخدمهم فيه هذه المرأة الشاحبة عساها تجد قوتها من قيامها
بلوازمهم فقد هاجمها الفقر من كل صوب ونضبت موازدها جمعاء ، وفي
مساء اليوم التالى بينما كنت جالسا أمام بيتى إذ رأيتها مهرولة إلى بيتى فقامت
واستقبلتها فأمسكت يدي وقالت لى اتبعنى فتبعتها ولم أنبس بينت شفة
فأجلستنى على حصير وقالت : بعد أن آوى الشبان إلى فراشهم الوثير
استدعانى كبيرهم وقال لى : هل تعرفين عجوزاً شمطاء في هذه القرية قد
مات عنها بعلمها وابنها مقتولين منذ أمد بعيد . إننا نروم مساعدتها فقلت له :
ولماذا تخلصون هذه العجوز بالإحسان دون غيرها ؟ فقال : كان جدى
وزوج هذه المرأة ضابطين زميلين في جيش الملك وقد توثقت بينهما عرى
الصداقة ولكن القدر أراد قصر صداقتهما ولا مرد لما أراد القدر فاختصما
مدة لشيء تافه وأغوى الشيطان زوج هذه العجوز فأغمد حسامه في صدر
جدى فقضى لحينه ولم تستطع السلطات أن تثبت عليه التهمة فأطلقت سراحه .
وكأنه قد فطن إلى أن أبى لا بد أن يثار منه فلاذ بالفرار ولم يمهل والدى بل
تبعه إلى قريته هذه وترصد له خارج سور داره عند مجرى الماء فلما جاء
الرجل يغترف الماء ليتوضأ أطلق عليه أبى رصاصتين اخترقتا قلبه فارتدى
جثة هامدة أما أبى فقد أطلق ساقيه للريح ولحسن الحظ نجى .

وكان لهذا الرجل ابن وحيد جميل الطلعة صغير السن تقلد منصب أبيه بعد موته فأوجس أبي منه خيفة فأراد أن يلحقه بأبيه ، وكان فتي طيب القلب سهل القياد تخدعه المظاهر ففاز أبي بصداقته في مدة وجيزة فدعاه إلى داره فلم يتردد الفتي ولم يخامره أى شك فقبل الدعوة ، ولكنه لم يخط خطوتين داخل الدار حتى قابله أبي بسيف مسلول ففهم ما يعنيه فقابله بالمثل وهنا حمى وطيس المبارزة بينهما فصرع أبي وارتقى هو أيضا بجانبه يخوض في دماء جراحه . فأسلما الروح ولم يشعر بهما أحد لأننا دفنهما في حديقة دارنا ، ولهذا نريد أن نمد يد المعونة لهذه المرأة التعسة التي لم يبق من أسرتها أحد . وهنا انحدرت من عينيها على وجهها دموعتان لاحظتهما قبل أن تبادر إلى مدحهما فقلت لها :

أعلمهم بنفسك وأخرجي من جميع مامرّ عليك فأجفلت راجعة ولم تجبني بأية كلمة فظننت أنها وافقت على ما قلت .

انحدرت الشمس نحو الغروب وسرعان ما دامم الظلام بجيوشه الجرارة الأرض فارتيمت على سريري وأسأمت نفسي للكرى لكنه أبى وكأما أردت أن ألقى بنفسى فى أحضان النوم طرحنى الأرق وأبعدنى عما أريد ، فلما يئست قمت إلى النافذة استنشقت نسيم الليل النقي وإذا بى أسمع صراخاً وعويلاً وأرى لميب النار يعلو من القصر فيناطح السحاب فأسرعت بالخروج من كوخى وتوجهت نحو القصر وأنا استنجد بالناس ووصلنا إليه بعد أن أكلته النيران بمن فيه وهنا لاحظنا هذه المرأة تلور حول أكوام الرماد وهى تصفق بيديها وترفع عقيرتها فتقول لقد بادوا كما بدتا .

ثم خاطبت الناس بصوت جهورى وقالت : أنا التى أشعلت النار بيدي هاتين فى القصر ، أنا التى أغلقت الباب على الفتيان ، ولما سمعت صرخاتهم خفق قلبى بالفرح ، فؤادى يغمره المرح . الآن انتقميت فاعملوا ما شئتم فلانى . رويت شهوقى وأرضيت ضميرى إن هذه ثمرة الانتقام بعد أن تنهار أسرتان عظيمة .

التحليل والدراسة :

تعالج هذه الأقصوصة مرضاً اجتماعياً كان متأصلاً في المجتمع العربي قبل مجيء الإسلام وجاء الإسلام بالعلاج الذي تحدث عنه الأديب في مقدمة الأقصوصة أما المرض فهو الثأر والانتقام وأما العلاج فهو القصصا ص وصدق.. الله العظيم حيث يقول : « ولكم في القصصا ص حياة » وسلك الأديب طريق عرض الأحداث مع التعليق عليها أثناء العرض الأمر الذي لا يترك للقارئ فرصة تلي الأحداث واتخاذ موقف منها ثم إن التعليق يقطع سلسلة الأحداث ، وكان بالإمكان ترك الأحداث تنطلق في مسارها متشابكة متفاعلة مع بعضها وإعطاء القارئ فرصة المتابعة والحكم .

وقد وفق الأديب في جعل الأحداث المؤلمة تتم تحت أستار الليل مثل حادث إحراق القصر أو في مكان غير مطروق مثل محاولة اغتيال « جميل » داخل دار دعى إليها لوليمة .

وقد زكّر الأديب على شخصية المنتقمة باعتبارها بطلة الأقصوصة وصورة من خلالها طبيعة المرأة التي تنتقل من الضد إلى الضد وتركها في النهاية ثملة بنشوة النصر تعلن في شجاعة أنها تأرب وانتقمت ففرحت .

وقد تدخل القدر في تحريك مجريات الأحداث ولا مرد لما أراد القدر وهذه سمة غالبة على القصة العربية .

ومن يقرأ الأقصوصة منذ هبوط الشبان الأربعة إلى القرية يأخذ فكرة مجملة عما حدث فكان هذا المقطع تلخيص للأقصوصة وعلى كل حال فإن التركيز كان موجهاً إلى عنصر الفكرة وعرضها في صورة بشعة منفرة ذهب ضحيتها أسرتان من الأسر المزموقة المتعلمة في وقت كانت الأمية فيه منتشرة بدرجة كبيرة فشمة قرية بأكملها لم يكن فيها من غير أصحاب القصر إلا العمدة الشخص الذي يعرف القراءة والكتابة :

وعلى كل حال فإن هذه الأقصوصة يمكن أن تمثل من الوجهة الفنية مرحلة التكوين الأدبي .

ومن المؤسف أن الأديب جعل الشبان الأربعة أصحاب النوايا الطيبة الذين جاءوا لإصلاح ما أفسده الدهر جعلهم ضحية الثأر وكان من الممكن أن تكون الضحية من جيل الجلد والأب ليقف النزيف فإن الشباب أمل الأمة ومعقد رجائها وأحسوا ببشاعة الموقف وجاءوا لمساعدة العجوز ومعنى جعلهم ضحية أن لا يتقدم أحد لإصلاح الخطأ فيستمر الخطأ ويجرف في تياره من يجرف .

٢ - سبحات في عالم الفكر والروح والضمير من خلال (عودة سعيد)^(١) :

إن الإنسان ليس مجرد جسم يتحرك في محيط البيئة المادية من ريف أو حضر أو منزل أو ناد أو مكان عمل مما درج بعض القصاص على تسميته الحياة الواقعية ولكن الإنسان أيضا فوق ذلك وأكثر من ذلك عقل يتحرك في عوالم فكرية وهو روح يسبح في معان شعرية وهو مبادئ . فلسفية ودينية واجتماعية تصطرع وتتطور فالبنية بحياة هذا الجزء الأعلى من الإنسان هي التي تجعل من القصة أدباً رفيعاً .

والأقصوصة التي يقدمها إلينا الأستاذ محمد عالم الأفغانى في (منهل القصص) بعنوان : « عودة سعيد » من هذا الطراز فقد جعل بطل أقصوصته (سعيد) يسبح في عوالم فكرية وروحية سامية وجعله يعاني من صراع المبادئ الدينية والاجتماعية الشيء الكثير الذي جعله يضحى بالحياة من أجل الضمير والشرف إن هذه الأقصوصة مجموعة من المواقف المتناسكة كل موقف منها يصور لنا نفسية البطل « سعيد » من الداخل ومن الخارج في علاقته بالمجتمع وبأسرته وبربه وبنفسه فهو يعمل في متجر كبير عند رجل ثرى وبين يديه أموال طائلة وهو يتقاضى أجراً بسيطاً وقد نما بين يديه هذا المال ثم كرت به الذاكرة القهقري إلى حوادث أمس فتذكر كيف أحاط به الدائنون أولاً لما رأوا أنه لا طائل وراء إلحاقهم عليه تركوه

ساخطين وبلغ بهم السخط إلى حد أنهم رفعوا شكواهم إلى مدير الشرطة يطلبون استيفاء ديونهم من سعيد فكان ما كان في دار الشرطة من مماطلته إياهم إلى الغد فإذا لم يف بوعده صباح الغد فسيكون مصيره حتماً إلى السجن طافت هذه الخواطر المفزعة بمخيلة سعيد فلرقت عيناه الدموع وتنهت تنهات حرى وفاض قلبه من خوف الفضيحة لأنه لا يستطيع أن يبوح بسرّه هذا لمخلومه لأنه لا يستطيع أن يبرر له أخذه للدين فهو بين نارين .

تم طرقت بآله فكرة طارئة سريعة لكنه سرعان ما نبذها ظهرياً رأى أن يحون لمخلومه المحسن إليه كلا . كلا إن هذا مستحيل أجل أنا أعلم أن مخلومى لا يكاد يتفقد صندوقه إلا غراراً اعتماداً على أمانتى واستقامتى . فكيف لى أن أنحون هذا الرجل الكريم ؟ ثم رجعت به ذاكرته إلى ما يهيبه له الغد من الفضيائع والإهانات والسجن وسوء السمعة . وهو إذا فقد مركزه هذا فسيصبح مقترأ يعانى الفاقة وراء الفاقة ثم هو فوق هذا مشغول عن أمه الضريرة إنه مختار لا يعى ما يقول وما يفعل مختار بين الحياة والضمير .

هكذا حدثته نفسه فأخذته غيبوبة محمومة وامتدت يده إلى الصندوق الحديدى بالخيانة لأول مرة فى عمره .

ثم يعرض الأستاذ الأفغانى الظروف الصعبة التى مر بها سعيد وأسرته وكيف أن مخلومه قد انتشله من وهدة الفقر . فقد كان سعيد فقد أباه ولم يتعد الحادية عشرة وكانت أمه قد تجاوزت الخامسة والثلاثين من عمرها حينما توفى أبواها قبل ولادة سعيد بأشهر معدودات ولم يبق لها من الأقرباء أحد سوى خال لها يعانى الفقر والضعف ، ولم يكن اتصالها به وثيقاً بعد أن بارحت وطنه فى صحبة زوجها فلما قضى زوجها ألفت نفسها فى غربة فأسقط فى يدها واحتارت من أمرها ولم تدر ما تفعل وما تترك ولكن كان بجانبها ابنها الوحيد الذى اضطر أخيراً أن يهجر المدرسة هجراً غير جميل ليساعد أمه فى معيشتها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

نظرت هذه الأم البائسة المنكودة حولها ورأت من الأثاث الرث فى الدار

ما لا يقوم بنفقة البيت أسابيع إن هي أرادت بيعه وكان بجانب بيتها دار العم عبد الغنى البراز الشهير صاحب محلات تجارية عدة في بيع الأقمشة وكان مشهوراً بإغاثة البائسين التعسفين فرأت هذه البائسة أن تلجأ للعم عبد الغنى وترجوه أن يجد عملاً لابنها اليتيم في أحد متاجره .

ثم ينتقل بنا الأستاذ الأفغانى إلى موقف آخر يمثل ذروة المعاناة التى عاشها سعيد بعد أن فعل فعلته وخان الأمانة لقد قضى ليلة ليلاء تنبيه الوسوس والشكوك فيشل العم عبد الغنى هائجا يريد أن يسحقه بعصاه الغليظة ثم يرى العم عبد الغنى وقد أخذ بخنقه يريد أن يسحبه إلى دار الشرطة وهو يبكى وينشج نشيجا يفتت الأكباد ثم يتلاشى المنظر السابق فيخيل إليه أنه واقف فوق جبل شاهق فى سفحه هاوية فيفاجئه العم عبد الغنى يريد القاءه من ذلك الشاهق فكان فى تلك الحالة من الآلام النفسانية لا يطرق النوم جفنه مهما حاول ذلك وقد أخذته حمى حامية من جرّاء الخوف والفرع فلم يستطع الذهاب فى الصباح الباكر إلى المتجر وهو يهذى هذيانا مستمرا غير مفهوم وكان المطر يتهاطل بغزارة .

وبغته طرق باب بيته طرقا شديدا متواصلا فصحا سعيد من نعمة حماه فرعاً مذعوراً وطرق سمعه صوت الطارق فإذا هو صوت العم عبد الغنى « افتحوا الباب » .

فغاص قلبه من الخوف وانعقد لسانه فسكت عن الهذيان وأراد القيام فترنح وسقط على سريريه مرة أخرى . لا بد وأن العم عبد الغنى قد اطلع على كل شيء وجاء يعاقبه لكن مهلا لا يمكن أن يكون العم عبد الغنى علم بفعلته ولم يمر عليها سوى عشرين ساعة فتماسك قليلا وقام إلى الباب يعالج فتحه لكنه ما كاد يفتح الباب على مصراعه حتى شاهد رجلين : أحدهما كان العم عبد الغنى والآخر كان شرطيا .

إن مجيء العم عبد الغنى فى هذه الظروف ومعه الشرطى قد عمق الصراع فى نفس سعيد بل زاده اشتغالا سارق يعانى من ونز الضمير وثقل الحياة

ويتأخر عن الذهاب إلى عمله كعادته ويأتيه صاحب المال المسروق ومعه شرطى فى الصباح الباكر لقد انهار سعيد وصاح صيحة مفزعة وولى أدباره يجرى إلى داخل البيت فدخل فى إثره العم عبد الغنى بصحبة الشرطى ثم اهتدى الاثنان إلى سريره فألقياه غارقة فى الحمى يتقلب على السرير مضطرباً كالسمكة على اليابسة ويثن أنينا خافتاً فصاح العم عبد الغنى قائلاً أجل ستلقى جزاءك حتماً أيها الغر الأبله .

إن كل كلمة وكل حركة فى هذا المنظر توحى إلى سعيد أن أمره قد انكشف صاحب المال . الشرطى ستلقى جزاءك ومن قبل اندفعا وراه إلى غرفة نومه لقد بين الصبح لدى عيني وكاد المرئى يقول نخلونى ومن ثم تماسك سعيد بنفسه واستوى على سريره مقاطعاً العم عبد الغنى باكياً : عمى أتوب كنت مضطرباً فتابع العم عبد الغنى كلامه غير ملتفت إلى بكائه وهنا تأت المفاجأة التى لم تكن فى حسابان سعيد لتغير مجرى حياته بل لتعود به سيرته الأولى .

إن الكاتب لم يشأ أن يدع هذا المسكين يتشزق أكثر من هذا ففتح أمامه طريق الخلاص والعودة إلى الصراط المستقيم بعد أن ضاقت عليه الحياة وبلغ قلبه حنجرته .

إن الكاتب فيما يبدو أراد كل هذا فجعل العم عبد الغنى يقول لسعيد فى هذا الموقف : أجل أنت تستحق هذا . ألم أقل لك أكثر من مرة أن لا ترهق نفسك بالعسل حتى تمرض . والآن أرجو لك الصحة والشفاء ، وهذا جازك الشيخ عبد المعين جاء يعودك أيضاً وما إن أتم العم عبد الغنى هذا الكلام حتى تولى هو ورفيقه راجعين .

فماذا فعل سعيد ؟ لقد بهت ووقف عقله عن التفكير بغتة وشل كل عضو فى جسمه لكن لم تطل غيبته هذه إلا لحظات قلائل صاح فى إثرها صيحة الفخر : رباه لازلت أحتفظ بشرفى فالعم عبد الغنى لم يطلع على خطيئتي إذن فى يدي أن أعود إلى حياة الشرف والضمير .

وكما وصل الكاتب بالصراع النفسى إلى مداه حيث جمع حول سعيد.. بل وفوق رأسه عوازل عدة أشعلته : المال الكثير بين يديه الأجر اليسير الذى يتقاضاه — الدائنون أمه المريضة وماضى الأسرة التعس نسيانة من أتمننه . كما فعل الكاتب هذا أو كما فتح أمام سعيد طريق العودة فإنه جعل ثورته النفسية كفاء هذا الوضع المتأزم الذى أصاب سعيداً بالحسنى وشل تفكيره فإذا به يقول : سأعود ونعم أنفى وأنف الدائنين فليفعلوا بى ما يشاؤون ولأكن ضحية ضميرى الحر . ثم تماسك فقام متمثراً كمن فقد وعيه يريد المتجر إلى حيث يسترد شرفه فيرضى ربه ثم ضميره إلى حيث تنتثره الطمأنينة والرضا عن الحياة . وها هو ذا يعيد المبلغ إلى الصندوق الحديدى بيد مرتعشة كما فتحه من قبل بيد مرتعشة وكان ينفخ كريشة فى مهب الريح من جراء الحمى الشديدة الوطأة وقال : رباه أحملك لقد عاد سعيد إلى السعادة إلى الشرف » هكذا تكلم سعيد ثم ترنح وكانت هذه آخر كلمة فاه بها .

لا شك أن هذه الأقصوصة من أنجح الأقاصيص فى الأدب السعودى وهى نموذج للقصة النفسية المعنية بالتحليل هى تمثل الصراع بين الضمير ومطالب الحياة وانتصار الضمير أخيراً . وكان بوسع الكاتب أن يزيد الصراع عمقا وعنفا ولكن الشخصية السعودية العامة معتدلة فلا تفريط ولا إفراط إنها شخصية تعيش على الأرض المقدسة وتحكمها مثل وقيم وعادات طيبة ومن ثم جاء العم عبد الغنى مستفسراً عن خادمه ومعه جار آخر فعيادة المريض . والسؤال عن الجار من آداب الإسلام وبهذا الأسلوب الرقيق تحول الصراع وإن شئت فقل هدأ وأعطى البطل فرصة العودة والتوبة وهذا من ثمار الإسلام الذى لا يطحن المخطئ وإنما يعطيه فرصة التوبة ويجعله يضحى بدينه من أجل دينه لأن ما عند الله خير وأبقى .

٣ - الرمزية والتحقيق الوهمي للرجبات في (أحلام) (١) :

هذه الأقصوصة لون من الأدب الرمزي ذلك أن الكاتب جعلها رؤى وخیالات فيما يراه النائم ومن ثم فهي أحلام وإن شئت فقل هي طيف خیال . إلا أن لها أبعادها النفسية والاجتماعية ويجدر بنا قبل التعرض لهذه الأبعاد وقبل الحكم على الأقصوصة من الوجهة الفنية أن تعرض موجزاً لها فبعد الرحيم واحد من أولئك الجاويين اکثر الذين يؤمنون هذه البلاد المقدسة للتفقه في الديانة الإسلامية وهو شاب قمحي يعم بشال مطرز أبيض يؤثر العزلة ويهب حياته للكتاب والمحفلة وكان أهله يحرون عليه مرتباً سنوياً يكفل له شيئاً من بلهنية العيش وفي الحرب العالمية الثانية أمسى في معزل عنهم .

وأحس عبد الرحيم لأول مرة في حياته بالعزلة والانفراد ، ورأى أشباح الفقر والعوز ترقص حوالبه مهولة مروعة .. فاضطر للحصول على مال أن يبيع بعض أمتعته التي كان يعزها .

وفي يوم من الأيام عاد عبد الرحيم إلى منزله مهيبض الجناح فقد نهره ذلك « الفوال » السمين نهرأً أنمأً لأن آنهر ميعاد ضربه لإيفاء ما عليه له من دين قد مر عليه يومان ولكنه كظم غيظه وقال وهو يغصم : « إن الله مع الصابرين » .

وفجأة نهض من مكانه وضرب يده إلى سجادة بالية أهدته إياها أمه قبل سنوات سبع وبید مرتعشة افترشها على أخلاق الحصر واستوى فوقها . واستقبل القبلة وقلبه ملء بالهموم والأشجان القاتلة وعلى غير شعور منه مضى في سنة نوم عميقة .

إن ما مضى من حديث الكاتب يعد بمثابة مقدمة للأقصوصة هيأت جو الأحداث ورسمت صورة لذلك الجاوى القسى يعم بشال مطرز أبيض يؤثر العزلة وقد جاء إلى البلاد المقدسة يطلب العلم على نفقة أهله ولكنه انقطع

عنهم بسبب الحرب فانقطعت النفقة وكثر دينه ولحقه الهوان وحار في أمره .
ماذا يفعل وبلا شعور منه تأخذه سنة من النوم يرى فيها الحل لعقدته التي
عجز عن حلها وهو يقظان فماذا رأى في منامه ؟ سميع صوتا رقيقا هادئا
يقول له : دونك يا عبد الرحيم هذه جنيات ذهبية خذها ولكن بشرط .

أعطينها وهات شرطك .

ستمثلي لك هذه الصفيحة بالجنيات الذهبية يوماً بعد يوم ولكن بشرط
أن تنفق كل ما فيها قبل أن تغرب الشمس .

هاتها فقد قبلت الشرط .

وفي قفزة واحدة كان عبد الرحيم عند الصفيحة المهجورة بصدقها
النحاسي مطالا بنظراته الحيرة ممسكا برأسه صائحا :

حقا هذه جنيات صفر لامة فهل أنا واهم أم أنا في حلم من الأحلام ؟
واغترف بيده مقداراً منها يتبينها ويستوثق من أمرها وقد نغمته موجة قوية
من الفرح وإن كان يشوبها شيء من القلق وتحدث قائلا :

لا يصح أن تبقى هذه الجنيات في هذا المنزل فالقفل ليس جيداً والباب
مهافت واهن لا يصمد لمن تحدته نفسه بالعدوان .

وبدأ يفكر في حلول كثيرة فأضناه التفكير وأعياه :

هل أحملها إلى شيخنا ولكن من يقنعه بصحة ما أقول ؟ هل أودعها عند
ذلك البقال الرقيق الحاشية الذي حال بيني وبين الفؤال وكيف أوصلها إليه
والفؤال رابض كالنمر المتوثب في سبيلي ؟ هل أنتظر حتى يخبث الليل ؟ ولكن
آه . فقد آليت على نفسي ألا استبقيا إلى الليل وأخيراً اعتزم أن يبتاع قبل
كل شيء قفلا قويا للباب ثم يفكر بعد ذلك في طريقة الإنفاق . وتناول جنبا
وأقفل الباب بدقة وإحكام وتلفت يمنة ويسرة ووثب إلى السلم يهبط كالمرور
وما إن خرج إلى الهواء الطلق حتى تبين الشمس تستقيم في كبد السماء فخشي
أن يدهمه الظهر ولما يشتر القفل ففزع المسير ومرق من أمام دائنيه ثابت الخطو

والجنان .. ولم يقف إلا عند حانوتي الخردة وانتقى قفلا غالى الثمن فنظر إليه
الرجل مستخفاً وقال :

إذا كنت لا تملك ريالين فدع عنك هذا القفل .

وحار عبد الرحيم في أمره فقد كان حقاً لا يملك ريالاً أو ريالين
وما خطر بباله قط أن يمرّ على الصيرفي لإبدال الجنيه بالريالات وفي عودته
إليه مضية الوقت ومضناة للجسم فاختصر الطريق ورمى بالجنيه الذهبي
للحانوتي قائلاً : خذ هذا ثمننا لقفلك ،

وفغر الحانوتي فاه دهشة وقبل أن يفيق بارحه عبد الرحيم مختفياً بين الزحام
وسرعان ما آب إلى غرفته بعد أن اختبر الباب والقفل وألقى نظرة على
الصفحة فتبين له أنها كما تركها . وقام للمرة الثانية ليتأكد من إغلاق الباب
كما ينبغي ثم جلس القرفصاء على الحصير الخلق وسبح في عوالم التفكير :

يجب أن أسدد أولاً ديوني ، ثم أبرح هذا المنزل القلر إلى دار أتخذ
فيها ما أشاء من حشم وخدم وسأبني على فتاة ذات دين وحسب وجمال .
سأشترى سيارة ... ولكن يجب أن يكون إنفاقي على بينة وبترو فينبغي أن
أعرف حقيقة ما تحتوى هذه الصفحة من الجنيات الذهبية ، وبدأ يحصى
ما في الصفحة من ذهب واستمر يحصى في حركة آلية بفعل العادة أما ذهنه
فقد كانت تدغدغه آمال وأحلام وطفق يعد والأكوام تزداد وتزداد حتى
اختلط بعضها ببعض .

وفجأة سمع وقع أقدام خارج الباب فأنصت في اهتمام وتوقف ملياً عن
تعداد الجنيات وحينما ابتعد صدى الخطوات عاد صاحبنا إلى عمله غير أنه
نسى مقدار ماعدته وأحصى بعد عوداً على يده .

وهكذا مرت ساعات لم ينجز في خلالها غير جزء من الصفحة الذهبية
فداخلة الضجر والبرم وتلاحقت أنفاسه في الغرفة الموصدة فهب إلى النافذة
مستروحا ولمست وجهه نسبات الأصيل الندية فأتبع بعنقه مستطعماً ورأى

دماء من الأشعة الغاربة تودع قنن الجبال الشم فانقتل مأخوذاً مذعوراً وهو يغمغم :

رباه . لقد دهمنا المساء وعلى أن أنفق ما في هذه قبل أن يؤذن المغرب .. وليست أمامي سوى دقائق معدودات فما العمل ؟ وتملكته حيرة قاسية ومرّت بذهنه صور من أسوأ الاحتمالات إن لم يصل إلى حل حاسم سريع .

ورأى أحلامه في الفن والثراء تكاد تذهب أدراج الرياح السافيات . وتصور نفسه قابعا فوق السرير خيفة أن تأخذه أعين الدائنين في الغدو والرواح وتمثلت أمامه أشباح الجوع والفاقة والعري مطبقات غير بعيد .

إنها دقائق ودقائق فحسب فهل يستطيع خلالها إنفاق هذه الصفيحة الذهبية ؟ واضطربت عضلات وجهه في اختلاط فكري قاتل وقفز إلى النافذة فرأى الشمس قد تقلصت قليلاً عما قبل فالتى عمامته وانحط جالساً على الأرض في إعياء وقنوط وبغته أباد السكون . انلجرجى سعال العجوز البخارى وهو يسعى إلى صلاة المغرب ، وحمل الأثير موجات الأصوات إلى سمع عبد الرحيم فبعث في رأسه فكرة نهض لها في وثبة المتحفز وفتح الباب بسرعة واندفع نحو البخارى وهو يصيح : يا عم عبد الرحمن يا عم عبد الرحمن فالتفت الجار خلفه ولحقه عبد الرحيم قائلاً له في ضراعة : أصبر يا عم . أصبر يا عم أحب أن أقدم لك هدية فهل أنت تقبلها ؟ فأجابه البخارى : طيب .

وسرّ عبد الرحيم فطار إلى الصفيحة الذهبية وحملها على رأسه عائداً وحينما شاهده صاحبه البخارى صاح : ما هذا ؟ بصل .

فقال له عبد الرحيم : أصبر يا شيخ إن الله مع الصابرين .

ثم أنزل الصفيحة من فوق رأسه وحجبها بيديه ليفاجيء البخارى العجوز بالهدية الثينة وطلب منه أن يقترب ومن ثم رفع يديه عن الصفيحة في سرور وهو يقول :

خذ هذه هدية لك خالصة مني .

وأطل البخاري على الصفيحة وإذا بها تعج بالجنهات الصفر يكاد يريقها
تخطف الأبصار فتراجع منذراً وولي مدبراً وهو يقول : هذا حرام . هذا
حرام . هذا حرام يا شيخ وفي نفس الوقت ارتفع صوت المؤذن الشجي
يدعو المسلمين إلى الصلاة .

ونظر عبد الرحيم إلى الصفيحة فإذا بها خاوية كأن لم تكن ملأى قبل
ساعة ، وتقابلت في نفسه موجة من الثورة والجموح بموجة من الاستسلام
والرضا فقال مغمماً :

ألا يوجد في الدنيا نوال بلا شرط وفتح عبد الرحيم عينيه فوجد أنه قد
غفا طويلاً على مصلاه وكان أذان المغرب لا يزال يدعو به إلى الصلاة فتوضأ
سريعاً وتأبط محفظته وهو يردد إن الله مع الصابرين .

الفكرة العامة في هذه الأقصوصة هي . لا يوجد في الدنيا نوال بلا شرط
وقد أبرز الكاتب هذه الفكرة من خلال تحليله لنفسية طالب علم فقير
وتصويره له من حيث الشكل وأسلوبه في الحياة ، واتخذ الرؤى والأحلام
وسيلة لبث أفكار بطله « عبد الرحيم » وقد بدأ برسم صورة لشكل عبد الرحيم
كما قلنا فذكر صفاته من حيث إنه قميء يعم بشال مطرز أبيض ثم صور
عبد الرحيم في عزله وأشباح الفقر والعوز ترقص حوالبه .

وصوره وهو يقفز عند الصفيحة المهجورة بنصدها النحاسي مطلاً
بنظراته الخيرة مطلاً برأسه كما صورته وهو يقفل الباب ثم يلتفت بمنة
ويسرة ويثب إلى السلم .

كما صور الخانوتي وقد فغراه دهشة وانظر إلى عبد الرحيم في اللحظات
الآخيرة من النهار وأمانته الصفيحة الذهبية وعضلاته تضطرب ثم قفز إلى
النافذة .

إن الكاتب قد عرض الفكرة ورسم الشخصية من خلال الأحلام ومن

ثم فأكبر الظن أن الأفصوصة كما قلنا رمزية وأن الصوت الذى سمعه عبد الرحيم يقول : دونك هذه جنهات ذهبية .. الخ واشترط عليه أن ينفقها قبل الغروب هذا الصوت فى تصورى عنى بالغروب غروب العمر وقد رمز إليه بغروب الشمس فى الحلم فهى تعنى أن يستمتع الإنسان بالمسأل فى حياته قبل أن يدركه الأجل ولا يكتزّه .

وكان حلم عبد الرحيم بالذهب تعبيراً عن رغبته المكبوتة وحاجته إلى المسأل وقد حلل الكاتب نفسية عبد الرحيم عندما رأى صفيحة الذهب فقد غمرته موجة قوية من الفرح وإن كان يشوبها شيء من القلق فهو إنسان حائر حتى بعد أن صار الذهب بين يديه احتار أين يحفظه أعند شيخه أم عند البقال وكيف يوصلها ؟ وهل ينتظر إلى أن يحن الليل لا إن الموعد المضروب ينهى عند الغروب كما بدا اضطرابه وحيرته حينما ذهب يشتري قفلاً دون أن يبدل الجنيه بريالات الأمر الذى دفعه إلى أن يشتري القفل بالجنيه .

لقد استيقظ عقله الباطن فى الحلم فهو يعد النقود عدداً آلياً بينما ذهنه قد غدغه أحلام وآمال وإزاء حيرته واضطرابه ضاع منه الوقت .

إن أحلام محمد عالم الأفغانى تحدثنا عن مشكلة طالب علم فقير كثر دينه فهو يحلم بالمسأل فقد أوى عبد الرحيم إلى فراشه وأسلم نفسه للنعاس فأنطلقت روحه تحوم فى عالم المسأل والذهب تبحث عن الفرج بعد الضيق .

وإذا كان فرويد يقرر أن العقل اللاواعى ينطلق فى المنام من عقالة ويحدث بآمال النفس الحبيسة فتنتطلق منه الرغبات المكبوتة وتصبح الهواجس التى عز عليها الظهور فى وضوح النهار بين ضجيج المجتمع وتقاليده جوأوضاعه القاسية (١) .

وإذا كان عبد الرحيم لم يكده يسمع الصوت يعرض عليه الذهب بشرط حتى صاح : أعطنيها وهات شرطك إذا كان ذلك كذلك فالذى يخيل إلى

(١) الأحلام مفتاح الشخصية لعبد المنعم الزياى ص ٢٣ .

أن القصة رمزية اختار لها الكاتب شخصية مريضة نفسيا عانت آلام الحرمان، وذاقت مرارة العوز والفقر في بيئة غنية والزمن قد قلب له ظهر الحزن فقد كانت أسرته تجرى عليه مرتبا سنويا يكفل له شيئا من بلهنية العيش، وسعة الحياة ثم حالت الحرب بينه وبين أسرته فنضبت موارده وكثر دائنوه وضاعت عليه الأرض بما رحبت فهرب من هذا الواقع المرير إلى النوم حيث برز الحل في أحلام وإن كان لم يتم .

فالأقصوصة تحقيق وهمي لل رغبات المكبوتة وتعويض ناشئ عن توقان منهوم لم يجد شبعه في عالم الحقيقة .

إن الأقصوصة صورة بارعة توضح سيكولوجية التسامى وتصور الصراع النفسى الذى يعانى به طلاب العلم (١) .

ومن ثم فالأقصوصة أيضا نفسية ركزت حول شخصية عبد الرحيم، فصورتها وحالتها ووضحت معالمها الجسمية والنفسية والاجتماعية في الأحلام .

٤ - الرمز إلى المعرفة (شهر زاد) (٢) :

تمهيد : فى عام ١٩٣٦ م أصدر الأديبان الكبيران : طه حسين وتوفيق الحكيم كتاب (القصر المسحور) والكتاب يتحدث عن قضايا الحرية والأدب والفكر وقد اتخذ الأديبان من شهر زاد رمزاً للحرية الخالدة ومن ثم، فالكتاب يعرض مفهوم الحرية والأدب والعلم عند طه حسين والحكيم من من خلال أحاديثهما مع شهر زاد .

قائلا (٣) : إن الذين يعتقدون على حرية الرأى من الأحياء والأموات إنما يعتقدون عليك أنت لأنك مصدر الرأى والشعور والخيال .

(١) النقد الأذلى ومدارسه الحديثة لستانلى هايمن ص ٢٤٨ ترجمة إحسان عباس ومحمد يوسف نجم .

(٢) المنهل عدد شعبان ١٣٦٦ هـ (الحلقة الأولى) ورمضان ١٣٦٦ هـ الحلقة الثانية ..

(٣) القصر المسحور ص ٦٩ .

وفي الفصل السادس (ثورة الأشباح) تقول شهر زاد (١) : إني أعظم من أن أحبس في عصر واحد ، إني لكل العصور وحين يدور الحديث حول الملوك والآلهة يكف طه حسين عن الحديث فتقول شهر زاد (٢) إن هناك سلطاناً أعلى ينضغ له كل كائن حي وكل رئيس وكل مرعوس هو القانون .

وفي مواساة شهر زاد يقول طه حسين (٣) : إن لقوانين الحق والواجب حرمة يجب أن ترعى ونكره لأنفسنا أن تتجاوز حدود هذه القوانين أو أن نخالف عن أمرها .

نحن يا سيدى نحب هذه الدعاية للقانون المشروع ونكره الخروج عليه ونضيق أشد الضيق بحور الجائرين منا وتجاوزهم للحدود ونرى أن تشبه بكم ما استطعنا وأن نرى للحياة حقها فنحن حين يجب الوفاء ونخلص حين يجب الإخلاص ونعمل حين يجب العمل . لا نؤثر أنفسنا بالراحة ولا باللذة ولا بقاء الأحياء إلا حين تبيح لنا قوانين الحياة والواجب هذه الراحة وهذه اللذة وهذه النعمة بقاء الأحياء .

وفي « حكم الزمان » (٤) تقول شهر زاد أنا الحرية كلها والحرية التي تشيع النشاط في العقول وتذيع الحياة في القلوب وتبعث الحرارة في العواطف والمشاعر والأهواء . أنا الحرية الخالصة التي لا تعرف حداً ولا تنهى إلى غاية ولا أمد ولا ترجو لأحد ولا لشيء وقاراً أنا الحرية الطاغية التي يظلم كل من يحاول أن يحد من طغيانها ويبغى كل من يحاول أن يكبح من جماحها لأن نظام الحياة بل نظام الكون يريد على أن تكون طاغية جامحة لا تدعن لقوة ولا تؤمن لسلطان .

ويعود طه حسين وحده إلى الحديث عن شهر زاد في كتاب « أحلام

(١) نفس المرجع ص ٨٩ .

(٢) نفس المرجع ص ١٢١ .

(٣) للقصر المسحور ص ١٤١ .

(٤) نفس المسحور ص ١٩٩ .

شهر زاد « الذى صدر ما بين سنتي ١٩٤٢-١٩٤٣ م إنه فى « القصر المسحور » جعلها رمزاً للحرية وفى « أحلام شهر زاد » نعى هذا المعنى وزاد إليه بعداً جديداً فجعل من أبرار شهر زاد فى أحلامها أنها حاولت إرشاد شهربار إلى الحقائق العليا وإلى عالم المعرفة الذى تطمح إليه نفس الإنسان طموحاً غامضاً وتشقى لأنها لم تبلغ منه ما تريد (١) .

وهكذا نرى أن الملك لم يكتف بما كان يسمع من شهر زاد فى عالم اليقظة بل سعى إلى مضجعها ليسمع أحلامها .

كان الملك يائساً أشد اليأس من شهر زاد قد عجز عن فهمها وكان ضيقاً أشد الضيق بشهر زاد قد كلَّ عن احتمال عشرتها فكان عليها سائطاً أشد السخط وكان لها محباً أشد الحب وكان بهم أحياناً بأن يتقاضاها شيئاً من الوضوح والجلاء فى سيرتها وفى لحظاتها وبهم أحياناً أخرى أن يتقدم إليها فى أن تستأنف ذلك القصب الذى لا يستطيع عنه صبراً ولكنه كان واثقاً بأنه يستطيع أن يتقاضاها ما شاء فلن يفتقر منها إلا بما تشاء هى ولن تشاء هى إلا هذا الغموض الذى أصبح لا يطيق له احتمالاً .

لقد كان « شهربار » ضيقاً بشهر زاد أشدَّ الضيق ولكنه كان يجد سعادته فى هذا الضيق ولذته فى هذا الألم وراحة نفسه فى تعبها من هذا الغموض ، ومن يدرى لعله لو انجلت له نفس شهر زاد وألغيت بينه وبينها الحجب فرآها واضحة ناصعة كأنها فلق الصبح لأدتلأت نفسه حزناً وحسرة فإن العشاق لا يكرهون شيئاً كما يكرهون الراحة المطردة ، ولا يضيقون بشيء كما يضيقون بهذا الوضوح الجلى .. هم كطلاب المثل العليا لا يقربون منها إلا لتبعد عنهم ولو قد بلغوها وانتهوا منها إلى ما يرضيهم لكانوا أشقى الناس بذلك ويسمع شهربار فيما يسمع النائمون حين يلم بهم طائف الحلم كأن قائل يقول له :

إنك لضعيف مغرور تعنى نفسك فى غير عناء . أنت مشوق إلى قصص

(١) أحلام شهر زاد لطفه حسين ص ١٣٠ .

شهر زاد لا تستطيع عنه صبراً فهل علمت أنها هي أيضاً مشوقة إلى هذه القصص لا تستطيع عنه إغراضاً ؟ أنت ضيق بغموض شهر زاد لا تستطيع له احتمالاً فهل علمت أنها هي أيضاً ضيقة بوضوحك لا تستطيع له استقبالا ؟ أنت تريد أن تلهو عن غموض شهر زاد بما تقص عليك من حديث وهي أيضاً تريد أن تلهو عن وضوحك بما تقص عليك من أخبار .

وليس هناك من شك في أن الأستاذ الأفغانى قد تأثر بطله حسين وتوفيق الحكيم عندما كتب عن شهر زاد ويتضح هذا التأثير بعد عرض ملخص لشهر زاد الأفغانى .

(١) ابتداء الأستاذ الأفغانى حديثه برسم صورة للمجلس الذى يضم شهياري وشهر زاد ورسم صورة لكل منهما في ذلك المجلس فلما كانت الليلة الرابعة بعد الألف جلست شهر زاد على مخدة من حرير وضعت على أريكة ، واتخذ الملك ضجعته على مرتبة محشوة بزغب الطيور الناعم ، وثنى خلف ظهره متكأين من حرير أخضر فاتح . ورفعت شهر زاد عينيها الناعستين إلى ثريا مدلاة من السقف فانزاح خمارها لأبيض الناعم عن شعرها . وأطالت شهر زاد النظر إلى رقصة الثريا على خفقة النسيم العليل . وتنبعث الأضواء من مئات المصابيح .

أما شهر يار فكانت عيناها لا تفارقان أفاعى دخان البخور المائجة التى ما تكاد ترتفع حتى تذهب بدداً في الهواء وتمج شذوها العطرى في كل هبة من نسيم .

وفجأة أرخت شهر زاد رأسها وذهبت تقص والمالك يستمع وسرى الجوى الشعرى والموسيقى الهادئة وقصص شهر زاد خدراً حلواً ناعماً في جسم شهياري فأسلم عينه لإغفاءة قصيرة ولحظات شهر زاد انصراف زوجها عن القصص ، وأدركت أنها قصت خلال هذه السنوات الطوال نوعاً واحداً منه فقط وهو هذا الرد الذى إن امتاز بالتلوين الصارخ الحار وبالاتصال المستمر فهو خلا من اشتباك العواطف في صراع نفسى ومن ثم اعتزمت أن تجرعه .

«منبها قويا يرجه رجا ويذيب سأمه في بحر هدار من انفعالات النفس الإنسانية .

إن شهر زاد فيما يبدو هنا رمز للثقافة الأدبية المتطورة فقد لحظت انصراف زوجها عن قصص الرد فاعتزمت لونا آخر يمثل صراعات النفس وانفعالاتها حتى تنبه زوجها وتذيب سأمه وأكبر الظن أن هذا التحول عند شهر زاد يمثل تحولا فنيا عند الأستاذ الأفغانى على نحو ما ورد في مقاله « في القصة » منهل جمادى الثانية ١٣٦٦ هـ .

وعلى كل حال فقد اقتربت شهر زاد من زوجها ونادته :

مولاي : ؟

فصححا الملك من غفوته وأجاب مبتسما :

نعم : شهر زاد .

— أود ملك الزمان أن أقص على مسمعيه نوعاً جديداً من القصص يسمونه الواقعي ؟

— لا أدري ما يكون هذا الواقعي إلا أنني أفوض أمر الاختيار إليك قالت شهر زاد سأقص عليك مولاي قصة « المجانين الثلاثة » .

فقد اجتمع هؤلاء في دار دعوا إليها وشاء الرحمن أن ينخر عليهم البيت وأن ينزلوا في مكان لا يستطيعون منه الخروج فرأوا أن يقص كل منهم أمر جنونه دفعاً للسأم وتبديداً للوقت ريثما تصل إليهم معاول المجدين فتقدم أحدهم وقال : كان لي أسيرة ليست من غصنين أو ثلاثة وإنما من أغصان مشعبة مفرعة ، وكان جدي رحمة الله عليه مزواجاً خلف ثلاثة بنين وست بنات . أما البنات فأراحنا الله شرهن حين زوجهن . وأما البنين فكان أكبرهما سنا والدي .

سيقول أبعد كما : حسنا وما في ذلك فكل منا له العم الواحد والاثنان والعمات الكثيرات ..

وسأجيب أنا نعم لا غرابة في ذلك ماداموا يتزوجون وينفردون في بيوت شتى . أما وأن يجتمعوا كالنمل في خلية واحدة فربما كان ذلك ممكناً في تلك المخلوقات التي أجرى الله في أعصابها الرقابة والنظام .

أما هذه المخلوقات الآدمية فقد وهبها الله غرائز التأبى والتعاون والتساند . ولنعد إلى قصتنا وتزوج والدى من امرأة هيفاء هي مثال للجمال الهادى . الحزين ، ولكن في دمها الأصفر ثورة وجنون وكثيراً ما كانت تلطم وجهها مولولة حين يفرض عليها أبى إرادته ويظهر أنى ورثت أعصابها فهكذا المجانين يعلمون من أنفسهم ما لا يعلمه العاقلون .

كنت أكبر إخوتى ولى أختان اثنتان وتزوج عمى وأنجبا بنين وبنات فتضخمت الأسرة وتشعبت فروعها وشجونها وضاق بنا البيت وقد كنا نملكه فرأى الآباء أن يوسعوا فيه وأن يبنوا طبقة فوق العلية فانقسم البيت إلى فريقين فريق يؤيد البناء وفريق يرى أن نفصل وأن نسكن في بيوت شتى ، وكنت على رأس المعارضة . واستطعت أن أكسب أمى بجانبى وأختى الصغيرة ليلى .

ولكن والأسفاه كان البيت كله يصارعنى ويناصبنى العداء وانهزمتا وانتصروا ومعنى ذلك أننا لبثنا متصلين كما كنا من قبل على دخل وشحناء ولا أرانى إلا عاجزاً عن وصف ذلك النفور الذى كان يقرض قلبى . وذلك الاشتىاز بدأ معى وأنا لم أزل صغيراً وكبر معى حتى ملك على شعاب قلبى . وكان أبناء عمى ينسجون حولى شراكا من مكر وخديعة ومن ثم نشأت كثير الريب والشكوك .

كبرت أختائى وأصبح الحديث عن زواجهن دائراً على الألسنة في البيوت وكان المرشحان لزواجهما ابنى عمى أحمد وعلياً وبدهى أن لا يروقى هذا الزواج وأن أفضل أن تتزوجا من شابين كفتين من نخارج الأسرة وقبضت بيدي على علم المعارضة وانضوى تحت لوأى أمى وأختى وعمى أبو

أحمد وكاد النصر يعقد لواءه لي لولا أن والدي فصل الأمر بكلمة بآلة حاسبة .

وعندئذ شعرت أن قديمى لا تطيقان حمل جسمى فقد كانت الهزيمة بعد أن أوشك النصر أن يكون لى - شديدة ثقيلة الوطأة على جسمى الضئيل واعتزمت من ذلك اليوم العزلة والانفراد وآثرت الحمل على نشاط ينهيه والدى بكراحة ولحظت أمى فدخلت لى يوماً فى الدرج بعد ما أعلن زواج الأختين من ابنى العم وكنت وقتئذ على وشك الخروج فقالت لى :

أدعوك إلى اطراح ما بينك وبين أبيك ثم مدت إلى ذراعها فأمسكت
بيسراها كتنى وبدأت تخلل بأصابع يدها اليمنى شعري الأشعث فاحتوتني
لحظة انعدم فيها الشعور بالزمن وكأن الآلام تبخرت من رأسي وأدركت في
تلك الساعة أن البرزخ الذي يفصل بيني وبين وادي الأفراح والأتراح
والسعادة والشقاء واليأس والرجاء وإن شق عبوره على قوة البشر أجمعين.
فهو لا يشق على يد رقيقة بضعة لا تملك من قوة سوى الحب .

ولدت أختي الكبيرة من ابن عمي سالم ولداً ذكراً وكنت آنثى في قطعة
مع الأسرة كلها ما عدا أمي وليلى وكان الجميع يعتقدون أن بي لوثة وجنونا
تبعداً عنهم.

لقد كَانَ الطِّفْلُ زُهْرَةً مُتَفَتِحَةً نَاصِرَةً مِمْتَلِئًا صِحَّةً وَنَشَاطًا وَقَدْ وَرِثَ مِنْ
أَبِيهِ عَيْنِيهِ السُّودَاوِينَ الْخَمِيلَتَيْنِ وَأَهْدَابَهُ الْوُطْفَ الْغَزَارَ فَأَخَذَتْهُ بَيْنَ يَدَيْ
وَقَبَلَتْهُ فِي فَمِهِ الْغَضَّ الطَّرِيَّ وَكَانَتْ أُخْتِي لَيْلَى وَاقِفَةً بِالْقَرَبِ مِنِّي . وَلَحِظْتُ
شَيْئًا عَجِيبًا . إِنِّي لَمْ أَلْحِظْ قَطُّ عَلَى وَجْهِهَا هَذَا الشَّحُوبَ الْمَذَابِلَ وَلَا هَذَا الْغَدْرَ
الَّذِي تَرَدَّتْ فِيهِ عَيْنَاهَا الْمُجْهِدَتَانِ .

آه - ليلي - لقد تذكرت وأدركت إنها ولا ريب تلك الأقاويل والأراجيف التي كانت تطفر من بعض الألسنة في الدار ... أنا أعرفك يا أختي لأنني بخيل إلى أنني أعرف نفسي وقد سمعت كثيراً مما يقال عنك وعن زوجك مصطفى وسمعت كثيراً عن الأدوية التي وصفت لكما والتي

أراني لا أقر منها شيئاً وإن كنت أنت تقرينه لأنني ما زلت محتفظاً بحيادي في المسألة . أما أنت أيتها المرأة المرهقة التي ترمي بالعقم فالمسألة بالنسبة إليك مسألة موت أو حياة ، مسألة نوع يستمر أو ينقطع ولذلك فلا شك أن حكمك عليه سيكون غير حكيم .

ليلي — إخال أن الله يريد أن يبلوك وأراني كأني أستطيع التكهن فصبراً جميلاً أختاه .

يبدو في هذه القصة انقياد شهريار إلى زوجته شهر زاد ومن ثم وكل إليها أمر اختيار قصة واقعية تقصها عليه وتقص عليه شهر زاد تلك القصة التي تعرض مشكلة تكديس السكان في منزل واحد وإن كانوا جميعاً أقارب فالأمر هكذا لا يليق بالآدميين .

وتعرض القصة قضية هوان المرأة وخضوعها لإرادة زوجها وإن أدى بها ذلك الخضوع إلى الجنون ونتيجة للتكدس السكاني وتسلط الرجل على المرأة ونمو هذه الأسر كان لابد من البحث في أزمة السكن وتنقسم هذه الأسر إلى قسمين قسم يرى البناء فوق البيت القائم وقسم يرى التفرق واتخاذ بيوت أخرى .

ثم تنشأ مشكلة رابعة هي مشكلة زواج هذه الأسر المتفرعة عن الأسرة الكبيرة أتم الزواج من داخل الأسرة أم من خارجها ويكون تأييد ومعارضة .

ويتولى المعارضة ذلك المحنون الذي يقص القصة يعارض ذلك المحنون أباه فتأتي سلطة الأب وتفصل الأمر بكلمة باتة حاسمة فينهار ذلك المحنون ويميل إلى العزلة والانفراد والشقاء وبلمسة حب حانية من الأم يعبر ذلك الولد برزخ الشقاء إلى برزخ السعادة .

وأخيراً تكون مشكلة الإنجاب والعقم إحدى الأختين تنجب ولداً جميلاً والأخرى عقيم وفي الموقف من الصراعات النفسية الكثير والذي يبدو جانب منه في شحوب وجه ليلي وظهور الغدر في عينيها ولكن الكاتب يهون عليها ويدعوها إلى الصبر .

تلك شهر زاد رمز المعرفة والخبرة بالنفوس وبالآداب ، وتلك شهر زاد رمز الحرية تريد تحطيم التقاليد البالية التي تؤدي إلى تضخم الأسر وتكدس المساكن وهوان المرأة والأولاد وتسلط الأب تسلطاً يدمر الأم والولد . هذا التسلط لون من الاستعباد وشهر زاد رمز الحرية ترفض العبودية لأنها تفقد الإنسان عقله ورشده وتسلمه إلى الشقاء ومع الحرية الحب والسعادة .

إن هذا اللون من القصص يصور الحياة الدنيا كما هي ثم يقترح من خلال السطور ما ينبغي أن يكون وهذا اللون من القصص يدعو إلى القناعة باليسير والتفويض المطلق للقدر كما حدث في شأن الأخت ليلي العقيم .

وهذا اللون من القصص يبنى نظام البيت وتأثيل المجد على الزوجة والولد .

ثم إن أسوأ ما سجله هذا اللون من القصص هو ظلم الإنسان وجور النظم هو القسوة الجائرة على المرأة الهيفاء الجميلة قسوة أسلمتها إلى الثورة الداخلية والجنون نتيجة فرض إرادة الأب ولم يسلم الابن من هذا التسلط الذي أسلمه إلى العزلة والانفراد والحمول على أن الكاتب كان بارعاً حين أجرى العلاج لهذا الابن بلمسة حنان وحب من أمه .

وواضح أن شهر زاد تريد أن تثار لبنات جنسها من الرجل لأنها تمثل المرأة بينما شهريار يمثل الرجل ومن ثم خرجت به من جو الهدوء والسرود إلى جو الصراع النفسي لتجرعه منها قويا يرجه رجاً عنيفاً .

وقد بدا تنذر المرأة ورغبتها في التخلص من ثورتها المكبوتة عند الأم الخاضعة لإرادة الزوج وعند ابنتها ليلي التي لم تنجب وقد بدا التنذر في وجهها وعينها إنها سجينه بيتها مغلوبة على أمرها وهي مستسلمة آخر الأمر لقضاء الله وقدره .

(ب) فيما مضى من أحاديث أحد المجانين كان ذكر نشأته وما حاطها من

ظروف ومن ثم تحدث عن أسرته وزواج أختيه وإنجاب إحداهما ولكن ليلي لم تنجب وليتها ظلت عقيماً فإن حملها وإنجابها هو الذى أصابه بالجنون .

لقد بدأ المتحدث يرسم لنا معالم شخصيته أولاً ويحللها تحليلًا نفسيًا فقال : لقد كنت مجنوناً ولا أعلم الآن أعقل أنا أم مجنون .. وإخالي كنت أشعر بالأميرين معاً فى بادئ الأمر فكنت حيناً أنصت إلى ديب العقل وهو يدق على الباب دقاً رقيقاً حالمًا وكنت حيناً آخر أجده الجنون وقد تخطى الحواجز والقيود واقتحمنى اقتحاماً كأنه الفوضى المربدة السكرى ، وكنت بخير ما دام الشعوران منفصلين فلما تعانقا وتفانيا لم أجده شعوراً واحداً يأخذ يكظمى . كنت أراه العقل كل العقل والناس يرونه الجنون كل الجنون .

وبعد ذلك يتحدث ذلك الجنون عن قصة حمل ليلي وشكه فى ذلك الحمل ورغبته فى التأكد من الأمر ومعرفة الحقيقة وذلك حينما تضع ويفحص ملامح المولود يقول : آه لا أدري متى قيل لى إن ليلي حبلت وأن مولودها ربما استقبل الحياة بعد شهر أو شهرين ومر على الخبر فى بادئ ذى بدء لم أعرفه التفاتاً ذا بال ، ولكن عندما سحب الليل دثاره على الدنيا النائمة وأردت أن استسلم لأحضان الكرى تمنع على وأبى وغمرتنى وساوس وشكوك ساحقة ماحقة . وفكرت فى آلاف من الاحتمالات ونفيت آلافاً منها إلا حادثاً لم استطع أن أطرحه من حسابى . لقد جلست فى نافذة العلية أستشف المجهول من وراء الظلمات وإذا بأذنى تتلقط حسيماً لقدم مارة وقمت من مكانى وجريت نحو الباب حافياً وانتظرت لحظة فلما تبينت الدعس الخفيف فتحت الباب وتخطيته وخيل إلى أنى لمحت شبحاً مال نحو الدرج وداخلى الرعب إلى حد ما ولكنى سيطرت على أعصابى وتقدمت إلى الشبح الموارب وصحت خافضاً صوتى :

- من أنت ؟

ولم يجب الشبح بل ظل واقفاً كالصنم فقبضت على ذراعيه فإذا هى رقية ناعمة وإذا هى ليلي .

- ليلي ماذا تفعلين هنا في ظلام الليل ؟

لم تجبني ليلي فتركها وانقلبت راجعاً إلى غرفتي وأنا أقول : مسكينة ليلي هذه تسهد ليلها لأنها لم تكن والدته بعد كأختها فالله لك يا ليلي .

هذا كان تعليلي أولاً وكنت أود أن يكون التعلييل الوحيد إلى الأبد ولكن أنا النشوان بنحمر الشكوك القاتلة لا أقف عند رأى أو تعلييل حتى أقلبه على ألف وجه ثم أتمسك بأوهن وجه وأضعفه . أجل لقد أخرت هذا الحادث ونسجت حوله قصوراً من ريب كريمة ممقوتة ثم أضفت الجزء إلى الجزء فإذا الكل نتيجة مهلكة وإذا أنا مجنون مافي جنوني من شك . قد أكون مجنوناً حقاً أو قد أكون غيوراً حساساً ثم شرفه ولطخ بالدنس . لست أدري لست أدري . ماذا تعني هذه الخيانة بالنسبة لي إن صبح أنها دبرت بليلى أو فرضت على ليلي فرضاً .

لا ريب أنني أشعر إن بقي شعوري على صدقه أن شيئاً مني نقص وأن شخصيتي يتهددها الأنهار والدمار وأني في غمرة الدفاع عن نفسي التي التبعة على غيري .

ولم تبق إلا قشة واحدة من أمل وذلك أن أنتظر قليلاً حتى تضع ليلي وحتى أقرأ على ملامح طفلها ما سطرته الليالي .

لقد انتظرت قليلاً أو كثيراً وهاهو النبا يصلني وها أنا أسرع والليل من حولي معتكر دامس ودخلت على ليلي كالقذيفة الملفوظة من خوف بركان لم أسأل عنها وما بي عن سؤالها من حاجة أريد أن أثبت من ملامح ابنها .

إن حديث ذلك المجنون وما به من جنون لتكشف لنا بوضوح عن أهمية المعرفة معرفة الإنسان نفسه أولاً ورأى الآخرين فيه . وذلك واضح في بدء حديثه لا أعلم الآن أحاطل أنا أم مجنون .. ثم يطلب إلى المجنونين الآخرين أن يسمعا قضيته ويحكمما عليه أو له بعد ذلك إنها الرغبة في المعرفة إذن ويتضح

ذلك أيضا حينما ممسك المحنون بذراع أخته ليلى في الظلام على الدرج ويريد أن يعرف الحقيقة أمى الرغبة في الإنجاب قد سهدت اخته فلم تتم أم هى الخيانة ويأخذ في التحليل والتعليل وهو نشوان بخمر الشكوك القاتلة لا يقف عند رأى أو تعليل حتى يقلبه على ألف وجه .. هى الرغبة في المعرفة إذن وهو البحث عن الحقيقة ولكن العجب ان يكون ذلك على لسان مجنون تماماً كما جاء في رسالة الأستاذ أحمد سباعى « رسالة إلى صاحبي المحنون » والتي يقول فيها :

أتدري أنك في جنونك نابغة ولست في نبوغك بالمجنون ؟ هل استشاط الأديب السعودى غيظا إلى هذا الحد ؟ وهل انهمه أحد بالمجنون ؟

ولقد أرادت شهر زاد باختيارها لهذا اللون من القصص أن تنبه شريار وترج أعصابه فهل وصلت من ذلك إلى ما تريد ؟

كان شريار قد بدا يفعل حين قصت عليه القصة حتى استوى قاعداً على أريكته وما كادت شهر زاد تنتهى إلى هذا الموضوع حتى رقصت الأضواء الملونة على وجهه وصاح . كفى كفى شهر زاد .

أجابت شهر زاد .

مولاي لم تنته القصة بعد .

شهر يار : لا أطيق سماعها اصمتي شهرزادى وعودى إلى ما كنا فيه . وضمت شهر زاد شفتين حمراوين كبر عمتين من ورد وإرتسمت عليهما ابتسامتها الخالدة وسكتت عن الكلام المباح قبل أن يدركها الصباح .

هذا وما تزال صورة المرأة مهزوزة بل إنها هنا في موقف الاتهام بالخيانة وأين في منزلها : منزل الزوجية وهو في نفس الوقت منزل أبيها وأُمها . وأمام غرفة أبيها وأُمها إلا تعد هذه قسوة على المرأة ؟ . حقا . إن القلق على الإنجاب . ولا سيما حين تنجب أنجب المرأة يسبب ارتباكاً شديداً للمرأة ويدعها في دوامة نفسية قاتلة لا سبيها والآخرون لا يتركونها وشأنها

بل يزيدون النار اشتعالا بيد أن شهرزادا دثارت لبنات جنسها أليست بمثلة ؟
المرأة في كل العصور ؟ ورمز الحرية والمعرفة في كل العصور أيضا ؟ لقد
أزعجت الاستبداد والاستعباد ممثلا في شهریار حتى طلب منها أن تكف عن
الحديث فذكرت له أن القصة لم تنته بعد . لقد تحدث مجنون واحد فقط وبقي
اثنان لقد عرف الناس قدراً ضئيلاً ولم يعرفوا الحقيقة كلها ما بقي أكثر مما مضى .
بقيت كلمة عن محمد عالم الأفغانى واتجاهه القصصى نحو الواقعية
والرمزية وميله إلى التحليل النفسى واتخاذ شخصيات مريضة لتساعده على
تحقيق هدفه واتخاذ الشك طريقاً إلى اليقين وتقليبه وجوه الرأى بحثاً عن
الرأى بحثاً عن الحرية والمعرفة إنه نغمة قصصية جديدة في الأدب السعودى
وإن سبقه طه حسين والحكيم فهما أستاذان له .

هـ - ما يعجز العقل عن فهمه في (المصباح السحري) (١) :

كان ذلك المصباح لسمرى أرضعته الحياة سعادة لم يشب صفوها
كدر ولا قذر . كانت زوجته لينة الأطراف موطأة الأكفاف بادنة العود
نقية طاهرة .

وكان مأواه في قلبها وكانت هي في قلبه . كان الحب هو الذى ضمهما
جسداً وروحاً وكانا أغنية الشباب والمرح والهناءة في فم الزمان ثم شاء الله أن
يجعل لحياتهما معنى فوهبهما ولداً . ومضت أيام فإذا الدهر يقلب صفحة
أخرى من حياة السمرى وإذا شجرة هواه تلوى وتذبل وإذا مرض
عضال ينشب أظفاره في الزوجة فيعز البرء والشفاء وإذا هي تموت وعمرها
عمر الزهر وتعانقه قبل الوفاة فتقطع الكلمات على شفثها ولا تقول إلا
كلمة : ولدى .

وتمضى أيام تتلوها أيام وإذا البرعم الصغير الذى خلفته الوردة الكبيرة
يأبى إلا اللحاق بأمه . وقيل أن يذوق طعم الحياة بقمه لا بقم سواه .

وتمضي عشرون سنة ويقف السمكرى أمام الحياة وقفة تأمل وتدبر وتفكر فى الغرض من الحياة إنه يشاهد أولئك الذين تجرعهم الحياة كل صباح ومساء كأس الشقوة والهناء فيتساءل لماذا ينعم الناس بالحياة حيناً ويشقون بها آخر ؟

لقد علم ببصيرته النافذة أن التملك والسيطرة هما داء الإنسان العياء منذ أن تحضر وتمدن وتشعبت به دروب الحياة شتى الشعب إذن فلن يملك ولن يسيطر وسيبقى من عيشه بأضيق حال ، وننزع من حياته بأهون جهد ..

وساءل نفسه فى سداجة الأطفال : أوليس الغرض من الحياة أن أكون هادئ البال قرير النفس مطمئن الخاطر ؟ فلم أذهب نفسى شعاعاً وأجور عليها فى كل درب وشعب وأعكر صفوى واطمئنانى لا شىء سوى البحث عن الصفو والاطمئنان ؟

إنه مع ذلك لم يوصد باب دكانه. لكنه لم يلازمه إلا ساعة فى ليل أو نهار وأمست مصابيح ومعارفة لا تمتاز عن سواها إلا أن صاحبها يماطل الزبائن ويدافعهم شهراً أو شهرين بدل يوم أو يومين فإذا صنعت كان لزاماً على مشتريها أن يعاود الطلب إثر الطلب لسد خرق فيها أو لرأب صدع بها أما هو فما يهمه شتم شاتم .

ونخلت نفسه من هموم الدنيا حتى أمست عدم المبالاة مبسمة وشارته ولكنه لم يكن يوماً بليد الحس والشعور لما يصادف فى نفسه هوى عتيقا أو جديداً .

إن الكاتب قد صور لنا فلسفة السمكرى تجاه الحياة واحتكامه إلى بصيرته الفطرية فى ذلك وتساءل لم أعكر صفوى واطمئنانى لا شىء سوى البحث عن الصفو والاطمئنان ؟ ومن ثم أصبح شعاره تجاه الحياة المادية عدم المبالاة فهل استطاع أن يعمم موقف عدم المبالاة ؟ بمعنى أن بطبعه على مشاعره وغرائزه المنبعثة من الداخل داخل نفسه كما طبقها على أغراض الحياة من الخارج من حوله وفى تعامله مع الآخرين ؟

لقد كان الكاتب بارعاً حين فصل بين الموقفين موقف السمكري تجاه الحياة المادية الخارجية حيث كان شعاره إزاءها عدم المبالاة ولكنه أبى للسمكري حسه وشعوره لما يصادف في نفسه هوى عتيقا أو جديداً ذاك عالم الروح والقلب والنفس والغرائز الفطرية ومن ثم فما كاد السمكري يسمع صوت الطفل وهو يشرق بالدموع حتى ترك جذاذة من صفيح كان يعبث بها يومين ليجعلها في طرف من مصباح وانحدر من دكانه وهو يخافت سعالاً مزمناً وضم قميصه على صدره يتفادى نسمات الأصيل وهو في قر الشتاء وأقبل على الطفل وحقق في وجهه تحديقاً ثم مال عليه في حنان ومودة وسأله .

من أنت يا بني ؟

فما فاز منه بغير البكاء المرجع .

فأعاد عليه السؤال :

من أبوك ؟

فلم يسمع من الطفل إلا النشيج المتواصل فحنا عليه كالمرضع وأمسكه من ذراعيه في رفق ، وأعلاه حتى وضعه على مصطبة الدكان وآنس الطفل من تودده ما جعله يصمت عن صنع الرجل الغريب وكأنه في داره وفي حضن أمه وأبيه . واستخف الشيخ مريح غامر وكأنما استطاع هذا بيديه الناعمتين أن ينقله من تحريف حياته إلى ربيع العمر وزمان الصبا والشباب ، وأسرع إلى أقرب بقال ليلتاع للطفل ما يقدر على قضمه من النقل والحلوى وراه الناس فتساءلوا :

تري ما يفعل السمكري الكهل بهذه الحلوى والنقل ؟

وما كاد يصل دكانه حتى ألقى جمعاً منهم عند دكانه فاستثقل ظلمهم وأراد أن يجبههم بقارص القول لينصرفوا ثم تذكر أنه عليه أن يسألهم عن الطفل الهائه فنهاشوا أنفسهم بالجواب فقالوا لنفسه :

سأحفظ بالطفل أو نجد أباه فأحاط به القوم وسألوه :

لا نراك إلا منصرفاً عن الناس صغارهم وكبارهم فما بالك اليوم معنياً
بهذا الطفل ؟

فقال وهو يغالب السعال في صدره :

لأننى أجد فيه مشابهة من ابنى كثيرة .

وكان الظلام قد أقبل فاحتضن الطفل بذراعيه وأغلق دكانه وحين
دلف به إلى داره بحث للمرة الأولى عن مصباح غاز كان قد صنعه حين
أراد أن يبنى بزوجه فلما أضاءه فرغت الخفافيش فقد أعمى الضوء عيونها
المغطشة وهوى بعضها فوق الصفيح المنتثر فرن رنين الصدى في كهف مهجور
ووجل الطفل وجلاً شديداً وعمد إلى البكاء والنحيب فحملة السمكرى
على عاتقه وما زال يدور به جيئة وذهوبا حتى أغفى الطفل ونام ثم أخذت
السمكرى سنة من النوم فعاد به القهقري خمساً وعشرين سنة إلى الورا في
الشهر الأول من زواجه فكأنه كان في حديقة وارفة الظلال مهدلة الأغصان
تنبت منها جلوع النخيل وبها الكروم والرومان والجداول والأزهار ففاح
أريجها وتضوع عطرها وكان الطير يلقط الحب من سنابل العشب النامى
وحين دخل الحديقة فرآها جالسة إلى الماء وهي تغرفه بيدها غرفاً ثم تنفرج
أصابعها الخمرية فينحدر الماء منزلقاً منها إلى الجداول ثانية .. ومشى على
رعوس الأصابع كما يفعل القبط حين يرصد طيراً فلما أحسبت نهدت من
من الجداول وفرت تستجن بالياسمين وانطلق وراءها حتى أدركها فرامت أن
تنفذ من ثغرة في عريش الياسمين لكنه نالها في ذراعيه وحمّلها كما تحمل
الأم طفلها في حنو ومودة ، وشعر أن أصابعه إنما تنال من جسدها البض
الريان فخفف القبض عليها وانسدل شعرها الخقال هاذيا فكادت الأرض
تقبل أطرافه وارتوى الهواء من ريا عطرها منتشياً .

وصحا السمكرى من نومه على دق الباب وطرق وجلبة وضوضاء
فرأى أن ما رآه كان حلم الماضى وأمل الضبا والشباب ، ن صفيحة عن

يمينه وشماله وأن الطفل على ركبته مازال مغفيا ، وعلت الضجة كرة أخرى
وفهم السمكري أن أبا الطفل قد اهتدى إلى مأواه .

وانعزم بادی الأمر أن لا يرد على أبي الطفل إذا طالب بابنه ثم عن له
أن يجيب فأعاد الطفل إلى عاتقه ومضى به نحو الباب يفتحه فدخل الرجل مع
عمدة الحى وشكراه على حسن صنيعه بالطفل التائه .

أما السمكري فلم تحرق أذنيه كلمة مما قالاه فقد كان قلبه يتمزق مرارة
بأسفا على الهوى الضائع وما كان الرجلان يتهيآن للانصراف حتى قبض
على ذراع العمدة — وكانت تقام في بلاده مباراة سنوية يعرض فيها كل ذى
مهنة فنه — وقال :

اسمع يا عمدة سأشارك في مباراة المصاييح غداً .

— أنت . تعنى ما تقول ؟

— أجل .

— أنت الذى اعتزلت الناس عشرين عاماً ؟

— دعنا من هذا فلي شروط أخرى .

— حسنا وما هي ؟

— ستأتينى مساء الغد وستجد الدار مظلمة ما جدا مصباحاً يضىء
ستحمله حيثك بيديك ولن تحاول فتحه ستحمله إلى دارك وستضعه مع
مصاييح الناس في حجرة في دارك لا نور فيها ولا ضياء فإذا غم الليل فأدخل
عليها من رهطك ممن تحكمون في المباراة أفهمتنى ؟

— لست أفهم شيئاً .

— ستفهم كل شيء في حينه .

وخرج الرجلان . وبلغ العمدة في صباح اليوم التالى أن السمكري قد
وجد مقتولا في داره وقد اكتشف أمره لبان قد اعتاد أن يحمل إليه إفطاره .

وبعد دفن الرجل هز قلب العمدة جلال الموت ورأى أن ينفذ وصية الميت فقدم الدار ليلاً ونظر إلى المصباح فألقاه ينفث نوراً . خيل إليه أنه أصغر شعاعاً من الأنوار وأنه ينطوى على سر عميق فاعتزم أن يعود على أعقابهِ راجعاً ولكنه خشى أن يوسم بالجن والرعدة وهو الذي ذهب في الشجاعة وثبات الجأش مثلاً .

فاقترب من المصباح وكان كأنه يقطر لها ودماً لا شعاعاً ونوراً وأحس حين لمس المصباح أنه إنما يصفح الميت يداً . يداً خضبت بالدم المسفوك وكان الضفيخ تحت قدميه يققع ضاحكاً هازئاً ولم تطق أعصاب الرجل هذا الضراغ الخفى فانطلق هارباً وهو يضيح :

— ما هذا مصباح — ما هذا مصباح وأرسل من يثوب عنه في حمل المصباح إلى داره وخصصوا لمصابيح المباراة غرفة أو صلبوا نوافذها إيصاداً محكماً ، ولم يبيع العمدة لأحد بما سمع ورأى خيفة أن ينسب إليه ما لا يود أن يكون عليه من الشيم والصفات وحين أنبا العمدة كبار المحكمين بشرائط السمكري المغتال هزوا رؤوسهم قائلين :

ما بال سمكري معتوه يغير ما ألقناه في أيامه الخوالي ؟
فأجابهم العمدة :

إن الرجل قد قضى وما علينا لو حققنا أمنيته .

وبعد أخذ ورد وافق المحكمون أن تكون المباراة وفق ما رغب فيه القتل .

وأقبل الرجال الأربعة فحمة الليل الحالك على غرفة المباراة . وكانت عيونهم شاخصة وتتلاقى على الباب الموحد نظراتهم : ولما وقفوا قبالة احتاروا من يفتح الباب .

وأخرج العمدة يده ومدّها بتمهلاً ودفع الباب .
وبالغضب ما رأوا .

وأول الحجرة مضاءة كالنهار وكان المصابيح تتدفق نوراً ونوراً وأقبلوا على المصابيح ينقلونها واحداً واحداً فألقوها مظلمة عمياء ما عدا مصباح السمكري لقد كان يشع كالقمر . شعاع لا يفتش البصر ولا يعشيه وإنما ينحدر إلى العين سلسلاً وعافية وسلاماً وأماناً وهلواءً وقراراً وعجبوا كيف لم ينفذ زيتته منذ أمس وداروا حوله مستطلعين يريدون أن يعثروا له على فتحة أو باب فوجدوه قطعة واحدة لا تتجزأ وازدادت خيرتهم ودهشتهم ونخشوا أن يلمسوه بأيديهم فتركوه وشأنه وانصرفوا وقد أوصدوا الباب .

وأصبحت البلدة لا تتحدث إلا بأمر المصباح السحري الذي حير العقول وأذهل الأبواب بنور لا ينقذ وأعادوا الكرة في الليلة التالية فألقوه كعهدهم به . وسمع بأمره القاصي والداني وحزنوا أشد الحزن على نهاية صاحبه . ليته لم تمت ليرى مجده خافقاً على هام الزمن وبعد أيام أنخرج المصباح للناس ليروا أعجوبة تعنو لها الأعناق إنه ينفث نوراً كالعلق احمراراً ورأى عقلاء القوم انصراف العامة عن أعمالهم إلى هذا الحدث الطارئ فأرادوا أن يصرفوهم عن المصباح ولكن ما جدوى الدود عند انحدار النهر الطامى ؟ وأين للعقلاء أو السخفاء أن يصرفوا الناس عن شيء ما زال لهيب شوقه مستقراً في قلوبهم ؟ .

وقال شيخ حكيم وهو يهز لمته البيضاء : لن تصرفوا الناس عن هذا المصباح حتى تبددوا سره وسحره وما دام المصباح يشع ولا يعلم منا أحد ما ذلك الشيء الذي فيه يتلألأ فلا يخطر ببالكم أنكم بالغون من الناس أمراً . تقدموا إلى المصباح واجعلوا فيه شعبا أو صدعاً فتدفق الأنظار إلى داخله وتري ذلك الشيء المضيء .

وفهم العقلاء أن الرجل مضطرب فيما يقوله فأقبلوا على المصباح ودعوا السماكة وطلبوا منهم أن يفتحوه عنوة ففعلوا وما كادوا يفعلون حتى ارتفعت سحب من نور تهبش كالمواج الحيليل . وأخذ الناس رعب وهول فتأخروا ، ولكن ما غم أن تبدد علاج الضوء وبدأ الغيون في المصباح شيء .

كالتفاحة الضامرة يأتق ألقا يخطف الأبصار والألباب ووجم الناس لحظات شعروا فيها كأنهم يبتعدون عن دنياهم ويلجئون عالماً غريباً ..

وضاح رجل : ما هذا إلا حجر كريم فسئل كل جوهرى عنه فهزوا رؤوسهم منكبين .

- ما هو بحجر .

وأصلح رجل منظرته على عينيه وأقبل عليه يتفحصه ويدرسه وقال واثقاً مؤكداً .

إنه مزيج كيميائى غريب لا يفهمه إلا الراسخون فى العلم .

فأجابه الشيخ الحكيم :

لم يكن السمكرى كيمائياً .

فقال الرجل نفسه معانداً :

ولكننى واثق مما أقول والعلم لا يخطئ .

فهمس الحكيم قائلاً ليحسم الخلاف .

- نعم كل ما فى الدنيا مزيج كيمائى غريب .

وكان رجل يقف بالقرب من المصباح ومعه ابنه يحمله على ظهره فقد تاه منذ أيام ولو لم يعثر عليه السمكرى لأرهق أباه فى البحث عنه ليله ونهاره ..

ونظر الطفل إلى الشئ المتعلق وقال : هذا قلب لأنه شبيه ذلك الذى شويناه قبل أيام .

ولمعت فى ذهن الرجل فكرة وأسرع إلى العتدة يسأله كيف قتل الرجل وكيف وجده لما دخل عليه فأنباه أنه ألقاه مطعوناً فى صدره وكان قلبه انتزع انتزاعاً .

تعرض هذه الأقصوصة لفلسفة الحياة وجمعها بين المتناقضات « ما بال الناس ينعمون بالحياة حيناً ثم يشقون بها آخر » ويرفض البطل هذا المنطق

ويعبد عن صخب الحياة المتحضرة وما تتطلب من حب للتملك والسيطرة. ويقنع من الحياة بالقليل ويتخذ عدم المبالاة له شعاراً ذلك موقفه من ماديّات الحياة ولكنه يحمل بين جنبيه قلباً يفيض بالمشاعر والأحاسيس لم يلبث أن حاجته الذكرى "وفجر عثوره على الطفل عاطفة الأبوة في نفسه بل أحيا حبه الأول حيث زاره طيف حييته في المنام أو زار هو ذلك الطيف ويدرك السمكرى أن عزلته لا معنى لها فيقرر الاشتراك في المباراة السنوية للفنون ، ويسترعى انتباه الناس بمصباحه السحري بل يشدهم إليه شداً صرف الناس عن أعمالهم ويتدخل العقل وإن شئت فقل تتدخل الحكمة لإعادة الناس إلى أعمالهم وصرفهم عن التعلق بذلك المصباح ولكن الناس لن ينصرفوا إلا إذا عرفوا حقيقة المصباح السحري فيتدخل العقل والعلم ويفتح السماكة المصباح فيخرج منه شيء كالتفاحة الضامرة ويختلف العلماء في أمرها أحجر كريم أم مزيج كياوى .

ويصر الباحث الشاب على أنه مزيج كياوى هكذا يقول العلم والعلم لا يخشى ولكن الحكيم يقول كل ما في الدنيا مزيج كياوى غريب مزيج كياوى من العقل والقلب من الشقاء والسعادة وتتنبه البصيرة الفطرية بصيرة الطفل إلى أن هذا قلب .

وهكذا نرى أن في العقل تمرداً وغروراً . قد خضعت له طائفة من الأشياء وذلت له بعض صور الطبيعة فظن أن كل شيء يجب أن يخضع له وأن كل صورة من صور الطبيعة يجب أن تدغن لسلطانه ، والحوادث منع ذلك تثبت له من يوم إلى يوم بل من لحظة إلى لحظة أنه لم يعلم من الأمر إلا أقله ولم يستول من صور الطبيعة إلا على أقلها وأيسرها وأهونها شأننا وأن غرور العقل قد زين له أن يجعل للطبيعة قوانين ويفرض عليها قيوداً وأغلالاً وأن لا يؤمن بها ولا يرضى عنها إلا إن خضعت لقوانينه ورسخت في قيوده. وأغلاله ولكن قوانينه لم تحط بكل شيء ولكن قيوده وأغلاله لم تبلغ كل شيء ، وما زالت الطبيعة حرة بطلقة وما زالت أكبر من العقل وأوسع من

سلطانه وأبعد من مرماه ومازالت أحداث تحدث لا يستطيع العقل إنكارها .
ولا يستطيع تفسيرها ولا يستطيع إخضاعها لقوانينه ولا لقيوده وأغلاله (١) .

والمصباح السحري رمز لذلك هي متمرّدة على العقل لأنها أقوى منه
وهو متمرّد عليها لأن الغرور قد أفسد عليه أمره وأنساه أنه حديث السن قليل
الحول والطول وأن الطبيعة أقدم منه عهداً وأبعد منهم مدى وما دام كل
ما في الدنيا مزيج كيمائى غريب ، فإن النفس عاجزة عن أن تحيا بغير عقل
يدبر أمورها وبغير إيمان يبعث الأمن في جوانبها كما أن الجسم عاجز عن أن
يحيا بغير الطعام والشراب فالواجب أن يؤمن الإنسان بالعقل إلى حد ويتيح
لنفسه الإيمان واليقين .

هذا وقد رأينا أن المحن التي مرت بالسمرى من فقد زوجته وابنه
وإصابته بالسعال قد محصت قلبه وظهرت نفسه وصفت ضميره وأن هذه
الآلام الطارئة على غير انتظار والملحة في غير رفق دفعته إلى عدم المبالاة
ولمكن لم تفقده شعوره وإحساسه .

العقل الباطن وأحلام اليقظة في (الرأس المقطوع) (٢) :

حين يقدم الكاتب لأقصوصته هذه يقول : ما أدرى أحكاية هي أم
أقصوبة أم شيء سواهما ؟

والذى نراه أنها أقصوبة تعنى بالتحليل النفسى ومن ثم ركزت على
شخصية صاحب البستان وتحليل مشاعره إزاء شريط الأحداث الذى يمر
أمامه ، والأقصوبة فى نفس الوقت تقدم صورة للبيئة التي تهتم بأحكام
الشرع فتتفقد حكم القصاص فيمن يستحقه ، وهي بيئة زراعية تحيط بها
الجبال والصحارى ويخف فيها الناس لنجدة المستغيث إلا ترى أنها البيئة
السعودية .

(١) جل هامش السيرة . لطف حسين - ٢ ص ٦٣ - ٦٥ .

(٢) المنهل عند ذوالقعدة وذو الحجة ١٣٦٦ هـ .

وعلى كل حال فإن هذه الحكاية أو هذه الأقصوصة أو هذا الشيء الذى ليس بحكاية ولا أقصوصة كما قال عنه صاحبه هذه الحكاية تبدأ كما قال الكاتب قد هبطت البلدة يوم الجمعة فقد ابتعت ثمار بستان فى « العوالى » وكان البستان لا يضم سوى وأجير يعاوننى وكنا قد استبقينا الأهل بالمدينة فما كان بالبستان إلا كوخ أو عريش تبيت تحته الحمير ويقفل ونبيت على سطحه أنا والأجير .

وفجأة أبصرته يتدحرج .. الرأس المقطوع . وكان هذا الرأس لرجل قتل آخر فحكم عليه قصاصاً بالقتل حسناً . وما علاقتى بهذا الأمر .

إن الكاتب يبدأ من النقطة التى أهاجت مشاعره وجعلت تطارده وتلح عليه حتى هزت كيانه ، ومن ثم قدمها هكذا : الرأس المقطوع يراه فجأة يتدحرج أما أين وكيف حدث ذلك فيأتى تفصيله فيما بعد .

لقد ذهبت فى فضول الداهيين لأرى كيف يجلد الرأس ، وما كاد السيف الصادى يلمس بلسانه دم الرجل حتى أقبل على الرأس متدحرجاً ولم تبق لى المفاجأة مجالاً للفرار فصمدت فى موضعى . ولما توقف الرأس كانت عيناه فى عيني ولحيته معفرة بالدم والطين .

هذا الرأس المقطوع وما فيه من عينيّن ولحية معفرة هذا الرأس منبه أو مثير كما يقول علماء النفس فماذا أثار فى نفس البطل وما مدى هذه الإثارة وما وزنها ذلك ما يحدثنا عنه الكاتب حين يقول : لقد قفزت فى موضعى فى خفة الجمل وأرسلتها صيحة مدوية فانتظمت الضحكات فى رقابة الموسيقى وذهبت بين بردى نخجلاً وحياء ويممت سمت الدار لا ألتفت بمنة ولا يسرة .

فهل انتهى الأمر عند هذا الحد ؟ أم أن التأثير كان أعمق بكثير من هذا الظاهر حيث ترك منظر الرأس المقطوع روااسب نفسية ظلت تتفاعل بين جنبات الرجل حتى بدلت شجاعته جبناً وهبوءه فرعاً ذلك ما يفصح عنه الموقف التالى حيث يقص البطل بلسان المتكلم بقية الموقف : قضيت النهار

في الدار مخفياً عن الأهل حادث الظهر وتناولت معهم العشاء وقبلت ابنتي .
مودعاً واعتزمت العودة إلى البستان وقد أمسيت ولله الحمد خلى البال قرير
النفس ساكن الصدر - هكذا يقول - ونفذت من باب العوالى واحتوتنى
الظلمة وكانت وقتئذ معتكرة .

إن البطل يظن أن كل شيء قد انتهى وأنه صار خلى البال قرير النفس .
ساكن الصدر . لقد انتهى ذلك أمام العقل الواعى أما العقل الباطن فما زال
دوره قائماً وقد لاحت بوادره بذكر الظلمة المعتكرة وبمحاولة البطل أن
يصمد وأن يبدى التجلد بما يضفى على نفسه من صفات البطولة والشجاعة حين
يقول :

وصدقنى إننى لست بالذى ترتعد أوصاله ومفاصله إذا ما جته الليل
وهو فريد فى خلاء .: فقد مررت بهذا الطريق ليلاً عشرات المرات ولم
يطرف لى خلالها جفن فىم تغلل هذا ؟

ولا شك أن اسم الإثارة راجع إلى الخوف الذى سيطر عليه نتيجة
لأن الموقف موقف الرأس المقطوع مازال قائماً فى العقل الباطن يريد أن
يؤدى دوره فى لحظات الضعف الإنسانى ومن ثم نرى البطل يقول :

لقد كان شعورى والظلمة حولى كمن نزل البحر منستحماً أول مرة فى
حياته وعلمه بالسباحة لا يجاوز علمى أو علمك لا أدرى لم أسرع
قدماى وتصلبت أطرافى ولا أدرى لم كانت الخرائب تفتح أفواها كالسعالى
والغيلان . لم كانت كل قصفة من جزيريد النخل طبولاً تقرعها عتاة
العفاريت . وصعدت دماى تتدفق إلى دماغى : وكنت قد سمعت أن الجن
يفزعها الحديد فسللت الخنجر من عنقه وكنت أحمله أبداً معى ، وأطبقت
يدى على مقبضه حتى خشيت أن يتشم فى كنى وتهبأت للقزاع والطعان قزاع
من أيها البطل ؟ وطعان من ؟ إن عقلك الباطن وجد الفرضة مواتية ليرفع
الغطاء عن رأسه وينفخ عما به من غليان أحدثه الرأس المقطوع . أحدثه العينان
تبرقان أمام عينيك واللحية المعفرة بالدم والتراب . ومن ثم كما تقول أنت .

« داخلني هلع وفزع وأقبلت الدماء تمد القدمين فقله آن أوان الهرب والفرار
وهمت بهما لولا أنني رأيت على بعد ذراع مني عيني تالقان في حندس
الليل الحالك فشلت قدمي لحظات تبينت فيها لحية مخصبة بالدم والطين
فعض الرعب قلبي . ويلاه إنه الرأس المقطوع .

ثم يفصح البطل عن دخيلة نفسه وعن حركة العقل الباطن القوية
المندقة كالبركان حين يقول : وهجمت عليه من دون شعوري — بنجري
وأهويته بين عيني المشعتين ولكنني وأسفاه ما طعنت إلا الهواء لأنه أزاح
عن هجمتي كالبرق الخاطف وزحمت مهويا على رأسي وكأن مارداً جباراً
انزع الخنجر من يدي ومن يمن طالعي أن لم يصب من جسمي مقتلاً
وما كدت أنهض حتى ملأ الفضاء حولي ضحك كالعويل ، وجن جنوني
وأذنت لساق أن تسابقا الريح سيقاً وضحكات السخر ترون في أذني آية
ذاهية ووصلت البستان مبهور النفس لاهثاً .

إنها أشباح الرأس المقطوع تطارد البطل حيثما حل وأينا ذهب ومن ثم
فإنه حين أهوى بنجيره بين عيني الرأس المقطوع الذي لاح له في الخفاء
أيقن أنه ما طعن إلا الهواء فقد انزاح الرأس عن هجمته كالبرق الخاطف .
إنها أحلام اليقظة صاغها العقل الباطن بأسلوبه العنيف فهو لا يعرف غير
العنف لأنه لا يسمح له بالظهور إلا في فترات الضعف ومن ثم يسري عن
نفسه كل ما بداخلها . ولكن هل انتهى الأمر عند هذا الحد ؟ لقد وصل
البطل إلى البستان مبهور النفس لاهثاً يقول البطل :

وناديت الأجير فلم يسمع وبحت عنه ملهوفاً فلم أجده واستعنت بالله من
شرور المردة والشياطين ، ورقيت سطح الحظيرة — وقد تطامن قليلاً روعي
— وهذا وانحدرت إلى القلة أبحث عن ماء يرد الغلة ويروي العطش ...

وما كذبت أهوى بفضي البصاذي عليها حتى ألقيت شيئاً كالشعر يعلق
بالخلق واللسان فقربته إلى عيني وإذا به الرأس المقطوع ودم الزج يسيل
منه على ذراعي ويدي نزيباً ورميته بأقصى ما أمالك من قوة وانقلبت أنا

على قفاى ومفاصلى ترتعد وأسنانى تصطلك ، وبحث عن شىء أخفى تحته .
جسدى فأطبقت أصابعى على البساط المفروش وسحبته سنجباً فهوت اللحف .
والمتكآت فى ضجة إلى الأرض وأسبلته على حتى جعلته لى جنة ولمت نفسى
تحته كالقنفذ ، ولا زالت أصوات المرح الساخر تنفذ إلى أعماقى ، وتداولت
فى نفسى أموراً ، ورأيت فى موضعى المكشوف نهزة للعفاريت فأسرعت
بالانحدار إلى الحظيرة وغلقت بابها بيد متصلبة ثم ارتيمت عليه خيفة أن
يفتح ، ولا أدرى كم ساعة بددتها فى خنلقى حتى قدم الأجير وهو يبحث
عنى ويرفع صوته بالدعاء وأشعل عود الثقاب فلم يجد البساط ولا المساند ولا
المتكآت . فحدس أن لصاً سطا على البستان وأن صراعاً بينى وبينه نشب
فصاح مستنجداً .

الحرامى - الحرامى . الحقوا الحرامى وسمعت الحيرة وقد نفروا من كل
صوب منجلدين وفى أيديهم العصى والقسي وهم يغلطون :

أين اللص ؟ أين اللص ؟

فتلقاهم الأجير بالنبأ وتخف بعضهم إلى الحظيرة ليطمثنوا على وجود
الحمير وقد تصيب العرق بارداً من جبينى لا خوفاً وإنما نخجلاً وخياء .
ونهشتنى الحيرة فكيف أعلل وجودى بين البهم والحمير ولكن ما أسرع
ما ألهمت حيلة فتصنعت الرعشة والرعدة فلما أضاءوا وجدونى ملفوفاً كالتمر
فى مجلاد فقالوا والدهشة فى وجوههم . ما بك ؟

وهكذا نرى أن « الرأس المقطوع » تتحدث عن حلم من أحلام اليقظة .
اختزنه العقل الباطن إثر مشاهدة صاحبه للرأس المقطوع يتدحرج نحوه
بمينين براقطين ولحية مخضبة بالدم والتراب وقد ظن البطل أن الأمر قد انتهى
بانتهاء الموقف وعودته إلى بيته ومرور وقت من الظاهر إلى العشاء ولكن .
هيات هيات إنه لم يكد يبدأ رحلته فى الظلام المعتكر حتى طارده أشباح
الرأس المقطوع وأبى الكاتب إلا أن يجعل الرأس المقطوع يطارد البطل حتى
حين ظمأ ورفع القلة ليشرب منها فإذا بها الرأس المقطوع فيها تماناً ويظهر

أثر اضطراب نفسه وهلمه في تصرفاته حتى إنه ليدثر نفسه بالبساط ويأوى إلى الحظيرة ويغلق بابها من الداخل ويحكم الغلق بالوقوف خلفه حتى لا تلحق به العفاريت .

إنه حلم من أحلام اليقظة كما قلنا وكان الكاتب لم يكتف بما أصاب البطل من هلع وفزع حينما شاهد الرأس المقطوع لأول مرة فتابع أثر هذا الحادث داخل نفس البطل فإن التأثير الأول أدركه العقل الواعي ومن ثم ظن صاحبه أنه انتهى بانتهاء الموقف ولكن الكاتب أراد أن يبين أن العقل الباطن يخزن الخبرات السارة والمؤلمة التي يصل فيها الفرد إلى مرحلة التوهج والاشتعال فإذا ما سنحت الفرصة أعاد الموقف بأسلوبه هو لا بأسلوب العقل الواعي . روح البطل تحوم في عالم الرأس المقطوع وتبحث عن أسلوب قوى تعبر به عن الرغبة التي أصابت النفس إثر الموقف الواقعي . لقد انطلق العقل اللاوعي من عقالة يحدث بالآلام النفس الحبيسة والهواجس التي عز عليها الظهور في وضوح النهار بين تقاليد المجتمع وأوضاعه (١) .

وكان الكاتب بارعاً حين أجرى هذه الأحداث في الظلام المعتكر وفي الفضاء الرحب وأخيراً في بستان خلوى ، وقد صورت الأقصوصة بطلا مريضاً مرضاً نفسياً عانى آلاماً مبرحة من جراء ما شاهد فالأقصوصة تحقيق وهمي لنفور البطل مما رأى وتنفيس عن آلامه المبرحة بعد أن وصل به الصراع إلى الذروة يهرب من الرأس المقطوع فيجده أمامه وهو يحاول إطفاء غلته .

٦ - ما يعجز الشيطان عن منحه في (المخنون) (٢) :

يركز الكاتب في هذه الأقصوصة على عنصر الشخصية في رسم بقلمه لوحة فنية للبطل (صلاح الدين) تكشف عن صفاته الجسمية والاجتماعية والنفسية وإنه ليبدأ معه منذ أن كانت تراوده الأحلام والأمال في أن يكون

(١) الأحلام مفتاح الشخصية لعبد المنعم الزياى ص ٢٣ .

(٢) المنهل عدد صفر ١٣٧٠ هـ .

واحداً من أولئك الذين حظوا بالتعليم خارج البلاد بيد أن هذه الأمنية تحطمت على إرادة أبيه التي أبت إلا أن يكون رجلاً من رجال الدين ، فصالح الدين وإن كان قد شمر عن ساعد الجسد فدرس وثقف وتعلم إلا أنه لم يصبح في يوم من الأيام رجلاً من رجال الدين أو الدنيا البارزين .

وتوفي والده وترك له ثروة ليست بالصغيرة ولا الكبيرة تعصمه من الفقر ولكنها لا تحقق أحلامه لأنه كان يريد أن يكون مجلياً في كل ميدان .

من هذا المنطلق بدأ الكاتب أقصوصته أقصوصة بطل له أحلام عراض تريد أن ترى النور فتقف في طريقها عقبتان : إرادة أب متسلط وثروة صغيرة موروثة لا تنهض بأعباء هذه الأمانى وإن وفّت بحاجاته ولوازمه الضرورية .

ثم ينتقل الكاتب إلى وصف صلاح الدين بأنه لم يكن بالشخص الذي تنبو عن وجهه الأنظار لدمايته وقلة ماله وضآلة جاهه ، ولم يكن من الجهل وقلة المعرفة بحيث يكون أدنى منزلة من أولئك الذين درسوا في الكليات والجامعات ولم يكن بالأخرق الذي يدل بما ليس فيه أو بالذى يسلب الناس ما فيهم من خلائق رضية أو بنفس على الناس ما نالوه وما كان مقتصرأ في اجتماعه بالناس على طائفة دون أخرى فقد كان يجد في كل شخص ناحية من نواحي التقدير وجانباً من جوانب الإعجاب وناحية أخرى من نواحي القوة الإنسانية والضعف الإنساني . وقد لامه الناس في مخالطته للناس أجمعين بيد أن هذا لم يزد إلا إيمانا برأيه وتمسكاً به ويعود الكاتب إلى المفجر الحقيقي للآلام في نفس صلاح الدين يعود لمصدر علقته وآلامه « إنه ما يزال يدب في السفح الأدنى من أمانيه المتطاولة وإن لم ينل إلا أقل من القليل ، وكان هذا الضعف ينبوعاً خالداً لعطف الناس عليه وحبهم المتجدد له .

كان صلاح الدين يعنو للجمال في كل شيء يعجب بحمال الروح من وراء جمال الجسد وبجمال الأخلاق خلف تناسب الأعضاء وتناسقها وكان يود لو يجتمع له البروز في كل ميدان من الميادين مع جمال الجسد وحسن الطلعة وصفاء النفس وكمال الروح .

ويعرض الكاتب لصفة نفسية لدى البطل جعلته يتمزق من الداخل ويعانى آلاما نفسية مبرحة جعلت داخله كالبركان إنه يتألم وحده ويفرح وحده لأنه لا يبوح للناس بمكنون سره وحقيقة أمانيه لقد تقوقع حول نفسه فما كان بقادر على أن يبوح بحلمه الشهى هذا إلى أحد من أصدقائه ومعارفه فقد كان الرجل شديد الحساسية شديد الفرق من أن ينسب إلى الحماسة والجنون وكان يعلم أن هذا الحلم العذب الذى يراوده ليل نهار لن يتحقق فى يوم من الأيام ، وخشى صلاح الدين أن تكون هذه الرغبة الجامحة نوعاً من أنواع الاختبال والجنون وأراد أن يتغلب عليها صوت العقل والمنطق ولكنها ما فتأت تكتسح أمامها كل عقل ومنطق « إنه إذن الصراع بين الأمل واليأس بين العقل والرغبة الجامحة ، وقد ألقى إلينا الكاتب بضوء يخاف هنا حول النهاية المتوقعة إن الرغبة الجامحة قد تغلبت على العقل وعلى هذا الأساس سوف تمضى الأحداث وستنتهى أيضا .

وعلى أى حال فما مضى من الأقصوصة حتى الآن بمثابة تمهيد وإلقاء للضوء حول البطل صلاح الدين .

أما حكاية هذا البطل وآثار أزمته النفسية تلك الأزمة التى تتمثل فى أنه يعيش واقعاً مريراً ويحلم بعالم أفضل ولكنه يعلم أن هذا الحلم العذب الذى يراوده ليل نهار لن يتحقق فى يوم من الأيام أما هذه الحكاية وآثار تلك الأزمة فهى أنه كان يجود صنع الخواتم من فضة وذهب ويكنزها حتى إذا أقبل الحجيج أخرجها إلى السوق فتنفق لجودتها ما كان يمتن صنع الخواتم إلا إذ جاء لأوقات الفراغ .

وأقبل رمضان ذلك العام بلافتح حره وكان صلاح الدين كعادة الناس أنجمعين يخرج بعد صلاة التراويح إلى السوق لينتقل من دكان إلى دكان ومن حديث إلى حديث فإذا أوشك الليل أن ينتصف أو كاد ذهب إلى دار الصديق الذى قرر أن يجتمع الصاحب والحلان لديه فى تلك الليلة

فقضى معهم بقية ليله في هو وسمر إذا حمل النسيم الندى أذان الفجر إلى أذنيه
نهض منصرفاً إلى داره فتناول ما استطاب من السحور وقام مصلياً ثم
اضطجع فأغنى . بيد أنه كان يختار كيف عملاً ساعات نهاره الطويلة ؟
وفكر أن يجعل سمر نهاره كتاباً خفيفاً هيناً فأختار كتاب ألف ليلة وليلة
فقد كان يقرأ هذا الكتاب أيام الصبا وكان يفضل على غيره لأن فيه من
القصص ما يشوق ومن الأدب السافر ما يروق .

وقد حدد الكاتب زمان الأقصوصة ومكانها فهي أقصوصة حجازية تمت
على هذه الأرض المقدسة وفي شهر رمضان المعظم ، ومن ثم ألفت ضوءاً
على هذه البيئة وما فيها من صناعات وأن الحجاج الذين يؤمنون هذه الديار
يتسارعون إلى شراء صناعاتها الجيدة ، وصلاة التراويح وسمر الليل وصلاة
الفجر والاستعانة بالقراءة الخفيفة على نهار رمضان الحار المسرف في
الحرارة .

أما ليلة الحلم اللذيذة فقد امتزج فيها الأمل ، الألم والفرح ~~بالحزن~~ في ليلة
العید عمده صلاح الدين إلى غرفته التي اتخذها موضعاً لصنع الخواتم فأبعد
ما كان من البرادة منشوراً وما كان من الأوساخ مبعثراً احتفاء بيوم العيد
وكان في جانب من الغرفة خزانة ذات أدراج فتح أكثرها إلا درجين
مهجورين في أسفل الخزانة ولم يكن بداخلهما شيء ذو بال ووضع صلاح
الدين يده على أولهما بدافع الفضول والاستطلاع فسحبه على مهل فلم يلف
بداخله سوى الغبار المتراكم ثم مد يده إلى الدرج الآخر فسحبه أيضاً فوجد
بين الغبار المتراكم خواتم فضة علاها الصندأ فاسودت وتذكر صلاح الدين
أن هذه الخواتم هي أول ما صنع وأنه صنع أكثرها على مقياس يده وداخله
سرور مخامر حين قاس عمله المتقن الجود هذا بعمله البدائي الفج .

ويأبى الكاتب إلا أن يجعل البطل يقف لحظة يتأمل فيها تاريخ صنعته
كيف بدأ وكيف انتهى يقول البطل : كيف يبدأ المرء أول ما يبدأ عملاً
معونجاً ناقصاً ثم لم يزل يهذب ويصلح من نقصه حتى يضحى وكأن لم يكن
معونجاً بالأمس .

وإذن فالعمل أفضل وسيلة لتحقيق الأمل وتاريخ البطل في صنع الخواتم أكبر شاهد على ذلك .

وعلى كل حال فقد أهابت بالبطل نفسه المتهائلة أن يجرب خواتمه العتيقة على أصابعه واحدة واحدة ثم ردها إلى الدرج المهجور ، وهم بغلقه ولكنه لمح في نهايته خاتما ليس كخواتمه التي كان يصنعها فدهش لوجود هذا الخاتم بين خواتمه العتيقة وامتدت إليه يده اليمنى . إنه خاتم أخضر وقد لبسه في يده اليسرى وما كاد يفعل حتى اختفت غرفته الخفية في لحظة البصر والتي نفسه في غرفة واسعة الأرجاء تفرش أرضها البسط الإيرانية الثمينة وتناثرت فوقها أرائك وزرابي ما قط عينه رأت ولا أذنه سمعت بأحسن منها .

ورأى في صدر المكان منضدة نفيسة يجلس وراءها شخص في العقد الرابع من عمره حسن الطلعة جميل الصورة وقد ارتفعت من خلفها ماثات الرفوف تكتظ بالآلاف من محافظ الأوراق وجمال صلاح الدين يبصره فيما أمامه من مناظر المكتب المسحور وهو يفرك عينه بيده وقد ظن أنه يرى ما يراه النائم في أحلامه أو أنه قد أنعم عليه وهو لا يدري أو قد يكون تناول مادة مخدرة وهو لا يعلم أو تكون أحلامه في أن يصبح مثلاً أعلى في شيء قد جرت به إلى مهاوى الجنون والاختبال وأراد أن يختبر نفسه أهو لم يزل متمتعاً بعقله أم هو قد ودع العقل ولم يجد أمامه من حل لهذه المعضلة سوى أن يتقدم إلى الرجل المشغول بأكداس أوراقه ويتحقق من وجوده أهو إنسان بعصب ودم ولحم أم هو دمية بعينين أم إنه لا هذا ولا ذاك فهو حلم من الأحلام أو هو كابوس مخدر تجسد أمامه .

وهكذا وصل الكاتب بالصراع الداخلي للبطل إلى الذروة فهذا واقعه قد تغير إلى الأفضل فتحوّلت غرفته الخفية إلى غرفة واسعة جميلة مفروشة بأحسن الفرش وهذه هي الأوراق المالية مكسدة أمامه ولكن كيف حدث هذا ؟ هنا يقع البطل في حيرة من أمره وتساوره الشكوك والأوهام فيقلب الأمر على وجوهه ويكاد يجن لأمرين :

الأول أن العمل طريق تحقيق الأمل تحسنت صناعة خواتمه بمرور الأيام .
تقصار نتاجه المتأخر أفضل من نتاجه السابق لكنه لم يعمل شيئاً حتى يحدث
هذا التغير المفاجيء من سىء إلى حسن ومن قبيح إلى جميل ومن فقر إلى غنى
على الأقل فى الظاهر .

أما الأمر الثانى : أن البطل كان يعلم أن أمله لن يتحقق فى يوم من
الأيام .

ومن ثم نرى الكاتب قد وصل بالصراع النفسى إلى الذروة فقد تعقدت
الأمور فما الحل ؟

هاهو البطل يخطو صوب المكتب ووضع يده المرتجفة مخبراً كنه هذا
المكتب فوجد أن شعوره باللمس لم يختلف فى كثير أو قليل من لمسه لألواح
الزجاج التى تلتصق بالمكاتب فى الألواح العادية ، وأحدث اختباره لألواح
الزجاج وهو جائش مضطرب ضجة أيقظت الرجل من غفوة أشغاله فأعلا
رأسه قليلاً وقال مبتسماً :

مرحباً أهلاً أنت تفضل اتخذ هذا الكرسي لك مقعداً ريثما أفرغ
وتخس صلاح الدين الكرسي بيده فلم يجده إلا كباقي الكراسي فتيقن أن
ما يراه الآن حق ويقين وأن عقله ما زال بخير إنما الحيرة التى تضنيه وتشقيه
هى أنه : كيف استخالت غرفته الحفيرة بحصيرها البالى وخواتمها الذهبية
والفضية إلى هذه الغرفة ؟ وهذا الرجل الذى كأنه يعرفنى منذ دهر مديد .

واستوى صلاح الدين على الكرسي ، وما عثم أن رفع الصديق المجهول
رأسه وهو يقول :

إني لآسف سيدي فقد تغيرت أوضاع هذا العصر وتقاليده فقد كان
المفروض سابقاً أن أكون لديك فى التو بدل أن تتكلف أنت الحضور إلى
مكتبي بنفسك .

ولكن صلاح الدين لم يستطع أن يفهم من الرجل الذى أمامه فسأله :

من تكون أنت ؟

وكأنما فوجيء الرجل المجهول بهذا السؤال فابتسم وقال :

أنا أنا .. رجل من الجن .

فقال صلاح الدين : وما صلتى أنا برجل من الجن ؟

فقال الرجل : إنها لأوثق صلة .

فقال صلاح الدين : لم أفهم بعد ما تعنى .

فقال الرجل : إنما أعنيه سيدى واضح جداً فى خنصر يلك اليسرى .
خاتم أنخضر وإننى لعبد من يلبس هذا الخاتم وطوع أمره .

وصاح صلاح الدين كأنما أدرك الحقيقة إذن فأنت جنى تابع لهذا
الخاتم الأنخضر الذى أملكه وهذا يشبه ما كنا نقرأ فى أساطير ألف ليلة
وليلة .

فأجاب الجنى مبتسماً الأمر كما ذكرت سيدى مع بعض الفوارق فالتابع
الجنى سابقاً كان يحضر حين يطلب قبل أن يرتد إلى صاحبه الطرف أما الآن
فكما رأى سيدى الأمر بالعكس والسبب فى ذلك أن الزملاء السابقين كان
كل واحد منهم وقفاً على شخص واحد فقط أما جنى القرن العشرين فعليه أن
يلبى طلبات آلاف من عملائه الكرام وقد يطلبونه فى زمن واحد فهناك على
الأقل آلاف ممن يملكون خاتماً أنخضر كخاتم سيدى هذا وإن التوفيق بين
ما يطلبون ووقتي المحلود بالدقائق والثوانى لأمر عسير حقاً فأرجو أن يتكرم
سيدى بالبوح عن رغبته سريعاً لأكون عند حسن ظنه .

وهكذا أراد الكاتب لبطله أن يهدأ بعض الشيء وأن يطمئن إلى أنه
ما يزال عقله بخير ولكن اللغز المحير ما يزال يلح عليه كيف حدث له هذا
التغير ؟ وما شأن الرجل المجهول إنه جنى وهنا يدرك البطل أن ما يراه الآن
شبيه بما قرأ فى أساطير ألف ليلة وليلة .

وفى حوار البطل مع الجنى يظهر مفهوم جديد لدور الجنى فى الأسطورة .

فالتابع الجنى سابقا كان هو الذى يحضر إلى الإنس حين يطلبه ولكن التابع الجنى فى القرن العشرين يبقى فى مكانه لأن أعماله كثيرة وهو ليس تابعا للإنس واحد بل لأناس كثيرة ولكل منهم مطالبه والوقت محسوب فليحضر الأناسى إلى تابعهم حيث شاء وليطلبوا ما شاؤا بسرعة لأن منطلق العصر هو منطلق السرعة ومن ثم انعكست طبيعة العصر على الأسطورة والتابع ومن ثم فالحل الذى سيقدمه التابع محسوب وموقوف على البطل أن يفكر بسرعة وأن يتصرف بسرعة تمشيا مع روح العصر وإلا ضاعت عليه هذه الفرصة المتاحة .

ودار فكر صلاح الدين دورة سريعة ماذا يطلب الآن ؟ لقد أخبره الجنى بأن الجن لا يستطيعون أن يحققوا لكل عمل أكثر من أمنية واحدة فى حياته المبدية وأن لدى صلاح الدين ثلاث دقائق فقط لاختيار إحدى الأمانى المشتهة فماذا يختار المال . الجاه . العلم .

إن آخر ما يفكر فيه العلم وإته يريد أن يصبح أجمل شخص فى الوجود . فقال له الجنى : لك ذلك ثم نهض الجنى من مقعده وقال :

يا صاح أدر ظهرك إلى .

ففعل صلاح الدين ثم أضاف الجنى إلى الإمام سر .

فأطاع صلاح الدين ثم صاح الشيطان بلهجة الأمر : قف فوقف ولم يخطر بباله قط أن يعصى صاحبه وهو يملك الخاتم الأخضر فقد كان جنى القرن العشرين غير جنى الأساطير كان صلاح الدين يشعر أنه مسلوب الإرادة وما كان يرى أية غضاضة فى أن يطيع أوامر الجنى بخذافيرها دون عرضها على العقل أو الوجدان أو الضمير . وقد فهم تماماً أنه أصبح تابعه وأسيره وصاح الجنى آمراً : انظر أمامك .

ورفع صلاح الدين نظره فرأى مرآة ضخمة تكاد تملأ الجدار المقابل لمكتب الجنى فرأى شخصا أبيض طويلاً أبيض الأنف له بلسة معطرة تداعب

جبينه الحمري ورأى أكتافاً عراضاً وجسداً مفتولاً يمتع العين ويسبي النظر ولم يدر بخلد صلاح الدين أن المرأة إنما تعكس صورته الحقيقية إلا حينما نظر قامته المتطاولة وأكتافه العراض وبدنه الرياضي فأيقن أنه قد أصبح أجمل رجل في عصره وصاح الجنى والآن عد إلى بلدك .

. لقد كان البطل صلاح الدين يريد أن يكون المحلى في كل ميدان في ميدان التروة والجاه في ميدان الجمال والكمال . كان لا يتعلق من الأمانى إلا بقممها .

المحلى في كل ميدان ولا يتعلق من الأمانى إلا بقممها أهذا ممكن ؟ أهذا في طاقة البشر ؟ إنه أيضا ليس في طاقة الجن ومن ثم قال التابع للبطل لا نستطيع أن نحقق لكل عميل من عملائنا أكثر من أمنية واحدة في حياته المديدة . على أن تبديد طاقة الإنسان في أكثر من ميدان لا يؤدي إلا إلى الفشل فمن طلب كل شيء حرم كل شيء . لقد نال البطل أمنيته في ميدان الجمال فصار أجمل شخص في الدنيا فهل سعد بذلك ؟ ومن الذى حقق له هذه الأمنية ؟ إنه الشيطان .

لقد عاد صلاح الدين إلى بلده كما أمره الشيطان وقبل أن يرتد إليه طرفه وجد نفسه في غرفته الخفية جالسا القرفصاء في ناحية منها وأراح مرفقه على ركبته ووضع ذقنه على كفه مفكراً . أين كنت ؟ وماذا فعلت ؟ وهكذا ولما لم يجد لأسئلته المتتالية جواباً نهى من موضعه وفتح النافذة الوحيدة في غرفته الرطبية فداعبت أنسام السحر الباردة وجهه المحموم ورأى من بعيد الثريات الكهربائية تتألق على منارة المسجد ، وسمع أصوات الصبيان في الأزقة والحارات وهى تردد بكرة عيد بكرة عيد فعلم أنه مازال في ليلة العيد السعيد وأن عقله مازال بخير وأن مارآه كان من آثار حمى انتابته وهو لا يدرى فشكر الله على أن رد عليه صحته وعافيته .

ما حدث للبطل إذن كان هذيان محموم وضرباً من أحلام اليقظة تحققت (المنهل)

خلاله أمنية واحدة من أمانيه الكثيرة المكبوتة التي عز تحقيقها في عالم الوعي والشعور فتحققت في عالم اللاوعي والاشعور .

وفكر البطل في أن يذهب إلى أمه وأخته ويزف إليهما تهنئة العيد المبارك . وخرج من غرفته ورقى الدرجات القلائل التي تفصله عن أهله وأقبل على أمه وأخته وهما مشغولتان بكى أغطية الحشيات والمساند وفتيلة السراج المعلق تنثر نورها الهين اللطيف في أرجاء الغرفة وما كاد صلاح الدين يلج باب الغرفة حتى قال كمادته : السلام عليكم .

وما إن سمع صوت نفسه حتى خيل إليه أن نبرات صوته قد أصبحت أحسن من ذي قبل فعزا ذلك إلى الحمى التي زارته في تلك الليلة بيد أنه ما كاد يخطو إلى الوصيد خطوات قلائل حتى ارتفعت أنظار الأم والأخت إلى صلاح الدين تستطلعان من القادم فقد آتتا صوتا غريبا غير صوت صلاح الدين ورأتا على ضوء المصباح الشاحب وجهها غريبا لم تكن أنظارهما صافحت وجهها مثله من قبل فقد ظنتاه في بادئ الأمر صلاح الدين ولكنهما حينما رأتا شخصا طويلا لا يشبه صلاح الدين في قليل ولا كثير صعقتا من هول المفاجأة بادية الأمر ثم رفعتا عقيرتيهما من غير وعى تصيحان : حرامى . حرامى . الحقوا ياناس .

وهنا يقطع الكاتب سلسلة الأحداث ويعطى البطل فرصة للتفكير في ماضيه ومستقبله وفي الموقف الذي هو فيه وكيف يخرج منه .

لقد فهم صلاح الدين أن حكاية الجنى مازالت تلاحقه وتطارده ، وأنه قد فقد سماته الأصلية التي بها يعرف بين أهله وصحبه ومواطنيه وبني جلدته وأنه باع واشترى باع حب عشيرته وحبهم عليه . حنان أمه وأخته الذي لا يعد له حنان ذلك الحنان الودود الصافي الذي رضع منه صغيراً وفطم عنه كبيراً فقد كان يكفي أن يكون عند أمه وأخته قبيح أو جمل حقر أو كبر اغتنى أو افتقر ليكون في قلبيهما ابناً وأخاً . واشترى ويثما اشترى اشترى

هذه القامة الفارعة والوجه الغرائق والعيون النجل والتي لا تساوى شيئاً إن لم يكن لها رصيد من مال وجاه ومنزلة مرموقة وسمعة طيبة حسنة .

ورأى صلاح الدين أنه من المستحيل أن يفهم أهله أنه ابنهم الذى عاشروه دهرأ طويلاً . ولاح لناظريه مصيره المؤسى فهو فى عرف الناس والعدالة مجرم اقترحم داراً لا تحل لغير أهلها ليسرق أو يسلب أو يفجر وسيلقى جزاءه المحتوم فيزج فى السجن وربما جلد بالسياط على مرأى من الناس ومسمع فماذا يجديه جماله الفتان وقدره السحرى لقد حرم من أهله وصحبه وإخوته وحيل بينه وبين أمواله وأملأه لقد أصبح منبوذاً طريد العدالة والمجتمع وربما اتهم بقتل صلاح الدين المفقود فيقتل جزاء ما قدمت يداه .

لقد باع البطل جمال الروح وجمال الأخلاق وصفاء النفس باع كل تلك القيم الثمينة التى لا تعوض باعها للشيطان والثن جمال الجسد وتناسب الأعضاء وحسن الطلعة وإنه لثن بخس على أن هذه الأفكار تذكرنا بقصة فاوست للأديب الألماني جوته لقد باع البطل فاوست نفسه للشيطان فى مقابل أن يعيد الشيطان للبطل شبابه ويمتعه بكل طيبات الحياة ، ولكن البطل صلاح الدين باع للشيطان قيمه الروحية مقابل شىء واحد هو جمال الجسد أرأيت الفرق بين شيطان الأوس وشيطان القرن العشرين شيطان القرن العشرين يأخذ أكثر مما يعطى يأخذ الروحانيات ويعطى الماديات .

وعلى أى حال فقد لاح هذا الشبح الرهيب المرعب أمام ناظري البطل صلاح الدين فاتقدت النيران فى دمه المشبوب وأظلمت الدنيا فى عينيه فثارت فى نفسه الحطمة غرائر أهل الغاب وأمسى فى لحظة من اللحظات ذئبا من الذئاب مكشراً عن أنيابه لا هم له فى الدنيا سوى الدفاع عن نفسه وحياته .

ونخيل إليه كأن لسان السراج المعلق فى الجدار لسان ذلك الجنى الساخر المتمرد يهزأ من أطماعه المتطاولة وأحلامه الطائشة ويهزأ بعد ذلك من ضعفه الإنسانى .

ونظر إلى أمه وأخته وهما تصيحان فخيّل إليه كأنه يرى حيتين قدرتين
تلتويان وتلدوران وتريدان القضاء على البقية الباقية من حياته فأهوى عليهما
بجسده العملاق وأمسكهما من ناصيتيهما كأنما هما دميّتان من طين في يديه
الضاريتين وبدأ يدق رأسيهما بعضهما ببعض حتى اختلط وجهاهما وامتزج
دمهما السخين على صدريهما الصاعدين الهابطين وأحسّ بالدم اللزج يتدفق
على رسغيه فترك جثتيهما تهويان وهو يضحك ضحكاً عالياً .

وكان الناس والجيران قد أقبلوا على صراخ المرأتين وبأيديهم العصي
والخناجر فاستقبلهم ضاحكاً وهو يقول :

أحسنتم لقد وصلتم في الوقت المناسب أبعثوا عن وجهي هاتين
الحشرتين .

ثم ارتمى على الأرض واستوى جالساً عليهما وأخرج يديه للناس وهو
يريهن الدم المطلول عليهما .

انظروا ما أدفا دم هاتين الحيتين .

وهكذا صورت لنا هذه الأقصوصة جانباً من حياة هذا البطل الذي
كان يحلم بالتعلم خارج البلاد لكن رغبة أبيه أبت إلا أن يكون من رجال
الدين وانتهى به الأمر إلى أن لا يكون من رجال الدين ولا من رجال الدنيا

لقد تطلع إلى كل شيء فحرم من كل شيء وتوقع حول نفسه فكبت
آماله وأحلامه وعزّ عليه تحقيقها في عالم الواقع والحس فحقّقها في عالم الخيال
وأحلام اليقظة وباع نفسه للشيطان من أجل الجمال ورفض أن يطلب إليه
العلم أو الجاه بل إنه كره العلم لقد أعطاه الشيطان الجمال وسلبه الحنان فأنتهى
به الأمر إلى تدمير علاقاته الروحية حتى مع أمس الناس به اتصالاً أمه وأخته .
اللتان كانتا ضحية اتفاده مع الشيطان .

والكاتب مسبوق إلى القضية العامة كما ذكرنا ذلك سابقاً في قصة فاوست
بلجوته . وقد تأثر توفيق الحكيم أيضاً بفاوست في مسرحيته (نحو حياة أفضل)

والفرق بين الأديبين السعودي والمصري أن البطل في الأقصوصة السعودية اختار الجمال بينما المفكر المصري رأى أن إصلاح النفوس أفضل من الإصلاح المادى وأنا إذا أردنا تقدماً نحو حياة أفضل فعلينا أن نصلح النفوس أولاً عن طريق التربية والتعليم فإن الإنسان المثقف يستطيع أن يحيل الصحراء إلى جنة بينما الجاهل يحيل الجنة إلى صحراء وأن تغيير الحياة المادية مع إهمال الإصلاح التنسى لا يحقق الثمرة المرجوة .

والأديب السعودي ترك بضماته في أقصوصته فهو معنى بالشخصيات المرضية معنى بتحليل نفسياتها كما سبق في « المجانين الثلاثة » وأثر البيئة واضح في الحج والعادات الحجازية في رمضان .

والأديب السعودي جعلنا في النهاية نأسى على مصير ذلك البطل الذى باع الحنان وأواصر الود بالشكل الخارجى الجميل الذى قاده إلى سفك الدم البرىء والتحول من الآدمية إلى الحيوانية المفترسة .

وربما أخذ على الأديب السعوى استعماله بعض الألفاظ القرية التى تحتاج القارىء معها إلى الاستعانة بالقاموس مما يقطع حبل أفكاره مثل الوصيد - عقيرتهما - الغرائق - الحطمة - وهى على كل حال كلمات معدودة .

(ب) سيكلوجية التسامى والمراهقة عند عبد السلام هاشم حافظ .

١ - التحقيق المقنع لل رغبات المكبوتة فى (فاطمة) (١) :

تحكى هذه الأقصوصة حالة من حالات الحب العفيف نشأت بين فتى وفتاة أحبا فى طهارة و قدسية ولكنهما لم يصلا بحبهما إلى الزواج فتزوجت هى برجل آخر وأنجبت منه وتزوج هو بأخرى وأنجب منها بيد أن أواصر الحب العذرى بين العاشقين ظلت كما هى بل ازدادت تماسكاً وتسامياً .

فكيف يلتقى العاشقان المتيمان ؟ فى وضوح النهار وعلى مرأى ومسمع من

(١) المنهل عدد ذى الحجة ١٣٧٣ هـ .

الآخرين ؟ المجتمع المسلم ، والأسرة المسلمة زوج تلك الفتاة وطفلهما وزوجة ذلك الرجل وأبناؤه ثم استحالة أن يقبل المجتمع المسلم أو الأسرة المسلمة هذا اللقاء الغرامى وإن كان عفيفاً ومن ثم لجأ الكاتب الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ إلى عالم الرؤى والأحلام ليكون ذلك العالم وسيلة لإشباع هذه الرغبة المكبوتة .

فإن فرويد يقرر أن العقل اللاوعى ينطلق فى المنام من عقله ويحدث بآمال النفس الحبيسة فتنتطلق منه الرغبات المكبوتة وتصبح الهواجس التى عز عليها الظهور فى وضوح النهار وبين ضجيج المجتمع وتقاليده (١) .

وعلى هذا فنستطيع أن نعد هذه الأقصوصة تعبيراً مرضياً كما يقول فرويد أى أنه على وجه الدقة نتاج مرحلة نرجسية من مراحل التطور أى تحقيق وهمى للرغبات أى رضا معوض ناشئ عن توقان منهوم لم يجد شبعه فى عالم الحقيقة . وعليه تكون هذه الأقصوصة صورة بل صور جميلة توضح سيكولوجية التسامى (٢) وأنها تصور الصراع النفسى الذى عاناه منير وفاطمة إنها كالحلم تحقيق مقنع لرغبات مكبوتة وأجمل ما فى الأقصوصة أنك لا نحس بوجود الكاتب لقد اختفى تماماً وترك الأشخاص الفنية فى الأقصوصة تتحدث عن نفسها ليس مجرد حكاية تجرى بينهم وإنما يخلق الكاتب مشاهد ومناظر يدور من خلالها الحديث فقد استبدت بمنير موجة قلق عاصف حينما جاءته البشرى ترف إليه بعد يومين بأن الله الكريم نخلص (فاطمة) من الموت الأصفر ووضعت مولودها الأول بعد عذاب وألم قاتلين عانتها خلال أيام ثلاثة كاملة . ولكن لماذا يقلق منير ؟ حقاً لقد كان خلاصها من تلك الحال بشرى عظيمة لمنير ولقد عاد ساعتها من عمله مرهق الأعصاب خاوى البطن يتهياً لتناول طعام الغداء وهاهو على مائدة الطعام بين أفراد أسرته وهو على عادته صامت لا ينطق ببنت شفة وبعد الفراغ من تناول الطعام خلت الغرفة إلا منه ومن أخيه الذى راح يضم طفله ويهدده لينام حتى يستطيع هو أن

(١) الأحلام مفتاح الشخصية للأستاذ عبد المنعم الزياى .

(٢) النقد الأدبى ومدارسه الحديثه ستانلى هايمن - ترجمة إحسان عباس ومحمود يوسف نجم .

ينام بعض الوقت ليرتاح جسده المتعب ، ودغدغ الذبول أجفان منير وشعر
بخدر لذيذ يتمشى في جسده المتعب وهو يطالع مطالعاته الهادئة قصة فنان
حائر مثله ، وهم يصلح من وضع رأسه وإذا بلعلة صوت جارثهم شبه
العجرية ينادى على ابنتها فاطمة . فاطمة يا مقصوفة الرقبة أين معلقة الشاي ؟
وحملق منير بعينه واستعاذ بالله في نفسه ثم قال بصوت خفيض : يا للشيطان
تقصف رقبة ابنتها من أجل معلقة أو غيرها وبعد لحظات سكون كان منير
يتكلم مع نفسه :

أوياء يا فاطمة ألا ما أعذب هذا الاسم الحسن . إن صاحبتك ملاك
ساحرة تستوطن القلب إنها هي الوحيدة التي ملأت على أيام صباى ونحن
أشبه ما نكون بالأطفال .

لقد كان حبنا العنرى نادرة الوجود في مثل هذا الزمن المريب . إنه
الحب للحب . إننا سنلتق اليوم أجل ألا ما أسعد هذا اليوم وأخلده في تاريخ
حياتنا . انتظري يا فاطمة سآتي لزيارتك لأطمئن على حالك واغفري لى لأنى
قد تأخرت عليك وقد مضى أسبوع كامل على ولادتك . وتناهض يتحامل
على نفسه ثم يقفز خفيفا فرحاً يلبي نداء أعماقه ولم يشعر إلا وهو بحضرة
حببته « فاطمة » وهى مضجعة على فراشها في مكان له ذكرياته القديمة وقد
كان الوقت أصيلاً . لقد وجد نفسه يجلس بالقرب من موضع رأسها وهو
يقول : الحمد لله على سلامتك يا أختاه إنك بخير بالرغم من هذا الضعف
والشحوب . أهذا وليدك ما شاء الله سينشأ سعيداً في ظلك قال ذلك وهو
يشير برأسه مكتفياً بمد بصره حيث كان مرقد الطفل قرب أمه في الجانب
الآخر وأدار منير بنفاراته في الغرفة فلم يلاحظ سوى فتاة وطفلين بأحد
أركانها وقد انهمكوا في لعبة لم يتبينها ودنا قليلاً من فاطمة التى لم تتحرك من
مضجعها إلا لتزيح الغطاء السميكة عن نصف جسمها العلوى ثم تقول وهى
ترنو إليه بنظرة وادعة كسيرة : إننى لا أعرف كيف أشكرك يا سيد منير ،
وفاؤك الدائم . أخوتك الصادقة البريئة حبك الخالد الذى رضعناه معاً ثم
انزع الأشرار كأسه من بين أيدينا . أنت كيف حالك بعدى لقد قالوا إنك

بعد يأسك أصبحت كمجنون بنى عامر المسكين تتيه فى القلوات وتعاشر
الطير والظباء ثم سافرت تطلب السلو فماذا وجدت. هناك وقد عشت كما أنت
فى وملك وشروذك أما أنا فيكنى أن تعرف عنى أننى أعيش بلا قلب وبلا أمل
ولئن كان جالك يكربنى ويحزبنى فلأنى الآن أشعر بالطمأنينة عليك لأننى
سمعت أنك سعيد فى زواجك وقد بدأت حياة جديدة ..

وندت عن الاثنين آهتان ملوعتان ثم دموع حاول كلاهما أن يخفيها عن
الآخر بحركة تجفيفها السريعة ولما التقت أنظارهما ابتسما وامتدت أذرعهما
على الأكتاف وتقارب صدراهما وحدت أعينهما فى بعضها بوله شديد ولم
يشعرا إلا وهما يتعانقان وتلتقى شفاههما الظمأى فى قبلة بريئة انتعشا بها
وتأوها وضغط منير بأنامله على ساعدها ثم أعاد يده إلى حجره وهو يقول
بتأثر بالغ :

كفاك يافاطمة ما عانيت ... عيشى فى واقعك فليس حالى أقل من حالك
أنت . سافرت نعم ولكن أى شىء لم يستطع أن يغير ما بقلبي لك :

وهنا وقع نظر منير على زوج فاطمة وهو يأخذ مكانه بينهما ولم يفر منير
للمفاجأة ولم يستنكر وجوده فى هذا الموضع ولم يزد على أن زحف قليلا إلى
الوراء وحيا الزوج بإيماءة من رأسه وابتسامة خفيفة طبيعية ورفع الزوج رأسه
متأففا ثم يقوم بكسل يشرف من النافذة على المارة بنظراته البلهاء . وقد كانت
فاطمة طيلة الوقت شبه ناعسة ولكنها كانت هى ومنير تسترقان النظر بين حين
وحين . وهنا جلجل فى المسامع صوت أذان المغرب فقام منير يودعها بإيماءة
عن بعد وهو يقول بصوت منخفض سأدرك الصلاة فى المسجد واطمئنى
يا فاطمة فإن الله لن ينسانا من فضله وإننى لن أتخلى عنك فى الساعة اللازمة
وحدج زوجها بنظرة شرراء وهو يغادر المكان وهى تشيعه بنظرات حائرة
مبتهلة فيقول فى نفسه (أيها المخلص الأعظم خلصها مما هو أعظم) .

وحين جمعه الليل بزواجه الحسناء فى غرفتهما الشاعرية كان عقرب
الساعة يشير إلى أن ساعتين وخمسا وخمسين دقيقة قد مضت على غروب

الشمس وأبصر منير نور القمر ينحدر من الشرفة الشرقية فاتخذ مجلسه عندها وأرسل نظرة مطمئنة طويلة إلى السماء كأنما يناجى بها ذلك القرص الفضى المنطلق في الفضاء . ودخلت زوجه من باب الغرفة الداخلية وبين يديها طبق الفاكهة التي استخرجتها من وعاء الماء المثلج وهي تقول باسمه الشجر منهلة الوجه : تكلم من أيها الفنان أنت دائماً تتحدث مع نفسك ؟ وجلست إلى جانبه في ضوء القمر بعد أن وضعت الطبق أمامه بينما هو يناجيه وتحيط يده بجيدها كنت أحدث صاحبنا القمر . تعالى يا ملاكى الجميل . أنت كل الغزل والحب والأناشيد . آه يا (لواحظ) حبيبتي وكل آمالى « قال ذلك وقد امتدت ذراعاها تحيطان جانبها وتتعانق يداها على صدرها وهي قد أسندت رأسها إلى صدره ويداهما تتعلقان بعنقه ووجها يتضوؤا سحراً تحت نور القمر الهادى فطبع على جبينها قبلة ثم على وجتها ثم اشتركت شفاههما تنهل من كأس السحر الحلال في لذة وطمأنينة وعادا إلى جلستهما الطبيعية ملتصقين واستدارا برأسيهما إلى الشرفة حيث التصق خداهما وهما يتأملان القمر وهمست (لواحظ) يا منير : إنك كل شيء لى يا حبيبى يا زوجى الحبيب وهمس منير بالمثل : أجل يا لواحظ .. ألا ليت كل حياة الأزواج مثل حياتنا يا حبيبتي الحب وحده قد كفانا التفكير فى أى شيء حتى قنعنا بعيش البسطاء .

ودقت الساعة النصف بعد الثالثة وأنصتا لخطرات ثقيلة يعرفانها تقرب من باب الغرفة الثانى ونقرات عليه ثم دخول الشيخ والد لواحظ بمهابته ووقار شيبته وأخذ الشيخ مجلسه بينهما ووجه كلامه لابنته فقال : إننى قلق الليلة وأملك قد نامت مبكرة فقال له منير « سنسهر الليلة معك حتى يغلب النوم على أجفانك » وعندنا فكرة سنحكمك فيها يا عمى ولنسأل لواحظ أولا : إذا رزقنا قريبا بالمولود السعيد فماذا تقترحين أن نسميه فأجابت سأسمى أنا البنت وتسمى أنت الولد فأى اسم ستختاره أنت لابنتنا العزيز . فأجاب سنسميه جهاد وسأخذ أيضا برأى عمى ماذا ترى فى هذا الاسم : جهاد ؟ فأجاب الشيخ اسم هائل عظيم .

بقيت البنت فقالت لواحظ سأختار لها اسم والددة بابا المرجومة جدتي
« فاطمة » فردد منير الاسم بعجب مرتين فاطمة فاطمة وبادرتة لواحظ.
بنفس لهجته : ألا يوافقك هذا الاسم فرد عليها بهلواء :

فاطمة إنه أعظم اسم لأثني في الوجود .

وتحرك الشيخ بهم بالقيام غير أن منير سبقه قائماً يقول : لتبق . معنا تحدثك
لواحظ ريثما أصلي فإنني على وضوء . وقفزت لواحظ تمد له سجادة الصلاة
في أقصى الغرفة ثم تعود إلى مكانها تتحدث مع أبيها ثم سمعا صوت طرق على
باب الدار وكانت الساعة تدق أربعاً ورفع الشيخ صدره بينما لواحظ امتدت
بجسمها وبجيدتها إلى الشرفة تستطلع ولكنها لم تبين شيئاً لشمول الظلام في
أرض الزقاق المضيق وطرق الباب ثانية وانتقلت لواحظ إلى الشرفة الأخرى
تطل منها مستفسرة من هنا ؟ من الطارق ؟ وأجابها صوت نسائي حزين « أنا
سامية » وأتت إلى أبيها تقول بحيرة (عسى خير يا أبت) أنخت سامية تأتي في
مثل هذا الوقت ابق هنا سأنزل لها وحدي وبسملت وهي تخطف (الفانوس)
وتهبط السلم في خفة وتفتح الباب لتدخل إنسانة نحيلة نكرة تلتف في عباءتها
السوداء حاسرة نصف رأسها شاحبة الوجه زائغة النظرات وبادرتها لواحظ
(أهلاً بالست سامية تفضلي) وأشارت لها إلى السلم ولكن الإنسانة استحييت في
نفسها وجسمها يهتز وقد أوشكت أن تنهوى على الأرض فاستندت إلى
الجدار وأمسكت لواحظ بكفها تسألها في حيرة (ما بك يا سيدتي) ولم تشمر
بها إلا وهي تفلت من بين يديها وتهوى على الأرض وذهلت لواحظ ولم تجد
ما تفعله إلا أن تصرخ) .

بابا بابا منير منير كأس ماء وكان منير قد استكمل صلاته وبلغه النداء
المزعج فركض وهو يقول للشيخ لا تكلف نفسك يا عمي تريث حتى أرى
أنا وأخذ معه كأس الماء وهو يطوى السلم في سرعة وأبصر لواحظ جالسة
عند رأس السيدة وتبين منير وجهها وهي بين يديه فصاح فرعاً : ليست
سامية إنها فاطمة فاطمة فاطمة .

وتمطى منير وفتح عينييه ليجد أخاه النبي ينام غير بعيد عنه مع طفله قد

صباحاً على صوته وظل يحدجه بنظرة استفسار وكان ساعتها يصل إلى الأسماع صوت أذان العصر (الله أكبر الله أكبر) فابتسم منير متكلفاً وقال ونظراته لأخيه كل هذا يكون حتماً .

لقد استيقظ الفنان العاشق الحالم ولم يكن يتصور أن الحلم يتسلسل بهذه الطريقة التي شاهدها .

على أنه ينبغي أن نذكر هنا أنه حين غفا كان يسمع صوت جارتـه شبه العجورية وهي تنادى على ابنتها فاطمة وحين استيقظ وجلس يتنفس بعمق إذا به يسمع لهذا الحوار بين الجارة شبه العجورية وبين ابنتها : البنت : أنا لازم أحضر (المهرجة) الليلة (١) .

الأم : حيرتني يا فاطمة أنا قلت لا تخرجي بمعنى إنك لن تخرجي .

البنت : ما شاء الله يمضي الشهر دون أن أحضر هرجه مع الناس حتى في بيت عمي خليل .

الأم : انخرسي يا عديمة المنطق هي البنت المبسوطة وعندها تسالي وراديو في البيت تخرج تعمل إيه بين البنات غداً تزوجين وانخرجي حتى كل يوم واحضري في كل مكان .

إن الشخصية المحورية في هذه الأقصوصة هي شخصية منير فهو الذي تلقى النبأ نبأ وضع فاطمة لمولود أسمته منير وفرح بالنبأ ولكن ساوره القلق ترى مم من أن يكون منير الطفل مثل منير العاشق الكبير في الشقاء والتعاسة أو لأن فاطمة قد رزقت بمن يشغلها عنه وعلى كل حال فقد بدأ التفكير في زيارة فاطمة على مائدة الغداء فقد فكر منير ذلك الفنان الحائر الصامت في زيارة معشوقته ورن في أذنه قبل النوم اسم فاطمة قادماً من بيت جارتـه العجورية فرأى النور وأغنى ليستيقظ الحب في أعماقه ويرحل به في عالم الأحلام إلى بيت فاطمة المعشوقة مع الأصيل ويكون مشهد في غرفة نوم فاطمة فيه

(١) اصطلاح عامي تطلقه النساء على اجتماعات ليلية لمن .

العاشقان والطفل المنحى جانبا وفيه ما يكون بين العاشقين ويتوج الموقف بمشهد درامي هو مشهد العاشقين تنهر منهما الدهوع ويتعانقان ويتبادلان القبل التي عزت عليهما في دنيا الناس وفي أضواء المجتمع ويفجأهما الزوج وهما على هذه الحالة وبه من الضيق مابه ولكن منير لا يفزعه ذلك وتلك قضية لا يمكن حلوثها في الواقع ولا سينا في بيئة محافضة كالبينة السعودية وإذن في الأحلام متسع للجميع .

ويمضي الوقت وحن وقت صلاة المغرب فينصرف العاشق المتيم لأداء الصلاة بعد أن أدى ما عليه للعشق والغرام لمي نداء الله بعد أن لمي نداء الحب العفيف .

ويعود إلى منزله ليجلس مع زوجته تحت أضواء القمر ويكون بينهما نظرة وابتهامة وكلام وعناق وقبلات ويقسم لهما وتقسم له على الإخلاص والوفاء في الحب وهنا نشعر بأن شخصية منير مزدوجة فمرة يرى فاطمة حبه الأول والأخير ومرة يرى زوجته لواحظ هي حبه الأول والأخير فهل في القلب الإنساني النظيف الطاهر متسع لأكثر من واحدة إحدى المرأتين معشوقة والأخرى زوجة والقلب موزع بينهما لو لم يكن ذلك في عالم الأحلام لقلنا إن ثمة خيانة والعجيب أن منير يقول لزوجته لواحظ : ألا ليت كل حياة الأزواج مثل حياتنا يا حبيبتي .. ما شاء الله يكون لكل زوج معشوقة وزوجة يقسم لهذه ويقسم لتلك على أنه يصفها الود ويمنحها الحب كله . أهذا ممكن في دنيا الناس وواقع حياتهم كلا . إنها أضغاث أحلام دفعت بمنير إلى أن يعانق زوجته ويقبلها ثم يزعم أنه على وضوء وأنه قائم ليصلي بعد ما كان .

لقد ترك منير فاطمة بجسمه ولكنه ظل متعلقا بها بروحه وقلبه وكذلك هي ومن ثم حين علم بعزم زوجته على أن تسمى مولودتها المنتظرة فاطمة وانجذبت فاطمة إلى من تحب فتحاتلت على نفسها المنهوكة تحت أستار الظلام وفي الحارات الضيقة لترى منير ويراها منير . إن هذه الأقصوصة أو هذا الحلم أشبه بفلم تسجيلي غني برسم المشاهد والمناظر أكثر من غيرها وحين أدركت

الليقظة منير أمسك عن الكلام غير المباح في وضع النهار وأثناء اليقظة فأخذ غيما يمكن أن يحدث أمام أعين الناس أجمعين دون خجل أو خشية ولكننا نرى أن حديثه عن التجارة شبه الفجرية في ختام الأقصوصة وحوارها مع ابنتها يشكل أقصوصة يمكن أن تستقل عن أقصوصة فاطمة فليس هناك رابط عضوي بين الاثنتين والرابط الوحيد هو سماع اسم فاطمة قبل النوم وبعده ولئن تلذذ منير باسم فاطمة فليست كل فاطمة معشوقة له إن معشوقته الوحيدة فاطمة أم منير الصغير لقد وجد القصاص السعودي الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ في دنيا الأحلام متنفسا لرغباته المكبوتة فهامت روحه على ظمأ تحت أستار الظلام متجهة صوب منزل فاطمة الزوجة المسلمة ذات الولد بيد أنه الفن ودنيا الرؤى والأحلام .

٢ — غرام المراهقين في (لها ماض) (١) :

افتتح الكاتب هذه الأقصوصة واختتمها بإضفاء صفة الإحسان إلى الفقراء على البطل وقد رمز إليه بالحرف (ق) فلماذا ؟ إن الإجابة على هذا السؤال ينبغي أن تكون بعد دراسة الأقصوصة وتحليلها ، فالبطل ذو نفسية كريمة — كما يقول الكاتب — عرف بها بين لداته فهو ينفرد من بينهم بحب المعوزين حتى إن زملاءه في المدرسة لقبوه (بصديق الفقراء) .

إن كان ليواسي هؤلاء ويشترى للمستضعفين من الطلبة ما قد يحتاجونه من الكتب ، ويجهد (ق) جهده وهو في أواخر سنه الدراسية على وضع نواة للبر والخير في المدرسة يتعهدا بعناية مدة بقائه حتى تنمو ثم تثمر بعده . حقا إنها لفكرة وجيهة سامية حقيقة بالخلود هي فكرة (صندوق إعانة) للطلبة الفقراء وأنشئ هذا الصندوق فعلا ولكن لم يمض حين قصر على مغادرة (ق) المدرسة حتى انهار صرح الصندوق .

ويقطع الكاتب سلسلة الأحداث ليعلن أسفه على الصندوق المنهار قائلا :

(١) المنهل عدد جمادى الأولى ١٣٧٤ هـ — يناير ١٩٥٥ م .

إن في الإنسانية من لا يزال يسكن في أنفسهم عامل الشر يهدد نظام الحياة البريئة فلمرى متى الوعى العام يضئ لأولئك الآفاق .

ثم يعود الكاتب ليزيدنا تعريفا بصديقه (ق) فهو الآن رجل لم يتجاوز العقد الثالث من عمره إلا قليلا ربعة في القوام بهي الطلعة لين العريكة له إهتمام خاص بالرسم والأدب وقد عالج الكتابة في بعض الفنون وهو فى إلا أنه واجه فيها تكلفا وإرهاقا لنفسه فهجرها وأسلم نفسه إلى تيار الحياة العامة واندمج فى مواكب الشعب الصاخبة يعمل لمعيشته فى إخلاص وحسن نية .

ثم يقطع الأستاذ حافظ سلسلة الأحداث للمرة الثانية ليقول لنا ويشوقنا من تاريخ حياته أن نتطلع ونتبين قصة حبه المبكرة . ويحسن بنا أن نقدمها كما أعلاما هو فى ٢٥ يناير ١٩٥٠ وأصلح بعض أخطأها بريشته عندما استأذنته فى نشرها لكأن ما مضى من الأقصوصة كان بمثابة تمهيد ومقدمة لها حرص الكاتب أن يضمن على صديقه من خلالها صفات الطيبة وحسن النية وكرم النفس وحب الخير والعطف على الفقراء .

ثم أسلم الأستاذ حافظ لصديقه (ق) زمام الموقف ليروى هو قصة حبه المبكر فيقول : كان إلف الطفولة وعشرتها باعثن قوين لحب عميق مبكر وتوله بابتة عمى « الجميلة » التى خاضت معى دور المراهقة فى شئ كثير من البراءة والتحفظ تمشيا مع البيئة والتقاليد التى كانت تحيطنا بسياس متين لا يسمح لنا بالتحلل أو الزوغان من فروضها القاسية المحبة فى حين لم يكن حبنا إلا وليد التألف ونتيجة امتزاج كبير فى هونا ومطالبنا زيادة على تنشئتنا وتربيتنا ونحن طفلان فى منزل واحد . ولقد أصبحنا فى فتوتنا متفاهمين فى كل شئ ولم يكن بيننا ذلك الهوى الجارف الذى يعمى ويصم ويحفر على السيئة والاندفاع لاستخدام الغريزة كما يحدث عند ذوى الغرام العاثر الذى يحتم علينا مقاومته والقضاء عليه . لقد كانت صلتنا البريئة أشبه ما تكون بالصدقة منها بالحب .

إن ما مضى من حديث البطل (ق) يدل على أننا مقبلون على حبه

حفيف محاط بكثير من البراءة. والتحفظ... الخ. بيد أن مهاجمة البطل لحبيته أو صديقه (الجميلة) وتشهيره بها يدل على أن ما مضى من خديشه كلام لا يؤيده الواقع وإنما دفعت إليه المراهقة الفكرية والباطنية وإلا فما معنى قوله بعد كل ما مضى (الجميلة) تفتقر كثيراً إلى الجمال بأقل معاينة ذلك السر الساحر المرغوب في (حواء) ولا روعة لها أو وجوداً بلونه ولكنى كنت أرى لها في نفسي وأشعرها بأنها بنعمة الجمال كما يترأى لها. وتعتقد فأحنو عليها وأفعلها بالكثير من عواطف رحمة بها ومواساة لحرمانها دون أن تفهم منى هذا إلا أنه طبيعة وهيام منى بها .

أسمح لي يا صديقي العزيز (ق) أن أقول لك بأنك ألبان مراوغ وأنتك مرهق لم تستقر بعد على حال ولم تنضج عاطفياً وأنتك غررت بمن خاضت معك دور المراهقة وأنه إذا كان ثمة براءة وتحفظ فمن جانبها هي لا من جانبك وأنتك كنت تلهو وتسلل وإلا فما مقاييس الجمال عندك ؟ (الجميلة) كانت قبيحة ؟ فما معنى قولك بعد ذلك : غير أن جسمها البيض الآخذ في الامتلاء كان يصرخ بالفتنة واللذة ويدعو إليه الإحساس في جنون ه إنك تريد أن تكون بطلا على ابنة عمك (الجميلة) تثير فيها غريزة الجنس في خراوة وعنف ثم تدعها تحترق وترغم أن مثلك لا يلتفت إلى لذة الحس غانت ممن ترفع عواطفهم عن الملذات المادية وتسمو بنفوسهم عاطفة الحب الروحي على أية خاطرة أخرى مهما كانت دوافعها ولهذا كنت أبعد ما أكون عن التعمق والتفكير في هيكلها الناطق بالحلاوة والجاذبية الهدامة .

(الجميلة) يا صديقي العزيز (ق) جميلة مكملة الأنوثة وطبيعية مع نفسها لكنك أنت غير طبعى تحاول أن تسمو وترفع في الظاهر وأمام الناس ولكنك في أعماقك نفس شرهة تواقعة إلى الجنس عقلك الباطن يغلى وعقلك الواعى يخنى ذلك الغليان ولكن أيهما ينتصر ؟

كانت نفسك محدثك بالجنس وتجمع بك إلى عالمه وزعمت أنك كنت تقاوم بل قل إنك كنت تهرب وتلهى بعيداً عنها كما تقول وكنت تجلبها

إكراماً لعمك الضرب وللماضي الذي قضيناه كما تقول في سعادة الطفولة وهي كأليفة وصديقة لها على من الحقوق ما لا يمكن أن أتهاون بها .

لقد كنت أجهد في الوفاء وما كنت أفكر أنه سيأتي اليوم الذي أقابل فيه بالنكران والإساءة لم أكن أتوقع أن (الجميلة) تبيت لي نيات الغدر والعبث وتريد بي الشر ، ولكن غريزة هذا الشر المتأصلة في نفس حواء أخذت تسيطر على تفكيرها وتدفع بها إلى الهوة لقد أضاعت (الجميلة) بجرمها معي قلباً رعوفاً رفيقاً بها .

إنك لم تسيء إلى (الجميلة) وحدها بل أسأت إلى بنات جنسها كلهن . حين زعمت أن غريزة الشر متأصلة في أعماق نفس حواء وهذا ظلم للجنس . اللطيف فانت لا تستطيع أن تقيم الأدلة على أن الشر متأصل في حواء وحدها فالرذيلة لا تتم إلا بين رجل وامرأة والمسلك الذي سلكته مع ابنة عمك فيما بعد والذي ستحدثنا عنه بعد قليل هذا المسلك نتيجته المحتمومة هو ما أقدمت عليه ابنة عمك في آخر عهدنا بك . إننا سنستمع إليك لتروى لنا كما تقول موجز الخبر : « كان لنا يوم تاريخي في كل عام أو على الأصح (عيد الحب) فمئذ أصبحنا نفهم هذا الحب على وجهه السليم ومن عهد ما شعرنا بمشاعر العاطفة الوليدة تتمشى في كيائنا منذ ذلك اليوم أخذنا نحتفل بهذه الذكرى . الغريزة بعد أن غالبنا كل نخجل وكبرياء وتفاهمت نفسانا فأصبحنا نبيع لها في هذا اليوم فقط أي في فترة قصيرة من ساعات الليل الأولى الانطلاق من وضعنا المقيد لنهل من كؤوس الحب أعذبها في عناق ودي برىء وقلبات . خاطفة كأنما نعلن بدء عهد جديد لحبنا ...

وتكرر ذلك اليوم السعيد في خمسة أعوام نجدد فيه آمال الهوى الهادى .
ما شاء الله يا صديقي العزيز (ق) ألم تعلم بأن أول الغيث قطرة خمس سنوات تنطلق فيها من قيد الفضيحة وتنس تقاليدك ودينك وقرابتك لتنهل من كؤوس الحب أعذبها في عناق ودي برىء وقلبات خاطفة »
وما أعجب قولك (في هذا اليوم فقط أي في فترة قصيرة من ساعات

الليل الأولى إن هذا ليس من تقاليدنا إنه تقليد غربي يتم كل عام في الاحتفال برأس السنة الميلادية وتنساب الكلاب فيه على البقر في هذا اليوم فقط أى في فترة قصيرة . لقد صبرت (الجميلة) خمس سنوات وكلما شربت من كؤوس الحب طلبت المزيد . وهل ما كنت تفعله في (عيد الحب) من تلذذ في تعقل كما تقول يتفق مع تقاليدنا السمحة الموروثة .. إن ما أسميتها (الليلة المشثومة) كانت النتيجة الطبيعية والنزوة التي لا بد أن تصل إليها العلاقة بينكما مادام فيها عناق وقبلات وحوادثها كانت في أعماقك ولكنك كنت تخفيها وحين اجترأت (الجميلة) وأقدمت على ما أقدمت عليه فتحت أمامك الباب فلم تتردد ولو لم تحضر الأم لحدث ما لا تحمد عقباه وعلى كل حال فنسمع لك وأنت تحكى لنا قصة (الليلة المشثومة) كانت الجميلة قد أضمرت لأمرها حديثا اصطنعت مع خادمتها حتى أغرتها على أن تربص بنا فتقف عن كذب منا في تلك الليلة (عيد الحب) لترى من ثقب الباب شدة شغفي بها وإقبالى الشديد وتلهنى عليها وتزينت (الجميلة) بأبدع حلها وأرديتها الإفرنجية القصيرة التي تكشف عن بضاضة جسمها الناضج وفتته الصارخة وكعادتها دعتنى إلى غرفة جدتها المتوفاة وأقبلت تزف نفسها إلى نصف عارية مصففة الشعر بتسريحة جديدة فيبدو كمجالات معلقة برأسها ولم أكن بالجماد الذى لا تحركه مثل هذه الفتنة الطاغية فتلقيتها ، بالأحضان الدافئة حتى جلست كطفلة على إحدى ركبتي ولفت على ذراعها وتعانقنا بكل ما في مهجتنا من الحب حتى شعرت أنا مثلها بحرارة الجسد الضامى وأنفاسها تستطرد وعيناها المنكسرتان تهتفان بالرغبة والجنس فارتمت عند قدمي بابتهاال الأمر الذى أظهر أكثر مما كان واضحا من فخذيها المشرب لونهما البلورى بخطوط وردية من دمها الثائر وأهاج في نفسى المنظر اللاهب أحاسيس الدم اليقظ في شرايين الشباب المحروم من لذته العارضة وكانت نهدياتها تدعونى في عذوبة الأنثى التي تضرب بآخر مهام فتنها العابثة في مثل هذه اللحظة فتشعل أحاسيس حبيبها فإذا هو كتلة من لحم ودم تدعى فتجيب حيث تتعطل كل أسباب اللوم والإرادة وأهويت بجسمى الراءش.

على جسمها الذى يتنزى باللهب والرغبة. وكأنما قد هويت به إلى الجحيم إذ ظهرت آنذاك أمها كالبرهان عند الباب صارخة : ويلك يا من انتهكت عفتنا فى عقر دارنا أيها الخبيث وغلت دماي كالمرجل وأنا أمب واقفا فى حلق وغيط. مريرين وأكاد أصفع المتكلمة الثائرة لولا خشيتى من جدال الحديث. فيصل الخبر إلى كل من فى الدار. وقد فهمت بديهة ما قد دبر لى. فأطلقت ساقى للريح أعلو إلى غرفتى وأغلقها بالرتاج حتى لا يزعجنى أحد بالدخول على فجأة .

إن ما حدث فى هذه الليلة قد حدث مثله فى خمس سنوات مضت وكل ما فى الأمر أنه فى هذه الليلة قد جاوز الحد الذى اعتادوا الوقوف عنده فيما مضى بعد أن أنس كل من العاشقين إلى صاحبه وطلب المزيد من الشهوة. وأرادت الجميلة أن تضع حداً لهذه المغامرات الغرامية المقنعة تحت ظلال القرابة والبيت الواحد والثقة الجريحة والزعم بأن هذه القبيلات وذلك العناق موقوتة ومرة فى السنة ولمدة قصيرة أنست (الجميلة) لفتاها فطلبت المزيد واطمأن صديقى العزيز (ق) لعشيقته التى لم تتعود أن تقول له لا فأطمعته لكنها أرادت فى نفس الوقت أن تضع حداً سعيداً لعيد الحب حتى يتم على مرأى ومسمع من الأهل والأحباب بدلا من أن يتم فى الخفاء إن الغربيين يصنعون ذلك على الملأ بينما صديقى العزيز (ق) يحتفل بعيد الحب فى الخفاء .

لا يا صديقى العزيز (ق) إنك لم تبد أى مقاومة لإغراء الجميلة مما يدل على أنك كنت تتصنع الفضيلة وتعلن البراءة والوفاء فى حين أن بين جبينك نفساً أمارة بالجنس والغريزة ولقد أوشكت الرذيلة تلتطخ القرابة والتقاليد والعم الضرير لولا ظهور الأم فى الوقت المناسب وإلا فإنك كنت ستترك (الجميلة) تلعق جراحها هى وأمها وأبوها الضرير وتسلم ساقبك للريح كما فعلت قبل وقوع الجريمة ثم تدخل حمجرتك وتحكم غلقها . وحين انكشف الأمر لم تفكر إلا فى تبرئة نفسك فقط وتنكرت للحب وأعياده وظهرت فى صورة الفظ الغليظ الجبان الهارب حتى إنك قررت أنت وأبوك وأسرتكما

ترك المنزل المشترك بين أبيك وعمك والعجيب أنك تقول بعد ذلك :
وتخلصنا من معاشرتها واتهاماتها وما قد تصور لها تخيلاتنا الجنونية من ظنون.
وآثام فشعرت أسرتنا بالراحة واطمئنان الضمير إلا أنه لم يمض أكثر من
نصف العام حتى جاءت أم (الجميلة) تعتذر وتحاول أن تقترب بكل وسيلة.
تظنها تجدى معنا وكأنها تعرض علينا بضاعتها الزائفة ولكنها خابت في مسعاها ..
وجاءت الجميلة وأبدت مختلف أساليب التحجب والرجاء والاعتذار والإغراء
ولكن صلب إرادتي لن يلين ولم أكن أحفل بشيء مما أظهرت وقلت لها :
إنني أهوى في المرأة اعتدالها في عواطفها ونبل مشاعرها أنا لست مجنوناً حتى.
أهوى بعاطفتي مع خاتنة مجرمة « فانصرفت ذليلة ولم تمض شهور قلائل حتى.
راجت إشاعة بأن الجميلة مخطوبة إلى وستزوج في الربيع القادم .

واهتمت فرصة عند وجود أسرتها مدعوة في حفلة زفاف كبرى وهناك
أعلنت أنني براء منها ولا صحة مطلقاً لما أشيع عن خطبتنا .

وهكذا تنكر البطل لحبه وقرابته وطلب النجاة بنفسه تاركاً صحبته.
تعلق جراحها لقد كان همّ البطل الأول والأخير أن يتخلص من هذه
العلاقة ويتنكر لها ويهرب منها ويلبس مسوح المحسنين الأبرار ومن ثمّ ألبسه
الكاتب قناع البر في مقدمة الأقصوصة وخاتمتها وكأن ما حدث كان أزمة.
مراهقة ليس غير إلا أنه يدل على سوء العلاقة بين الرجل والمرأة وحرص
الرجل على أن يضحى بالمرأة وينجو هو كما أن الأقصوصة تدل على خطأ
اجتماعي هو الاشتراك في المسكن ولو كان كبيراً والاختلاط غير المشروع
لأنه يبدأ منذ الصغر حين لا يكون للجنس سلطان ثم يستمر وينمو الفتى وتنمو
الفتاة ويبلغان الحلم وإذا بالغريزة الجنسية في نضجها واكتماها تضج في جسم.
الفتى وفي جسم الفتاة فما العمل ؟

إنه لا صلة بين العنوان والأقصوصة وأفضل أن يكون عنوانها (غرام.
المراهقين) وأكبر الخلل أنها قصة واقعية لأن الكاتب رمز للبطل بالحرف
(ق) فهو يعيش بين الناس ويخشى الفضيحة وقد أرّخ الكاتب للقصة ٢٥

يناير ١٩٥٠ م وما دار فيها من مشاعر وعواطف ومواقف يمثل نفسية المراهقين المضطربة القلقة التي لم تستقر وهي مرحلة تمضي ولم يلبث البطل أن عاد الهدوء لأسارير وجهه ونفسيته وهي أقصوصة فريدة في الأدب السعودي .

٣ - هل يتنازل إنسان لآخر عن فتاة أحلامه في (ولاء) (١) :

تسلك بعض الأقاصيص السعودية مسلكاً تاريخياً سردياً فتسير مع البطل منذ نشأته الأولى متدرجة معه منذ نعومة أظفاره إلى أن ينضج ذا وزن وإن بدت عليه مخايل النجابة والذكاء في سنيه الأولى ؛ فتسرد تاريخه وأعماله بأسلوب أدبي جميل كما في هذه الأقصوصة فقد كانت هند تعيش في حي متواضع عيشة أقرب ما تكون إلى حياة البذخ في ظل أبيها وعمها الكهلين وأخيها (حبيب) الذي حمل أعباء الأسرة فتيا غضا تعوزه العضلات القوية والحجج الرشيد بيد أنه قام وسط الزحام والعواصف تناوئه يناضل بجسمه الصغير في سبيل تلك الأسرة . إن هذا الفتى اليافع الذي لم يتجاوز الثانية عشرة إلا قليلا يكافح للقمّة العيش وكأنه ابن العشرين ثم هو يقوم أيضا بالنفقة على ابن عمته (نائل) . ذلك الفتى المبتال الكسول الذي أمسى مضرب المثل في البلاء والغباء زيادة على تمرده وعصبيته .

لقد كان حبيب يؤدي بالمدرسة واجباته على أحسن وجه وهو النبيه الذكي ويشغل بعد العصر صنائعا عند صاحب حانوت وفق إليه .

وكانت له جولات موفقة في البطولة الرياضية كما أنه كثيراً ما تزعم زملاءه في المدرسة للمظاهرات الصامته والمطالبة بحقوق الطلبة والمعوزين منهم . وفي أواخر سنيه الدراسية أقام نادي المدرسة الرياضي احتفالا ضخماً للمتخرجين وأجريت أثناءه مباريات كرة القدم على جوائز ثمينة فاز فيها الفريق الذي يلعب معه ويرأسه (حبيب) فمنح لهذا نصف الجائزة وهو مبلغ

خمس عشرة جنيهات ذهباً عدا هدايا الشاء والإعجاب من إدارة المدرسة وبعض الزائرين وصفقت له الجماهير بحماس هاتفة بالبطل الصغير الذى لم يكن سنه آنذاك يزيد على الثامنة عشرة لقد كان فوزه فى هذا الحفل فائحة عهد جديد .

ولم كان سرور والده عظيماً ولم يتردد فى السماح له بالسفر إلى قطر ناء بعيد بعدما أوضح له الأسباب التى تؤنخاها وهو يعرف حبه للاستطلاع وأهانيه الجسم فى هذه الرحلة .

وتأهب حبيب للسفر وأوصى صديقاً قريباً له يناظر أباه ليقضى له حاجياته ومطالبه من السوق وقد أودع فى يده المصروف الكافى لمدة الشهر الذى سيغيبه عن الوطن . ثم أبحر على باخرة مصرية فى يوم راق جوّه واعتدلت طبيعته فازدادت نفسه انشراحاً وتفائلاً وتيمن بطالع هذه الرحلة الاستكشافية للجديد التى يرجو أن يجد خلالها (العميل الأمين) الذى يطمئن إلى الثقة فيه ويبادلّه الإخلاص والولاء ويستورد بوساطته بعض البضائع الرائجة فى البلاد . وما كادت الباخرة ترسو فى ميناء السويس وينزل ركابها وحبيب يتطلع بهعجب ويخطو بضع خطوات على الرصيف المزدحم بالمنتظرين من المستقبلين والعمال حتى بصر بإنسان يتقدم إليه ويحييه ويعرفه بنفسه حين رآه كالمنكر له وعيناه تتساءلان وقال : ألا تذكر اجتماعنا وتعرفى بك فى الخيم المجاور لخيمنا ونحن (بنى) قبل سنتين تؤدى فريضة الحج وهنا قال حبيب مؤكداً : صحيح صحيح إنك ذاكر أمين العتب على الذاكرة يا سيدى . وتعانقا ببراءة وحمد الله حبيب فى نفسه ثم شكر صنيع هذا الرجل الذى ساقته له الأقدار ليكون دليلاً ورفيقه بل وأنيسه وصفيه وقد أبى هذا الحاج الفاضل (سعيد) أن يترك الضيف الحجازى بشأنه فأحله داره وكأنه أحد أفراد الأسرة . وصحب سعيد صديقه إلى المتنزهات والمتاجر ودور الصحف والسينما وصلات المحاضرات وإلى جميع مآثر القاهرة والإسكندرية . وقد تعاقد معه حبيب على معاملة مستمرة ليصبح عميله الذى يورد له جميع الحاجيات والبضائع اللازمة فهو وحده المسئول عن كل شىء .

وعاد حبيب إلى وطنه راضيا وكان قد دعا صديقه قبل وداعه إلى زيارة خاصة في موسم الحج القادم ووعده سعيد بإجابة هذه الدعوة ثم يلبي هذه الدعوة فعلا بعد أن يكون قد أدى فريضة الحج واستقبله حبيب كأخ شقيق له حتى إنه قدّمه لعمته وأوصاها به خيراً فرحبت به وتقدم سعيد إلى والد حبيب يقدم له هدية ثمينة بعد أن هوى على كفيه تقبيلاً ولكن الشيخ تنفس الصعداء وهو يمد يده المعروفة ويقول بصوت مرتعش : هدية تهدي لي أنا ؟ وإن رحيلي لدان قريب وعيب أن ترد هدية أمثالك الكرام فلتكن من نصيب صديقك فأنا لا حاجة لي بشيء غير ختام الحياة السعيدة فادع لي كلما صليت وسراً سعيد بملاطفته وجميل كلامه وهمّ بالكلام لولا أن حبيباً جاء يدعوهما إلى غرفة الطعام وقد دنا من والده ليستنده في القيام ويجلس ثلاثتهم يتناولون العشاء الذي أعدته الفتاة الفاتنة (هند) وبينما هي تعبر الممشى أمام الغرفة في خطواتها الهينة اللينة حانت من سعيد لفظة فرآها وبقي نظره متعلقاً بالباب إلا أنه كان يحاذر أن يراه جلساه .. في تلك اللحظة السريعة رأى سعيد هيكلاً رائعاً للحسن أدهشه لقد أبصر دنيا ما كان يظن أو يحلم أن يعثر عليها في مثل هذه البيئة العربية المحافظة وراح يستفسر من صديقه وهما يتناولان الشاي منفردين عن يقطن معه غير أبيه وعمته فانبسطت أسارير (حبيب) ورداً عليه بقوله : لا أحد غير شقيقي الأبله (نائل) وهو ينام الليلة عند خالتنا التي تعطف عليه مثلي وهنا أيضاً شقيقي العزيزة (هند) . وكانت هذه العبارة كافية ليطمئن لها بال (سعيد) غير أنه ظل يفكر كيف يقنع صديقه وهو مطلع على شئون حياته المنزلية حيث زوجته وأولاده لكنه سرعان ما طرق الفكرة التي تجول برأسه وتشغله عندما وجد الفرصة مناسبة وهو مع صديقه في غرفة النوم . قال سعيد : بودى يا عزيزى لو تصبح صلتنا أقوى مما هي عليه اليوم وتكون أنت من جانبيك قد أسديت لي معروفاً يتضاءل دونه كل ما أقدمه لك من جميل وتكريم ، وعاجله حبيب وهو بآدى الاهتمام بما سمعه : من ناحيتي أنا فإنني أوافقك على كل شيء في مقدورى تأديته فأوضح لي قصدك فابتهجت نفس سعيد وهو يقول بارتياح : عرفت أن لك شقيقة

مفاضلة ولست أدري إذا ما عرضت طلبى فى الشرف بمصاهرتكم أأجاب ؟
أم أن هناك ما يحول دون هذا وإذ ذاك اعتدل حبيب فى مجلسه يقول بإخلاصه
المعهود : لنا الشرف العظيم يا عزيزى الودود بهذه المصاهرة لو تم ولك أن
تطمئن حتى أعرض الموضوع على سيدى الوالد الذى يحبك مثلنا فأرى رأيه
بصورة صريحة .

وأغنى حبيب حينما أبى الكرى على أجفان سعيد وهاجت فكره مختلف
الحواطر وأخذت تطوف بمخيلته شتى الصور لتلك الفاتنة (هند) التى لم يزره
طائف الحب إلا فى هيكلها وهو قد جاوز الثلاثين من عمره وراح يتخيل
أحلام الغد السعيد والأمانى التى ستزدهر بها حياته حين تشاركه فيها (هند)
ويتبادلان الحب فتتعلق به تعلقه بها وليست كعلاقته الباردة بزوجه التى لم
يتزوجها إلا برغبة والديه ولم يكن يجد فيها إلا إنسانة ولوداً قدر لها أن تستغل
به وتربى تلك الكتلة الثمانية من اللحم البشرى وقد ترهل جسمها وامتلاء
غير محمود مما جعل (سعيد) منذ أكثر من عامين ينام وحده ويحمد الله على
عطائه صابراً ينتظر لحظة الفرج . وهكذا لم تغمض عيناه إلا لماماً .

وقد كنتم حبيب عن صديقه أن شقيقته مخطوبة منذ عام لابن عمها الضابط
الذى سبق تعيينه فى إحدى مقاطعات الحدود لمدة عشرة شهور لم يبق إلا
قليلاً ويحضر لإعلان زفافه ذلك أن حببياً كان يود صديقه لحد الإجلال
ولا يريد أن يلقي إليه بالنبا خشية على شعوره وعاطفته أن تجرح .

وفى اليوم التالى وبعد عودة حبيب من عمله ظهراً إذ دخل عليه سعيد
وأخذ مكانه بعد أن حيا صديقه وأبته بـ حبيب بقوله : هذه رسالة من ابن
عمنا الضابط يبشرنا فيها بقرب مجيئه ولا أكتملك نبأ ارتباطه مع أبى بعهد
أخذه عليه والده قبل وفاته ليتزوج بأختى الوحيدة وإننى لأرجو ألا تستاء
من هذا الاتفاق أو تظن بنا ظناً سيئاً والذى أستطيع عمله الآن هو أن أتنازل
ملك عن ابنة خالتى وهى فتاة رائعة جميلة كنت عازماً على البناء بها فى ربيع
العام القادم .

وتطأمنت نفس سعيد لهذه النتيجة بعد أن كان قد اكفهر وجهه بعض الشيء وأجاب بصوت هادئ وعلى ثغره ابتسامة صافية :

لقد بالغت في الإحسان إلىَّ وعمرتني بفضلك حتى لا أستطيع الإبداء برأيي إلا بالموافقة بشرط واحد هو أن تقبل الزواج من ابنتي الكبرى إن كانت قد راقتك وحظيت باستحسانك . وهنا قام حبيب يشد على يد صديقه بابتهاج قائلاً : يا للسعادة إنها لا ينقصها من صفات الخلق والجمال شيء أنا موافق وهنا قاطعه سعيد قائلاً : أصارحك يا حبيب بعجبي من أمر نفسي كيف تحولت عما ليس فيه نصيب وسكن روعها وقد كنت البارحة في شغل معها أقلقني حتى سهرت معظم ساعات الليل وكأنما قد مس قلبي جنون الحب . أكاد أنسى ما كنت فيه وأهنيء نفسي على ما توصلت إليه وفازت به على يدك وإنني لسعيد الحظ بتصرفاتك الإنسانية هذه ولا غرابة في هذا فأنت من بنى هذه الأرض المقدسة هذه الديار الكريمة الحبيبة إلى قلب كل مؤمن وهنا سمعا بصوت الشيخ والد حبيب يتنحنح وبخطواته الثقيلة تقرب وبعضاه تفرع الأرض كأنما تعلن مجيئه وهو يريد تنبيههما إلى الغداء فتقدم الصديقان إلى الشيخ يرحبان به ويلتان يديه بمحبة وتقدير ثم يستمعان لصوته المهدج وهو يتقدمهما إلى حيث وضعت مائدة الطعام : لقد سمعت كل ما دار بينكما والحق يقال يا أبنائي إنني لم أعهد طيلة عمري مثل وفائكما لبعضكما وتوافق أوزجتكما ونظراتكما حسنا فعلمنا هذه هي الأخلاق الإنسانية وهكذا يجب أن يتعامل إخواننا البشر . الوفاء الوفاء يا أبنائي عزة في النفس وكرامة في الخلق ودعة في الشعور إنه أئمن هبات الحياة وطوبى للأوفياء .

هذه الأقصوصة تحكى قصة كفاح حبيب ذلك الفتى الذى تحمل عبء أسرة وهو بعد في مقتبل العمر وقد كان ذا شخصية مكافحة قيادية رياضية وقد توج كفاحه بالنجاح وهذا شيء طيب ولكن الذى نقف أمامه متسائلين هو رغبة سعيد في مصاهرة حبيب .

ودوافع تلك الرغبة أشبه ما تكون بالمقايضة التجارية فسعيد يقول

لحبيب بعد أن أصبح الأول عميلاً للثاني : بودى يا عزيزى حبيب لو تصبح صلتنا أقوى مما هو عليه اليوم وتكون أنت من جانبك قد أسديت لى معروفاً يتضاءل دونه كل ما أقدمه لك من جميل وتكريم .. المسألة إذن تبادل منفعة وإن كانت إحدى المنفعتين أثمن من الأخرى .

وكان هجرة سعيد من القاهرة إلى المدينة كانت من أجل دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها على أن الأقصوصة تثير مشكلة اجتماعية مهمة تقع فى أمكنة كثيرة من العالم وليس فى مصر وحدها مشكلة زواج الابن برغبة والديه واختيارهما وإصرارهما كأنهما اللذان سيعاشران الزوجة وليس ابنتهما وليس من شك أن فى هذا سوء استغلال للسلطان الأدبى للأبوين تجاه ابنتهما وأن كثيراً من الزيجات التى تتم بهذا الأسلوب تحقق ويكتب لها الفشل إذ لا تلبث العلاقة الزوجية أن تنهار حين يرى الابن فتاة أحلامه على نحو ما حدث لسعيد حين وقع نظره على هند ولكن حيل بينه وبين ما يشهى وكان من الممكن تعميق الصراع فى هذا الموقف ولكن الأديب السعودى لا يحب الصراع ويميل إلى حل مسائله سلمياً ومن ثم جنح الكاتب بسعيد إلى فتاة أخرى بعد أن كاد يحن بحمال الأولى (هند) التى لم ير مثل حسننها ولم يزرها قط طائف الحب إلا فى هيكلها والتى احتقر بسببها زوجته وأم أولاده التى زوجها بها رغم أنه فلم تكن (إلا إنسانة ولوداً قدر لها أن تستظل به وتربى تلك الكتل الثمانية من اللحم البشرى وقد ترهل جسمها وامتلاء غير محمود) وما ذنب هذه المسكينة فى ترهل جسمها وامتلائه امتلاء غير محمود إلا أنها أنجبت ثمانية أولاد من هنا كان الترهل وكان الامتلاء غير محمود وسترهل هند أو قريبتها حينما تنجب مثل هذا العدد . والأعجب من هذا أن العربى الغيور (حبيب) يتنازل لسعيد عن ابنة خالته وهى فتاة رائعة جميلة وكان حبيب عازماً على البناء بها (ليس فى طبيعة النفس البشرية شىء من هذا وفى بيئة كانت فى ذلك العهد (١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤) حديثة عهد بالبداوة لقد حدث شىء قريب من هذا فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ولكن كانت له دواعيه وظروفه الخاصة فما الداعى إلى هذا فى

قصة سعيد وحبيب وما سرّ التحول من هند إلى ابنة خالتها ؟ لأن هنداً مخطوبة ؟ لكنها كانت حب سعيد الأول والتحول بهذا اليسر وبذلك السهولة لا يتم إلا في الأدب السعودي ومن ثمّ عجب سعيد نفسه لهذا التحول مجرد عجب وذلك حين يقول مخاطباً صديقه حبيب (من لي بإنسان يتنازل عن إنسانة علق عليها آماله وتمناها لنفسه . أصارحك يا حبيب بعجبي من أمر نفسي كيف تحولت عما ليس فيه نصيب وسكن روعها وقد كنت البارحة في شاغل معها أقلقني حتى سهرت معظم ساعات الليل وكأنما قد مس قلبي جنون الحب) سعيد يقول هذا ويتركه بدون تفسير ولكننا نحن نفسره بأنه زواج منفعة تستوى فيه هند وابنة خالتها وما حدث البارحة والبارحة فقط . كان هيجانا عاطفيا أو انفعالا مؤقتا تبخر مع ظهر اليوم التالي والأعجب من كل هذا أنه لا رأى للفتاة لا لهند ولا لابنة خالتها فالأمر بيد الرجل والرجل وحده سواء أكان سعيد أم حبيب أم والد هند أم والد حبيب أم الضابط السعودي خطيب هند مع أنه في شريعة الإسلام لا بد من موافقة من ستكون زوجة وقد اشتكت المرأة المسلمة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه من مثل ذلك وأن أباهما زوجها وهي غير راضية فقال لها : إن شئت فرقت بينكما « ولكن البنت احترمت أباهما ولم تشأ أن تلحق به إهانة . إنه على العكس من هذه الأقصوصة كانت أقصوصة (نبيل ووفاء) حيث عفت فؤاد عن (ياسمين) بعد أن أحبها لأنه تأكد أنها تحب (نزيه) وكان للفتاة (ياسمين) دور إيجابي فيما حدث حيث تحركت وأجرت حديثا صريحا حول الموضوع مع الغريمين وانتهى الأمر بزواج ياسمين بنزيه على ما سيجيء فيما بعد .

والأقصوصة تصور ذلك الترابط الوثيق بين المصري والسعودي الترابط الأسرى والترابط التجاري إلا أن عنوانها غير دقيق .

وفي تصوّري أن العنوان المناسب واحد من اثنين (منفعة) وذلك مأخوذ من موقف سعيد حين رغب إلى حبيب في الزواج بأخته أو (إيثار) وذلك مأخوذ من موقف حبيب حين أثر صديقه بابنة خالته .

وفي ختام القصة دعوة جميلة إلى تحطيم الحواجز ليس بين مصر والسعودية فحسب بل بين بني الإنسان حيث يقول الشيخ والد حبيب مباركاً صنيع الصديقين (حسنا فعلتما هذه هي الأخلاق الإنسانية وهكذا يجب أن يتعامل إخواننا البشر فلو تحلى بها جميع الناس لتسالموا وعاشوا في أمان) .

الاتجاه الاجتماعي وقصص الأسرة السعودية :

١ - محمد علي مغربي في (المترهبة ^(١)) ضحية الحب الأعمى .

من المشاكل الاجتماعية الصعبة مشكلة الزواج : أثارها الصحافة وعنى بها المفكرون والأدباء . والمؤلم في هذه المشكلة أن العبء الأكبر فيها يقع على الفتاة وأنها تلقى العنت من أبيها وإخوانها بدافع الحب والرغبة في إسعادها كمن يستعمل الفأس لإزالة اللبابة من على رأس صاحبه والمملكة العربية السعودية متسعة الأرجاء ممتدة الأطراف وبالرغم من ذلك فإن المشكلة تكاد توازي رقعة الأرض الفسيحة وحين تعلمت الفتاة السعودية كان المأمول أن تنكسر حدة المشكلة إلا أن المشكلة شملت الفتاة المتعلمة وغير المتعلمة وأسهم في تعقيدها أناس على درجة من التعليم .

والصحافة وهي مرآة المجتمع وقلبه النابض قد أدركت خطورة الأمر وضرورة العمل على حل المشكلة عن طريق تسليط الأضواء عليها وإخراجها من أوكارها لتسقط عليها أشعة الشمس فانبرى الأدباء يعرضون المشكلة في أسلوب أدبي أخاذ .

وها هو الأستاذ محمد علي مغربي يعرض علينا أقصوصة فتاة حجازية نسج الخيال وقائعها وإن كانت الفكرة مستمدة من صميم الحقائق الملموسة والغرض الأول منها التنبيه إلى فكرة تشجيع الزواج وتبسيط وسائله والبعد عن التعقيدات الموروثة عن طريق التقاليد السخيفة الممجوجة ذلك ما تحكيه أقصوصة « المترهبة » .

(١) المنهل عدد شوال وذو القعدة ١٣٥٧ هـ .

عرض القصة :

نشأت زهرة يانعة محاطة بحب أبيها الشيخ ووالدتها الحنون وإخوانها فقد كانت الفتاة الوحيدة ، وكانت الصغرى فقد وهب الله الشيخ من الذكور ثلاثة أحسن تربيتهم وكانوا مثالا للشباب الطامح والنشاط الوثاب والخلق القويم .

ولكن الشيخ كان يتمنى على الله أن يرزقه بفتاة يرى في عيناها براءة الطفولة وطهرها وجمال الشباب وروعته فيتذكر بها أيام شبابه الأول وعهده النضير .

وتحققت أحلام الشيخ فولدت له سعاد ناضرة زاهرة فكانت له عزاء الشيخوخة وذكرى الشباب وكانت لأمها الحياة الجديدة كانت ترتجئها حيناً تكبر لتكون لها أختا تعتمد عليها وتبثها أسرارها وتحدثها بأحداثها ومتاعها ، وكان فرح أخواتها شديداً بها .

وفي هذا الوسط الذى كله حب ورعاية نشأت سعاد أجمل نشأة وتربت أحسن تربية واكتمل عودها ونضجت فكانت فتاة فتاة حقاً ولم يضمن عليها أحدهم بشيء مهمما كان غالياً فنشأت مدلاة مترفة سعيدة لا تعرف الهم والحزن وازداد على مدى الأيام حب الشيخ لفتاته وحرصه على الجلوس إليها واستماع أحاديثها .

وتقدم الكثيرون إلى الشيخ يطلبون يد فتاته ويبدلون له الكثير مما يطلب فلم يكن جوابه لهم إلا الرفض الصارم الأليم .

فالشيخ كان لا يطيق لفتاته بعداً ولا يستطيع أن يتصور كيف يمكن أن تخلو حياته منها ساعة أو يوماً وكانت الفتاة سعيدة بادیء ذى بدء مطمئنة إلى أن أباهما لا بد وأن يحسن لها اختيار الشريك وإن كانت هذه الأفكار ، لا تتعدى ذهنها إلى لسانها فقد كان هذا معناه العار والموت والسقوط الذريع .

أجل ليس للفتاة أن تشير أو تتكلم وليس عليها إلا أن تسمع وتطيع ولكن نوايا الشيخ لم تلبث أن ظهرت لفتاته واضحة جلية وما لبثت أن أسرت إليها أترابها من الفتيات ما يتناقله الناس من أن أباهما لن ينوى تزويجها وتقلن إليها ما يمكن أن تؤثره هذه الفكرة في أذهان الناس فتبعثهم على الانصراف عنها وعدم التفكير في خطبتها وكانت هذه الفكرة صحيحة أعمى الشيخ حبه لفتاته فلم يفكر أنه بهذا الإصرار والعناد يعرض فتاته للخطر الأخلاقي وأنه بهذه الأنانية المفرطة يجعل حياتها سوداء شاحبة كحياة القبور .

كان يرى أنها سعيدة في داره فما حاجتها إلى الزواج ، وكان من العسير إفهامه ما في هذا الرأي من خطأ وكان أبناء الشيخ يحسون ما في تعصب أبيهم وأنانيته من خطأ غير أنهم لم يستطيعوا أن يشيروا إلى هذا إشارة ضعيفة فكلمة واحدة كانت تثير أعصاب الشيخ وتقلق هدوءه .

وكانت والدته سعاد تتمنى لابنتها زواجا سعيدا لتربي أبناءها ولتكون جدة تعز بأحفادها ولكن الشيخ يأبى وإياؤه عظيم .

لم تلبث سعادة الفتاة أن انقلبت شقاء وذوت كما يذوى الغصن انقطع عنه الماء لأن فيه الحياة كانت سعاد تتمنى أن لو كان لها من الحرية ما يمكنها معه أن تقول بفصيح العبارة إن سعادة الفتاة ليست فيما يقدمونه لها من متاع وزينة ويحيطونها به من حب وتقديس .

كانت ترى نفسها فقد كانت ترى أنها كالكلمة المدللة بل إن للكلمة حريتها الجنسية التامة ، أما هي الفتاة الجميلة المترفة فقد كانت محرومة من المتع التي هيأتها لها طبيعتها والتي تقضي بها دوافع الشباب والحياة .

وكانت هذه الأفكار تحز في قلبها حزراً أليماً فإن من العار أن تحدث لإخوانها في أمر كهذا فتقاليد البيت وشرف الأسرة وعادات المجتمع كل هذه حرب على الفتاة الضعيفة فهي محرومة حتى من العزاء الذي هو أرخص بضاعة لدى المحزونين .

كانت تتصارع في قلبها فكرتان :

فهي تريد أن تنتقم لشبابها الداهب وجمالها المضاع ، وهي تريد أن تنتقم من أبيها وحببه الكاذب وهي تريد أن تثار لجنسها لدمها الحار . لشبابها المتوئب وليس لهذا طريق غير طريق الغواية وإطاعة الهوى .

وكيف يكون هذا الفتاة اسم بيتها رأس مال كبير ، وكيف يكون هذا الفتاة لا تعرف غير العفاف والطهر حارت كثيراً فيما تفعل وكان أبوها وإخوانها يلحظون ما وصلت إليه حالها من سوء غير أن أحداً منهم لم يكن يجرؤ أن يقول إن السبب في هذا هو انضغاط على حرمتها وقتل شبابها ودفنها سحية في هذا القبر الذهبي .

وتزوج إخوانها الثلاثة فأشرفت في سماء البيت نجوم ثلاث وسعد الإخوان الثلاثة بمباهج الزواج فأعقدوا على أختهم الهدايا ولكنها كانت تنظر إلى كل هذا نظرة سوداء كانت تحتقر كل ما يقدم لها لأنها كانت ترى فيه صلت عبوديتها وثمن حرمتها وطال أمد سجنها فمرضت وانطرحت على على فراشها حزينة شاحبة تعصف بها الحمى .

ولم يدخر أبوها وسعاً في إنقاذها لكن حالها كانت تسوء يوماً بعد يوم . ووجدت في مرضها راحة فأنصرفت إلى التفكير الهادئ في حالتها ومآلها والمرض من طبيعته أن يكسر من حدة العواطف وأن يجد من نشاط الأعصاب وثورتها فارتأت أخيراً أن للقدر في حالتها يداً غير منكورة فأسلمت أمرها لله واستكانت إلى قضائه ورضيت بقدره بل أنصرفت بكليتها إلى عبادة صامته وتفكير روى عميق فيه الاستسلام للقضاء والرضوخ للقدر وهكذا قدر لها أن تقضى شبابها مترهبة .

ومن لنا أن يعرف الآباء ما في نفوس الفتيات فيجتنبون دفنهن في الحياة .

التحليل : وقعت أحداث هذه الأصوصة في العقد الأول من النصف

الثاني للقرن الرابع عشر للهجرة وفي بيئة الحجاز حيث ظهر الإسلام الذي لا يعترف بهذا الأسلوب في معاملة البنات بل إنه يقول :

إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير .

أما شخصيات الأقصوصة فتتمثل في الأب المتسلط ، وفي ابنته سعاد ضحية القسوة والتحكم ، وثلاثة إخوان لا حول لهم ولا قوة وأم تلحق جراحها أما الأب الشيخ فكانت أمنيته أن يرزق بفتاة يتذكر بها أيام شبابه الأول وعهده النضير فرزقه الله « سعاد » فأحبها حباً أعمى فهو لا يقدر على فراقها ولو كان في هذا الفراق سعادة البنت بالزواج ولذا صرف عنها خاطبها ، وفي تصوري أن هذا ليس حباً بل إصرار وعناد وأناية مفرطة وكفى بهذا الوالد إنما أن ضيع ابنته وأسلمها إلى المرض .

وأما بطلان القصة سعاد فقد نشأت نشأة مدللة مترفة وسعدت بأبيها وظنت أنه سيحسن لها اختيار الشريك المناسب لكن موقفها كان سلبياً فلم تحدث أباه ولا أحداً من إخوانها بل ولا حتى أمها في هذا الشأن فليس لها أن تناقش هذا الموضوع الذي يقرر مصيرها وإنما عليها أن تسمع وتطيع وبعد أن رفض أبوها تزويجها انقلبت سعادتها شقاء بعد أن حرمت حقها في الحياة الجنسية وهي الفتاة الجميلة المترفة وثار في نفسها حب الانتقام لشبابها الضائع والانتقام من أبيها وليس لهذا من طريق غير طريق الغواية وإطاعة الهوى .

ولو أن الكاتب دفع بالفتاة إلى هذا الطريق لكان إنذاراً مروّعاً لأولئك القساة الغلاظ ولكان تنفيساً لهذا البركان الزاخر وقد أشار بعض الأدباء على الكاتب بهذا بأن تكون خاتمة الأقصوصة أئمة تنهى بطاعة الفتاة لعوامل الهوى ونزغات الشيطان لتكون هذه النهاية القاسية متفقة مع البداية المسرفة في العنت ولتكون العبرة في الأقصوصة أتم والعظة فيها أوقع ولكن الكاتب لم ير هذا الرأي لأنه حينما كتب الأقصوصة كتبها عن الفتاة الحجازية التي

يؤثر عنها العفاف. والأدب والخلق الوثيق وهذه أمور تحول بينها وبين
الانزلاق في مهاوى الفسوق .

لقد كان انزلاق الفتاة كفيلاً بأن يعمق الصراع ويلهبه ويخدم العمل
الفنى خدمة كبرى لكن حرص الكاتب على سمعة الفتاة الحجازية كان على
حساب السمعة الفنية فخدمت الجذوة وانطفأ طيب الثورة وألم المرض
بالفتاة فهدأ وأمات غواطفها وأسلمها للعبادة وقت الضعف لا وقت القوة
فهى مترهبة لا عن قناعة بل كما يقول المثل الشعبي « قصر ديل » إنها حية
معوودة وضحية من ضحايا القهر والعبودية .

إما إخوانها فكان موقفهم سلبياً لم يجرؤ واحد منهم أن يخاطب أباه في
مأساة أخته بل تزوجوا ونعموا بالحياة والمسكينة ترى ذلك من حولها فتلعق
جراحها في صمت وتبكي ولكن بغير دموع .

ولم يكن موقف الأم أحسن حالاً من موقف أبنائها فهى تتمنى لابنتها
الزواج والإنجاب ولكنها لم تعمل شيئاً .

إن أصابع الاتهام تشير إلى الأب وتسلطه وإننا نهيب بالأب أى أب
أن يستفى قلبه ودينه ويرعى أمانته فى بناته فوق هذه الأرض المقدسة .

بين زوجة الابن والأم فاطمة

للأستاذ محمد أمين يحيى (١)

تعالج هذه الأقصوصة العلاقة بين زوجة الابن وأمه وهي علاقة شديدة التعقيد فالزوجة كانت تحلم بأن تكون ربة بيت وتبنيها فملكها وزوجها خبيثها فإذا انضم إلى ذلك إنجاب الأطفال ومراقبة الله من قبل ومن بعد ومن جانب الزوج وجانب الزوجة فقد اكتملت السعادة من أطرافها بيد أن الحماة أم الزوج ترى أنها هي التي تعبت وربت الزوج وجاءت زوجته فاستولت عليه وانتزعت من بين أحضان أمه ومن ثم ينشأ الصراع ويحتدم النزاع ولو رده إلى الله ورسوله وقبل الجميع الحكم الإلهي لانحسم النزاع وحل الوثام محل الخصام وهكذا يعيش الناس في حيرة وتردد وقلق حين يتعدون عن نور الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال .

وعلى كل حال فإن الأستاذ محمد أمين يحيى في مقدمة أقصوصته يعرض لنا مشكلة موجزة ثم يفصلها بعد ذلك ويترك الأمور تتعقد وتتأزم إلى أن تتدخل المصادفة ويتدخل القدر ليميز الله الخبيث من الطيب .

فالزوجة الصالحة إنسان كريم الزوجة التي تحتل الآلام لهناء زوجها هي الزوجة المثالية التي تكسب رضا الله وتفوز بالنعيم « أنا أحب حمااتي » كلمة تقولها فاطمة كلما نخلت إلى زوجها ولكن زوجها (حمزة) ينظر إليها في شك وتساؤل ذلك أنه لا يصدق أن زوجة في الدنيا تحب حماتها وإن حدث ذلك فهو أمر عجيب يستحق البحث غير أن (حمزة) لا يلبث أن يربت على كتف زوجته بحنان حين يلمح طابع الصدق في نظرتها وحركاتها فإذا خلا إلى أمه راح يصف لها حب زوجته العميق لها ولكن الأم نهز رأسها هزات متتالية وتقول له :

إن هذا هو الحال بعينه وإنها هي التي تحب فاطمة ولكن القسمة والنصيب

(١) منهل جادى الثانية ١٣٧٣ هـ .

تجعل فاطمة تكرهها في الباطن وتظهر لها الود مجاملة من أجل زوجها (ومن أحب السقا وجب عليه أن يحب قربته) .

تلك هي المشكلة زوجة صديقة وفيه لزوجها حريصة عليه وعلى بيتها ويزوج يبادلها نفس الشعور لكنه ينظر إلى أمه التي وصفت زوجة الابن فاطمة بصفة متأصلة في الأم فالقسمة تجعل فاطمة تكرهها في الباطن وتظهر لها الود مجاملة من أجل زوجها ، عملية إسقاط نفسى فالأم أسقطت على فاطمة ما تتصف الأم به .

وعلى كل حال فقد مضت الأيام وفي نفس الابن ثورة تريد أن تتفجر وفاطمة تدعو الله مخلصنة أن يجنبها شر المهركة وتسأله أن يحفظ عليها زوجها وطفلها وأن يوفقها ليصدقها في حبها له وإجلالها لأمه .

وأما الزوج فكان أمينا على وفاء زوجته واثقا بأنها شريكة حياته ترعى حق الشراكة وتحفظه في عرضه وماله وولده وتهيء له ما يتمنى من سعادة وراحة . على أنه كان في حيرة عارمة يضطرب بين آراء أمه وأقوالها واتهامها لزوجه وبين خضوع الزوجة الصالحة الراضية .

ولا ينسى الكاتب في ختام هذا الموقف أن يقف ليعلم أن للصبر خلوداً ينتهى عندها وإذا نفذ الصبر ثارت النفس ولا سيما إذا كان هناك عدوان على الكرامة والشرف وعلى كل فما زالت الأم تتربص بزوجة الابن الدوائر وهامى فرصة تسنح لإشمال الفتيل فقد ظهر على مسرح الأحداث شاب اسمه (عمار) في الثلاثين من عمره طلق الحيا فكه الحديث غض الإهاب وهو أخ في الرضاعة لفاطمة ولكنه كان منذ حداثته في سفر طويل لم يعد منه إلا وشيكاً فراح يتساءل عن أهله وأقربائه وذكر أن له أختاً من الرضاعة فدل على بيتها وعلم أنها زفت إلى (حمزة) فما هو إلا أن يندفع مهرولا ويسأل حتى يهتدى إلى البيت فيزور أخته التي استقبلته بترحيب وعناق وبالغت في إكرامه . فأما الحمزة فأنكرت أنها تعرف هذا الزائر لكنها أضرت في نفسها على شيء فجاملت الرجل وغافلته حتى سرقت منه (منديله)

وإنصرف الضيف واعدأ بزيارة أخته في بحضور زوجها بعد يسير من الأيام ودبرت الحماة أمرها وأصرت على رأى وعندما عاذا ابنها اختلت به وطعنت في شرف زوجته وقالت له إن رجلا كان عندها وهذا أثره (منديل) وفوجيء الزوج ووقع في خيرة . أهذه زوجته الطيبة المصون التي يحبها ويعتقد أنها تصونه في عرضها غائبا . كما تصونه حاضرا ؟ لقد تأزم الموقف وبدأ الشك يتسرب إلى قلب حمزة .

وهنا يدعنا الكاتب وقد التهب الموقف ليروى لنا في إيجاز شديد شيئا عن طفولة فاطمة ونشأتها لأنها في نظر الكاتب بطللة القصة . إنها ابنة رجل فقير مات عنها لعام واحد من ولادتها وكفلها هي وأمها خالها . ذلك الرجل الطيب العطوف وشاء القدر أن يختطف أمها وهي بعد في الثالثة فقامت على تربيتها زوج خالها واتخذتها ابنة تمحضها الحب وتبرها لأنها كانت عجوزا عقيما لم تنعم بلذة النرية .

وبعد أن تزوجت فاطمة لم تكن تزور أهلها إلا لماما على رغم ما تكنه لهم من حب وتقدير ولم يكن أهلها ليزوروها إلا في الواجبات أو حين يبلغهم أنها موعوكة أو مريضة وما داموا يسمعون أنها سعيدة راضية فذلك حسبهم .

وبعد هذه الوقفة القصيرة عاد الكاتب بنا إلى حلبة الصراع فقد أشرق صباح يوم جديد ليعلن لحمزة قلوب طفلة جديدة جميلة وضعتها فاطمة غداة اليوم الذي قلدتها فيه حماتها بالقنبلة الفخائية واحترم الزوج شعور زوجته بيد أنه لم يتمكن من إخفاء انفعالاته وما يعتلج في نفسه من شك وألم فكان إذا جلس إلى زوجته لزم الصمت تحدته فلا يجيب إلا باليسير . من القول ثم يستمر في وجوهه وتقطيبه . ولاحظت هذا القطوب وكبر عليها هذا الغبر لتلقاه من الرجل الذي وقفت نفسها وحياتها لإسعاده ولكنها لم تجرؤ على سؤاله ولم تجسر على مفاتيحه . على أنها كانت تشعر في أعماقها أن هناك حدثا قد طرأ وإن كان بخلف الستور وبمكيده دبورت لهدم العش الهائى والمغنى

الجيب... وبعثها الحقيقة صريحة حين اختلت بها حماتها وأعلنتها أن زوجها قد اكتشف علاقتها بشاب وأن تلك العلاقة قد عمت نشأت قبل زواجها وأنها كانت تدافع عنها أمام ابنها ولكنه مصر على رأى وعازم على أمر . ونحن جنون الزوجة واقترسها بحبي جمعت بين آلام النفاس وآلام الصدمة القاسية وفرضت الحماة بهذا النصر وهي ترى ضحيتها تاتطم على صخور مكايدها ضعيفة عاجزة لا تجد النصر ولا تلقى المعين .

وهنا يترك الكاتب الأحداث ليقف وقفة تأمل يبكي خلالها على أولئك الذين يتغنون في الحب ويراهم تعساء أشقياء قد جارت عليهم الحياة دون ما رحمة فهم مستضعفون في الأرض وهم أكثر بكثير من طائفة العداء وثكنهم على كثرتهم ضعفاء .

ثم عاد الكاتب إلى سير الأحداث فوجد الزوجة ذاتال في حيرة فريسة الألم ضحية الشك القاتل ، والزوج لا يتصرف لأنه لا يعرف كيف يتصرف وانقضت عشرون يوماً والحماة في فرح وحياة مذبذبة بين النفاق والحماة . ووصلت الأحداث إلى الليرة وبلغت العقيدة نهايتها فما الحل ؟ إنه في يد القدر وبمحض الصدفة . فقد شاء القدر أن يحقق البراءة لفاطمة والنصر لشرفها فإذا حمزة يصدم بشاب لا يعرفه صدمة كادت توقعه أرضاً فتماسك ووقف يتبين الصادم فإذا هو إنسان يشد على يديه ويقول له :

أهلاً بزواج أختي . مرحباً بصهرى العزيز وأنسقط في يده وهو يسمع دائفا يلقي في أعماقه (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) وسحب الرجل يده من يده وأخذ يستوضح منه الصهارة فعرفه بكل شيء فأخذه إلى داره وأدخله على أخته التي قامت تحييه وكان بها مرض وحزن . وكشف الزوج لزوجته الحقيقة أمام أختها واعتذر إليها منكبا على يدها يقبلها بحرارة فمسحت رأسه وقبلته وهي تبكي وتضحك ثم رجته مقسمة عليه أن لا يكدر حياة عمها وأن يحتفظ بالسرايا لا تريد أن يكدر حياته وحياتها فوعدها خيراً وانقضت ثلاثون يوماً واشتد المرض بفاطمة رغم ما بدله حمزة من جهد

لتبعيش. لزوجها. وطفلها وضاعت جهود الأطباء عبثا فقد ذهبت فاطمة إلى عالم الجلود. نفسها طاهرة وكانت آخر كلماتها لزوجها (يا حمزة أوصيك بأولادنا. وأرجو أن تسمى « سميرة » فاطمة لتذكرني بها) وتشهدت والتفت إلى حماتها وقالت :

أما أنت فالحساب هناك وعندما يتزوج ابنك بأخرى سترين ولكني أسامح. ولغظت أنفاسها الطاهرة .

وبذلك تكون القصة قد انتهت لأن البطلة قد ماتت بعد أن اتضحت براعتها لكن الكاتب ولد من عباراته الأخيرة التي أنطق بها فاطمة. وهي تلفظ أنفاسها ولد من هذه العبارات أقصوصة أخرى . فقد انقضت أعوام وألحت أم حمزة على ابنها أن يتزوج فإن الدين لا يجوز لشاب مثله لم يبلغ الكهولة أن يظل أرمل ، واستبد به إلحاح أصحابه ولكنه مع ذلك الحال كان مصراً على الترميل . ولما كثر إلحاح أمه وأصحابه استخار الله ووعدهم أنه سيطلب إلى الله رؤيا فاطمة في المنام فيسألها رأيها فإن أذنت له تزوج وإلا فعلى الزواج السلام مدى العمر . وحقق الله أمنيته فرأى زوجه فيما يرى النائم تربت على ظهره بخنان وتقول له : تزوج أطع دينك وأنا واثقة من حبك ولكن لا تنسى أولادك) ثم تختفي |.

بنى حمزة بزوجته الثانية (ناهد) وكانت فتاة لم تبلغ السادسة عشرة بعد لعباً مكسلاً تنام الضحى وتسهر الليل إلى جانب المدياع أو الحديث مع الجارات وصبرت أم حمزة في الشهر الأول والثاني والثالث ثم ضجج بها الصبر فبدأت تبذر الشقاق بل أخذت تنهال بقوارص الكلم على (ناهد) فتحملت الصبية أول الأمر ثم مالبت أن أصابتها رعونة الشباب فاندفعت تكيل لحماها الصاع صاعين وثارت الحماسة وشكت لابنها ولكن هذا كان دائماً يصم أدنيه ويتعاضى حتى ليكاد يسمع الشتائم تنهال على أمه من زوجه فيضحك في سره . وعلمت الحماسة أن الله أراد أن يتقم منها جزاء ما أسلفت

لفاطمة من سيئات وجاءها مرض الموت وحق بها نذيره فجمعت إليها ابنا وزوجه وأطفاله وطالبهم السماح فتباكوا ثم نهدت بصوت متحشرج رحم الله فاطمة أعترف صادقة أنني كنت قاسية عليها وأبني اتهمتها ظلماً وعدواناً وأنها بريئة وأن الله قد انتقم مني ساعني يا ولدي وأنتم يا أطفالي وأنت يا ابنتي (ناهد) ثم أدارت وجهها وتشبعت ولغزبت أنفاسها الأخيرة .

وأول ما نلاحظه أن الكاتب لم يحل المشكلة فقد بقيت على ما هو عليه وأكبر الظن أنه لم يكن يرى لها حلاً فحمزة لا يصدق أن زوجة في الدنيا تحب حماتها وإن حدث ذلك فهو أمر عجيب يستحق البحث .. وفي تصوري أن الحل بيد الزوج إذا أدرك أن لزوجته عليه حقاً وأن لوالدته عليه حقاً وأدى لكل منهما حقه كما شرعه الله . على أن الاستقلال في السكن والمعيشة ربما ساعد على حل المشكلة أو على أقل تقدير يخفف من مضاعفاتها .

قصة رومانسية عن أزمة الوفاء في (الإحسان الضائع) (١) :

للسيد محمد مليباري

هذه الأقصوصة تعرض مشاهد موحية وتشارك الطبيعة في عرض أحداثها فهذا هو بطل الأقصوصة محمود يفر من مستشفى المجانين ويعود إلى مكان كان يفضلهُ ويقول : هذه هي المصطبة التي اعتدت الجلوس عليها كل أمسية وهذه هي الشجرة بذاتها فلأجلس تحتي لأستريح قليلا قبل أن أبحث عن مأوى آوى إليه الليلة ولكن لا أريد أن أعود إلى مستشفى المجانين لأنني لست مجنوناً . يجب علي أن أختفي في غير هذا المكان ولكن لا قدرة لي على المشي لأن العدو والركض أنهما قواي . بهذا حدث محمود نفسه وقد جلس القرفصاء ودس رأسه بين يديه وأخذ ينصت إلى همسات النسيم التي تهبط إليه متخللة أوراق الشجرة . وهنا يدمج الكاتب الطبيعة في أقصوصته على أنها أحد أشخاصها فهسات النسيم الهابطة من بين أوراق الشجرة كأنها همس بقصته قائلة :

إني أذكرك تماماً يا محمود ولو لم يكن معك عائض ذلك الطفل الذي عثرت عليه في ظلال على صدر أمه الميتة وشاهدتك حينما أقبلت وانزعجت الرضيع من صدر أمه الميتة ثم غيبته في دارك وحملت أمه إلى مأواها الأخير .. هذا مشهد من المشاهد التي روتها النسائم عن ذكريات محمود تحت الشجرة وثمت مشهد آخر ترويهِ النسائم أيضاً فهي تقول مخاطبة محمود كنت تروح وتغدو لتجلس في مجلسك هنا ويأتي رفاقك وصحبك فتحدثهم بذلك الكتاب الذي لا يكد يفارقك ولا تكاد تفارقه حتى ترتفع الشمس فينفض جمعكم على أن تعودوا بعد العصر وتستأنفوا الحديث إلى أذان المغرب ولما ترعرع « عائض » أرجأت حديث العصر إلى ما بعد المغرب لأنك كنت تلهو ساعة العصر مع غلامك عائض ذلك الغلام الذي لا يفتأ يرميني

بالحجارة حتى أرمى إليه ببعض ثماري . إني كنت عطوفاً عليه حسوداً
لك على هذه النعمة التي أوتيها بعد أن حرمتك الله من الأبناء .

وظلت تختلف معه إلى هنا كل أمسية حتى بلغ مبلغ الرجال فاشترك معك
في الحديث .

أما المشهد الثالث الذي ترويه الشجرة لمحمود فمشهد عقد قران
« عائض » تحت ظلال الشجرة فهي تقول : إني أذكر تلك الليلة البهيجة التي
رأيتك فيها وصحبك بهيجين فرحين وأنيرت هذه البقعة بالثريات الكهربائية
وفرشت حولي البسط الثمينة ولم أعلم بسر هذا الابتهاج إلا عندما حضر المأذون
وعقد النكاح بين عائض وابنة المعلم درويش أحد أصحابك في الحديث .

ومرت ثلاثة أشهر لم أر خلالها عائضا فقد انقطع عن دارك كما انقطع
عن حلقة الدرس وكنت أسمعك كل ليلة تحدث صاحبك عن زيارتك له وعن
تبرمك من انقطاعه عنك وانصرافه إلى التجارة .

أما المشهد الرابع مشهد الكارثة التي ترويه الشجرة لمحمود والذي حطم
حياته وانتهى به إلى مستشفى المجانين فترويه الشجرة قائلة : وحلت بك تلك
الكارثة التي لن أنساها واحترقت دارك وزوجك فيها عند صلاة الصبح من
ذلك اليوم المشؤم ورأيتك تخرج من المسجد مذهولاً بهم باقتحام النار
المشتعلة وتصيح وتنوح وتأبى إلا أن تلج النار فاوثق المجتمعون كتافك .
وأخذوك إلى حيث لا أدري وأنت تهذي وتصيح وتشم وتنوح كالذي به
مس من الجن .

ومنذ ذلك اليوم ساد هذا المكان ظلمة وسكون كظلمة القبر وسكونه .
هذا حديث الذكريات وصور الماضي تتوارد على خاطر ذلك الهارب
من مستشفى المجانين تحت ظلال الشجرة وفي ظلام الليل وبينما محمود يسمع
همسات النسيم تروى إليه هذه الذكريات وتنقلها إليه من الشجرة إذ بمحمود
يسمع وقع أقدام مقبلة من الشارع فرفع رأسه وسرح ببصره في طول
الشارع المحتق بظلام حالك وظن محمود أنه حارس المستشفى يتتبع آثار المريض

المهرب من المستشفى فماذا يعمل محمود ؟ أيهرب من المكان أم يختبئ خلف الشجرة ؟ لا . لا إن أقل حركة منى تنبئه بوجودى هنا ما هو ذا يقترب .

أوه ما باله بلدينا وعهدى به هزيلا إذن ليس هو . آه إنه عائض عائض .
عائض . عائض .

ولم يحرك عائض ساكنا بل قال بمنتهى الهدوء : على الله يا شيخ .

على الله ماذا ؟ أو قد نسيتنى ؟ لا إن البئلام يخفى بعض ملامحى فيجب أن أدنو منه ثم دنا قائلا بصوت متحشرج : أنا محمود يا عائض هه محمود .

ثم نثر إليه فى ذهول وعلى وجهه تبهم شديد وأخرج مغطاته ومدّ إليه يده بريال وقال بلهجة مقتضبة : نخذ هذا وأتركنى فلانى على موعد مع أحد أصدقائى الأثرياء فى حفلة ساهرة . ثم تركه ومشى وقبل أن ترسل ذكاء أشعتها على الكون فى صباح ذلك اليوم كان على باب مستشفى المجاذيب شيخ أو هن الكبير جسمه واشتعل رأسه شيبا يطرق الباب قائلا :

خذونى إلى حيث كنت ما دام لم يكن للإحسان ثمرة فى هذه الحياة .

عنوان هذه الأقصوصة مناسب تماما فقد عرض (عائض) اليد التى امتدت إليه وانتشلته من بين أحضان أمه الميتة وكأنه لا يعرفه وتجاهل العارف فى هذا الموقف مشين ورنخيص . واعتماد الكاتب فى عرض أفكار البطل وشاعره على المشاهد فيه تصوير للحياة الواقعة وتصوير لمثل أعلى فى المجتمع يتعرض لأزمة وفى التصوير لمحة رومانسية فى حديث الشجرة وأسلوب القصة وصورها تأسر القلوب وتنفر من مثل هذا المسلك الذى سلكه عائض مع من أحسن إليه .

ويمكن أن تعد أقصوصة (الإحسان الضائع) أقصوصة تمثيلية هادفة .

الترابط الأسرى الطاهر في أقصوصة (نبل ووفاء) (١) :

هذه الأقصوصة نموذج طيب لما ينبغي أن تكون عليه العلاقات الاجتماعية بين الشباب في هذا الوطن المقدس إنها تمثل طهارة الفتى وعفة الفتاة وتمثل الترابط الوثيق بين الأسرى إنها تحمل قيمة عربية خالدة هي الوفاء ومن ثم فهي الوجه المشرق للشباب العربي .

فقد كانا تلميذين في السنة الثانوية الثالثة ربطتهما أواصر الصداقة وكان الطالب الأول واسمه نزيه يكبر صديقه فؤاد بسنة واحدة ورغم ذلك كان فؤاد أكبر جسماً من صديقه وبالرغم من اتصافهما الدائم ببعضهما فقد كانا يفترقان أحياناً لأن نزيها يحب فتاة تسكن الحى الذى يسكنه فؤاد تعيش مع والديها فى بحبوحة من العيش وكان يلجأ منها أنها معجبة به فتوطدت العلاقة بينهما وانقلبت مع الزمن إلى حب برىء وكان نزيه يجد متعة فى مصاحبته إذ كانت ذات روح طيبة وثقافة واسعة فيها سداجة الطفولة وإن أصبحت فتاة مكتملة الأنوثة .

دارت عجلة الزمن وإذا الفتور قد دبَّ بين الصديقين وكان البادىء فؤاد وتعجب نزيه لذلك وذات يوم جلس نزيه على كرسي أمام نافذة تطل على المارة يراقب حركات المارة بسكون وهدوء متخيلاً صديقه الذى طال أمد الفراق بينه وبينه وقال : يجب على أن أكتب له كتاباً أسأله عن السبب الذى أدى إلى هذا النفور فقام من ساعته وتناول قلماً وقرطاساً وكتب إليه رسالة تعبر عما يجيش فى صدره من لوعة وأسى لفراقه وأنه لا يزال يكن له الإخلاص والوفاء ويأسف على هذا التغير كما يأسف لتأخر فؤاد فى الدراسة .

وقد أرسلت الرسالة بالبريد ولكن فؤاداً أخذها دون أن يلتقى لها بالاً

ووضعها على الطاولة (١) . أماه وأخذ يقلب صفحات كتاب غرامى كان يطلعه ثم تناولها بعد ذلك وقرأ عنوان المرسل وإذا به صديقه ففطن الرسالة وقرأها ولسا أتمها وقف محتاراً وقال سائلاً نفسه بأى شيء أصارحه ؟ وكيف أصارحه ؟ وأنا قد ارتكبت جريمة لا تغتفر بحق هذا الصديق وإن تكلمت بالحقيقة سيكون الوقع سيئاً . وأخيراً قال على أن أكون وفيًا لصديقى وأصارحه بالحقيقة فأكون بذلك قد أنقذت نفسى من البؤرة العميقة التى أتردى فيها وإن وفاء صديقى لى سيجد لى مخرجاً من هذه المحنة التى أقاسمها الآن ولكن كبرياؤه جعلته يعول عن ذلك قائلاً يجب أن أورد الجواب له دون أن أبين له سبب فتناول قلمه وكتب إليه رسالة يقول له فيها إن صداقتنا أصبحت لا وجود لها ومستقبلى يهمنى أكثر مما يهمنىك وعلى كل أشكرك لما أبديت نحوى ولانى سأعمل المستحيل لأكون متفوقاً فى مدرستى وسأحاول أن أنحو من مخيلتى السبب الذى جعل صداقتنا تتلاشى دفعة واحدة فاعلمنى الآن لأننى لا أستطيع عمل شيء تجاهنا ودم .

وكان نزيه ينتظر الرد على رسالته بفارغ الصبر فلما وصلت رسالة فؤاد فضاها وقرأها بكل دقة واستنتج منها أن شيئاً مختبراً فى رأس صديقه فاحتفظ بالرسالة عنده كذكرى لصداقة عزَّ عليه ضياعها قائلاً لعله يأتى يوم وأقرأها على مسمع من فؤاد وبعد أن أفرغ من الامتحانات سأعمل المستحيل لكشف سره الغامض . وانكب ساهراً على دروسه . وابتدأت الامتحانات وفى النهاية تفوق نزيه وكانت درجته فى صفه الأول وأما فؤاد فقد تأخر فى دراسته . ثم بدأ نزيه العمل على كشف السر وخطرت له فكرة عمد إلى تنفيذها غير مبال بما سيقوله الناس عنى ففى ذات مساء كان جالساً فى بيت (ياسمين) الفتاة التى أحبها فأفصى إليها بما يقلقه من نفور صديقه واقترح عليها أن تحاول الاتصال بفؤاد لأنها كانت صديقة لأخته فلعلها تستطيع بمساعدة أخته أن تكشف الحائل الذى يحول بين الصديقين .

(١) مصطلح شائع فى السعودية وهو مرادف لكلمة منفذة .

وبدأت ياسمين تعد العدة لحجابه هذه المشكله القاسية فجمعت تتقرب من فؤاد شيئاً فشيئاً .. مما جعل التفاهم بينها وبينه سريعاً وبدأ فؤاد يذكر لها ما يعاينيه من شقاء ويبيث لها همومه وذات يوم صرح لها بأنه يحبها وأن الفراق الذي حدث بينه وبين صديقه كان بسببها فقد كان يعرف أنها تميل إلى صديقه ولم يطق أن يرى صديقه منافساً له فيمن يحب فآثر الاعتماد عن طريقها وانتابته الوسواس والأفكار فلم يلتفت إلى دروسه .. حزن ذلك في قلب ياسمين وأحزنها أنها كانت السبب في الفرقة بين الصديقين وصممت على أن تعيد الصداقة إلى مجراها من أجل حبها لنزيه فكتبت إليه رسالة تخبره بما حدث لها به فؤاد قائلة له :

ولذلك صممت على أن أبتعد عن طريقكما وأن أضحى بحبي في سبيل سعادتكما .. ووصلت الرسالة إلى نزيه فقرأها وتعجب من هذه الفتاة وقال : إن هذه الفتاة أنبل من عرفت وهذه توضحية لا مثيل لها من جانبها .

وهنا أخذ يرسم خطة جديدة ، فقام من فوره وذهب إلى بيت صديقه وقرع الباب فوجد والد صديقه فدخلوا معاً إلى غرفة ولده وجلسا وأخذ والد فؤاد يسأل نزيها عن تأخر ولده في المدرسة ونزيه يدافع عنه وأخيراً قال نزيه سترى ولدك في المقدمة إن شاء الله وساد الصمت برهة بينهما وأخيراً سبأذن والد فؤاد وخرج فالتى نزيه نذرة على طاولة صديقه فوق بصره على وريقة فتناولها وجعل يطالعها وعرف أنها رسالة من ياسمين قالت فيها : عزيزي فؤاد .

لقد نفذت إلى أعماقك وعرفت عنك كل شيء وقد كتبت له رسالة وضحت فيها كل شيء واعلم أن نزيها أشرف وأنبل من عرفت وإنه ليسرني أن أراكما وقد عاد الود والإخلاص إلى مجراه بينكما ويسرني أيضاً أن أضحى بحبي مختارة راضية في سبيل سعادتكما ..

وإذا بصديقه يدخل فجأة فوضع الرسالة في جيبه فدهش فؤاد عندما رآه جالساً على منضدته ثم ما لبث أن عاد إلى هداوته مرحباً به وتجاوزاً الحديث

معا وأخيراً أخرج نزيه الرسالتين وناولهما إلى صديقه وقال له : إقرأهما الآن
على منسمع من والدك قبل أن يستقر به الجلود من فقرأهما فؤاد والعريق
يتصبب من جبينه خياء وعرف والد فؤاد نبيل نزيه ونبل الفتاة التي أيجها
أما فؤاد فقد أكبر من صديقه هذا الوفاء وقرر أن يرد له الجميل مضاعفاً .

وكذلك أكبر في ياسمين تضخيتها وعرف أنها من النبل بمكان وتعاد
مجرى الصداقة إلى سابق عهده بين الصديقين بل زاد قوة . وكم نزيه فخر
قلبه في سبيل الوفاء لصديقه .

وعاد فؤاد إلى سابق نشاطه واجتهاده ومرت الأيام وتقديم الصديقان
لأداء امتحان (البكالوريا) وكانت النتيجة مشرفة لكليهما فقد كانا من
الأوائل وبعد أفراح النجاح بيوم ذهب فؤاد مع والده لخطبة ياسمين من
والدها ووافق والدها مسروراً وقال إنه لشرف عظيم لهم أن يكون صهرهم
شباب أديب كنزيه . كل ذلك ونزيه لا يدري . وبعد مرور أيام قلائل
دخل فؤاد على نزيه مصافحاً إياه بحرارة ومهنئاً له ولوالده وأهله جميعاً وهو
يقول : لا زالت الأفراح في داركم فتعجبوا جميعاً وسألوه عن السبب فأجاب
ضاحكاً ألا يحق لي أن أفرح في خطبة صديقي نزيه لقد كلت والدي بخطبتها
من والدها لصديقي فوافق على ذلك وقبلت نيابة عن صديقي ولم يقدر نزيه أن
يكنم فرحته وأعلنت الخطبة ونخطب فؤاد أخت نزيه وهكذا ازدادت
الروابط بينهما تحي صداقتهما الخالدة .

تمت . ملاحظات يجب أن تكون في الحسبان أولها مسلك الفتاة العربية
وحرصها على أن تلم شمل الصديقين وحين تضحي الفتاة بحب طاهر عفيف
فإنها تكون قد ضحت بأغلى ما تملك . والملاحظة الثانية هي حرص الكاتب
السعودي على عدم تصعيد المواقف وزيادة الصراع توتراً فمعرفة نزيه أن
فؤاداً غريمه وقد عرف ذلك في وقت انقطعت فيه الصلة بين الصديقين لقد
كان ذلك كافياً ليزيد النار اشتعالاً .

ولكن الأديب السعودي يزغب عن مثل هذا المسلك ولذا جاء دور

الفتاة ليصب الماء على النار ولم تخل الأقصوصة من صراع غير مدمر كذلك الصراع النفسى لدى فؤاد بعد قراءته لرسالة نزيه فقد وقف مختاراً سائلاً نفسه : بأى شيء أصارحه وكيف أصارحه وحاول إنقاذ نفسه من محنته ولم يتركها تعاني وتمزق . والطابع الرومانسى يغلف الأقصوصة لا سيما وأن أبطالها كانوا فى سن المراهقة ومع ذلك تحكموا فى عواطفهم وكان معهم مسكة من عقل فارتبطوا بالواقع ولم يهيموا فى دنيا الخيال وأكبر الظن أن فؤاد أدرك إخلاص ياسمين فى حبها لنزيه فلم يشأ أن يتعلق بحب من جانبه هو فيخسر صديقه ولا يحقق أمنيته من حب ياسمين .. والأقصوصة بعد ذلك درس للتلاميذ ألا يضحوا بالعلم من أجل نزوات طائشة لم يحن وقتها بعد وأن العلم أولاً والزواج ثانياً لمن كان له عقل أو بصيرة بقى أن نعرف أن أمثال هذه الأقصوصة كثيرة الوقوع بين طلاب المدارس فى مثل هذه السن وأن غرام المراهقين عنيف مدمر إذا لم يضبطه عقل أو نزعة قيم وهل ثمة بعد الوفاء والنبيل من عاصم ؟

الأم والطفل الوحيد أمام مشكلة الفقر في أقصوصة واقعية :

ونعني بالواقعية أنها حدثت بالفعل أو يمكن أن تحدث. نعني واقعية الموقف أيضا لا واقعية الأداء .

وأقصوصة « مأساة أم ^(١) » للأستاذ محمد سعيد العامودي من هذا القبيل وقد عرض شعراء مصر والعراق لمضمون هذه الأقصوصة كحافظ إبراهيم ومحمد عبد المطلب ومعروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي والعودة إلى دواوين هؤلاء الشعراء تثبت صحة ما ذهبنا إليه فهل الأستاذ محمد سعيد العامودي نثر بعض هذه القصائد أم أن له رؤية خاصة ؟ وأنه طبع الأقصوصة يطابعه الشخصي بل بطابع الشخصية السعودية العامة ؟ إن ذلك أمر يتضح بعد أن تعرض موجزا لهذه الأقصوصة .

ها هو العيد . أجل يا أماء ها هو العيد قد أصبح قريبا منا ، وها هم « الأولاد » يتحدثون كل يوم عن العيد السعيد ، وها هو محمود زميلي في المدرسة قد أراني ما أحضره له أبوه من فاخر الثياب ... وكنا نلعب وكان معنا إبراهيم ابن أحد الجيران وكان يقول إن حذاءه الجديد قد فرغ منه الصانع بالأمس وقيمته خمسة وعشرون ريالاً أرسله بها أبوه إلى الصانع وأنا يا أماء قلنا ذلك الابن في حرارة وحيرة وأمل وأصغت إليها الأم التي أعيها النطق ، وحبس لسانها الألم المكبوت ... ورأت نفسها أمام سيل من الذكريات : ها هو الماضي يمر أمامها كأنه حلم . كان زوجها بالأمس يحمل عنها أعباء الحياة وكان يؤدي في مثل هذه الأيام البهيجة من شهر رمضان الكريم مهمته المحببة إليه ... إنه فيلم وياله من فيلم رائع ، كان بالأمس صورة للسعادة فأصبح اليوم صورة للشقاء ...

كانت كيثلاتها من الزوجات الفارغات لا تحمل أي تفكير بمس العيش من قريب أو بعيد . وعلام تفكر ؟ وقد أصارت لها المقادير من زوجها

« حسان » زوجاً مثالياً . ولكن مات زوجها تاركاً لها هذا الابن في التاسعة من سنه وتاركاً لها قليلاً من المال ما لبث أن ذهب هو الآخر أيضاً صرفته في الشهور الأولى التي أعقبت الوفاة .

وقد شاء القدر أن يرحمها ويفرقها فاستطاعت أن تحمل عبءها الجديد ولكن في شيء من الضيق كانت تحترف لونا من ألوان التطريز هديت إليه من أيام الصبا فها هي اليوم تعود إليه .

هو ذا مورد متواضع يكفل الغداء ولكنه يعجز عن الكساء . وغلب التجلد الحزن وعاد للأم تفكيرها الطبيعي . واتزانها العاطفي وعزمها الصميم واستجابات لإحساس الطفل في وله وتأميل . راحت تحدثه أطيب الحديث . . أحمد . أحمد « ثوب من الحرير » « إحرام مطرز » و « حذاء » كل هذا سيأتي مع العيد . كل هذا سيحضر إليك تماماً تماماً كحمود وإبراهيم .

كلمات مغسولة أرسلتها إرسالا ووعود لا أقل ولا أكثر وكأنما ألهم الطفل ما في هذه الكلمات من إبهام وغموض فألقى بنفسه في أحضان أمه الخيري يسألها في إلحاح معلن : أصبح يا أماه . أخشى يا أماه أن يأتي العيد قبل أن نتحصل على المطلوب وحاولت الأم أن تلهي وليدها وهي فيما يشبه اليقين بأنه عما قريب سينسى .

لكن الطفل - وللطفولة في كثير من الأحيان نوع من الفهم يتحدى المنطق ويتخطى الكلمات - لم يستطع أن يلهو كما أرادت له أمه . وكيف ينسى وغداً - بكل تأكيد - سيأتي إليه كل من رفيقيه في تيه ما بعده تيه يزهران أمامه بملابسهما العيدية الجديدة وهي وحدها في نظر الأطفال رمز العيد السعيد .

ولم تجد الأم الشقية بداً من الإفصاح أحمد أحمد أنت تريد لباساً جديداً ولكننا يا بني لا نستطيع هذا الآن لأن الفلوس التي معنا يا أحمد ، أوشكت أن تنفذ ووردنا الجديد ضئيل لا يكفي إلا للطعام والشراب فاصبر

أيها الحبيب . كن مطمئنا لا تنتظر إلى إبراهيم أو إلى محمود . هذان هما أبواهما ، وأما نحن وأما أنت فقد أراد الله لنا وإزادته لا ترد أن نفقد أباك في وقت نحن أحوج الناس فيه إليه ... فكن واثقا كل الثقة مؤمنا كل الإيمان . بأن حالنا هذه لن تلوم ... وسوف يحلو العيش ويطيب ، وأخيرا سوف .
تنعم بأفخر اللباس عند كل عيد جديد .

سمعت كلامك يا أماه . ولكن آه اسمعي مني هؤلاء الأولاد سوف . يسخرون مني . هم من الآن يتهايمسون وأحيانا يقولون لي : أنت يا أحمد . ليس عندك فلوس تبثاع بها الثياب ... وهاهو خالي « عياد » ألا يمكن أن . تستدينني منه ما تبثاعين به هذه الثياب . أرجوك يا أماه وإذا لم يوافق خالي أو لم توافقي أنت فأنا سأشتغل . سأشتغل لإحضار الفلوس ، سأشتغل لنبتاع ثياب العيد فقالت له أمه : دعك من هذا الكلام يا بني .

هؤلاء الأولاد لا يسخرون منهم فقط يضحكون . إنهم فقط يلعبون . الصغار لا يعرفون السخرية .

وأما خالك عياد فهو لا يستطيع ما تريد وإن هو استطاع فأكبر الظن أنه . سيرفض منا هذا الطلب شأنه في هذا شأن سواه من الناس في هذا الزمن الذي . نعيش فيه .

لا بأس يا أماه . ما رأيك في أن اشتغل لإحضار الفلوس ؟ إني خال من الدروس ومن اليوم إلى أن يأتي العيد وإلى أن تفتح المدرسة يمكنني أن اشتغل . في أي عمل كان ويمكنني تدبير ما يكفيننا لشراء الملابس أليس كذلك . يا أماه .

لا . لا يا أحمد . اصرف عنك هذه الأفكار . الشغل يحتاج إلى سبق تمرين وأنت مازلت تلميذا في الابتدائية وما برحت طفلا صغيرا لا تقوى . على أي عمل فدعك من كل هذا واصبر فإن الله مع الصابرين .

إني صابر يا أماه ولكن الشغل الذي أستطيعه موجود وهو لا يفتقر إلى . تمرين ولا يحتاج إلى مجهود كبير .

فاسمجي لولدك الصغير أن يشتغل من أجل الفيلوس ومن أجل الملبوس
قال الابن هذا وقبل أن يتلقى من أمه أى جواب انفلت من أمامها فى خفة
وحمايس ، وما هو إلا أن خرج من باب الدار يعدو كما يعدو الغزال هناك
حيث إخذى العمارات قد أوشكت على إتمام والعمال منهمكون فى إكمال
دورها الأخير هناك وجد أحمد مكاناً له بين صغار العمال وبدأ بالعمل الذى
أسند إليه .

ولم تكن الأم راضية بكل الرضا عن هذا الصنيع فقد نمر نفسها إحساس
غامض مريع لم تستطع له تأويلاً وجلست وقد أحاطت بها الكآبة من كل
جانب لا تعرف ماذا تقول . هاهو ولدها الوحيد وكله إندفاع يغامر فى
الحياة وهو فى هذا إنما يعبر عن إرادة التفوق الكامنة فيه وفى أمثاله من
الصغار .

وراح القدر يعمل عمله الرهيب فى ضبط وإحكام وتلاحق وإسراع .
كان هذا أول أيام العمل بل أول أيام الوجود بالنسبة إلى هذا الصغير ،
وكان هذا أول أيام الحيرة وأول أيام الشكوك بالنسبة إلى الأم الرعوم .
كان هذا أول أيام العمل فهل هو آخرها يا ترى ؟
نعم كان هذا هو اليوم الأول وكان هذا هو اليوم الأخير .
وكانت المأساة إنه قد مات .

قد يكون العامودى متفقاً مع بعض الشعراء فى المضمون الاجتماعى ولكن
المعالجة قد اختلفت بما دخل الأقصوصة من عنصر الحوار بين أحمد وأمه
ومن تعقد الموقف واقتراح أحمد للحل ثم القيام بتنفيذه . وكنت أفضل أن
تقف الأقصوصة عند هذا الحد ليكون فى العمل حل لمشكلة الفقر .

ولكن الكاتب حين استمر فى القصة إلى أن مات أحمد فاسودت الدنيا
فى وجه الأم وهو يريد ذلك حتى تكون مأساة ولكن ما القيمة الفنية أو
الاجتماعية التى نحصل عليها من وراء ذلك .

ثم إن الكاتب لم يوضح كيف مات أحمد وكيف استقبلت الأم نبأ وفاته. وهذا كان من شأنه أن يعمق الصراع لولا أن الأديب السعودي بطبعه لا يحب الصراع المتلاطم .

وفي الأقصوصة بعض السمات الاجتماعية فالزوجات فارغات لا يحملن. أي تفكير بمس العيش من قريب أو بعيد وكأنني بالكاتب غير راض عن ذلك. (فالمسئولية أنأى الأشياء وصولاً إلى الرأس الذي تحمله هذه المرأة) ومعلوم أن تحمل المسئولية أول سمات النضج فالذي لا يتحمل مسئولية أو لا يعد لتحملها عرضة للكوارث ومعظم السعوديات على هذه الوتيرة .

وقد تعمق الأستاذ العامودي بنفسية الطفل بل نظر إلى الطفولة كلها من خلاله (وللطفولة في كثير من الأحيان نوع من الفهم يتحدى المنطق ويتمخطى الكلمات ومن ثم لم تستطع الأم أن تلهي وليدها وإن حاولت .

وهذه الأم الشقية لم تكن يائسة من رحمة الله (فكن واثقا بكل الثقة مؤمنا كل الإيمان بأن حالنا هذه لن تدوم) وما دام الأمر كذلك والأم على يقين من ضرورة انفراج الأزمة فإنني كنت أفضل كما قلت أن تنتهي القصة بعمل أحمد .

الفصل السابع فن الشعر

اللغة الشعرية - نوعية الشعر - ثقافة الشاعر العربي الحديث - تطور
الشعر السعودي - الشعر والتطور الحديث - بين التفتح والنضوج - الشعر
الجيد - من شعر المناسبات :

- ١ - (من سماء الشعر) لصالح الحامد العلوي .
- ٢ - (أو خيال مجسم في ابن خمس) لأحمد إبراهيم الغزاوي .
- ٣ - (الشاعر الطموح المتنبئ) - ١ - ٥ - رشيد السيد محمد هاشم رشيد

الاتجاه الديني :

- ١ - (قبس من الهجرة) لحسن عبد الله القرش .
- ٢ - (الذكرى المشرفة) لأحمد إبراهيم الغزاوي .

الاتجاه الاجتماعي :

- ١ - (إلى الشباب) لإبراهيم فطاني .

الاتجاه السياسي :

- ١ - (القصيدة الأسكوبية) لإبراهيم الأسكوبي .
- ٢ - (فلسطين الشهيدة) لمحمد أحمد باشميل .
- ٣ - (فلسطين) لمحمد علي مغربي .
- ٤ - (رواية الحرب) لعبد القدوس الأنصاري .
- ٥ - (دنيا الغد) أو ترنيمة السلام لمحمود عارف .

الطبيعة والمرأة :

تمهيد :

- ١ - (وحي العقيق في يوم انهماره) لعبد القلوس الأنصاري .
- ٢ - (جازان) لمحمد أحمد عيسى .
- ٣ - (يا ليتني قمرى) لحسين سرحان .
- ٤ - (عيلم) لحسين عرب .
- ٥ - (أنا والقمر) لحسين قاضي .
- ٦ - (اذكريني) لاسيد محمد هاشم رشيد .
- ٧ - (يا ليل) لعبد الوهاب آشي .
- ٨ - (التالودية) لعبد القلوس الأنصاري :
- ٩ - (أحلام الربيع) لطاهر الزمخشري .
- ١٠ - (يا حب من أنت) لمحمد عبد القادر فقيه .

الشعر الفلسفي والتأملي :

- ١ - (دمة) لإبراهيم هاشم فلالي .
 - ٢ - (محاوره نفس) و (فراق) لمحمد حسن فقي .
 - ٣ - (من الأعماق) لمحمود عارف .
 - ٤ - (شاعر يهبط إلى وادي الحياة) لعبد القلوس الأنصاري .
- ما أروع الشعر ينبع من عاطفة شاعر متمكن في اللغة جامع لأعنة الأسلوب العربي الرائع مع سعة أفق وذهن وإخلاص مبدأ وصدق عاطفة وصحة بيان .

والشعر قبل كل شيء موهبة موهبة تولد مع الشاعر دون أن يكون له في وجودها فضل اللهم إلا فضل الإجابة فيما بعد فضل التفوق والامتياز عن طريق الدرس وعن طريق التأمل وعن طريق المران .

ولا بد من حرص الشاعر دائماً على أن يكون صادقاً فيما يقوله للناس.
دون أن يتكلف أو يحاول التضليل (١).

فالشعر موهبة وثقافة فكيف يجود الشاعر موهبته وثقافته .

ثقافة الشاعر العربي الحديث (٢) :

يرى الأستاذ حسن عبد الله قرشى أنه حتم على الشاعر العربي الحديث أن يتضلع من أفانين اللغة العربية ما أمكنه الجهد والوقت تاريخاً وأدباً وعروضاً ونحواً وصرفاً وبلاغة فمهمة الشاعر الجديد ليست من الضحولة والسهولة بالقدر الذى يتصوره . إنها مهمة ضخمة ثقيلة تفرض عليه أن ينسج الستار السميك بين عصر وعصر وأن يصابق هذا الحشد العالمى الزاخر من المعانى والأخيلة الدقيقة العصرية التى تنثال انشبالاً .

ولن تستطيع تقييد خواطره وأفكاره الحديثة وتطويعها لقلمك ما لم تكن ذاخراً له من القوة والعتاد الكثير الكثير ، ولذلك فلنا نرى الشاعر الجديد اليوم أكثر الناس استهدافاً وتعريضاً لسهام الناقدين فإن لم يتعمق فى تجويد فنه وأدواته فضحه النقد وشهر به ، والنقد فى زماننا جاحم متقد لا يفقه الرحمة ولا المحاباة والاعتماد على السليقة الشعرية فى هذا العصر وزر تتبعه أوزار وقد خلت آياه فمن الغبن لشاعر يحترم فنه ويخلص له أن ينصاع إليه . فى تركيز شخصية هذا الفن وتدعيمها . ونحن لا ننكر بهذا المزايى التى تنتجها مطالعة الشعر العبرى الصحيح بغية الاستفادة والتثقيف من هذه المطالعة وحدها فلهذا أثره البالغ الشائق غير المثرى فيه وقد يستغنى الشاعر والأديب عموماً عن دراسة عناصر اللغة العربية ولكنه إذا تمكن من ذلك وانقاد له عنان البيان رداً عن نفسه بهذه المراتبة الفنية ليس غير صولة النقد وأمن شر أقلام الناقدين وأذهانهم اليقظة ، وهل إذا انعقد على رأسه غبار

(١) المنهل عدد المحرم ١٣٨١ هـ يونيه ١٩٦١ من مقال للأستاذ محمد سعيد العامود بعنوان (مع القلائد) .

(٢) المنهل عدد رجب ١٣٦٦ هـ .

معركة انتقادية شفع له في غشيانها مرونة محفوظة إن لم يكن ملماً بالإلمام الكافي بكل أدوات اللغة العربية وافر المحصول من مقوماتها وثمة فريق من شعراء العصر ما تكاد تقرأ له قصيدة أو مقطوعة حتى تثب إلى بصرك من بين سطورها لفظة أعجمية الصوغ والمعنى ومثل هذا يعتبر حكماً من الشاعر العربي على لغته بالعقم والقصور وهو ما يتجنب الانزلاق إليه شاعر تحتل لغته الصميمة من نفسه مكانها الطبيعي وهذا لا يعنى بحال أننا نستكره أن يتلحق الشعر العربي الحديث بالسرى الأنيق من المعاني الغربية فهذا كسب له وليس غرماً عليه ، والثقافة أياً ما كان منبعها لا يجوز أن تجنى على الفن الشعري طالما كان الباعث عليها هو تربية هذا الفن الأصيل وتنميته وإدخال عناصر قوية حية عليه ، ولكننا نود أن يستخلص الشاعر معانيه في ألفاظ عربية عريقة كي تنال لغته القاهرة حظاً من عنايته .

إن العربية وهي لغة أجدادنا ولغة قرآنا غنية كل الغنى بوفرة ألفاظها المؤتلفات وما يبرزها المصورة ولا تعوزها الأسماء الأجنبية ولا المسميات إذا تصدى لها الاشتقاق والتعريب والاصطلاح فكفايتها واضحة .

هذه نظرة الشاعر السعودي إلى فنه وإن شئت فقل هذه نظرية الشعر في السعودية في شطر كبير منها وهي نظرية لها جذورها في الأدب العربي ابتداء من زهير بن أبي سلمى إلى أبي تمام الموهبة وحدها لا تكفى ولا بد من تدعيمها بالثقافة ومن ثم لا بد من تجويد الشعر وتنقيحه ويقابل هذا الاتجاه اتجاه آخر يرى أن الشعر موهبة وكفى فالشعر يغنى عن صدقه كذبه كما يقول البحري ولهذا الاتجاه أنصار سعوديون أيضاً .

تطور الشعر السعودي (١) :

تبدأ قصة الشعر في هذه البلاد منذ عهد الجاهلية فمن هذه الرى وهذه الوهاد نبتت أول شجيرة للشعر ، وفي هذه الوهاد والأنجاد نمت الشجيرة

(١) المنهل عدد رجب ١٣٧٥ هـ - مارس ١٩٥٦ من مقال لعبد القدوس الأنصاري .
يعنونان (قصة الشعر) .

نموا رائعا فسرعان ما عظم جذعها وامتدت جنورها إلى الأعماق وانتشرت غصونها النضرة إلى الآفاق ، وسمت ثمارها اليانعة وأزهارها العاطرة الأقطار والتخوم وحينما جاء الإسلام وحمل مشعله الوضاء إلى الآفاق التي يطبق عليها ظلام دامس أولئك الفاتحون الميامين من صحابة الرسول عليه السلام وتابعيهم الأكارم حملوا معهم بنور النوحة العظيمة التي زهت وأينعت ثمارها من بلادهم إلى بلاد الدنيا فغرسوا هذه البنور الصالحة في كل بلد حل به ركبهم الميمون غرسوها في الشام وفي العراق وفي مصر وفي المغرب الأقصى والأدنى وفي الأندلس والهند وفارس وبخارى وفي كل البلاد التي سعدت بهم وما زال أحفادهم يوالون سقيها ورعايتها وتنميتها ونشر عرفها الطيب حتى تكونت منها حدائق غن وارفة الظلال زاكية الثمار تضيء على العالم جمالا وبهاء وهدوءا وتسديدا .

وإذن فهذه البلاد هي بلاد ريب مهد طائر الشعر ومجشمه الذي منه هب ودرج وحلق إلى الآفاق فلا بدع أن تكون للشعر في هذه البلاد قصة حافلة على أنه يجب أن نلاحظ أن هذا الذي ذكره عبد القدوس الأنصارى إنما هو تلخيص وصياغة جديدة لما جاء في كتاب طه حسين (حافظ وشوقي) فقد تحدث عن شجرة الشعر التي نبتت في نجد وتابع نموها وامتداد أغصانها وتنقلها عبر الأجيال إلى أن وصل بها إلى البارودي وشوقي وحافظ .

ومهما يكن من شيء فقد كان من نتائج انتقال الفاتحين المسلمين من هذه الربوع إلى أقطار العالم لنشر الهداية أن نقلوا معهم بنور دوحة الشعر إلى تلك الأقطار فصوح منها موطنها الأصلي فيما بعد وكان ذلك كما يقول الأستاذ الأنصارى في القرن الرابع الهجرى وقد نخلت البلاد بسبب انتقال أولئك الفاتحين من بلادهم إلى بلاد أخرى من كل نشاط ديني أو اجتماعي أو سياسي أو عمراني أو اقتصادي أو أدبي ثم مضت البلاد في مهابة من الفوضى واختلال الأمن وشلل المقدرات حتى كادت تفقد كيانها وذاتيتها في غمرة الأحداث والحوادث وهكذا صار في المؤخرة من كان في الطليعة وهكذا انعكست أوضاع العالم الإسلامي .

ثم بدأ عصر البعث العربى فى أعقاب حرب الدولة العثمانية مع إيطاليا
فكانت بلاد العرب تموج بحركات الاستنكار لالتواءات الرجل المريض كما
تموج بحركات اليقظة والشعور بالذاتية ونفخ شعراؤها فى أبواق التبشير بفتح
الوعى العربى وبانطلاقه من القيود والسود واسترجاع مجده السليب فنال
رشاش من هذا البعث العام هذه البلاد ولم تتمكن من مسيرته ولا من تتبع
خطواته بما يغير دفة اتجاهها من وراء إلى الأمام لاستحكام القيود والسود
التي تحيط بها من دولة الأتراك إذ ذاك . وكان من آثار انتقال علوى
الشعور بالذاتية والوجود أن رأينا العالم الشاعر إبراهيم الأسكوبى ينظم
قصائده السياسية من المدينة المنورة يزجى بها نصحاً وتوجيهاً للدولة العثمانية
التي تشاءت من انبثاق هذا الوعى المتفتح الذى سبق أوانه فزجت بالشاعر
الممتلىء إخلاصاً واعتدالا فى السجن فى بلاد الغربية وما رحمت كبر سنه
ولا قدسية موطنه ولا علمه ولا أدبه . .

وهذا كله أمر ذو بال بالنسبة لتطور الشعر فى السعودية إبان الإغفاءة
المديدة فلم يسبق لشاعر من شعراء ذلك الجيل ولا ما قبله أن سلك فى شعره
هذا السبيل الشائك الذى كان يعتبر فضولا ونزقا وشططا وحمقا ورعونة .

ونخلفه على هذه الأمانة الشيخ محمد العمرى المدنى الجزائرى الأصل
فقد كان شاعراً أسلس له الشعر الجزل عنانه ومع أنه كان ينظم قصائد
المديح لولاة الأمر فى العهدين التركى والهاشمى فإنه قد كان مع ذلك يحول
جولات موفقة أحيانا فى عالم الشعر الاجتماعى وأخيراً السياسى فى نفس قوى
طويل وأسلوب رائع متين وأسلوبه وإن كان كلاسيكيا فهو ينبض بالحوية
والإشراق وقد ساءت العلاقة بينه وبين الحكومة التي خلفت الدولة العثمانية
على الحجاز فى مبدأ تملكها لزام السلطة واستمر ذلك إلى أواخر عهدها . إذ
كان قد نظم فى أواخر العهد التركى قصائد يوجه فيها التقرير إلى رجال
حكومة الثورة العربية الهاشمية وهذه القصائد فى بلاغتها وقوتها كنز ثمين وإن
كانت معلومة البواعث والأهداف إذ ذاك . نظم فى بنى حرب الذين كانوا
يغيرون على أطراف المدينة قصيدة رائعة مطلعها :

رويبداً بنى حرب تفاديكم الحرب
ويمجنح ما نحوتم الطعن والضرب

فانتم قدحتم بالزنباد شرارها
فاضحت سعيراً لا يبوخ ولا ينحو

.. كان ذلك قبل الحرب العالمية الأولى ثم نشأت ناشئة ما بعد تلك الحرب تلك الناشئة التي فتحت أعينها على الثورة العربية ضد الدواة التركية وقدم إلى البلاد وفود من شتى الأقطار العربية تهني وتوجه وكان من هؤلاء الشاعر المحلق والعالم المدقق والسياسي المحنك والقائد الحصيف . وكان في مقدمة شعراء تلك الوفود شاعر العروبة الشيخ فؤاد الخطيب ، وفيه روح عربية متحررة وقد عاد وعاد معه شعره الأسرى إلى مهده الحبيب . وفي المهدي بدور ضئيلة واهبة من مبادئ الوعي والشعور المختبئة ذلك الوعي الذي كان يحلم بالذاتية والرغبة في الاقتباس من أفنان النهضة الشعرية الحديثة المنتشرة في أقطار العروبة دون هذا البلد وقد أضرم الشاعر جدوة الحماسة الشعرية في ناشئة البلاد الذي حظوا بالاتصال به من كتب فتاثرت الناشئة الجديدة بما يراد بهم ولهم وحاول بعضهم فرض الشعر بتفكير وأسلوب جديدين وكان في طليعة هؤلاء الشاعر محمد عمر عرب وأحمد إبراهيم الغزاوي .

وساعد على تنمية طاقة الشاعرية الحديثة الأسلوب والمراعى لدى الناشئة السعودية إذ ذاك هذا الفيض الجارف الوازد من طاقات الشعر العربي الحي الحديث الذي يحمل مشاعل الثورة وأقباس النهضة إلى كل عربي في كل صقع وبقع وهو من نتاج شعراء معاصرين كانوا أحياء يشاهدون ويسمعون ويشعرون فيصوغون ثمار شعورهم ومشاهداتهم وأحلامهم في ذوب مشرق من الشعر المؤثر الجديد وفي طليعة هؤلاء : سامي البارودي وإسماعيل صبري وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي من مصر والزهاوي والرضاوي من العراق . والزكلى والغلاييني والأخطل الصغير وبدوى الجليل من بلاد الشام وجبران خليل جبران وإيليا أبو ماضي من شعراء المهجر وغيرهم كثير .

ولا ريب أن كل هذا كان بمثابة روافد لتكوين مبادئ شخصية الشاعر السعودي الحديث والعزوف تدريجياً عن أسلوب الشعر القديم ذي النشاط والمشجرات والخمسات والمديح الأجوف والمهجاء السام والفكر القاصر والجناح المهيض المقصوص .

بداية التجديد :

كان تجديد الشاعر السعودي في بداية أمره محاولات وتقليداً للمجددين من أعلام الشعر العربي الحديث في مصر والشام والعراق والمهجر ومن ذلك قصيدة الشاعر أحمد إبراهيم الغزاوي التي خرج بها عن نطاق المحلية إلى ميدان الشمولية في سعة أفق الموضوع .

وقد كان نظمها في عام ١٣٥٣ هـ بمناسبة توقيع الصلح بين المملكة واليمن قال :

حمدنا السري غب إمتشاق البواتر
وكدنا العدا بالصلح رغم العواثر
وأصبح ما بين العروبة مسفراً
من الحب والقربى ونور البصائر
إن الشاعر يتحدث هنا من مكة بآمال العروبة التي بدأت تتحقق والتي
سطع نجم تحققها في هذا اليوم :

تماسك منها كل جزء بأصله
فاعظم بها مرهوبة في المغافر
وأحر يوم ثم فيه ائتلافها
ثناء الليالي والعصور الغواير
فما الحرب إذ ذقت مرارة كأسها
بأشقى غليلاً من سلام مسؤازر
والشاعر في البيت الأخير يشير إلى ما توصلت إليه البشرية عقب انتهاء

الحزب العالمية الثانية ونادى به الشعراء والكتاب والمفكرون ورجال القانون، وأقطاب السياسة العالمية وهو: أن الحرب خسارة فادحة للغالب والمغلوب معاً والسلم كسب لهما معاً.

ومن شعراء هذه المرحلة أيضاً خالد الفرج ومحمد بن بليهد وعمر كردى، ومن سار على دربهم فى محاولة الخروج من أغلال ماضى الشعر الثقيلة، الكاربة بمسيرة التطور الحديث ومعالجة الموضوعات الوطنية والسياسية والاجتماعية بدلاً من الانحصار بين أسوار المديح والوصف الفج والغزل التقليدى الأجوف. ولكن قافلة التجديد الشعرى تمضى وثيدة فى محاولات للتخلص من الركاسة والضعف وبطبيعة الحال لا يمكن أن يتم ذلك بين يوم وليلة فجيل الغزاوى خطا خطوة ثم تلاه جيل محمد سرور الصبان ومحمد عمر عرب ومحمد سعيد العامودى فخطا خطوة أكثر من ذى قبل ثم جاء جيل ثالث دفعت محاولات التجديد دفعة أخرى ذلك هو جيل محمد السنوسى، وحسن القرشى ومحمد العامر الرميح وهاشم زشيد ومن إليهم.

وبالجملة فإن هذه الأجيال الثلاثة تمثل عصر البعث وكان كل جيل منها يدفع حركة التطور بما يستطيع من قوة ونشاط.

الشعر والتطور الحديث :

الذى لا شك فيه أن الشعر السعودى الحديث قد تأثر بالمدينة الحاضرة: وهو شعر نابض بالحياة يتغلغل أحياناً فى أعماق النفس والمجتمع ومن ثم فهو مصدر من مصادر البعث والإلهام للفرد والمجتمع.

وبالرغم من العوامل المختلفة التى أثرت فى هذا الشعر فإن له طابعاً مميزاً لم تستطع هذه العوامل أن تذيبه فهو مرتبط بهذه البيئة المقدسة وبنفسية الإنسان السعودى وعاداته وتقاليده الضاربة فى أعماق التاريخ وهو متعدد الأشكال والألوان والاتجاهات وإن كانت هناك بعض الدواوين جيدة الطباعة والإخراج رديئة المضمون والشكل الفنى، وهذا من شأنه أن.

يزرع مكانة الشعر في النفوس والشعراء أنفسهم هم المسئولون عن ذلك وعليهم تقع مسئوليات النهوض بالشعر السعودي لأن للشعر مكانة سامية ينبغي العناية بها والحرص على رفعتها ليكون الشعر إشعاعات وومضات نيرة تنير للناس الآفاق وتترك القاتم وضياء .

على أنه ينبغي أن نلاحظ أن للشعر العربي خاصة فنية لازمة عبر العصور وبدأت واضحة في الشعر السعودي الحديث ذلك أن خيال العرب في الغالب لا يتجاوز مناطق الحقيقة التي يصفونها إذا وقعت أو يتخيلون وقوعها وفي إمكانهم تحقيق ما يتخيلون هذا بينما يتخيل غيرهم من الشعوب ما لا يستطيعون تحقيقه ولهذا يشط بهم الخيال إلى تصور ما يستحيل تحقيقه (١) .

فالمدينة الفاضلة التي تخيلها أفلاطون للعالم العربي لم تتحقق مطلقاً بينما أقام العرب المدينة الفاضلة فعلاً في يثرب وفي كل مدينة تولوا أمرها من مدن الدنيا .

ولما فتحت بلاد الدنيا للعرب كان تراث الأدب اليوناني أمامهم فلم يلتفتوا إليه حتى في عصر الترجمة عصر المأمون وإنما أقبل العرب على ترجمة العلوم النافعة . إن شعار العرب : إن القول يصحب الفعل أو يدل عليه أو يمهد لحدوثه وهذا هو طابع الصديق الذي يميزهم عن غيرهم من الشعوب .

وهاهي تباشير الفجر الجديد تلوح بيقظة العرب وتجمعهم واتحادهم لاسترداد مكانهم من العالم وكان اجتماع شمل العرب في الجزيرة حول قادتهم بداية إشراق الفجر . ولما كان الشعر تصويراً صادقاً لحالة العرب في تطوّرهم فإننا نرى في شعر أبناء الجزيرة ما يؤيد هذه اليقظة ويدل عليها .

والعرب من أسرع شعوب الأرض استجابة إلى دعوة الداعي وأشدّهم حماسة لها وقد صدق شاعرهم حين وصفهم بقوله .

(١) المنهل عدد رجب ١٣٧٥ من مقال للأستاذ حسن عبد المقصود بعنوان (الشعر ديوان

إذا مادعوا لم يسألوا من دعاهم
لأية حرب أم بسأى مكان
لا يسألون أحباهم.. حين ينسحبهم
للتائبات على ما قال برهانا

وشعرهم تصوير للواقع ولهذا ما كادت الجزيرة تنتفض انتفاضة
للإفاقة والتنبيه حول دعوة التوحيد ووراء الأئمة من آل سعود حتى نطق أبناء
الجزيرة مسجلين هذه الیقظة في شعرهم الذي بدأ معها يقوى ويفضح
بعد أن خمل وقت الجمول الذي عم الجزيرة في الفترة الماضية .

بين التفتح والنضوج (١) :

شعراء عهد النضج قد نسجوا خيوط شعرهم الفنية من أحاسيسهم
الوثابة وتجاربهم المتعددة ، وقد أقبل شعراء هذا العهد على صنع الملاحم
الشعرية . وهذا النوع من الشعر لم يكن معروفاً في شعر عهد التفتح في حين
أنه يعد في مرحلة النضج وبالنسبة لشعراء هذه المرحلة أول المراحل الفنية
في الدفاع عن الحرية الفكرية والثورة على أحلاس الجمود كما كان من
الأسس التي دعمت النهضة الأدبية في السعودية وفي العالم العربي إنه شعر
التفكير والأداء الفني . ولإقبال شعراء السعودية على هذا النوع أسباب
نذكر منها :

بعض أصحاب هذه الملاحم كانت لهم نزوات ظاهرها الاعتداد
وباطنها التنافس على خصوصيات كانت موضع صراع بين طرفين . الأمر
الذي أدى إلى امتداد طيب الحرب بحيث امتشق كل منهما سلاحه ليثبت
ذاتيته كشاعر وفي مدى وقت قصير خاض الطرفان معركة كلامية هائلة وقد
انضوى تحت لوائهما أنصار يؤيدون تارة ويكافحون أحياناً والتأييد والمكافحة
هما صورتان للدفاع المشترك عن مذهبي الطرفين المتحاربين وكان من نتيجة

(١) المنهل عدد رجب ١٣٧٥ هـ من مقال للأستاذ محمود عارت بدنوان، (رأي في حاضر
شعرنا ومستقبله) .

هذا الصراع أن ظهرت نتائج هذه المعركة في صور ملاحم كبرى : وهذه الملاحم أشرطة حية تزدحم بالأشباح المعروفة والمعالم الواضحة وكل شبح من هذه الأشباح هو معرض لرأى أو مرآة لساخنة أو خلجة .

ومدار هذه الآراء عند أخذ الطرفين هو مصادرة ما يدين به الجانب الآخر من آراء وسوانح وخلجات غير قائمة على أساس من العلم الصحيح أو المنطق السليم أو التكفير المنظم .

ويتلخص آراء أصحاب المذهبين المتنافسين في أن اتجاه أحدهما له زئير الأسد الذى خرج من الغرين تاركاً وراءه الغابات والسراديب ليواجه الحياة بمشاكلها ومتاعبها وآلامها .

كما أن نظرة الجانب الآخر إلى الحياة هى نظرة المستغرق في التفكير .

ومن هنا يتضح بأن الأول ينظر إلى الدنيا نظرة الشاعر الذى يحس فيعتبر في حين أن الثانى ينظر إلى الكون نظرة الفيلسوف الذى يفكر ويتدبر وفي دنيا الإحساس يخلق التفاؤل بأجنحته الوادعة كما أنه في عالم التفكير يتعثر التشاؤم في خطواته المتخاذلة .

ومن هنا يتضح بأن بعض هذه الملاحم يميل إلى الإيجاب والبعض الآخر يسير في طريق السلب ومن المقرر بأن الإيجاب سنبل البناء والتدعيم كما أن السلب وسيلة الهدم والتغرية والتجريد .

الشعر الجيد :

يسخر بعض الناس من شعر المناسبات لأنه شعر مناسبات وحسب ولكن الأستاذ محمد سعيد العامودى يرفض هذا الاتجاه^(١) ويرى أن بلجودة الشعر صفات متى توفرت كان الشعر جيداً سواء كان فى المناسبات أو الوصف أو الاجتماع ومتى فقدت كان الشعر رديئاً وإن صاغه الناظم فى أحدث الفنون الشعرية .

(١) المنهل : عدد صفر ١٣٦٦ هـ (لكات فى الشعر) .

فشعر المناسبات ليس كله جميلاً وليس كله رائعاً يقول الأستاذ العامودي :

إنى أطرب لشعر المناسبات كما أطرب لغيره من أنواع الشعر مادام الشاعر يصدر في شعره عن (شاعرية ملهمة) وعن عاطفة جياشة وعن فن أصيل وكان لكلامه من الموسيقى - التي هي الشرط الجوهري لكل شعر - ما يهز النفس حقاً ويؤثر فيها ويوحى إليها .

وليس أدل على ذلك من الشعر العربي قديماً وحديثاً فهؤلاء الشعراء : زهير بن أبي سلمى ونابغة ذبيان وحسان والأنططل والفرزدق وجريـر والمتنبي والبحتري وأبو تمام .

وأخيراً شوقي أمير الشعراء وزميله الكبيران حافظ وصبري . هؤلاء الشعراء الكبار هم بالإجماع أنبغ شعراء العربية في مختلف عصورها التاريخية ، ومعظم شعرهم الخالد إنما هو شعر مناسبات .

وهذا الشعر مازلنا نقرؤه إلى اليوم فنطرب له كل الطرب ونتذوقه كل التذوق ونميل إليه كل الميل .

إنما علامة الشعر الجميل أنه شعر يهز النفوس تجدد فيه هذه « الفتنة الشعرية » التي تملك عليك شعورك وتستولى عليك كل الاستيلاء ، وأنت تقرأ الشعر الذي يصح أن يسمى رائعاً هذه الفتنة الشعرية إنما مشارها أن هذا الشعر صادر عن طبيعة شعرية وعن قوة في العاطفة وعن صدق في الإحساس ثم تأتي الموسيقى ويأتي حسن اختيار الألفاظ وحسن اختيار الأوزان . ولا فرق بعد هذا سواء أكان من شعر المناسبات أم من شعر الوصف أم من شعر الاجتماع وهذه السمات الشعرية متكاملة هي سر الجمال الشعري إنها وحدها مصدر ما نشعر به من متعة حينما نقرأ القصيدة أو المقطوعة للشاعر المطبوع .

ووجود هذه السمات هو ما يجعلنا نتعشق شاعراً من الشعراء وننجذب إلى شعره كل الانجذاب ونقدم إليه إعجابنا لأنه هو نفسه يفرض علينا هذا الإعجاب .

والشعر الجيد يحمل إلينا معاني الحق والخير والجمال .

وثمة سمة أخرى للشعر الرابع الجميل هي الصدق . الصدق في كل شيء :
الصدق في العاطفة والصدق في الإحساس والصدق في التعبير ثم الجودة
الفنية .

لعلنا من الأوفق أن تكون لنا وقفات مع أنماط من شعر المناسبات في
مواقف متعددة نتبين فيها الأصالة من الزيف . كما نلحظ فيها الفرق بين النظم
والشعر من شعر المناسبات :

أولاً : من سماء الشعر (١) :

هذه القصيدة العصماء ألقاها الشاعر السيد صالح الحامد العلوي في الحفلة
التي أقامها النادي الأدبي العربي بسنغافورة تكريماً للشاعر وتقديراً لشعره
البليغ وشاعريته الخصبية .

والقصيدة تتكون من مقدمة وأربع أفكار مترابطة .

أما المقدمة فتتحدث عن الشعر وأنه منية الفؤاد ولذا فالشاعر يخلق في
سماء الشعر وفي جو الأمانى ويطل على الناس من برج الفن .

وأما الأفكار فالفكرة الأولى تذكر حفل الوداع وأنه أبهى من روضة
غناء .

وأما الفكرة الثانية فترى أن تكريم الشاعر ثناء على العلم والأدب .

وأما الفكرة الثالثة فتذكر شعر الوفاء والإخاء الذي ديجته براعة الشاعر
رداً على الحفل الكريم .

حسبي لصحبي أن أؤدى شاكراً
لهمو شعور صداقتي وإخائي

ثم تأتي الفكرة الرابعة والأخيرة فتحدث عن ذكريات سنغافورة
وطبيعتها الساحرة التي جلبت خاطر الشاعر وغذت خياله :

يلد به جلبت الطبيعة خاطرى

وغذت خيال الشعر خير غذاء

ومن ثم نولكل العوامل الماضية فإن الشاعر وإن رخل عن سنغافورة
وأحبابه بها فإن روحه ستظل مشلودة إليها وإلى رفاقه :

ولئن نأى شخصى فروحى بينكم

طوافة فأننا القريب النأى

إن هذه القصيدة تمثل اتجاهها جديداً فى الشعر ظهر فى المقدمة والأفكار .

أما المقدمة فإن الشاعر لم يجعلها طلبية أو غزلية بل ولم يطرق الموضوع
مباشرة بلون مقدمة وإنما اتخذ مقدمة وجعلها فى الشعر وسمائه وبرجه العاجى .
لأن الحفل كان تقديراً لشعره اليلغ وشاعريته الخصبه وكأنما أراد بهذه
المقدمة بل هو أراد بالفعل أن يعلن عن مذهبه الشعرى فالشعر عنده داء
ودواء ولا مفر منه فهو منية فؤاده فهو يعشقه ويحبه ولكن الشعر هجره كما
تهجر العاشقة عاشقها وهو يرجو منها زيارة عاجلة وإذا لم تهبط إليه ربة
الشعر فإنه سيصعد هو إليها ويعيش محلقا فى سماء الخيال يرفرف كالقراش
ويتجول فى الفضاء مفرداً يتسم للفجر والبرق يترقب قطر الندى والنور
ويغنى لكل ربيع ، ولا يعبأ بالكاشحين بل يطير فى جو الأمانى ويحط فى
برجه الفنى فلا يبلغ إليه الحساد ويظل فى منطاد فكره سابحاً بين الكواكب
والضياء ، يرنو إلى الدنيا بمقلة شاعر ويعيش يحلم بالجمال ، ويفضل دنيا
الخيال وعالم الشعراء .

دائى لأنت فهل لديك دوائى

أين المضر وأنت فى سودائى ؟

يا منية شام الفؤاد بروقها

ما بين يأس دونها ورجاء

تأخيت مسوات الشعر في خلدي وما
 برحت تشب الحب ملء دمائي
 طال الجفاء فهل تراك وشيكة
 أن ترحمني سهرى وطول عنائي
 ماذا صنعت وهل جنيت خطيئة
 حتى يكون الهجر بعض جزائي
 زورى على عجل تلاقى مهجة
 ذابت مع الأشواق غير ذماء
 وارثي لمن لولا طلابك ما صبا
 بالفجر والشفق الجميل النائي
 أو فاتركيني والخيال بمنزل
 أقضى الحياة علقا بسماي
 وأعيش في دنيا الفراش مرفرفا
 أهفو على الأمواه والأضواء
 متجولا غردا ولست بواقف
 إلا على الأزهار والأنباء
 مترنحا لا الريح تزعجني ولا
 صوت الزعازع تخفت لحداي
 متبسما للفجر في آفاقه
 مهللا للبرق في الأنبياء
 هيمان دأبي هائبا مترشفا
 قطر الندى والنور في الأجواء
 وإذا الربيع مضى جلمت بقابل
 مزرية في رقعة ورواء
 وإذا رماني كاشح لم أجزه
 عن ذاك إلا بسمة استهزاء

وأطير في جو الأمانى ساحباً
 تهبها على الواشين فضل ردائي
 متحصناً في برج فنى في حمى
 نساء عن الحساد أى تنائي
 أبعاد هذا البعد يصبح ممكناً
 أن يبلغ الحساد أس بنائي
 وأظلم في منطاد فكري ساحباً
 في جنة وكواكب وضياء
 أرنو إلى الدنيا بمقلة شاعبر
 يكتسو الجمال بنوره الوضاء
 وأعيش أحلم بالجمال مفضيلاً
 دنيا الخيال وعالم الشعراء

إن هذا الشاعر ممتاز بفنّه فخوره به ولذلك فهو لا يعبأ بالكاشحين
 ويجازيهم على ذلك ببسمة استهزاء ، ويجر فضل ردائه تهبها على الواشين . وإن
 كان ذلك يدل على معاناته منهم .
 والطبيعة من فجر وشفق وسما و فراش وأمواه وأضواء وأزهار وأنداء
 وبرق وربيع لكل ذلك تأثيره القوي في نفس الشاعر حتى إنه احتفى بها واستمد
 منها صوره .

والشاعر مفتوح لمباهج الحياة يرنو إلى الدنيا بمقلة شاعر ويعيش يحلم
 بالجمال ومهما يكن من شيء فإن هذه المقدمة الشعرية توحى بأننا أمام شاعر
 رومانسي يغنى للحياة من برجه الفنى وحين يتقل الشاعر إلى الغرض الأصلي
 القصيدة لا نحس بفجوة بين المقدمة وأفكار القصيدة فهم قد احتضوا به
 تقديرآ لشعره فليحدثهم عن ذلك الشعر حيث الأصفياء مع بعضهم فهو
 يشعر أنه في أهله وبين خلصائه وهو يغنى للطبيعة دائماً غنى لها في المقدمة
 وغنى لها في الفكرة الأولى من أفكار القصيدة فليست الروضة الغناء .

بأجبل أو أبهى سقى من حفنل
أنس الأديب ومسلء عين الرائي

ولقد رسمت له شاعريته روضة غناء عاودها الحيا فغدت موشية
الأرجاء وبدا يحياها الصباح وزادها حسنا على حسن وكأنه صورة مرسومة
بيد الربيع ذلك الفنان الرائع الذى أعطاهما منظراً عجيباً من الألوان والأضواء .

وفى الروضة ربوة فينانة بدت فى حلة خضراء من السندس ، وبحوار
هذه الربوة « كشك » لطيف وصخر وتبع ماء ينساب صوب بحيرة رقراقة
والطير تصدح والغصون تصفى لألحانها ونسائم الأسحار هبت على الأزهار
تقبلها حباً وشوقاً وعند وداعها بكت عليها .

إن هذه اللوحة الفنية ذات اللون الذى يبدو فى الأزهار والأشجار
وذاات الحركة التى تبدو فى النبع يتسلل وينساب صوب بحيرة رقراقة وذاات
الصوت عند الطير الصادر هذه اللوحة الفنية التى أبدع الشاعر رسمها بل
التى أبدع الربيع رسمها ليست بأجل من حفل الوداع لأنه حفل الأدب والعلم
ففيه أنس الأديب وفيه الجلال وبشائر السراء فيه حلية الرياض وليس
لرياض مازان الحفل من هيبة وبهاء ، وقد جال فيه فحول البيان وغرد فيه
بلايل الفصحاء ولا عجب فذلك النادى تألف عقده بالناهين وقد لبيت
دعوته وجئت إليه تقديراً لفضله وأنساً بأهله وجئت ألهمج بالوفاء للعاملين
بالنادى الذين لم يكتفوا بمجد الآباء بل كسبوا لأنفسهم مجداً بالكفاح .
ولقد أنجمل المادحون تواضع الشاعر بيارات مدامهم فكسوه من حلل
الفضل ثياباً وضمخوه بالعير .

لا نكر إن أبديت ما بى إنما
أصبحت فى أهلى وفى خلصائى

أصفيهم شعى وإن لم يكفهم
أصفيهم دمعى ومحض دمسائى

ما روضة غناء عباوها الحيا
فقدت به موشية الأرجاء
وبدا فحيها الصباح فزادها
نحسنا على حسن شعاع ذكاء
جلت فكانت ضنورة مرشومة
بيند الريح بديمة الإنشاء
عن الريح بها فجاءت منظراً
عجيباً من الألوان والأضواء
ربضت عليها ربوة فينانة
في حلة من سندس خضراء
قامت فقام السر في جنباتها
حرساً يقبها طارق الأرزاء
بحوارها (كشك) تكامل لطفه
وبجنبها صخر ومنبع ماء
متسلسل ينساب صوب بحيرة
رقراقسة كوذيلة الحساء
فالطير تصدح والغصون مصيخة
للحن وهي ترف بالأنساء
فنسائم الأسفار زارت زهرها
في غفلة عن أعين الرقباء
يأت تقبله وعند وداعه
نشرت عليه مدامع الخساء
بأجل أو أبهى سنى من محفل
أنس الأديب ومسلء عين الرائي
طافت به روح الجلال وررفت
في جانبيه إشارات السراء

حال بزینات الرياض ومبانيها
مساكنه من هبة وبهاء
جالت به نزل البستان وغردت
بالسحر فيه بلابل الفصحاء
ناهيك من نادر تالف عقده
بالناهيين الصييد والنبلاء
لما دعاني جئت أقدر فضله
ورميت أعباء الهموم ورائي
وأنت المسج بالوفاء مجسما
والفضل في أعضائه الكرماء
الكاسين الجند جهد كفاحهم
لم يكتفوا بمقناطر الآبساء
والخجلين تواضعى بشوارد
من بارغات المدح والإطراء
فأنت به أنفاسهم فكأنما
فأنت عسلى بعنبر وكساء
لقد جمع الشاعر في هذه الفكرة بين الطبيعة وبين الحفل الذي أقيم
لتكريمه وهذا الحفل نوع من المدح والثناء .
والشاعر البحري قد سبق الشاعر السعودي في الجمع بين المدح والطبيعة
في القصيدة التي مطلعها :

أكان الصبا إلا خيالا سلما
أقام كرجع الطرف ثم تضرنا
أرى أقصر الأيام أحمد في الصبا
وأطونفنا ما كان فيه مذمنا
إلى أن يقول تلك الأبيات المشهورة :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً
من الحسن حتى كاد أن يتكلمنا

فالشاعر السعدي مسبق بالجمع بين الطبيعة والمدح وإيجاد صلة بينهما
ونكن الشاعر السعدي تفنخ في الفكرة من روحه ورسم لها صورة بديعة ذات
ألوان وظلال وأبعاد مختلفة على نحو ما أوضحنا ذلك سابقاً مما يجعله مبدعاً
مبتكراً في هذا المجال .

وأمتد الحديث من الفكرة الأولى إلى الثانية فلذا الثناء الذي أهدى إلى
الشاعر من النادي الأدبي إنما هو ثناء على العلم والأدب .

فلقد أثقل المحتفون عنق الشاعر بكل ثناء ورفعه فوق كل سماء حتى
أخذته نشوة هزت كيانه وكاد وهو الرجل الوقور يرقص من السرور لقد
أغرقوه في بحر من العواطف ولكنه وذلك تواضع منه يعرف قدر نفسه
فلا يزه مدح المحب ولا يغض من قدره قبح العدو ، وهو لا ينكر آلاء الله
عليه فليس راء ما هو فيه فضل ولكنه يرى أن هذا الثناء وذاك المدح إنما هما
للعلم والآداب لا له .

أثقلتمو عنقي بكل ثناء
ورفعتموني فسوق كل سماء
فلكدت أذهب في الغرور لنشوة
هزّت كياني هزة الصبياء
ولكدت أرقص بالسرور معربداً
في الحقل رغم رزائي وحيائي
مهلاً رويداً إنني أنا عارف
نفسى بما ينقى على الخلطاء
لا تثقلوا بشائكم وبيسانكم
شخصاً ينوء بهذه الأعباء

أغرقتني في عنواطفكم فما
يجتدي على شخصي جميل وفائي
ومني درت نفسي حقيقتها سميت
عن مخادعات النقد والإطراء
لم يزمني مدح الحب ولم يكن
قصد العدو يغض من خيالاتي
لا أزهى كذباً ولست بمنسكر
ما للإله عليّ من آلاء
فلقد عرفت حقيقتي ودخائلي
أكون فضل فوق ما أنا راء
للعلم والآداب لا لي كالماء
أبداء فأنسكم الجميسل إزائي

وتأتي الفكرة الثالثة امتداداً أيضاً للفكرة الثانية لقد كان لزماً على
الشاعر وهو يسمع آيات المدح تهدي إليه أن يتجاوب مع هؤلاء الشعراء وأن
يرد على مادحيه ويبادلهم وفاء بوفاء وشعراً بشعر فليزل على حكم الوفاء
وليحمل قيثارته مترنماً وقد حملها ودعا شعر الوفاء فلباه متدفقا ولكنه
بالرغم من ذلك يرى أنه لم يوف المحتفين به حقهم فحسبه أن يؤدي شاكراً
لهم شعور الصداقة والإخاء :

معنى نزلت به لحكم وفائكم
وأيت رغم تواضعي وإبائي
ونخيلت أعر في السرور معانقنا
قيثارتني مترنما بغنائي
ودعوت شعري الوفاء فجاءني
كالماء منحدراً على الصفواء
متدفقا فكأنما سالت به
أخلاقكم من رقة وصفاء

لو قمت أنشد بالقبوري في مديحك
وكسوتها جهيدى شعور ولائى
فتسقت ذراً يكبل عقيده
ما فى النجوم الزهر من الألاء
وأنت تشيد بكم وتعلى مالكم
من أشرف الألقاب والأسماء
لم توفكم حقاً ولو طارت بكم
فوق السماك كأنفس الشهداء
حسبى لصحبى أن أودى شاكراً
لمهو شعور صداقتى وإخائى

وأخيراً يكتمل عقد المقدمة والأفكار الثلاث بالفكرة الرابعة بذكرياته
فى سنغافورة وهى المفجر الحقيقى لينابيع العاطفة والأفكار والصور والعبارات
فى هذه القصيدة وكأن هذه الفكرة وقد ختم بها الشاعر قصيدته تأتى لتلخص
كل ماضى فذكرى سنغافورة ونادىها لن تفارق الشاعر فى حله أو ترحاله
وخيالها سيظل ملء خواطره وسيظل يرافقه فلسنغافورة ذكريات جملة
وأصدقاء بعيدة المدى فى قلب الشاعر بها الطبيعة الساحرة التى جلت خاطر
الشاعر وغذت خياله .

ومن ثم فكلمة الفراق والوداع تؤرقانه فليرفق به المحتفون ولا يذكروا
هاتين الكلمتين كثيراً وإنه وإن قضى الله الوداع فإنه وداع مؤذن بقاء ،
وإن نأى شخصه عن سنغافورة ونادىها فروح طواقة بهما فهو القريب
النأى :

ولعهدكم ذكرى لدى تحفى
ما عشت ۞ عند ترحالى وثوائى
وخيالهم ما زال ملء خواطرى
ومسرافى فى بكورتى ومسائى

ولستغفوزاً . ذكريات . لا . تسلم .
 غما لنا في القلب من أصداء
 بلد بسنه جلت الطبيعة خاطري
 وغدت خيال الشعر خير غذاء
 لا تكثروا ذكر الفراق فإنه
 لفظ يهيج بلابل وبكائي
 رفقا بقلب ذاب في صبراته
 فكفاه ما لا قساه من برحاء
 ومي قضى الله الوداع فلم يكن
 إلا وداعاً مؤذناً بلقاء
 ولئن نأى شخصي فروحي بينكم
 طوافاً فأنما القريب النائي
 هذه القصيدة إذن من وحي سنغافورة من وحي ذكريات الشاعر بها
 من وحي طبيعتها من وحي ناديا .

وقد التقى الشاعر بالطبيعة والنادى وجها لوجه فكانت تجربة عملية نقلها
 إلينا في تجربة شعرية جيدة ارتفع فيها الشاعر إلى سماء الشعر وكانت رؤيته
 واضحة مزج فيها مذهبه الشعرى بالطبيعة بالوداع ونقل هذه التجربة إلينا
 عبر صور جميلة نابضة بالحياة واستعمل قاموساً شعرياً بهيجاً فيه الفجر
 والشفق والفراش والأزهار والطير والجمال والخيال والشعر والربيع والجدول
 والربوة والثناء والمدح والوداع واللقاء وإن جاءت بعض عباراته ثرية مبتدلة
 لاكتها الألسن مثل : أثقلتني عنى — لا تكثروا ذكر الفراق — ولئن نأى
 شخصي فروحي بينكم .

وعلى كل حال فهي عبارات محدودة لا تقلل من روعة القصيدة وجمالها

ثانياً : أو خيال مجسم في ابن خمس :

الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوى شاعر جلالة الملك عبد العزيز وعضو

مجلس الشورى شاعر فحل ينسج على منوال القدماء ويتساي إلى القسم
العالية من جزالة البيان وقوة التصوير وبلاغة التعبير ، وقد نفح مجلة المنهل
بقصيدة عصماء بمناسبة عيدها الخامس وجعل عنوانها (أو خيال مجسم في
ابن خمس) (١) .

وتبدأ القصيدة بأسلوب إنشائي مضمون يعرض فيه الشاعر تصوّره لهذه
المجلة أمى موكب البعث أم أشعة الشمس أم أمان تحققت أمى الزبيع في وروده
وريا حينه أم حبيبة تمنعت ثم جادت بالوصال كل هذه الأحياء مجسمة قد
تجمعت في المنهل ابن السنوات الخمس ذلك الوليد ذو الأصول العريقة الذى
أنجز في هذه الفترة الوجيزة أعمالاً كباراً فتلاقت فيها العصور والخضارات
وحفلت بالبيان الساحر المؤثر وأسلوبها متنوع فهو رقيق جميل كأكف
الملاح رقيقة الملمس وهو قوى جزل كدوى الرياح .

موكب البعث أم مفاخر أمس
ما أرى اليوم أم أشعة شمس
أم طيسوف من الأمانى استجابت
حلماً باسماء كوهضمة قبس
أم ربيع كرفرف الحسنة طيبا
قسد تغشاك بين ورد وورس
أم وصال بلغته بعد صد
أم حبيب لقيته بهسد رمس
لست أدري وقد علمت بدانى
بين قلبين من رجاء ويأس
كسل هذا وكسل ذاك شعور
أو خيال مجسم في ابن خمس

قى « وليد » أراه منذ تناهى
 بخزرجى الأصيول أو فرع أوس
 كلما اجتاز فى الطفولة شهراً
 نازع المهبد رابتنى عرش درس
 ثم لم يبلغ (الفطام) فأضحى
 عبقرىا يحسول فى كل طرس
 تتلاقى العصور فيه تبعاً
 والحضارات من ضحى كل جنس
 فى أفانين من بيان وسحر
 وتصاريف من سعود ونحس
 كألف الملاح رقة لمس
 ودوى الرياح شدة بأس

هذا وما زال الشاعر سابحاً مع خياله يتصور المنهل تقود موكب البعث
 الثقافى والعلمى والأدبى فى هذه البلاد دون أن يصرح باسمها إنه يذكر صفاتها
 وحسب وهو حين يذكر هذه الصفات إنما يعرضها مصورة وعلى هيئة
 أسلوب إنشائى كما قلنا ثم يتابع دور المنهل الطليعى فى هذه المجالات المتعددة
 فيذكر معالجتها للأدواء الاجتماعية وأنها رائدة فى هذا المجال وأنها حققت
 تقدماً ملموساً وهى ما تزال فى دور العلاج فكيف بها إذا تجاوزت هذه
 المرحلة وأنها استعانت بكتاب مسلمين اهتموا بنور الله فهم خيرة الناس
 وجيرة الحرم وجيرة الرسول تحركهم عقيدة التوحيد الواضحة وهم ينشرون
 نور الإسلام فى كل أفق كما كان سلفهم الصالح يفعل ذلك فالغزاوى يرى
 أن مفتاح الحركة الثقافية والأدبية التى تقودها المنهل إنما هو فى تمسكها بتعاليم
 الإسلام وذلك لم يصدها عن الحضارات المختلفة .

عالج الداء فى حشى كل مود
 كان من قبل لم يجد من يؤسى

فمشى البرء في السقام زوينداً
وهو من بعد أخذ بالمحس
وعقباقيه الهدي في أناس
أبعد الله عنهم كل رجس.
خيرة الله في البرية طراً
وهم القوم في مهبط قدس.
جيرة البيت والرسول ومهوى
كل قلب وكل عين ورأس.
لبسوا الوشى في الخلود وظنوا
مأزر الدين دون شك ولبس.
يوم كانوا كواكباً كل أفق
فيه آثارهم بهم بنس
سلف صالح وشعب كريم
يصيح المجد في رباه ويمسى

كل هذا وما زال الشاعر يحفظ بالسر فلم يصرح بموضوع حديثه لهم
يذكر اسم المنهل وإنما ذكر صفاته وذكر دوره في خدمة الثقافة والعلم والأدب.
كما ذكر الرجال الذين أعانوا على تحريره وذلك لون من ألوان التشويق جعل
الناس يتساءلون أو هكذا أراد لهم الشاعر أن يسألوا عن حقيقة الأمر ويطلبوا
من الشاعر أن يعلن لهم عن اسم ذلك الموصوف ويدع الرمز والهمس فهم
يسألون عن الرضيع الذي صار كالغلام وعن الغلام الذي كساه ثوب
عرس ، ولكن الشاعر يتهيب الإفصاح فيقع الناس في ريب من حقيقة الأمر.
فيعاود الحديث عن طريق الرمز فيذكر أنه يبدو في مطلع الهلال كالبدر
إلا أنه في صحائف ملس وهو مثل الهلال يشرق في كل غلس .

وكأني بسائل قال بهراً
حسبك الآن فاشف روحى ونفسى

سمّيه جهرة وقيل لي مبادا...
 أنت تعنيه في رموز وهمس
 من رضيع ووصفته كغلام
 وغلام كسوته ثوب عرس
 ذاك عكس الحياة إذ هي طرد
 وأصطلاح القريض طرد لعكس
 فتبيت أن أبـروح بسرى
 في قنوى فاقى وأهرقت كأسى
 وتوقفت فاسترابوا فأوحى
 لمسم الرجيم أنه وهم وهجس
 قلت في مطلع الهلال سنبو
 وهو كالبدر في صحائف ملس
 مشرق ضاحك الثنايا أغسر
 مستنير يضيء في كل غلس

لقد نوع الشاعر بين أسلوب الخبر والإنشاء وعرض صوراً متتابعة
 جسمها له خياله أو جسم فيها كما يقول ابن خمس ولكنه حين أدخل هذه
 الفكرة فكرة السؤال عن حقيقة الأمر وفك الرمز أدخل لونا من الحوار
 الداخلي أضفى على النص جواً قصصياً وكأن في الأمر عقدة تتطلب الحل وإذا
 بالشاعر في الأبيات التالية والأخيرة يكشف النقاب عن وجه الحقيقة ويصرح
 بأنه يعنى بكل أوصافه وصوره السابقة وتساؤلاته المتعددة يعنى بكل هذه
 التركيبية مجلة المنهل فيينا هو يحاور سائله إذ بالمنهل العذب يخطو كالطواويس
 حيناً وكالعارض في السماء حيناً آخر بين سمطين من الشر والنظم يمزج قديم
 الفن بجديده فرحب به الناس وحيوه أجمل تحية :

فلذا همسوا والمنهل العذب يخطو
 كالطواويس في اختيال وخرس

مسرّ حينما كعارض في سميتاء
 يعرض الأرض في ملاء دمشق
 بين سمطين مسمن ثمار ونظم
 وسماطين مسمن ثمار وغرس
 تغنى بسلام الأيكة فيها
 بأناشيد أشعلت كل حس
 تمزج الفن طارفاً بتليد
 في أباريق كالمرشف لفس
 لسبرات كأنها زفرات
 هاجها الحب بين ليلى وقيس
 كل الحب كان (معيد) فيه
 مصدر الصوت أو لها طويس
 فأفاضوا إليه غدير بعيد
 وأباحسوه ككل شوق وأنس
 ثم حيثسوه معجبين وقبالوا
 حيثسوا أنت ياشهدنا الفردوس

نلاحظ أن الشاعر حافظ على وحدة الوزن ووحدة القافية وأنه بحث
 الحياة في قصيدته لأنه كان معجباً بالمثل وبسلوكها نهجاً وسطاً بين القديم
 والجديد ، وأن المادة الشعرية لديه كانت وفيرة غزيرة إلا أنه تناول المادة
 الخام لموضوعه تناولاً موضوعياً أي من حيث هي قائمة خارج شخصيته
 ومستقلة عنها فحتى إعجابه بالحيلة لم يأت على لسانه وإنما جاء على لسان من
 سأله عن فحوى حديثه ، والإعجاب عاطفة عامة ينقصها التحديد والتلوين
 ومهما يكن الأمر في شعر أحمد إبراهيم الغزاوي أقدم هو أم جديد أم أنه
 بين بين فهذه قضية نقدية تختلف من شخص لآخر إلا أن الذي لا يختلف
 عليه أثنان فيما أرى هو عدم إهمال التراث الشعري والأدبي واللغوي لهذا
 الشاعر الفحل والباحث اللغوي الرقيق فينبغي أن نعرف أقدار أدبائنا وعلمائنا
 وأن نحافظ على نتاجهم وإن اختلفنا في تقويم هذا النتاج .

الشاعر الطمّوح المتنبي (١) :

هذه قصيدة من نظم الشاعر السعدي ١ - ٨ - رشيد من المدينة المنورة .
يعبر فيها عن إعجابه بالمتنبي .

وقد قسم الشاعر القصيدة إلى قسمين كبيرين :

القسم الأول : آمال المتنبي :

لا ثلومـوه إن طغى	وشكى الدهـر والغـير
وتسـبى بنفـسه	وتعـبى عـن البـشـر
ورأى النـسـاس كـالـسـهـى	وهـو كـالـشـمـس والقـمـر
ذاك دنـيـا مـن المـسـئـى	كـونـهـا يـبـد القـسـد
فـى إهـاب مـن القـسـوى	ويـبـان مـن الشـر
وحـيـاة تـقـلـبـت	فـى غـرـيـب مـن الصـور
ملـؤـها الحـزم والجـوى	ملـؤـها الـهـم والفـكر
ملـؤـها الحـقـد للـورى	مـفـزعـا رائـع الخـطـر
ملـؤـها عـقـبـيـريـة	غـلـبـت كـل مـقـتـدر
وتـبـدلت لـمـن يـسـرى	تـفـسـد لـبـ القـلـب والبـصـر

هذه الأبيات تذكر تعالى المتنبي عن البشر ثم تذكر السبب في ذلك .
وهو أن أحلام المتنبي كانت كثيرة وأنه كان شجاعاً قويا ذا بيان ناري .
وحياة متقلبة متلونة بين الحزم والجوى والهم والفكر وهل كان المتنبي
حكمة أم هذراً ؟ إنه كان شاعراً طموحاً لم ينل منزلة إلا تطلع إلى ما فوقها
وهو في حرب مع الدهر الذى لم يحقق أحلامه وهو في النهاية يشكو حظه
العثر .

إن هذا اللون من الشعر يمكن أن نسميه شعر الفكرة فهو بالرغم من
موسيقاه الراقصة وصوره البيانية إلا أن عنايته بالفكرة وتوضيحها والتعليل .

سما ووصف المتنبي وشعره غلبت على وجدانه وإشعر وجدان قبل أن يكون
فكرة .

كان حاقداً على الناس لأنهم لا يقدرون عبقرية حق قدرها أو لا يقدرونها
إلا القليل منهم .

وبالرغم من أن الأبيات ذات موسيقى واقصة واعتمدت على بعض
الصور البيانية كالتشبيه في قوله :

ورأى الناس كالسهي وهو كالشمس والقمر
ودنيا من المنى وبينان من الشر

والاستعارة في ملؤها الحزم ، ملؤها الحقد ، ملؤها عبقرية بالرغم من
كل ذلك فإن عنصر الفكرة غالب على الشاعر فهو يأتي بالفكرة ويعمل لها :
لا تلوموه إن طغى تلك فكرة يعمل لها بقوله :

ذاك دنيا من المنى

والصور التي ذكرها صور توضيحية لا تحمل إشعاعات نفس ولا
نبضات قلب ومن ثم فهي صور جميلة من حيث الشكل لا من حيث إنها
وليدة العاطفة .

ثم ينتقل الشاعر المدني إلى الحديث عن شاعرية المتنبي وشخصيته وهذا
بمناخ التفصيل لكون المتنبي دنيا من المنى وعبقرية فذة وذلك حيث يقول :

أبها إلهام البدي	شغل الناس والعصر
وانقضى الدهر وهو في	ذروة الجهد مستقر
شعره جواهر الينا	ن وألفاظه السمر
والذي عاش ساخطا	يشتكي العيش والعمر
ثائراً ينظر الحينا	ة بعين من الضجر
حانقاً يرقب الدما	ء كما يرقب الزهر
طيت شعري أحكمة	ذلك السخط أم هينر

أم طموح إلى العسلا دائب الوثب مستمر
لم ينسل قط منزلا يرتضيه فيقتصر
ورأى الدهر أنه ليس يملو ويزدجر
وزأى العمر لا يتنى بالأماني ولا العصر
فتلقاه بالحسنا م وأرذاه في الحفتر
وتسولي بروحنا تشتكي حظها العثر

فالمتنبى شاعر شغل الناس بشعره وقد تسم ذروة المجد في عالم الشعر
فشعره جوهر البيان وألفاظه الدرر هذا عن شعر المتنبى وهو كلام عام
يصدق على المتنبى محقا ولكنه يمكن أن يصدق على غيره كأبي تمام مثلا .
أما شخصية المتنبى فقد وصفها الشاعر بأن صاحبها ساخط ثائر ضجر حاقد ..
ثم وقف الشاعر متسائلا أكان سخط المتنبى حكمة أم هنرا ؟ .

الاتجاه الدينى : (قبس من الهجرة) :

الشيء من معدنه لا يستغرب فأغاني الشاعر السعوى الدينية تجيء من
الدعاة إلى الله وتتحدث عن قيم ظهرت على هذه الأرض المقدسة وذكريات
شهدت لها الجبال والبواديان والليل والنهار كانت السعودية مسرحها فالشاعر
العظيم حسن عبد الله القرشى حين يتحدث عن « قبس من الهجرة » (١) إنما
يستلهم قلبه المؤمن أولا وبيئته المقدسة ثانيا ومن ثم يمسك قيثارته بعد أن صفق
الوجد في فؤاده وصار حنينه إلى ذكريات الهجرة ذكريات البطولة والمكارم
صار في الحنين لحنا داخليا يغنيه فؤاده قبل أن يغنيه لسانه لقد أضاعت له
صور الذكريات بشكل بديع فبعثت الماضي المحيد أمام عينيه صوراً يشع
منها النور والحسن يفوح العطر وتسمو الأنغام فتغمر الكون بالجمال وبالبشر
وبالحق ذاك عالم يمجج بالقيم والمثل خللته الأجيال .

صفق الوجسبد في الفسؤاد وغنى

وتجلى الحنين في النفس الحنا

إليه يا ذكريات من أين ضياعات
مبور منك ترك الروح مضى
تبعث الماضي المحيى بعيني
أى ماض يشع نسوراً وحسنا
هو ماض من البطولات قد صيـ
بغ وشيدت به المكارم حصنا
هو ماض يفوح عطراً ويسمو
نغماً أطرب المسامع فنا
عمر الكون بالجمال وبالبشر
وبالحق مشمخراً مرناً
بالدنيا تخرج فيه ومعنى
خلدته الأجيال قرنا فقرنا

فهل تقوى قيثاره الشاعر على نقل هذه العواطف الجياشة إنها أيضا
أحست بالوقوف وبالألحان الخالدة التي ستردها ومن ثم ذابت من الهوى
لأن الدرب بعيد وجلال الوقف يحل عن الوصف فلتستمد القيثاره الولى
من خلال الموقف معانيه ولتتخذ من طبيات الذكريات حصناً لها ومجناً :

أنا أخشى عليك قيثارى الولى
تذوبين من هوى بك حسناً
أنا أخشى عليك فالدرب نساء
كيف تفننين والخوافق وسنى
فاستمدى من الجلال معانيه
وصوغى من الطيبوب مجسناً

وبعد هذه المقدمة عن ذكريات البطولات والمكارم وعن القيثاره
الولى يصل الشاعر إلى بيت القصيدة وإن شئت فقل إلى الكوكب المهاجر
يصل إلى رسول الله ﷺ ذلك السارى وملء جنبيه سر من روح الله فهو

يمشي ينور الله وبقلب ذاكر إنه درع الأمان والسلم للكون ، إنه حامل
الوحي المنزلي بالحكمة والخير فيه هدى الدنيا وسنى الآخرة إنه آيات وشرع
هدى أعرض عنه المضلون وأرادوا به كيداً في بلده مكة البلد الأمين فخفت
يثرب لحمايته وترحل رسول الله بالمؤمنين إليها نخاملاً عقيدة التوحيد فكان
كالكوكب ملاً الفيافي أمناً :

أَيُّ سَارٍ وَمَنْزِلٍ جَنِيهِ سِرٌّ
هُوَ رُوحٌ مِنْ آلِهِ تَدْنِي
سَكَبَتْ نُورَهُ السَّمَاءُ لِقَلْبٍ
ذَاكَرَ كَمْ يَمِيضُ وَدَأْ وَيَمْنُ
هُوَ دَرْعُ الْأَمَانِ وَالسَّلَامِ لِلْكُونِ
نَ تَسَامِي نَبْعًا وَمَسَاوِي وَشَأْنًا
هُوَ وَحْيٌ مَنْزِلٌ رَفٌّ بِالْحِكْمَةِ
وَالْخَيْرِ بَاهِرًا مَطْمَئِنًا
فِيهِ هَدًى الدُّنَا وَفِيهِ سُنَى الْآخِرَى
وَمِنْهُ الضَّلَالُ يَنْدُكُ رَكْنًا
هُوَ آيٌ يَنْسَابُ فِي مَسَرِّبِ الْعَدُوِّ
حُ وَشَرْعٌ أَهْدَى الْعَظِيمِ فَأَغْنِي
إِنْ يَكُنْ أَعْرَضَ الْمُضِلُّونَ عَنْهُ
وَتَعَاوَا عَلِيْسَهُ عَمِيْسًا وَسَجْنًا
فَحَمِيْ يَثْرِبُ تَرَامِيْ عَلِيْسَهُ
مَنْ عَمِلَ فَجْرَهُ فَأَمِنْ حَسْنِيْ
فَتَرْحَلْ بِالْمُؤْمِنِينَ إِلَى يَسْثَ
رَبِّ وَاتْرَحْ مَهَاجِرًا جَدَّ مَعْنِيْ
يَا عَقِيْدَ التَّوْحِيدِ مَا أَنْتَ إِلَّا
كَوْكَبٌ يَمْلَأُ الْفِيَاْفِيْ أَمْنًا

قد تبرأت من دخول ومن حق
سد وأشربت حب ربك فاهننا

هذه أنشودة تحمل فيضاً من المشاعر والعواطف بجوار رعوس أفكار
حول المهاجر العظيم وما لاقاه من قومه في مكة وكيف رحب به أهل المدينة
والصياغة الفنية جيدة والموسيقى تناسب ألحان البطولات فالقصيدة من بحر
الخفيف : فاعلاتن مستعلن فاعلاتن بيد أن بعض عبارات الشاعر وألفاظه
لا تألفه الأذن الحديثة مثل « مشمخراً » في البيت السادس وكلمة « يرن » في
نفس البيت مبتذلة .

ثم انبرى الشاعر يفصل أحداث الهجرة فيذكر سوء معاملة القرشيين
لرسول الله ﷺ حيث جرعوه الآلام ولم يراعوا فيه قرابته ولم يعرفوا
قلره رسولا مع أنهم من قبل كانوا يلقبونه الأمين فما بالهم يكذبون نبي
الرحمن ونبع الحياة وإكسير السعادة .

أنت صبح أطل من تلة الكو
ن وهيات أن يرى الصبح دجنا
عاد وقت النضال بعد نضال
لم تقم فيه للمكاره وزنا
جرعوك الآلام لم يستدبوا
فيك قربي أو يفقهوا لك شأننا
لقبوك (الأمين) لم تعرف المسيد
ن فكيف ارتضوا لصدقك غبنا
يا نبي الرحمن فاصدع بذكر
هو للناس رحمة تنفى
هو نبع الحياة أو هو إكسير
سر السعادات أو هو الروض ينجى

وتحت أستار الليل وبرفقة الصديق يخرج المهاجر العظيم ﷺ ويتخذ
الصديقان طريقهما إلى الغار ليتخذاه كناً وإنه يشرف عظيم لذلك الغار فقد
ضم المغام والخير ولمس الظهر صخره وثره .

اتخذ من جوانب الليل سراً
ومن الوامق المصدق خدنا
هاهما ذان في المغارة إلفيـ
من أباختهما المقبادير كنا
أى معنى ضم المغام والخير
سر سميها واستجمع الفخر سكني
لمس الظهر صخره وثره
فهو تبر يروع حسا ومعنى

وتثور ثائرة المشركين بعد أن علموا بخروج النبي ﷺ من مكة
مهاجراً وخرجوا في إثر الصاحبين يملؤهم الطغيان والرغبة في الشر يريدون
حماية كبريائهم النهار بالبطش والغدر ولكن هيات لهما الآن في حماية الله
فليتضاءل ركب الشرك فما للقيما الصاحبين من سبيل لهما في كنف الخالق
ونجوم السماء أقرب من الوصول إليهما وبعد أن يثس المشركون من العثور
على الصاحبين وكادت صدورهم تنشق خزيا وحزنا وهم فوق الغار ويقول
قائلهم إن محمداً ومن معه في الغار فلنقتحم الغار عليهم ولنوسعهم ضرباً
وطعنا ، ويفزع الصديق من سورة البغي خوفاً على رسول الله ﷺ لا على
نفسه إنها لحظة يشيب لها الولدان ذعراً وخوفاً إنها لحظة حاسمة في تاريخ
البشرية ويشفق رسول الله صلى الله عليه وسلم على صاحبيه بعد أن رأى ما به
من الحزن واللوعة ولكن الهبدوء لم يفارق رسول الله ﷺ وإنه ليطمئن ،
أبا بكر ويفرخ من روعه حين يقول له : لا تحزن إن الله معنا ، وفي هذه
اللحظات لا ينسى الرسول صلاته فلم تصرفه عنها عصبية البغي ولا هول
الموقف إن موكب الشرك الطاغى لأهون على الله من جناح بعوضة ومن ثم

زد كيدهم في نحورهم ونحى رسوله وصاحبه بأوهن الجنود نسج
العنكبوت ويبغض الحمام هناك على فم الغار .

« ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

ولله جنود السموات والأرض وغار ثور في حماية الله وكفى وعاد
المشركون الطغاة يجرّون أذيال الخزي والعار وكأنهم كانوا حلماً بغیضة
انزاح لقد كان محمد وصاحبه في أمان الله فليحمد الله وهو خير الحامدين .
وسيدهم فقد انجلى الظلام وولى البغاة :

هاجت الشرك هجرة المرسل الها

دى وآدته فاستشاط وجنا

وطغى من سلاله الكفر رهط

رام أن يستطيل كبراً ومنا

نهبند الركب للرفيقين يبغي

بهما البطش مسالوة الغدر ضنا

إيسه ركب الشرك البغيض تضاعل

ما للقيما هما سبيلك يهدى

لنمسا الصاحبان في كنف الحيا

لسق هيهات دونك النجم أدنى

وهنا المشركون يعصروهم اليسا

س وكل ينشق خزيا وحسزنا

صاح منهم قسل هنا القوم في الغا

ر فشدوا عليهم الآن مشنى

ها هنا الهاربون فاستقبلوهم

بالجزاء المبين ضرباً وطعننا

وتأذى الصديق مسن سورة البغ

سى وقصد شفته الأسى فتظنى

ورنسا للرسول والطيسرف دام
مشتقاً أن ينسج بالسرء مغنى
ياهبنا لحظسة تشيب بلسا الولد
جدان ذعراً وتسقط الشهب حزنى
ياهبنا لحظسة أفاضت على التنا
ريخ ذكرراً فى انلافقين أغنىنا
ورآه الرسنول يستشعر البـ
ست وفى النفس لوعة ليس ثفى
قال يا صاح لا تحاذر ولا تحـ
حزن فرى بنا أضن وأحنى
وهفنا للصلاة يا لمصل
لم يروع بعصبة البغى ذهننا
نسج العنكبوت فسوق فم الغنا
ر وباضت حممنا فاطمأنبنا
وتهادت جنود ربك ترعى
موتل الوحى وهو يفرسنا
وتسولى الطفلة كالحلم الجـ
هم خفاقاً يطوون سهلاً وحزنا
هو أمن الإله فليخسأ الشر
ك حمى الله دينه المرجحنا
فاحمد الله فى ابتهال فقصد ولـ
سى بغاة عن موكن أض حصنا
وسرى الصاحبان بالأمسبل البسا
م تحمدوهما المفخر مجنى

لقد كانت الهجرة إجراء لتوجيه الدعوة إلى طريق جديد مفتوح بعد أن وصلت في مكة إلى طريق مسدود تأمرت كل عوامل العناد والكفر على سحق هذه الدعوة المباركة فأذن الله لنبيه بالهجرة رغم الصعاب التي اكتنفها ولكنها فعلاً شقت طريقاً جديداً للدعوة فما الدرس الذي يستفيده المسلمون من قبس الهجرة ؟ إنهم الآن في حالة يرثى لها يسبرون في طريق مسدود تكتنفه العقبات وهم بحاجة إلى أن يغيروا طريقهم ويسلكوا نهجاً قوياً يخرج بهم من الدائرة المغلقة التي حبسوا أنفسهم فيها إلى العالم الرحب الفسيح فكيف يتم ذلك ؟ إن المسلمين بين أمرين : حياة أو موت أما حياتهم ففي وحدتهم وأما مماتهم ففي تفرقهم فالوحدة هي الحياة والتفرق هو الموت وإن حال الشرق لا تسرفأم تعيش حياة الجبن تفرع من الطبل الأجوف وتعاني من آلام القيد والاستعمار جراحها كثرت وأبناؤها غافلون والتضامن طريق الخلاص وطريق إعادة المجد الضائع والبطولات القريضة في التاريخ إنه الطريق إلى توطيد الحضارة وإحياء الماضي المجيد ، وإن عقيدة التوحيد خير ما تجتمع عليه وخير ما يوحد بيننا فهي أثبت من الرواسخ وأسطع من الشمس :

أيها المسلمون قد يسق الشـ
سر وعناد الصنواب للبطل قنا

أيها المسلمون ماذا ترومنو
ن- أنجبا بوحنة أم سنقنا ؟

خذل البني أمة الشرق حتى
آثرت بعد خافض العيش جيننا

هي تحيا كالطفل يخرسه الطبـ
ل وكالطير في القيود معنى

هي تحيا للمس وأبناؤها النو
م عن جارها يصمون أذننا

فتعنا لبوا نوشج العيزم طبراً
ونعبد ماضى البطولات أسنى
ونوطد حضارة تبعث الغنا
بسر حيا وتغمير الكون فنا
وحدتنا عقيدة هي كالشمس
نس سطوعاً وكالرواسخ متنناً

وحين يأتي الشاعر إلى ختام القصيدة تراه من حيث الفكرة يحمل
قصيدته في كلمات معدودات فقد عرض فيما مضى صوراً من المجد
والبطولات هاجت شاعريته وخزكت وجدانه فغنى على قيثارته بأعذب
الألحان فكهم أثارت هذه الصور بقلبه من خطرات تلتقي كلها في معنى هجرة
الرسول وهل كانت الهجرة إلا صوت الحق فلتبعث القياثر صنداها في نفس
الشاعر كي يستمد منها القوة والغناء :

صور المجيد كم أثرت بقلبي
خطرات يهجن لي ما يهجننا
إن في هجرة الرسول لمعنى
جل أن يستبر أو يستكننا
قابعى يا قياثر الخلد في نفس
ص صنداها كي أستمد وأغنى

هذه القصيدة أو هذه المعلقة إن شئت. قد أربت أبياتها على الخمسين ومع
ذلك فهي متماسكة رسم لها الشاعر خطة بدأت بالأبيات من ١ - ٢١ والتي
تعد بمثابة مقدمة للقصيدة لاتن فصل عنها بل تتلاحم معها فهي تهيئة وإعداد
من نوع غير معهود في القصيدة العربية القديمة التي كانت تجعل مقدمتها
غزلية أو طلائيلة إنها في قصيدة الشاعر السعودي حسن عبد الله القرشي تعرض
الخطوط الكبرى للقصيدة تقدم ملاحظها الفكرية العامة ممزوجة بعواطف
الشاعر حتى إذا وصل القارئ إلى البيت الحادي والعشرين ظن أن القصيدة

قد انتهت لأن الشاعر جمع عناصر القصيدة الفكرية في هذه المقدمة حيث
تحدث عن ذكريات البطولات والمكارم والقيثارة الوهلى وعن الكوكب
المهاجر بملاً الفياقى أمنا .

ولكن الشاعر يبدأ منذ البيت الثانى والعشرين إلى أن يقول :

وسرى الصاحبان بالأمل البسا

م تحذوهمما المفاخر مجنى

يبدأ في تفصيل أفكاره وعرض صور من البطولات والمكارم وصراع
الحق الأعزل مع الباطل المسلح مواقف ،طاردة المشركين لرسول الله وغار
جرأ عشش فوقه العنكبوت وباض الحمام وقوف المشركين على فم الغار .
حديث أحدهم باحتمال وجود محمد وصاحبه في الغار . نحرف أبى بكر على
حياة الرسول . هدوء الرسول وصلاته إن ليلة الهجرة كانت ليلة الحق
المنتصر والباطل المنهزم ثم انطلاق الركب المهاجر إلى يثرب . ولقد وقف
الشاعر بالحديث عند هذا الحد عند غار ثور ولم يتابع الركب المهاجر إلى
المدينة واكتفى بقوله : وسرى الصاحبان بالأمل . ووقف ليلقى على المسلمين
درس الهجرة ويدعوهم إلى الوحدة وجاءت خاتمة القصيدة تلخيصاً لما إن
صحيح التعبير فقد عرض الشاعر في « قبس من الهجرة » صور المعاد واستلهمها
في قصيدته واستمد منها القوة والغناء وما أجمل حديث الشاعر إلى قيثارته في
مقدمة القصيدة ويختامها إنها تدل على أنه يغنى ويقص في آن واحد فلم يتغلب
التاريخ على الفن إن قلبه فياض بعشق البطولة والحق والكوكب المهاجر وقد
صور عاطفته ولم يقررهما فقط بل جعل الصورة توحى بها فقد صنفق
الوجد في الفؤاد وغنى — وصور الذكريات ضاعفت وماضى البطولات بفوح
عطرآ والقيثارة الوهلى — والرسول درع الأمان والسلم والآى ينساب في
ضرب الروح ، وما الرسول إلا كوكب يملأ الفياقى أمنا وصبح أهل من تلة
الكون وهكذا إلى آخر القصيدة .

لقد نظم الشاعر هذه القصيدة بطاقة شعورية جياشة ونفس طويل ركز

على صبور من الهجرة واستخلص منها القبر وسحينا نوازق بينه وبين شوقي في هذا المجال نجده قد تفوق على شوقي فشوقي لم يذكر الهجرة إلا في أبيات معدودات من قصيدته « نهج البردة » فهو حين يذكر جهل المشركين بالرسول ودعوته رغم أنه كان يلقب عندهم بالأمين والصادق يقول :

يا جاهلين على الهادي ودعوته

هل تجهلون مكان الصادق العلم ؟

لقبتموه أمسين القيسوم في صغر

وما الأمسين على قول بمتهم

إنه يلقبهم بالجاهلين ولا يذكر اسم الرسول بل يذكر صفة من صفاته هي « الهادي » فمع المشركين الجاهل ومع الرسول الهداية وهو ينكر عليهم هذا الموقف المتضارب إذ يقبون الرسول بالصادق ثم يرفضون ما يدعوهم إليه إن هذا الاستفهام يحمل التوبيخ والإنكار لما ذهبوا إليه ثم جاء البيت الثاني مكملًا معنى البيت الأول فهم لقبوه بالأمين والأمين لا يتهم على ما يقول وإلا فلم وصف بالأمين وقد نوع شوقي بين الخبر والإنشاء في بيتيه فالإنشاء « هل تجهلون مكان الصادق العلم ؟ » وبقية البيتين أساليب خبرية ولا شك أن هذا أكسب بيتيه حيوية وقوة .

وقد عرض القرشي لنفس المعنى حين قال :

لقبوك الأمسين لم تعرف الميـ

من فكيف ارتضوا لصدقك غنـ

لقد أذى القرشي المعنى في بيت واحد بينما أداه شوقي في بيتين . والقرشي يعجب كيف ارتضى القرشيون الغبن لصدق الرسول ؟ وشوقي لا يعجب بل يوبخ وينكر ويصفهم بالجاهل فالقرشي كان أرفق بالمشركين من شوقي في هذا الموقف .

ويتحدث شوقي عن موقف واحد من مواقف الهجرة هو موقف المشركين حول الغار فيقول :

سبل عصبة الشرك حول الغار سائمة
لولا مطاردة المختار لم تتم

جل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا
همس التساييح والقرآن من أم

وهمل تمثيل نسج العنكبوت لهم
كالكاب والحاتمات الزغب كالرخم

فأدبروا ووجوه الأرض تلغهم
كباطل من جلال الحق منهمزم

لولا يسد الله بالجارين ما سلما
وعينه حول ركن الدين لم يقسم

تواريا بجناح الله واستترا
ومن يضم جنح الله لا يضم

فشوق أيضا كان قاسيا على المشركين فجعلهم كالسائمة ترعى في
الصحراء والذي حولهم إلى حياة السوائم هو مطاردة المختار ﷺ . إنهم
كانوا يتتبعون الأثر فأعينهم مشدودة إلى الأرض تماماً كما تفعل السائمة حين
ترعى . السائمة تبحث عن الكلاء في الأرض وهم يبحثون آثاراً قدام الرسول
فهل أبصروا الأثر الوضاء وما أجمل وصف شوق لأثر النبي بالوضاء
فمواقع أقدامه الشريفة نور وهداية فهل اهتدوا إلى الغار بذلك أم سمعوا
همس التساييح والقرآن .. وكلمة سمعوا همس التساييح تدل على أنهم كانوا
يرهفون آذانهم إلى درجة كبرى وانظر إلى السائمة التي تسمعت همس
التساييح ووصلت إلى حيث تريد ولكنها ارتاعت من أى شيء من نسج
العنكبوت والحاتمات الزغب ما أجبن هؤلاء حين ملأ الخوف قلوبهم وتمثل
لهم الضعف قوة فأدبروا ووجوه الأرض تلغهم وقد كانوا يقرعون في
صفحات الصحراء آثار أقدام النبي . وهكذا تكفل الله بحماية رسوله
وهيات لبشر أن يجترأ على حرم الله الحصين .

والقرشي حين عرض لهذا الموقف ذكر انطلاق المشركين في إثر النبي
بملأهم الحق والغيط .

هاجت الشرك هجرة المرسل الهنادي
إليه ركب الشرك البغيض

تضامل ... ويلتقي القرشي مع شوقي في حماية الله لرسول في الغار =
يقول القرشي :

إنما الصاحبان في كنف الخفا
لسق مهبات دونك النجم أدنى

فالوصول إليهما مستحيل استحالة الوصول إلى نجوم السماء فنجوم السماء
أقرب إلى المشركين من الوصول إلى رسول الله في الغار أما شوقي فعبر عن
المعنى في بيتين حين قال :

لولا يسه الله بالجارين ما سلمنا
وعينه نخول ركن الدين لم يقيم
تواريا بجناح الله واستترا
ومن يضم جناح الله لا يضم

شوقي ركز على حماية الله وقوته في صور متلاحقة يد الله وعينه.
ركن الدين - جناح الله لولا هذه القوة ما سلم الرسول وصاحبه من أذى
قريش ولكن القرشي ركز على تحليل مشاعر القوم في هذا الموقف ووصف
نفسياتهم منذ خرجوا إلى أن وقفوا على فم الغار هم في هياج وطغيان يريدون
البطش بالصاحبين وفجأة يثسوا وكادوا ينشقون خزيًا وحزنًا . هذا فضلاً
عن أن القرشي تحدث عن الصاحبين داخل الغار وعن الشرف الذي حظى
به الغار في هذا الحدث التاريخي العظيم وتحليل نفسية الصاحبين داخل الغار
حين قال أبو بكر للرسول صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله لو نظر أحدهم
تحت قدميه لرآنا .

وحين يقول شوقي :

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم

كباطبيل من جلال الحق منهزم

فقد أدبروا مشيعين بلعنات الأرض وعودتهم هزيمة للباطل ونصرة

للحق . حين يقول شوقي ذلك ترى القرشي يقول :

وتولى الطغاة كالحلم الجبه

سم خفافاً يطسون سهلاً وحزنا

فالمشركون على فم الغار كانوا كالحلم البغيض مبعث رعب وفزع
فانقشع الرعب بعودتهم خائبين . ولا شك أن إحاطة القرشي بالموقف أشمل

وهو إن أوجز فكرة فقد أسهب في التحليل النفسى ولا شك أنه يتفوق على

شوقي هنا بأفكاره الكثيرة وتحليله ومشاعره الفياضة على أن شوقي عرض

للحديث عن الهجرة في أرجوزته عن « السيرة النبوية الشريفة »^(١) فذكر

أفكاراً ومواقف لم يذكرها القرشي وذلك حيث يقول :

فحقت الهجرة وهى مسرة

ما وصفت إلا لنفس حرة

سبيل موسى فى الزمان الأول

ومذهب الروح ولمسا يحول

ومركب الأفسراد والأعلام

وخصماء الظلم والظلام

ما أجمس الهجرة بالأحيرار

إن ضنت الأوطسان بالقسار

تأمسل الرسل الكسرام واعتبر

إن العظمى للعظمى يصطبر

(١) دول العرب وعظماء الإسلام ص ٢٣ وما بعدها مطبعة مصر ١٩٣٣ م .

ما أصعب الدعوة في البداية
خسنتي عنتلي الرسل أولى الهداية
وأثقل الحق على الجماعة
إن وجدت أذن له سماعه
والناس في عداوة الجديد
وقبضة الأوهام من حديد
نظرات شوقي هنا فلسفية يناقش قضية الهجرة في ذاتها ويذكر لها أمثلة
من التاريخ فالهجرة مرة لا تقوى عليها إلا نفوس الأحرار من أمثال محمد
وموسى وعيسى ونخصماء الظلم جميعاً .
وهي تجعل بالأحرار أصحاب الرسالات إن لم يتمكنوا من أداء
رسالاتهم في أوطانهم فأرض الله واسعة ومن ثم مارسها الرسل الكرام لأنهم
يحملون رسالات عظيمة والعظام كفؤها العظماء .
ويناقش شوقي طرفاً من الصراع بين القديم والجديد فالدعوة إلى شيء
جديد تلاقى صعوبات في بداية الأمر حتى لو أن القائمين بها رسل الله
المختارون فهم إن وجلوا آذانا مصغية فإن ضبط النفس وإلزامها المحجة
البيضاء ليس بالأمر اليسير على أن ثمة عاملين أو عقبتين في سبيل الجديد هما :
أن الناس يعادون كل جديد لأنهم لم يهضموه بعد هذا من جانب ومن جانب
آخر هم في أوهامهم سجناء تشدهم العادات والتقاليد .
ثم يذكر شوقي ليلة الهجرة ومؤامرة قريش على حياة الرسول وإغدادهم
العدة للفتك به ولكن الله حماه فخرج الرسول من بيته في حماية الله لم يره
المترصدون به .

هاجنز من أم القرى مأذوننا
وما درى أو سمع المأذوننا
في ليلة للختل كانت موعدا
قد نصبتها شركا أيدي العدا
(النهل)

اثمرت في الندوة الأعينان
وانتدبت للفتكة الفتيان
وقعدوا ناحية كيننا
ليغلبوا في داره الأمينان
فخرج الله من البيت به
لسم يسره الجمع ولم ينتبه
وسار في ركابه الصديق
وفي البلاء يعرف الصديق

وما هي قريش تخرج في طلب الرسول وصاحبه ولكن هيات لهما في
رعاية الله ومن ينصره الله فلا غالب له . لقد انتشروا في كل مكان ووصلوا
إلى الغار الذي يأوي إليه الرسول وصاحبه ولكن الله صرفهم عنه ولما هدأت
العيون انطلق الرسول وصاحبه إلى المدينة وكان له فيها شيعة بايعوه سرّاً من
قبل بمكة على النصرة والحماية . لقد استقبل أهل المدينة رسول الله ﷺ
أكرم استقبال استقبلوه على الرحب والسعة وبالمن والبشر .

فانتشرت خيل قريش تطلبه
من ينصر الرحمن من ذا يغلبه ؟
مروا على الغار مضليننا
وأخذوا إلى السبيل سائليننا
حتى بدت سيدة الأمصار
وبلدة الأغيار والأنصار
وكان فيها للرسول شيعة
وعصبة سامعة مطيعة
قد عرضوا بمكة المباحة
وبدلوا في الموسم المتابعة
وكان إيمانهم في السر
خوف قريش واتقاء الشر

فكان للقادم منهم أهمل
ومنزله رجب الفناء سهيل
باليمن ألقى رحله في الخرج
كأنه من أرضه لم يخرج

وهكذا نجد شوقي قد تناول هنا أفكاراً لم يتناولها القرشي مثل نظرية
الهجرة وفلسفتها ونماذج لها ومؤامرة الندوة وليلة الغدر ثم الوصول إلى
المدينة بيد أن أرجوزة شوقي يغلب عليها الطابع التاريخي فهي نظم لوقائع
ومواقف من الهجرة أما قصيدة القرشي فهي وإن استمدت أفكارها
وأحداثها من التاريخ إلا أنها صبغت ذلك بالطابع الفني فجاءت شعراً رصينا
حوى أفكاراً وتجارب نفسية . الأمر الذي يدعونا إلى أن نعدّه ضمن شعراء
المدرسة العقلية في الشعر السعودي .

الذكرى المشرفة

ليس بغريب أن يتغنى الشاعر السعوى بنى الرحمة وبأنوار الرسالة بل
الغريب أن لا يتغنى بذلك وهو فى مهبط الوحى .

لقد تغنى شعراء السعودية بالإسلام وبالرسالة الخالدة ولكن أولهم
تختلف عن آخرهم من حيث الصياغة وجودة الأداء وحلاوة النغم والقدرة
على نقل الشعور الجياش .

فالجيل الذى نشأ فى مرحلة التكوين الأدبى أرقى من الجيل الذى نشأ
فى البداية نجيل الثلاثينيات الهجرية والجيل الذى نمت وترعرع ونضج بعد
مرحلة التكوين كان خبراً من أولئك الذين نشأوا فى مرحلة التكوين نقول
هذا بين يدي حديثنا عن إحدى قصائد الشاعر أحمد إبراهيم الغزاوى بمناسبة
(الذكرى المشرفة) التى نعتها (المنهل (١)) بالدرية الغزاوية الجديدة التى
أنشأها بمناسبة الذكرى المشرفة لمولد الرسول الكريم محمد ﷺ وقد أذيعت
من محطة الإذاعة السعودية .

والشاعر فى هذه القصيدة يهيم فى كل واد فيذكر فرح الأرض والسماء
وفرح أم القرى على وجه الخصوص بمولد النبى ﷺ ولكنه يفاحتنا فى
الببت الثانى مباشرة بحرمان المشركين والملحددين من الطواف حول الكعبة
مع أن ذلك نزل به القرآن فيما بعد فى العام التاسع من الهجرة فما وجوده فى
مفتتح قصيدة فى الذكرى المشرفة ذكرى المولد النبوى والآيات بعده
تتابع الحديث عن فرح الدنيا بالميلاد السعيد وهزيمة الأوثان وحررة المشركين
فى أمرهم :

الأرض تطرب والسماء تغسرد

وعلى السورى أم القرى تنسود

أذن الإله فما تطسوف مشرك
حسنول الحطيم ولا تطسرق ملحد
وتهالت دنيسا الوجسود بمسولد
كسف الشموس وشع فيسه أحمد
دكت بيه الأصنام فهي رواغم
وانجابت الآفساق وهي تربسد
وانقضت الشهب الشواقب من عمل
تصلى طواغيت الضلال وتهمسد
وقريش مسكة في بطسون شعابها
ما بين مسرتاب وأخسر يحسد
متحيرين كأنهم اضطربت بهم
نذر القيسامة والجحافل تحصد

ولست أدري لم أقسد الغزاوي طرب الأرض وتغريد السماء وتهلل
الوجود بالمولد الذي شع فيه نور أحمد بذكرك الأصنام وانقضاض الشهب
وحيرة المشركين .

ونحن لا ننكر أن ذلك قد حدث ولكننا ننكر على الشاعر إقحامه في
أفراح المولد وكنا نفضل لو تأخر ذكره قليلا حتى ننعم أولا بالميلاد السعيد .
لقد عرض شوقي في أكثر من قصيدة لذكرى المولد فأبدى الجوانب
المشرقة جوانب الفرحة بالميلاد على محلة ثم عرض لهزيمة الوثنية والشرك بعد
ذلك ونذكر أبيات شوقي في ذكرى المولد حيث يقول :

تجنلي مسولد المسادى وعمت
بشائره السنوادي والقصاصا
وأهسدت للبرية بنت وهب
يسداً بيضاء طوقت الرقابينا

لقصد وضعته وهاججاً منبراً
كما تسلك السموات الشهابا
فقام على سماء البيت نوراً
يضيء جبال مكة والنقبا (١)

انظر إلى هذه الصيغ التي تملأ النفس بشراً وحبوراً : عمت بشائره —
يداً بيضاء طوقت الرقاب — وضعته وهاججاً منبراً كما تلد السماوات الشهابا —
قام على سماء البيت نوراً نحن هنا أم مشهد الفرح بالميلاد لم تعكر صفوه
لعنات السماء تصب على الوثنيين والمشركين نحن ننكر على الغزوى الجمع
بين الفرح بالمولد وزلزلت الوثنية في قرن واحد .

وقصيدة الغزوى بعد قصيدة شوقي برقع قرن على الأقل فقد أذيعت
عام ١٩٥٠ ومعروف أن شوقي توفي عام ١٩٣٢ م وهي ليست بآخر نتاجه
الشعري .

وانتقل الغزوى بعد ذلك للحديث عن العالم في عصر الميلاد فذكر
ضجة الخلائق مما تسام وما تضام وتضطهد ذكر الروم والفرس والعرب
قالبور مطبق والبلاء شديد وشمل الشعوب مبدد يسومها الأحكام سوء
العذاب وتثن من بؤس العذاب وتمتطع إلى الخلاص ، والروم تفرس التخوم
وفارس تفتن في الترف والنعم والناس ضائعون بين هاتين الدولتين كأنهم
نبات شائع يحصد بالمناسل والمناجل لا أمن ولا استقرار فالقوى يفتك
بالضعيف ، وهم ينكرون البعث وقد فسدت شرائعهم . أما العرب فهم
نائمون في صحرائهم يحيط بهم الجهل ويثدون البنات ويحتربون فيما بينهم
ويعبدون أصناماً من الحجارة كاللات والعزى وهبل أو من العجوة .
والغزوى هنا رجل دعوة قبل أن يكون شاعراً ومن ثم نجد ظلال الدين
أقوى من ظلال الشعر في البيت الأول نجد القافية ثقيلة بكلمة (تضهد)
وبعض الصيغ غير شعرية مثل كلمة (يبول) في قوله :

(١) الشوقيات - ٢ ص ٦٢ وما بعدها .

(فيها يبول الثعلبان ويرقد) .

يقول الخراوى :

ولسد البشير وللخسلا لق ضججة
مما تسام وما تضمام وتضهد
يتقحمون النار فى نزواتهم
والجور يطبق والبلاء يشدد
حيث الشعوب يسومها سرواتها
سوء العذاب وشملها يتبدد
وتن من بؤس الحياة وضنكها
هلكى تطلع للخلاص وتجهد
يحكى الشواظ شهيقتها وزفسيرها
ورقابها قبل اليدين تصفد
مرتاعة منيت بكل مسلط
مستكبراً فى بغيه يتلدد
يعساو وتهبط دونيه من حالق
وقلوبها بجنوبها تستنجد
الروم تفترس التخوم وفارس
تفتن فى ترف النعيم وترغد
والناس بينهما نبات شائع
وبسه المناصل والمنساجل تحصد
لا يأمن الغسادى الرواح مخافة
من راصديه ولا الذى هو يرصد
يعلو القوى على الضعيف يبطشه
والبعث ينكر والشرائع تفسد
والعرب نائسة بهم صحراؤهم
والجهل يوغل والوليدة تسوآد

والبأس فيما بينهم مستحكم
تغرى به الأوشاج وهى توحد
واللات والعزى مناسط رجائهم
وهما من الأوثان صخر جلمد
عبدهما وكلاهما أضحوكة
فيها يبول الثعلبان ويرقد
أو كالتى هى تمرة منصوبة
طورا تلاك وتارة هى تعبد
هبتهم البطحاء كيف يتمموا
« هبلا » ورب البيت فيهم يحدد

والظلال الدينية فى شعر الغزوى ترفع من قلره بلا شبك ولكن الصياغة
الشعرية لها أصولها وخصائصها ومحبذا لو التقي الظلالان على أن تعبير الغزوى
عن أزمة الشعوب الماضية وتطلعها للخلاص يعد من الأفكار الجديدة
فالتاريخ يعيد نفسه وإذا كانت الشعوب الغابرة قد ذقت الأمرين من
حكامها وتطلعت إلى الخلاص فما أشبه الليلة بالبارحة فالشعوب الآن فى
شرق البلاد وغربها تعاني من وطأة الحكم وقسوتهم وتنتظر المخلص وأكبر
الظن أن الشاعر كان يقصد إلى ذلك فقد تحدث فيما بعد عن « هتلر »
وجبروته وللشاعر صورته الموحية مثل : (يحكى الشواظ شبيها وزفيرها -
وقلوبها بجنوبها تستنجد - والناس نبات شائع يحصد بالمناسل والمناجل) .

وقد عرض شوقي أيضا لهذه الفكرة فى قصيدة (نهج البردة) فقال :

سرت بشائر بالهسادى ومولده
فى الشرق والغرب مسرى النور فى الظلم
تخطفت مهيج الطاغيين من عرب
وطيرت أنفُس الباغيين من عجم
ريعت لها شرف الإيوان فانصدعت
من صدمة الحق لا من صدمة القُدُم

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم
إلا على صنم قد هام في صنم
والأرض مملوءة جبوراً مسخرة
لكل طاغية في الخلق محتبكم
مسيطر الفرس يبغى في رعيته
وقيصر الروم من كبر أصم عم
يعذبان عباد الله في شبهه
ويذبحان كما ضحيت بالغنم
والخلق يفتك أقسواهم بأضعفهم
كاليث باللهم أو كالحوت بالسلم

فالفكرة العامة عند شوقي والغزاوي واحدة بل والأفكار الجزئية كذلك
ولكن طريقة العرض مختلفة فالغزاوي يميل إلى التفصيل وتسيطر عليه الروح
الدينية أكثر من شوقي بينما شوقي يميل إلى الإيجاز ويمزج روح الدين بروح
الشعر فبشائر المولد تختطف مهج الطاغين من عرب وعجم ريعت لها
شرف الإيوان فاتصدعت من صدمة الحق والناس في فوضى والوثنية
منتشرة والأرض مملوءة جبوراً فمسيطر الفرس يبغى وقيصر الروم يتكبر
وإنهما ليعذبان عباد الله والناس بأسهم بينهم شديد القوى يفتك بالضعيف
تناول شوقي هذه الأفكار في ثمانية أبيات وتناولها الغزاوي في سبعة عشر
بيتاً على أننا ننلاحظ فروقا بين النصين فالغزاوي ذكر البعث وإنكار الناس
له وذكر وأد البنات وانتشار الجهل بين العرب وليس عند شوقي شيء من
ذلك والغزاوي ذكر بأس العرب فيما بينهم وذكر وثنتهم فخص العرب
بالحديث ولكن شوقي رأى أن الأمر كان شائعاً في أمم الأرض وليس
مقصوراً على العرب :

أتيت والناس فوضى
فليس العرب وحدهم أصحاب الوثنية .

والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم....
وليس العرب وحدهم....

واكتفى شوقي بالإشارة إلى أن الناس كانوا في فوضى لا تمر بهم
إلا على صنم قد هام في صنم « بينما ذكر الغزاوى أصنام العرب (اللات
والعزى وهبل ...) وما أجمل صور شوقي :

سرت ... مسرى النور فى الظلم - تخطف مهن الطاغين - طيرت
أنفس الباغين - لا تمر بهم إلا على صنم قد هام فى صنم - وقصر الروم من
كبر أصم عم ونلاحظ أن الغزاوى وصف الروم بالعدوان على الحدود
(الروم تفرس التخوم) بينما وصف شوقي قصر الروم بالكبر والغفلة
(وقصر الروم من كبر أصم عم) -.

والغزاوى أعطى الفرس الترف والنعيم (فارس تفتن فى ترف النعيم
وترغد) أما شوقي فوصفهم بالسيطرة والبغي (مسيطر الفرس يبغي فى ،
رعيته) .

وفى لحظة خاطفة يوازن الغزاوى بين موقف المشركين من النبي ﷺ
حين دعاهم إلى الحق فقد خذلوه وتآمروا عليه أن يقتلوه وهو الحقى بهم
يوازن الغزاوى بين موقف قريش هذا وموقف النبي ﷺ من هؤلاء
القوم عام الفتح ومعه الجيش وكيف عنا عنهم فيقول :

خذلوا النبي المحبى وتآمروا
أن يقتلوه وأجلبوا وتهددوا
وهو الحقى بهم عشية أحسقت
بالمشركين الخيل إذهى موعد
كل إليه يمت فى أسبابه
والجيش يزحف والأناشد تطرد
آوى جموع اللائذين بظلمه
والسيف يعرف والدماء تجمد

وقضى بوحى الله فى الرهط الألى

ماكان همهم سوى أن يفسلوا

لقد أوجز الغزاوى هنا إيجازاً شديداً فالموازنة بين الهجرة وفتح مكة
موضوع كبير وعظيم يبرز الفرق بين الإيمان والكفر بين غلظة المشرك
وسماحة الرسول إن الموازنة كانت بحاجة إلى الإطناب لإبراز ما فى الموقفين
من أفكار وأحاسيس وقيم ومثل ولكن الشاعر لم يستطع أن يخلق بجناحيه
فوق بيت النبى ليلة الهجرة ولا فوق غار ثور ولا فوق هذا الركب المهاجر
بل ولا فوق الجيش الإسلامى الزاحف على مكة لا يريد حرباً وإنما يريد
سلاماً يريد حماية البلد الأمين من الشرك والوثنية وانطلق الشاعر يذكر
الرسالة والقرآن وأسراره العجيبة فى ثلاثة أبيات فقال :

تلك الرسالة فى الحقيقة منة

لله وهى على الحقيقة تشهد

سور من الفرقان فى إعجازها

نهض الدليل وأذعن المتمرد

طويت سجلات القرون ولم تزل

تجلى به أسراره وتجدد

الرسالة الخالدة والقرآن الحكيم فى أبيات ثلاثة فقط هذا أيضاً إيجاز فى
غير محله ، وأرى أن كلمة (فى الحقيقة) غير شعرية ، وكلمة (أذعن)
غير دقيقة لأن المتمرّد لم يذعن وإلا فانه بعد إذعانه لا يسمى متمرّداً وكان
الأدق أن يقول (وأفحم المتمرد) .

ثم عاد الشاعر إلى الميلاد مرة ثانية وهذا يدل على عدم ترتيب أفكاره
واختلال الوحدة الفنية فى القصيدة .

فقد ذكر الميلاد فى موضوعين سابقين ثم عاد ليقول :

أعظم بميلاد النبى محمد

وبسكل ما يدعوا إليه محمد

هو رحمة للعالمين ونعمة
للمتقين وعصمة وتزود
أحيانا به الله العباد بشره
وسيله للسالكين مهتدين
لا خسر فيما دونه ولو أنه
في الأرض عيش بالنعيم مخلد
بوركت من يوم به الدنيا ازدهت
وجلاله في الكائنات مؤيد
أقبلت بالتمتع المبين وبالهدى
والعدل والإحسان أتي ينشد
بهوائف النجوى شعاعك ملهم
وبوقف الذكرى أديبك مسجد
آمنت أنك يا محمد عبده
ورسوله والطيب المتسودد
أنشأت بالتوحيد أفضنل دولة
لله فيها الحق لا يتعدد
ووصفت بالخلق العظيم كرامة
ممن له تعنو الجبلة وتسجد
لمكارم الأخلاق جئت ممتما
ورفعت منها السمك فهو مشيد
حتى إذا افرقت بنا أهواؤنا
دون اليقين ولم يزعنا المرشد
ضاع التراث وعزنا استبقاؤه
وعبلا النشيج وأعوز المتفقد

لقد حرص الشاعر على أن يسرد أفكاره ومعلوماته الدينية سردياً خطابياً
وأن يقرر لا أن يصور. وأن يذكر الأفكار عارية من وشائج المشاعر

أوالعواطف واستعمل عبارات غير شعرية مثل (آمنت أنك يا محمد عبده)
فكل مسلم يقول هذا بل لا يصح إسلام بدونه فما الذي أتى به الشاعر .

وانتقل الشاعر بعد ذلك إلى الحديث عن حضارة العصر المادية المترجمة
بالشهوات والإباحة وما يصحب هذه المادية من بطش وإذلال للشعوب
وكل ذلك يشيع عنه المؤمنون ، وذكر مثالا على صراعات العصر الدامية
هتلر الألماني وكيف أربع الناس بدكتاتوريته ولكن الله كان به بالمرصاد .

زعموا الحضارة شيدت تلبقاءنا
صرحاً بأسباب الفنون مـرد
تبرج الشهوات فيسه إباحة
ويشيع عنه القانت المتعبد
ويحيط بالأرضين دكاً والسورى
حمناً ويمحق من يصمد ويعند
تالله ما يغنى الحديد محارباً
الله أو يجديسه ما هو ينفسد
يألمس هتلر كيف كان مصيره
وبزخضة الأطراد ظلت ترعد
مادت بسه من تحمسه أقدامه
من حيث لا يخشى ولا يسترد
ومضت بسه الأمثال تضرب إنه
بعسد العتسو الفاشل المتشرد
أودى بسه جبروته وغروره
أن كان مفتوناً بسه يتوعسد
والله بالمرصاد جل جلاله

والمسرد خير فعساله ما يحمده

لو أن الشاعر لم ينظم هذه القصيدة وعرض أفكارها في خطبة دينية

فلربما حالقه التوفيق لأن الصوت الخطابي الديني هو المسيطر على هذه القصيدة فالأداء الشعري يختلف عن الأداء النثري .

ثم يحتم الشاعر قصيدته بالدعوة إلى السلام وإصلاح العقيدة الإسلامية عند المؤمنين فهم كثير ولكن عقائدهم مريضة وصلاحتهم في استعصامهم بكتاب الله وترك الخلف فيما بينهم ومن الله التوفيق هدى الرسول ﷺ وجزاه عنا الخير .

هيهات تأبى العلم في مشكاته
سبيل السلام وإنسه للسود
والمؤمنون اليوم أمثال الحصى
عدداً ولكن العقائد ترمد
وصلاحتهم ما استعصموا بكتابهم
والخلف فيه هو المقيم المقعد
إن لم يهينا الله من توفيقه
هدى الرسول فلا مشاحة تخمد
(صلى عليك الله يا علم الهدى)
وجزاك عنا الخير إذ هو سرمد

وعلى كل فمنهج القصيدة قديم والبيت فيها هو الوحدة الفنية فقد لاحظنا عدم ترتيب الأفكار في القصيدة واضطرابها . لقد أثارت الذكرى المشرفة في نفس الشاعر معاني وأفكار فسردها ولم يصفها صياغة شعرية وإن كانت القصيدة موزونة ومقفاة لكن ما تشبه في نفوسنا لا يرجع إلى الصياغة الشعرية وإنما يرجع إلى أنها قصيدة قيلت في مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولشوقي روائع في كل ما عرض له الغزاوى وقد ذكرنا بعضها منها ولم نذكرها كلها نخشية الإطالة ومن يرجع إلى (الحمزية النبوية) وإلى (نهج البردة) وإلى ذكرى المولد (يبرزك حقيقة ما نذكر وشوقي سابق ويعرفه الشاعر جيداً .

ومهما يكن من شيء فقد غلب الدين على الفن في قصيدة الغزاوى ولو
أن الدين والفن سارا معاً لسمعنا شعراً لا نظماً بيد أن هذه القصيدة بين
قصائد السعوديين في ظل الملك عبد العزيز تعد جيدة فقد كان الشعر
السعودى يخطو خطواته في طريق التكوين .

الاتجاه الاجتماعى إلى الشباب :

هذا اللون من الشعر نتيجة للوعى واليقظة وإدراك الشاعر لصوره في
البنية الاجتماعية في نواحيها المختلفة فالشاعر إبراهيم فطاني في قصيدته « إلى
الشباب »^(١) وقد غير الدهر عارضيه ورأسه وتعرض لخطوبه ومكائده إلا
أنه ما زال شاباً وإن كان في إهاب الشيوخ وهو وطنى يضحى براحته
وأنسه من أجل بلاده ومن ثم فهو يفخر بكونه معلماً تخرج على يديه كثير
من الأدباء ، والمربين ويرى ذلك نعمة يحسن التحدث عنها .

غيّر الدهر عارضى ورأسى
وتحدى لما تحدثه نفسى
فرماها بكل خطب وكيد
واتقتبه بصبرها والتأسى
لم ينسل من شبابها رغم أنى
في إهاب الشيوخ أغدو وأمسى
أنسا لولا محبى لبلادى
لم أطسوح براحتى وبأنسى
بعت للنشء والشباب شبابى
واشترت الفخار لا يبيع بخسى
وكفانى كم إشاعر وأديب
ومسرب قد كان بالأمس غرسى

نعمية يحسن التحديث غنمها

باللسانين في نسدي وطرس

هذا معلم قد عركته الحياة وعركها وقصحي بشبابه من أجل تعليم النشء
ويرى ذلك مفخرة يحسن التحديث بها فماذا يريد أن يقول للشباب ؟ وجم
ينصحههم ؟ إنه يطلب إليهم أن يكونوا طموحين وأن لا يقنعوا من العلم
بدرجة الليسانس بل يطلبون ما فوقها فبالعلوم تهذيب النفس وصون الروح
قالطموح الطموح وإياكم وصغار النفوس والجنوح إلى الطراوة والميوعة
وإنما شقوا طريقكم إلى المعالي وابتنوا المجد وليكن منكم الأديب والزراعي
والطبيب والمربي العبقري والطيّارون المقاتلون والمحامون عن الدمار في
ميازين القتال . إنه يطلب إلى الشباب أن يسدوا النقص في جميع مرافق
الحياة الحديثة :

يا شباب البلاد لستم شبابا

إن رضيت من الحياة بوكس

أو قنتم بما وصلتم إليه

إن عزم الشباب فوق « اللسنس »

هذبوا النفس بالعلوم وصونوا

جوهر الروح عن أذى كل رجس

والبنوا للطموح ثوبا وخلوا

لصغار النفوس ثوب الدمقس

ثم شقوا طريقكم للمعالي

وابنوا المجد فوق أثبت أس

وليكن منكم الأديب المجتلي

والزراعي والطبيب المؤسى

والمربي المختص منكم ومنكم

عبقري يجول في كل درس

وليكن منكم النور اللوحي
يمطرون العسا بسوابل نحس
والحماس عن الذمار إذا منا
لجت الحرب كان « عنتر عبس »
سدوا النقص في جميع النواحي
ليس يرضاه نخلته غير نكس

هذا شاعر مرب يعقد الأمل على الشباب السعودي ويرجيه لبناء مجد
البلاد في شتى ألوانه وأشكاله لأن الأوطان لها حقوق كبرى لم يؤدها
الشباب بعد بل إن هذا المربي الفاضل بالرغم من أنه أفنى عمره في تعليم
النشء نراه يتهم نفسه بالتقصير في حقوق البلاد . إن رفعة البلاد وعلو
شأنها لا يتحققان إلا بسواعد الشباب الفتية . .

الشباب العزيز الكريم ذو الأنفة والضمير الحى والعزم الصادق والوعد
الوثيق والأمل البسام فليس في قلب هذا الشباب مكان ليأس فعوده صلب
وهو لا يبالي بالمصاعب :

فلأوطانكم عليكم حقوق
لم تفروها « وما أبرئ نفسي »
إنما يرفع البلاد شباب
بأنف الذل ذو ضمير نحس
مرهف العزم صادق الوعد شهم
ليس في قلبه مكان ليأس
لا يبالي بالخطب يتسلوه خطب
عوده الصلب لا يسهين لجس

ثم يلتفت الشاعر إلى ألوان من أنشطة الشباب السعودي في نواديهم
فيذكر لجنة النشاط الاجتماعي وخدماتها المتعددة للمواطنين تواسى هؤلاء
وتعطف على أولئك يحنو القريب على القريب ، ثم يذكر لجنة المسامر تلك .

اللجنة الأدبية التي أعادت إلى الأذهان ذكر عكاظ والمربد ، إنه لميدان
الشباب العربي فهم فرسان البلاغة وأساطين الفصاحة فليعيدوا إلى الأذهان
وإلى الأوطان حياة الأدب العربي الخالد ليكن منهم حسان وقس ليسمعوا
الكون لحن العروبة الخالدة .

إيه يا « لجنة النشاط » فإنسا
قصد لمسنا نشاطهم أي لمس
في فروع تعددت كان منها
للمواساة خير فرع لقيس
وشهدنا تعاطفا وحنسوا
من قريباً على القريب الأمس
إيه يا « لجنة المسامر » هجتم
بفؤادي ذكرى جلال وقيس
أعكاظ في حفلكم تهادى
أم هو المربد الذي كان أمس
إن هذا ميدانكم فأروني
مثل حسان شاعراً أو كقس
أسمعوا الكون لحنكم رب لحن
سر قلب الشجي من بعد بؤس

وإذا كان الحديث بالحديث يذكر والمعاني المتقاربة تتداعى فإن الشاعر
حين ذكر لجنة السامر وهي لجنة أدبية يصدق في جنباتها الشعراء وقد صدح
هو بأعذب ألحانه فما الذي يمنعه من الحديث عن الشعر وروعته فالشعر فن
رائع يبدو في بيان نبيل وموسيقى حلوة وينبع عن عاطفة سامية وذوق رفيع
يغنى أفراح الناس وأحزانهم .

إنما الشعر روعة الفن . تبدو
في نبيل من البيان وجرس

وشعور يشير أسمى شعور
وانسجام في حسن ذوق وحس

إن تغنى فالكون يصنى ابتهاجا
أو تباكى أبكى أسمى كل نفس

ثم يعود الشاعر إلى الشباب ينصحهم بالتضحية والجد لأن العصر الذي
يعيشون فيه عصر سرعة ومضاء إنه عصر الذرة فينبغي أن يكون الشباب على
مستوى العصر الذي يعيشون فيه ولا يعيشون في العصر الحديث بعقلية القرون
الأولى فمن العجز أن نسير المهويني وغيرنا يسرع فيتقدم ونتخلف لقد فاتنا
ركب الحضارة وينبغي اللحاق به بل لنحاول سبقه فالسبق أولى بحمس أما
أن نظل نتغنى بأعجادنا الماضية دون أن نعمل شيئا فهذا عبث ، لا شك أن
أجدادنا كانوا سادة الدنيا وكانت لهم حضارة زاهرة متقدمة حين لم يكن
للأمريكان أو الروس أو الفرنسيين من ذلك نصيب فقد كنا نحن القادة
لنصارى والفرس ولكن الوضع قد انقلب فصاروا هم السادة بل وزاحمونا
في أوطاننا واستبدوا بنا وفرقوا شملنا وكانت الكارثة بمساعدتهم لليهود على
إقامة وطن لهم في أرض العروبة والإسلام . فأيها الشباب إن الأمل معقود
عليكم لتحرير فلسطين فإلى القتال وإلى السلاح وراء الملك العظيم سدد الله
خطاكم في ظلال المليك فخر العرب :

فتية المعهدين ما الفوز إلا

للمضحي المجتهد من كل ندس

عصركم عصر سرعة ومضاء

عصر ذر لا عصر سيف وتسرس

فمن العجز أن نسير المهويني

وسوانا يمضي كسهم لقوس

فاتنا الركب فلنحاول لحاقا

أو فسبقا والسبق أولى بحمس

ودعونا لمن التفتى بمجد
 قد أضغناه بين عجز ويأس
 بيد أنى أقول والنفس حسرى
 وفؤادى على أقوام عنس
 أين كان الأمريك أيام كنا
 بل وأين الروسى أين الفرنسى
 قد قهرنا جموعهم وقهرنا
 قادة الشرق من نصارى وفرس
 أصبحوا اليوم سادة وغلبونا
 بين أوطاننا كأننا بحبس
 زاحمونا ديارنا واستبدوا
 فرقوا بيننا بنجث وولس
 واليهود الطغام عاثوا فساداً
 فى حمانا ما بين «لد وقلس»
 غرهم حلمنا وما كنان مننا
 من خلاف قد جرّ أسوأ تتعس
 فإلى الجيش والدفاع انمراعاً
 فى ركاب المنصور تحت الدرفس
 قائد الجيش والأمير المفدى
 والعصامى والقسيوى المحبس
 سدد الله للشباب خطاه
 ووقاه من كل كيد ودس
 فى ظلال المليك فخبير معد
 ومعيد البناء من بعد درس

إن الأستاذ إبراهيم فطاني معلم محنتك وإنه ليعتز بأنه مرب تخرجت
 على يديه أجيال وإنه لينصح للشباب بالمزيد من العلم ويدعوهم إلى الطموح

ويذكرهم بحقوق البلاد عليهم ، ويمجد نشاطهم الاجتماعي والأدبي ويدعوهم إلى المزيد وعدم الاكتفاء باللحاق بركب الحضارة بل إنه ليدعوهم إلى السبق لاسترداد مكان القيادة للعالم فقد تبدل الوضع كنا سادة قادة فصرنا تابعين مستعمرين حتى طمع فينا اليهود فاحتلوا فلسطين ومن ثم فإنه يجب تصحيح الوضع وإعادة الأمور إلى مجاريها إعادة العرب إلى مكان السيادة والقيادة تحت راية التوحيد وفي ظل عبد العزيز .

تصحيح المسار التاريخي وبناء المجد والحضارة معقود بنواحي الشباب والأسلوب التقريرى يغلب على القصيدة وإن تخللتها بعض الصور مثل غير الدهر عارضى « - بعث للنشء شبابي - والمحامى عنتر عبس وهكذا . والأسلوب منوع بين الخبر والإنشاء مثل يا شباب البلاد - هذبوا النفس - صونوا جوهر الروح - للأوطان عليكم حقوق - إنما يرفع البلاد شباب لا يبالي بالخطب يتلوه خطب .

وهكذا ولكن بعض العبارات غير شاعرية مثل : سدوا النقص في جميع النواحي - فاتنا الركب .

والشاعر فيما نظن يترسم في موسيقاه بل وبعض ألفاظه البحترى في سينيته المشهورة والتي مطلعها .

صنت نفسى عمما يدنس نفسى

وترفعت عن جسدا كل جبس

فقوافى الفطاني معظمها وردت عند البحترى : نفس وأمس والدقرس وعنس وعبس وهكذا والشاعران قد نظما قصيدتيهما من بحر الخفيف « فاعلاتن مستعلن فاعلاتن » .

إلا أن طبيعة المعلم واضحة في شعر الفطاني فهو معتر بمهنته ناصح أمين للشباب محب للبلاد والمثلث وأحلام السعودية المعلقة على الشباب في ميادين التربية والتعليم والزراعة والطب والدفاع واضحة في القصيدة والبيئة العربية

في القديم والحديث واضحة أيضا فهو يذكر عكاظ وحسان وقس ويذكر
اهتمام السعودية بفلسطين وقضيتها ويذكر نشاط الشباب في هذه البلاد حديثا
« لجنة الشباب » و « لجنة المسامر » ومن ثم نرى أن الشاعر تأثر ولم يقلد
إلا أننا إذا وزنا بينه وبين شوقي في هذا المجال نحس بالفرق الكبير فشوقي
ذكر الشباب في مواطن كثيرة فأثناء وزارة سعد زغلول باشا ١٩٢٤ م.
أطلق سجناء كانت المحاكم العسكرية الانجليزية قد أدانته في مؤامرة شاع
يومئذ أنها مبالغ فيها وقد احتفل شباب البلاد بنجاة إخوانهم ورجوا شوقي.
أن يشاركهم في هذا الاحتفال فنظم قصيدة بعنوان « تكريم (١) » جاء فيها
هذه الأبيات :

قسالوا : أنظّم للشباب تحية
تبقى على جيد الزمان قصيدا
قلت الشباب أثم عقد مآثر
من أن أزيدهم الثناء عقودا
قبلت جهودهم البلاد وقبلت
تاجا على هاماتهم معقودا
خرجوا فما ملّوا حناجرهم ولا
منسوا على أوطانهم مجهودا
خفي الأساس عن العيون تواضعا
من بعد ما رفع البناء مشيدا
ما كان أفطنهم لكل خديعة
ولسكل شر بالبلاد أريدا
لما بنى الله القصيدة منهم
قامت على الحق المبين عمودا

جادوا بأيام الشباب وأوشكوا
يتجاوزون إلى الحياة الجسودا
طلبوا الجلاء على الجهاد مثوية
لم يطلبوا أجر الجهاد زهيندا
والله ما دون الجلاء ويومه
يسوم تسنيه الكنانة عيسدا
وجسد السجين يبدأ تحطم قيئده
من ذا يحطم للبلاد قيئودا
* * *

يا فتية النيل السعيد خذوا المدى
واستأنفوا نفس الجهاد مديدا
وتكبروا العبدوان واجتنبوا الأذى
وقتروا بمصر الموقف المحمودا
الأرض أليق منزلا بجماعة
يغفون أسباب السماء قعودا
آتم غدا أهل الأمور وإنما
كننا عليكم في الأمور وقودا
فابنوا على أسس الزمان وروحه
ركن الحضارة باذخا ومشيدا
المسدم أجمل من بناية مصلح
يبني على الأسس العتاق جديدا

إن شوقي بكرم الشباب على عمل وطني قاموا به في خدمة القضية
المصرية ومن ثم رأى مآثر الشباب متعددة قبلتها البلاد شاكرة ومقدرة وهل
وجدوا أثمن من أيام الشباب يجودون بها لخدمة وطنهم بل لأنهم أوشكوا
يجودون بالحياة .

أومع ذلك فشوق يطلب منهم المزيد يطلب إليهم أن يقوموا بجولة أخرى.
أو أن يتجنبوا العلوان ويحتشوا الأذى ويحفظهم إلى البناء والعمل يحفزهم إلى.
المجد فهم رجال الغد وقادة المستقبل إنه يطلب إليهم أن يبنوا ركن الحضارة
إبازحاً ومشيداً وأن يكون البناء متمشياً مع روح العصر . إن الموقف السياسي
منح قصيدة شوقي روحاً حماسياً نفتقده في قصيدة فطاني فالعاطفة المشبوبة عند
شوقي عاطفة الوطنية والحماس للشباب والتغنى بمآثره كان لها تأثير في عذوبة
قصيدة شوقي ورقها وانسيابها حتى صلحت للغناء وحين يدعو شوقي الشباب
إلى العمل يذكرهم بالنيل وبجهودهم السابقة وبأن الأرض مكان الحاملين وأن
المطلوب ليس مجرد البناء الحضارى بل البناء المتمشى مع روح العصر (فابنوا
على أسس الزمان وروحه) لقد اكتفى بالتلميح إلى طبيعة العصر وروحه ولم
يفصل هذه الطبيعة ولم يبين الأسس التى تقوم عليها حضارة العصر . أما
الشاعر السعوى إبراهيم فطاني فجنى إلى التفصيل والتقرير حيث ذكر هذه
الحقيقة حقيقة الدعوة إلى العمل والبناء على أسس حديثة متمشية مع روح
العصر الحديث ذكر هذه الحقيقة فى أربعة أبيات حيث قال :

عصركم عصر سرعة وفضاء

عصر ذر لا عصر سيف وترس

فمن العجز أن نسير الهوينى

وسوانا يمضى كسهم لقوس

فاتنبا الركب فلنحاول لحاقا

أو فسبقا والسبق أولى بحمس

ودعونا ممن التغنى بمجد

قد أضعنناه بين عجز ويأس

وقصيدة شوقي سبقت قصيدة الشاعر السعوى بربر قرن فالشوقية فى
عام ١٩٢٤ والفطانية فى عام ١٩٤٩ م ولشوقي قصيدة أخرى سابقة للقصيدتين
حيث نظمها عام ١٩١٤ عند قدوم (فدرين) و (بونيه) طائرین من باريس

إلى مصر وأسماءها (آية العصر في سماء مصر (١)) تحدث فيها عن الشباب
حديثاً يكاد يحاكيه ويسير في دربه حديث الشاعر السعودي يقول شوقي :

يا شباب الفسد وابنائى الفدا
لكم أكـرم وأعز بالفـداء
هل يـمـد الله لى العيش عسى
أن أراكم فى الفريق السـعداء
وأرى تاجـكم فسوق السها
وأرى عرشكم فسوق ذكـاء
من رآكم قال مصر استرجعت
عزها فى عهد «خوفو» و «منساء»
أمة للخـلد ما تبى إذا
ما بنى الناس جميعاً للعفاء
تعصم الأجسام من عادى البـلا
وتقى الأئـسار من عادى الفناء
إن أسأنا لكم أو لسم نسيء
نحن هلكى فلكم طول البقاء
إنما مصر إليكم وبكم
ونحقوق السـير أولى بالقضاء
عصركم «إحـر» ومستقبلكم
فى يمين الله خير الأمناء
لا تقولوا حطنا الدهر فما
هو إلا من خيال الشعراء
هل علمتم أمة فى جهلها
ظهرت فى المجد حسناء الرءاء

باطن الأمة من ظاهرها
إنما السائل من لون الإنماء
فخذوا العلم على أعلامه
واطلبوا الحكمة عند الحكماء
واقروا تاريخكم واحتفظوا
بفصيح جاءكم من فصحاء
أنستزل الله أعلى ألسنهم
وحياه في أعصر الوحي الوضياء
واحكموا الدنيا بسلطان فما
خلقت نضرتها للضعفاء
واطلبوا المجد على الأرض فإن
هي ضاقت فاطلبوه في السماء

فشوق معتز بشباب الغد يفديهم بائنيه وما أعز الفداء وأكرم ، وإنه
يرجو أن يطيل الله في عمره ليرى شباب مصر سعيداً وتاج البلاد وعرشها
في السماء ، وهو يشيد بمآثر الشباب أيضاً ويذكر أمجادهم الحاضرة التي تذكر
بأمجاد آبائهم السابقين فمصر منذ الأزل تبني للخلود لقد حنطت أجسام
الموتى وحفظت آثار الحضارة ، وإن جيل الشيوخ ليتضاءل إلى جانب جيل
الشباب وسواء صبح هذا أو لم يصبح فالمستقبل للشباب ومصر بشبابها وخيرها
يعود إلى ذلك الشباب وبعد هذه المقدمة التي جذب بها شوق الشباب إلى
صفه حتى يسمعوا نصحه ويلبوا نداءه بعث في قلوبهم الأمل في الحاضر
والمستقبل فالعصر عصر حرية وما أجملها والمستقبل بيد الله وما أضمتة وإذن
فلا داعي للتشاؤم والإحساس العميق بالنقص لأن ذلك يدمر الشباب فالشباب
ليس منحطاً كما يصوره الشعراء وإنما عليه أن يأخذ بأسباب النهوض وهي
طلب العلم على أعلامه وطلب الحكمة ودراسة التاريخ والمحافظة على اللغة
العربية وعلى القرآن الكريم والاحتكام إلى القوة وطلب المجد بكل سبيل على

الأرض أو في السماء والقطاني يلتقي مع شوقي في دعوة الشباب إلى المزيد من العلم :

هذبوا النفس بالعلوم وصبونوا
جواهر الروح من أذى كل رجس .

وشوقي يقول (واطلبوا المجد على الأرض) بينما القطاني يقول :
(والبسوا للطموح ثوبا)

وبينما يرجو القطاني أن يرى بين الشباب السعودي الأديب والمربي والزراعي والطبيب والمحامي عن اللمار نجد شوقي معجباً بما حققه شباب مصر في الحاضر من أجداد تذكر بالمجد الماضي (من رآكم قال مصر استرجعت عزها ...) .

وبينما يفيض القطاني في الحديث عن حقوق البلاد على الشباب في أربعة أبيات (فلاوطانكم عليكم حقوق) نرى شوقي يذكر ذلك في بيت واحد .

إنمنا مصر إليـنكم وبـيـكم
وحقوق البر أولى بالقضاء

ويذكر القطاني أعمال لجنة النشاط ولجنة المسامر وليس لشوقي حديث مفصل عن نشاط الشباب ، وإن حثه على ضرورة الاحتفاظ باللسان العربي الفصيح (واحتفظوا بفصيح جاءكم من فصحاء) .

وحين يتحسر القطاني على ضياع المجد العربي ويدعو الشباب إلى استرداده والعودة إلى مكان القيادة والسيادة ويذكر فلسطين واحتلال اليهود لها حين يذكر كل ذلك يرى أن طريق العودة إلى القيادة والسيادة وإلى فلسطين إنما هو الطريق المسلح ومن ثم يدعو الشباب إلى الجيش ويعرض ذلك فيما يزيد على عشرة أبيات بينما يفعل القطاني ذلك بوجز شوقي فيذكر كل ذلك في بيت واحد :

واحكموا الدنيا بسلطان فما
خلقت نضرتها ! للضعفاء

وهكذا نرى الشاعر السعوى يميل إلى التفصيل والإطناب ويرجو
الشباب السعوى أن يسدوا النقص فى جميع النواحي وإذا بشوق يميل إلى
الإيجاز والإيجاء ويمجد أعمال الشباب المصرى ويذكر مآثرهم وإن طلب
المزيد وقدم النصيح .

ومن الجائز أن يكون الشاعر السعوى قد اطلع على الشوقيات وقرأ
هاتين القصيدتين لشوقى على وجه الخصوص ولكنه من الواضح بمكان أن
للشاعر السعوى استقلاله بالأفكار النابعة من بيئته وظروف بلاده وله
أسلوبه الذى يميل إلى التفصيل وله عاطفة المربي المعز برسالة العلم والفن
والفخور بشباب بلاده وأكبر الظن أن لسينية البحري فى جانبها الموسيقى
أثر فى الشاعر السعوى .

: اومهما يكن من شئ فهذا الاتجاه فى الشعر السعوى دليل على اليقظة
ونمو الوعي والتطلع إلى مستقبل أفضل وغد مشرق عزيز .

الاتجاه السياسى القصيدة الأسكوبية (١)

للشيخ إبراهيم الأسكوبى المدنى
١٢٦٤ - ١٣٣١ هـ

هى أول قصيدة سياسية فى الشعر الحجازى الحديث نظمت فى آخر العهد العثمانى وقبل الحرب العالمية الأولى بقليل ووجهها الأسكوبى إلى الدولة العثمانية صريحة إرشاد وتنبيه . وهى قصيدة فريدة فى شعر الحجاز المعاصر منذ بدأ الشعر ينهض فى هذه البلاد والعصر الذى عاش فيه الأسكوبى كان عصراً متخلفاً وبالأخص فى ناحيتى الفكر والبيان فكيف ظهر الأسكوبى ؟ وكيف جاء بهذا الشعر الواعى ؟ وكيف أتبع له أن يخرج عن القوقعة كيف استطاع أن ينظم فى موضوع كهذا الموضوع الحساس وفى وقت لم يكن فيه ما يشغل شعراء الحجاز فى الجيل الماضى سوى الغزل البارد السقيم أو الهجاء ولا شىء غير ذلك .

كان العصر الذى عاش فيه الأسكوبى عصر الانهيار بالنسبة للدولة العثمانية أو الرجل المريض . كما كانوا يقولون وما أكثر ما كان شعراء مصر والشام والعراق ينددون بالرجل المريض اشفاقاً عليه ولكن دون جدوى . وما أكثر ما كان الدعاة المخلصون يناشدونه أن يتدارك نفسه غير أنه لسوء حظه وحظ العرب والمسلمين لم يكن يسمع ولم يكن يعى .

وكان الأسكوبى شاعر المدينة المنورة واحداً من أولئك الدعاة المخلصين . وكانت قصيدته المدوية التى يبدو أنه نظمها أثناء هجوم إيطاليا على طرابلس الغرب قبل الحرب العالمية الأولى إحدى الصيحات ولكن للأسف كانت فى وادٍ والدولة العثمانية فى وادٍ .

(١) المنهل عدد رجب ١٣٧٥ هـ من مقال للأستاذ محمد سعيد العامودى بعنوان (إبراهيم الأسكوبى) .

ويشاء الله أن تمنى الدولة العثمانية بالهزيمة في تلك الحرب الاستعمارية
الغاشمة وهو أمر محتوم بطبيعة الحال في حالات الانهيار . ومن المحزن أنها
هزيمة شنعاء كانت لها آثار بعيدة المدى .

وقد مات الأسكوبي منفياً عن بلاده بسبب هذه القصيدة مع أنه لم
يضمها سوى النصح والتوجيه من شاعر مسلم يثبت كل بيت في قصيدته
أنه مخلص كل الإخلاص لدولته العثمانية فلم يكن الأسكوبي من أصحاب فكرة
الانفصال عن الترك كما كان كثيرون من رجالات العرب يؤمنون بهذه الفكرة
في ذلك الحين .

وإذن فهو عندما يخاطب الدولة في هذه القصيدة إنما يخاطبها كما يخاطبها
أي عثمانى وهو يبدأ قصيدته قائلا :

يا آل عثمان فالمغرور من غرا
بأهل أو ربة أو عهدهم طرا
أتأمنون لموثرين ديدنهم
أن لا يروا منكم فوق الثرى حرا
تمالئوا فخذوا حذراً فإنهم
يرون إبقاءكم بين الورى ضرا
فهذه دولبة الطليان حين رأت
أسطولكم ليس يغى فاجأت غدرا
وشقت البحر بالأسطول معجبة
تختال تهابه مغرورة سكرى

وبعد أن يشير إلى ما قامت به إيطاليا عند مفاجأتها بتلك الغزوة من
إنزال جنودها في مدينة طرابلس وما كان من موقف الدول الأوروبية جمعاء
من عدم قيامها بصد هذا العدوان استمع إليه يقول :

دون الدنية إيثمار المنيسة في
قوم من البغض ودوا محوكم مبكرا

لا تحسبوا أنهم ناسون ما فعلت
أسلافكم بهم في سالف مسرا
أيقظتموهم بضرب الهام فانتبهوا
من نومهم ورقدتم أنتم الدهرا
فليتكم ما خطبوتهم نحوهم قدماً
وما أغرتم على أملاكهم شبراً
والشاعر هنا يشير إلى ما كان من ولوع سلاطين آل عثمان الأقدمين
بالحروب يشنونها باستمرار على من يجاورهم من الدول الأوربية وهو
ما كان من أهم أسباب تكتل هذه الدول فيما بعد وقيامها الواحدة تلو الأخرى
بمحاولة القضاء على هذا التحدى كما يرى ذلك معظم المؤرخين .

لقد كان هم أولئك السلاطين أن يهاجموا تلك الدول في كل وقت
دون تقدير للظروف أو نظر للمصلحة فكان أن تنهت تلك الدول فشدت
عزمها وجاسوا البر والبحر وظلوا كلما واتهم الفرص يأخذون هذه القطعة
أو تلك من ديار الإسلام وعلى هذه الوتيرة يستمر شاعرنا الأسكوبي في
الإيماء إلى أحداث التاريخ مستخرجاً من كل ذلك العبرة محلاً لأسباب ما حل
بالدولة من ومن إلى أن يقول مخاطباً القوم :

ظننتم أن دين الله أخـزكم
عنهم وهم حمدوا كفرأ به المسرى
لا تظلموا رحمة للمسلمين أتت
هدت إلى حكمكم عظمى جرت نهرا
فلو علمتم بها ما فاتكم أحد
سبقا ولا أحد يوماً لسكم أزرى
تذكروا كم خطيئات لكم سلفت
بها تأخرتم عنهم أبت حصرا

لأنه تقويع شديد ولا أظن الشاعر يقصد بتقريعه هذا الموجه سوى

جماعة الاتحاد والترقي وهم الذين دبروا الانقلاب المشهور ضد عبد الحميد وأوجدوا ما أسموه الدستور وأوهموا العالم العربي والإسلامي في بادئ الأمر أنهم إنما قاموا من أجل الدستور ثم كان من أمرهم ما كان وأخيراً تمت على أيديهم نهاية الرجل المريض .

فالذين كانوا يقولون إن الدين هو سبب التأخر إنما هم أولئك ،
الاتحاديون .

ولكن هل نفع التقريع ؟ وهل نفع التذكير ؟ ها هو الأسكوبي من أعماق
خواده يتأوه ويصرخ قائلاً :

تالله تالله إن لم تسمعوا الذكـرى
مالوا عليكم فلم يبقوا لكم ذكرا
نعم الشفاء إيقـران إله إذا
قبلتموه وإلا فانسكنوا القبرا
إن تنصروا الله ينصركم فكم فتنة
قليلة لا تغلب إلا أضعافها كثيرا

فلسطين في الشعر السعودي (١) :

أهتم شعراء السعودية بقضية فلسطين اهتماماً كبيراً ونظروا إليها من
الزاوية الإسلامية وهذا هو الشاعر محمد أحمد باشميل ينظم قصيدة بعنوان
(فلسطين الشهيدة) وقد بلغت أبيات القصيدة أربعة وتسعين بيتاً .

وقد استهل الشاعر قصيدته وإن شئت فقل معلقته بمقدمة غزلية في
أسلوب حوارى ساذج أجراه الشاعر بينه وبين من أسماها سليمي فهو
يعجب من كثرة الصعائب ترى على الأمة الإسلامية وهو يجلس مهموماً
ساهراً فتسأله سليمي :

مالطرفك ساهراً ؟ هل أنت مهموم بحب تجاذبه ؟ أنايلك عشق ؟
ففيجيبها : مالى وللعشق والهوى ؟ إننى منذ عقلت بجانب لذلك فلم يشتغل يوماً
افؤادى بكاعب ثم تناول الشاعر وصف الفتاة التى عرضت له فأعرض عنها
إلتها هيفاء ووجهها كالبدن ونهدها مكتنز وشعرها أسود فاحم وهى فتاة
لعوب يكاد الرجل الصالح يفتن بها عند نهوضها ولقد نصبت شباكها حول
الشاعر لتصطاد قلبه فشنت ودارت واستدارت وأقبلت إلى الشاعر كفحص
والنسيم يلاعبه تحاول إغراءه ولكنه فى عرك الدهر وصانته مواهبه عن
مكر النساء وكثيراً ما حاولت فتح فؤاده لعشقها ولكنه سخر بها حتى استبد
بها الهوى فقالت له : أصخر أنت ؟ فقال لها : انصرفى عني ولا تطمعى فى
هواى فسالت على نهدا دمة وقالت له :

ألا ترحم الصب المتيم ؟

فقال لها : لا أفلا خير فى وصل جسام عواقبه .

فقالت : بالله إننى معذبة القلب الذى أنت خاصبه .

فقال لها : لكن قلبي مغلق لم يدر ما هذا الغرام .

فقالت : يالك من فظ عنيد .

فودعتها إلى غير رجعة :

عجبت ومهدا الدهر ترى عجائبه

أفلا غرو أن زادت علينا صعائبه

تقول سليمي مالطرفك ساهراً

أفهل أنت مهموم بحب تجاذبه

أنا لك عشق فابتليت بنيله

وجرحك امازالت شعج متاعبه

فقلت لها : مالى وللعشق والهوى

فلما الباب إنى منذ عقلت بجانبه

فلم يشغل يوماً فؤادي بكاعب
فذا الدهر لم تقدر على كواعبه
ألا رب هيفاً قد تبسدت ووجهها
كبدت سوارت من سناه كواكبـه
فتاة لها نهد لفرط اكتنازه
تكاد جهاراً أن تثنى جوانبهـ
شكا الصدر منه واستغاثت ضلوعها
من الزر واحتجت عليها ترائبـه
وشعر كليل أسود اللون فاحم
أحاطت حمى الصدر المضيء غياهبهـ
لعوب يكاد البرُّ عند نهوضها
يفضل ولم تعرف لديه مذاهبـه
تصدت وبشت في سبيل شباكهـا
لتصطاد قلبي كي تذلل مناقبهـ
ثنت ودارت واستدارت وأقبلت
إلى كغصن والنسيم يلاعبهـ
لتغري فتي قد عارك الدهر نفسه
وصانته عن مكر النساء مواهبـه
وكم حاولت فتح الفؤاد لعشقها
وحامت على الحصن الحصين تجاربه
سخرت بها حتى استبد بها الهوى
فقلت : أصخر أنت يا من أحاربـه
فقلت لها عني إليك وحاذري
ولا تطمعي فيمن هواه مناضبـه
فقلت وقسب سالت على الخلد دمعـه
وصوت البكاء أن يبين تغالبـهـ

ألا ترحم الصب المتيم قلت لا .
فلا خير في وصل جسام عواقبه
فقلت لك الإيمان بالله لأنني
معدبة القلب الذي أنت غاضبه
فقلت لها لكن قلبي مغسلق
أفلم يبلن ما هذا الغرام وصاحبه
فصاحت وقصدت بمزقها الجوى
فلا بد هذا الفظ يوماً أحصا سبه
أفيالك من فظ تحجر قلبه
فلم أر في دهرى عنيداً يقاربه
فودعتها حالاً إلى غير رجعة
وذا القلب لم يشمر بشيء يعاتبه

صوّر الشاعر في هذه الأبيات فتاة لعوباً تحاول إغراءه بأساليب شتى
أبيد أنها لم تفلح فقد اعتصم الشاعر بدينه . والنموذج الجمالي الذي رسمه الشاعر
الفتاته لم يخرج عن النموذج القديم عند الشاعر الجاهلي ففتاته كاعب ناهد
هيفاء وجهها كالبدن وشعرها أسود فاحم إلا أن وصفه لهدا المكتنز يتعارض
مع كونها هيفاء فالرشاقة والسمنة المفرطة لا يجتمعان ولولا أن الشاعر جعل
فتاته لعوباً قلنا إنه أساء في غزله ونخالف المعهود في الغزل العربي فالشاعر
هو الذي يسعى إلى المرأة ويحاول إغراءها واستمالتها وسعى المرأة إلى الرجل
ومحاولتها إغراءه دخیل على أسلوب الغزل عند العرب ظهر حين اشتد
امتزاج العرب بغيرهم في عصر بني العباس وخير من يمثله بشار بن برد .

ولقد أحست الأنثى بالمهانة من إغراض الرجل عنها فسخطت عليه
ووصفته بأنه فظ عنيد تحجر قلبه وأثبت لها هو أنه كذلك حين ودعها إلى
غير رجعة دون أن تحرك فيه شمرة .

ولعل الحوار هو مبعث الحيوية المتدفقة في الآيات وقد أذكاه ذلك
العنف المتبادل بين المتحاورين .

وطرف الشاعر الساهر وفكره الشارد لم يكونا إذن عن عشق وهيام
فما الذي دهاه ؟

الذي . دهاه هو زيادة الخطوب على العرب والإسلام فهذا الذي قد
غال جسمه وملاً فؤاده بالهموم فهل بعد اليوم يعشق نابه ؟ وهل بعد اليوم
يرتاح مسلم وهذه فلسطين الشهيدة قد هوت بلطمة وغد وهذا شعبها العزيز
قد تخاذلت حماته وجزعه كأس المنايا أقاربه ففرع بعد أمن وأهد ركنه .
وما زال في كف الرزايا تغالبه لقد بدل بالعليا صغاراً وبالعر ذلة وتوالت
عليه النوائب في كل يوم تحتويه مصيبة وهاهو ذا قد أصبح شعباً مشرداً
لاجئاً تفتلك به المسغبة في الصحراء تقطعت به الأسباب فأضحى طريداً
والرزايا تطالبه فهذا شيخ مفجوع طريد لا يلوى أين يذهب وهذه حرة
تصدى لها عالج خبيث فلاب عفافها قسراً وهذا هو ان لم ير العرب والمسلمون
مشبهه :

فقلت إذن سلمى فديتك ما الذي
دهاك فأنت شارد الفكر ذاهب

فقلت لها والقلب يطفح بالأسى
ودمعي على الخدين بانت مساحيه

سليمي دعيني لا أبالك واعلمي
بأنى امرؤ زادت عليه متاعبه

وليس الذي قد هالني هجر كاهب
كما قد ظننت أو زمانا أحساريه

ولكن هذا الدهر زادت خطويه
على العرب والإسلام حلت مصائبه

فهذا الذى قد خال جسمى وقد غدا
فؤادى هموم النائبات تشاغبه
فهمل بعد هذا اليوم يعشق نابه
ويرضى بأن تسمى الغسوانى تداعبه
وهمل بعد هذا اليوم يملأ جفنه
من النوم حرّاً قد تسامت مراتبه
وهمل بعد هذا اليوم يرتاح مسلم
يرى العمار عاراً أو تلذ مشاربه
وهذى فلسطين الشهيدة قد هوت
بلطمة وغمد قد تناهت مثالبه
لك الله من شعب عزيز تحاذلت
حماة له حتى استبيحت مناهبه
وأودى به فى الدل خذلان أمة
وجرّعه كأس المنايا أقارببه
تفجع بعد الأمن وانهد ركنه
ومازال فى كف الرزايا تغالبه
وأبدل بالعليسا صغاراً وذليّة
لك الله من شعب توالت نوائبه
فى كل يوم تجتويه مصيبة
وقدأ رمسته فى الصحارى مساغبه
تعلق بالأسباب حتى تقطعت
وأضحى طريداً والرزايا تطالبه
ألا ربّ شيخ قد تفجع فى القرى
طريداً وقد ضاعت عليه مهاربه
وحرة أقوام تسامت مصونه
تصدى لها عالج خباث مطالبه

فمنها العفاف ذاب . قسراً وأصبحت
مروعة تبكى . وكسرها تصاحبه
فهذا هو ان لم ير العرب مثله
وعبار على الإسلام قلت ضرائبه

انتقل الشاعر من موضوع الغزل الذى افتتح به القصيدة إلى موضوع
القصيدة الأساسى انتقالاً نفسياً فهو ساهر الطرف مهجوم فما سرّ هذا السهر
وما سبب تلك الهموم ؟ أحب عارم أم كارثة مروعة ؟ أما الحب فقد
انصرف عنه ولم يشتغل فؤاده يوماً بكاعب . بقيت الثانية وهى الكارثة
المروعة وهل ثمة كارثة أفدح من كارثة فلسطين . شخصية الشاعر المعذبة
هى جسر العبور من مقدمة القصيدة الغزلية إلى الغرض الأساسى وهو
« فلسطين الشهيدة » وهو انتقال ليس بجديد على الشعر العربى فهو يذكرنا
بقصيدة الكميت بن زيد فى مدح بنى هاشم والى يقول فى مطلعها :

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب
ولا لعباً منى وذو الشيب يلعب
ولسم ! لهنى دار ولا رسم مـنزل
ولسم ! يتطربنى / بنىان . نخضب
ولا السانحات البارجات عشية
أمرّ سليم القرن أم مرّ أغضب
ولكن إلى أهل الفضائل والنهى
ونخير بنى حسواء والخير يطلب
بنى هاشم رهط ! النبي ! أفاننى
بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

فطرب الكميت لا يعود إلى حب الغوانى ولا إلى تفاؤل أو تشاؤم وإنما
يعود إلى حب بنى هاشم ومن ثمّ عبر نفسياً من المقدمة الغزلية إلى مدح بنى
هاشم كما عبر شاعرنا السعوى من المقدمة الغزلية إلى فلسطين الشهيدة .

على أن بعض عبارات الشاعر نثرية مبتذلة مثل . زادت عليه متاعبه
وزادت خطوبه .

وأيا ما كان الأمر فإن الشاعر لم يكده ينتقل إلى غرضه حتى وضع يده
أول ما وضع على جبين ذلك الشعب الذي اكتوى بنار الكارثة فشرده شيوخه
وأذاب عفاف حرائره وهذا هوان لم ير العرب مثله وعار جلل شعبنا
تتابعت بعده رزايا وأحداث جسام ومن هذا المنطلق وهو أن الكارثة
هوان وعار تبعها أحداث جسام انفجرت عاطفة الشاعر الغاضبة الثائرة
تصب جام غضبها آثاماً على العرب الذين تخاذلوا وآثاماً على الإسرائيليين والذين
عاونوها ولا سيما مجلس الأمن الذي أوصى أن تخرج الجيوش العربية من
فلسطين. (وترفع عن هام اليهود قواضيه) :

لعمرك إن العمار جلل شعبنا
وقد حلّ منه حيث كانت ذوائبه
رزايا وأحداث جسام تتابقت
ودهر عجيب لا تكن خرائبه
ولو أننا متنا بطعنة فارس
له في الحروب الطاحنات مناقبه
لقلنا سجالات الحرب بيننا
وهذا حسام ليم تخنسه مضاربته
ولكنّ هذا الغرب طهر نفسه
من الرجس فانهالت علينا رواضه
رمانا بعبّاد العجول فياهلنا
نخزايا بهما الإسلام ناءت مناكبه
تجمع شمل السامري وشتت
جموح الحماسة المسلمين خرائبه

لقد صاح جيش العرب في الخضم صبيحة
ففضت حشود السامري مواكبه

فضاقت بإسرائيل من بعد رحبها
وعزرييل قند شدت عليها مخالبه
فصاحت وناحت واستغاثت بأهلها
نيويورك فيها الغدر بانت ملاعبه

ففي مجلس للأمن صاحت ذئابيه
وداست حقوق المسلمين ثعالبه
فأوصى بأن يرتد ذا الجيش صاغراً

وترفع عن هام اليهود قواضيه

لكأني بالشاعر في هذه الأبيات يذكر أولئك الذين أسهموا في كارثة
فلسطين اليهود وأمريكا ومجلس الأمن بل والجيوش العربية التي أسلمت
فلسطين ولا يقف الشاعر طويلاً عند إسرائيل وأمريكا ومجلس الأمن ولكنه
يقف عند الجيوش العربية فيذكر كيف تحركت أول الأمر صادقة تحمي
تراث الفاتحين فكانت تلك الجيوش كالطوفان في بدء زحفها ولكنها ارتدت
حائرة كسيرة قد ضاقت عليها المغازات وتمزق شملها فهوت فلسطين :

فديتك من جيش تحرك صادقاً
لتحمي تراث الفاتحين عصائبه
فقد كان كالطوفان في بدء زحفه

فخاض الردي كسباً تجاب مطالبه
غزاك يعيد المجد فارتد حائراً
كسيراً وقد ضاقت عليه سياسيه

فأكسوه عاراً لم ير العرب مثله
وأخذت جميع المسلمين مقالبه
لك الله من جيش تمزق شمله

وباعتسبه بالنقسين جهراً مرازبه

أهويت فلسطين ونخلفك قد هوى
أعلا الضاد فارتاعت وضجت نواذيه

ألقد كان الجرح عميقا في قلب الشاعر وكان تألمه من موقف العرب
وجيوشهم وقادتهم مبرحاً وقد دفعه حزنه وتألمه إلى أن يعد وجود هؤلاء
كالعدم فلم يحموا بل أضاعوا وخانوا إنهم خلف كجلد الأجرى أما الذين
أيعاش في أكتافهم وكان يرجى الخير على أيديهم فقد طوتهم يد الردى.
وطاحت بهم ريح النوى والنوائب ومن ثمَّ وحيث ضاع المجد الطريف.
إفإن الشاعر يذكر المجد التليد وضياعه يذكره بالحسرة والأسى يذكر ضياع
التاريخ وحماة الإسلام والمسلمين يذكر عمر بن الخطاب ويذكر خالد
ابن الوليد وعمر بن العاص .

أترى ألو يرى الفاروق ما حصل بالألى
أأصبر عن نخوض المنايا كتائبه
فلو كان سيف الله يقظان (خالد)
لأفتت جموع الغاصيين مقابله
ولو كان عمرو الرأى والسيف والقنا
يرى الظلم هذا ما استقرت شواذبه

على أن الشاعر هنا قد اكتفى بذكر هؤلاء الأعلام الثلاثة ثم عرج
ينحى باللائمة على الأمة الإسلامية فذكر تفككها وضعفها واستخذاءها .

فيا أمة بعد الوثام تفككت
أوأضحت كحصن قد تداعت خرائبه

روت قول بشار بن برد فحرفت
أوسارت إلى وزمان ضعفا تخاطبه

(إذا الغاضب المحتال صعر نخده
مشينا إليه بالمسداد نعاتبه)

وأكبر الظن أن الشاعر حين نظم هذه القصيدة وضع نصب عينيه
قصيدة بشار التي يقول فيها :

كأن مشار النقع فوق رموسنا
وأسيافنا ليبل تهاوى كواكبـه
إذا الملك الجبار صعر نخـده
مشينا إليه بالسيوف نعماتـه .

وهذا البيت الثاني هو الذي حرفه الشاعر فجعل (الغاصب المحتال) مكان
(الملك الجبار) وجعل (بالمداد) مكان بالسيوف .

ولم ينس الشاعر أنه يتحدث عن فلسطين الشهيدة التي عز حماتها حديثا .
أما في القديم فكان هناك الحماة الأشاوس وقد ذكر منهم عمر وخالداً
وعمرأ ثم عاد فذكر هؤلاء الثلاثة وأتبعهم بآخرين كان يرجى أن يتم نصر
الله على أيديهم فهو يعدد أسماء القواد العرب الذين كتبوا أروع الصفحات
في سجل البطولات العسكرية الإسلامية .

فلسطين لا حـام يحـامى عن الحمى
ولا فيلق تحنـو عليك كباكبـه
فلا الفاتح الفاروق تهفو بنوده
ولا طارق في البحر تدنو قواربه
ولا خالد يزجى الكتائب في الفضـا
فتسبح كى تحمى حمـاك سلاهبـه
ولا سعد ليث القـادسية حاضـر
فيمشى إلى من قد دهاك يحاسبـه
ولا قاهر السواس عمرو يحاضـر
فتهدم ما تبني الدهـاة مواهبـه
وليس المثني قاهر الفرس بيننا
فتزأر في وجـه العدو قراضبـه

أولا مصعب الفحل ابن أسماء شاهد
فتبرق من فوق السروج ضواربه
ولا الفاتك المنصور ترقص خيله
لتظهر في هذا الزمان عجائبه
ولا هاشم المرقال يرقل في الوغى
فتهوى على هام اليهود قواضيه
ولا الداخيل الصقر المغامر عندنا
فتبرز في الحرب الضروس غرائبه
أولئك لو كانوا على ظهرها لما
توالت علينا من يهود مصاعبه
عليهم سلام الله وقفنا فبعدهم
تهاتت من المجد الأثيل مناصبه
أسود توارت في الثرى عن عرينها
فهان العرين بعدما غاب صاحبه
وفي ختام القصيدة ينحى الشاعر باللائمة على الأمة الإسلامية المفككة:
الكثيرة العدد القليلة الفعائل والتي أصبحت ذليلة لشعب خسيس وهذا هوان.
ما بعده هوان والأمة مع ذلك غافلة تخط في سبات عميق بينما العدو ساهر
يدوس تراث الفاتحين ونحن نكتفى بالكلام وطريق الخلاص هو القوة.
العسكرية فلا بد للحق من قوة تحرسه وتحميه وكأس الموت أفضل شربة من
العار وحياة الفتي في الدل موت وموته في العز حياة :
فلسطين لقد أصبحت لقمة جائع
وفيك ابن غريون تقضى مآربه
فيا أمة الإسلام أضحت جموعكم
كرجل الجراد حين تبلو مواكبه
ولكنكم عند الفعائل قلة
فوافرحمة الخصم الذي قد نحاربه

كفانا احتقاراً أن نكون أذلة
لشعب نخسيس لا تعدد معائبه
زمان الزمان بالحمالات ويحكم
فيعد الأفاعى. أنهكتنا عقابه
بنى الضاد ما هذا الهوان إلى متى
وذا العار لا تنفك عنا لوازيه
تلوس تراث الفاتحين كلابه
وتفسد في غاب الليوث أرائيه
سئنا الكلام وهو أقوى سلاحنا
فلا خير في قول فعال تجانبه
بنى الضاد إن السيف أصدق ناطق
به الخصم يدري ما عناء مطالبه
إليكم خلوها يا بني الضاد جهرة
مقالة من قد علمته تجاربه
أرى الحق لا يعطى ومن رام أخذه
عليه بحمد المشرفي يصاحبه
ألا إن كأس الموت أفضل شربة
من العار هذا ليس يغيب شارب
حياة الفتي في الذل موت وموته
عزيزاً حياة وهو في الخلد صاحبه

وحين نلتى نظرة عامة على هذه القصيدة نرى أنها سلكت منهج القصيدة
العربية القديمة فبدأت بمقدمة غزلية لعلها خير ما في القصيدة ثم انتقلت إلى
موضوع القصيدة .

وقد أصدر الشاعر عن عاطفة غاضبة ثائرة ألمها ما حل بفلسطين وأهلها
وساءه تفكك الأمة وتحاذلها فامتلاً قلبه بالغضب الثائر وجعل يكيل الضربات
تلو الضربات لأولئك الذين أضاعوا تراث الفاتحين .

وقد استمد كثيراً من أفكاره من لدن شعراء الغربية الأقدمين والمحدثين
هذه كـ بشاراً على نحو ما مرّ بنا وذكر المتنبي في ختام قصيدته :

حياة الفقى فى الذل موت

فهو يذكر بقول المتنبي :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم

بين طعن القنا وخفق البنود

واطلب العيش فى لظى ودع الـ

لذل ولو كان فى جنان الخلود

وذكر حافظ إبراهيم حين أشار إلى بيت بشار الذى حرقه فحافظ
يذكر نفس البيت فى حديثه عن السلطان عبد الحميد وغضبه الأمة ضده
وذلك حين يقول :

روت قول بشار فثارت وأقسمت

وقامت إلى عبد الحميد تخناصيه

إذا الملك الجبار صعر نخده

مشينا إليه بالسيف نعماته

وهو يذكرنا بشوقي فى ختام القصيدة فحين يقول باشميل :

أرى الحق لا يعطى

يذكرنا بشوقي فى أكثر من قصيدة فشوقي يقول من قصيدته فى مدح
مصطفى كمال :

لا تلتمس غلباً للحق فى أم

الحق عندهم معنى من الغلب

لا خير فى منبر حتى يسكون له

عود من السمر أو عود من القصب

وهكذا ...

وصور الشاعر وتشبيهاته بقديمة بون كانت وزاءها عاطفة وحشية بلوية . وقد لجأ الشاعر إلى أسلوب السرد والتقرير حين ذكر أعلام المسلمين الخالدين من أمثال الفاروق عمر ونخالد وعمر ووالثني وغيرهم . وقد تفجع على فلسطين الشهيدة في أكثر من عبارة (فهلى فلسطين الشهيدة قد هوت ...) (هويت فلسطين ونخلفك قد هوى علا الضاد) (فلسطين لا حام يحامى عن الحمى) (فلسطين قد أصبحت لقمة جائع) .

ويبقى للشاعر بعد ذلك صدق عاطفته وصدق تعبيره فالقصيدة ترجمان لعواطف الذين أخلصوا للقضية وتعزية للذين خانوا ولكن الصوت الجهير والنزعة الخطابية تسيطران على القصيدة حتى إن القصيدة لتشبه خطبة منبرية تبجح إلى التقرير والتأنيب والأسف وترحم على السابقين الذين حموا النمار وتلعن أولئك الذين ضيعوه .

(فلسطين) محمد علي مغربي :

إن مأساة فلسطين يعرفها كل عربي ويحزن لما أصاب مدينة السلام ولكن أتعالج القضية بالبكاء أم بقرع طبول الحرب وامتشاق الحسام ؟ .

ذلك ما يحدثنا عنه الشاعر السعودي الأستاذ محمد علي مغربي في قصيدته « فلسطين (١) » حيث يرى أن الدموع شيمة النساء وأنها لا تغنى فتىلاً فالتضحية بالنفس والمال هي وسيلة النصر وقد نذر العرب أنفسهم وأمواهم لتحرير فلسطين ، وهاهي سيوفهم قد سلت من أعماقها وهاهي أبطالهم يملئون الوادي ضيغماً لإثر ضيغم .

كفكني الدمع وجودى بالدم
إنما الدمع سلاح الأيـم
يا فلسطين ويا أرض العـسـلا
نحن جنـد الموت فاحي واسلمى

تقد نلرنا للفسدا أرواحنا
وبلدنا المسال من بعد الدم
سلت الأسياف مبن أعمادها
وصليل السيف حبلو النغم
حفل البوادي بأبطال الحمى
ضيفهم يمشى وراء الضيفهم

ولكن لمن هذه الجموع التي سال بها الوادي ؟ وهل الأمر من الخطورة
إلى هذا الحد الذي تسل فيه السيوف من أعمادها وتقرع طبول الحرب ؟
نعم إنه الدفاع عن الوطن الغالي عن أرض العلا وليس أغلى في الدنيا من
الوطن إنه الحرم الذي يأمن فيه المواطن فما بال شذاذ الآفاق من الصهاينة
يريدون أن يتخللوا من فلسطين موطننا لهم لقد كذبوا ولن يقر لهم قرار على
هذه الأرض الطاهرة ولن يجنوا من أعماهم الوحشية سوى الندم والضياع
والحسران . إن الله ضرب عليهم الدلة والمسكنة وفرض عليهم التشيت
فحين ينطلق المناضل العربي لتحرير فلسطين من الرجس الصهيوني إنما يحقق
هدفين : تطهير الأرض من الغاصب وتحقيق وعد الله في اليهود فاضربوا
أيها الأبطال عتق الباطل :

يا ليث العرب من كل فتى
يطلب المسوت فداء العلم
ليس أغلى في الدنيا من وطن
ليس أهدي للورى من حرم
يطلب الشذاذ فيسه موطننا
كذبوا ليسوا سوى للناسم
نزل التنزيل في محكمه
بشتات القسوم بين الأمم
غادفوا عن دينكم حتى يرى
أنسه الحق عزيز الكسمل

ضرب الذل عليهم فاضربوا
عنسق الباطل ضرب الخلد

ولكن الخطة كانت مدبرة بين اليهود وساسة العالم الكبار يمنح اليهود
وطنا قوميا لهم من فلسطين أعطاه من لا يملك لمن لا يستحق ووصل اليهود
إلى ذلك بالقوة والعنف تآزرهم الدول الغربية التي توقد الحرب بدعوى
السلام إنهم وخوش في صور آدمية إلههم المال وقد عموا عن الحق والهدى
وجعلوا الباطل لهم شرعة ومن ثم تكالب الغرب واليهود وسعوا لإصدار
قرار تقسيم فلسطين بين العرب واليهود ثم طرد العرب منها نهائيا بعد ذلك
والكلبة الآن وقبل الآن للبطولة والتضحية للهدل والفداء :

ليس أغبي في السورى ممن مجمع
يوقد الحرب أبدهوى السلم

أم الغرب وخوش صورت
كالأناسى أبقلب ثم مظلم
ليس غنير المال ما تبصره

إوهى عن ضوء الهدى مثل العمى
شرعة الباطل تمضى مثلما
يحقق النور سواد الظلم

ليس تقسيم فلسطين كما
ظننه «المجمع» ظن الواهم
دونسه المسوت وأنتم جنوده
فاجعلوا المسوت لكم كالقسم

وقضية فلسطين إذن ذات شقين شق الدنيا وهو تحرير الوطن وعودته
لأصحابه الشرعيين وشق الدين وهو تلبية داعي الجهاد لحماية أرض إسلامية
عليها مقدسات إسلامية ولتحقيق وعد الله في تشريد اليهود وضرب الدلة
والمسكنة عليهم ومن ثم جاءت بخاتمة القصيدة وكأنها تلخيص لما يريد.

الشاعر أن يثبته من خلال أنشودته أمام المناضلين حتى يمتثلوا حماساً واستبسالاً
من أجل الحق والوطن :

يا شباب العرب يا جنود العلا
من كمى سائر إثير كمى
سابقوا للدين والدنيا فدى
عزة الدين وعز الأمم
إنه الإيمان فاعزوا به
قبوة الدين ستار المسلم
إنها حرية كونوا لها
خير جنود يفتديها بالدم

إن كلمات هذه القصيدة وموسيقاها من الرقة والعلوبة يمكن أن
إنه يمكن تلحينها وغناؤها وكأن الشاعر وضعها نشيداً للحرب يترنم به
الجنود وهم سائرون إلى أرض المعركة وصيل السيف حلو النغم . وصور
الشاعر وعباراته جميلة توحى بالموقف مثل : الدمع سلاح الأيم — ضيغم
يمشى وراء الضيغم — ليوث العرب — عتق الباطل — أيم الغرب وحوش
إلى غير ذلك إلا أن بعض عباراته غير دقيقة مثل « ليسوا سوى للندم »
فهو يريد أن يقول لن يجنوا سوى الندم « والندم وحده ليس غير ولكن
عبارة ليسوا سوى للندم » غامضة وركيكة ومبتذلة .

والقصيدة من بحر الرمل وأجزاؤه :

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

إلا أن التفعيلة الأخيرة صارت « فاعلا » في الضرب والعروض .

رواية الحرب :

في حومة الشعر على أودية السياسة قدّم « الشاعر المجهول » رواية للحرب فقد اعتاد هذا الشاعر أن يتحف قراء « المنهل » في كل عام بحولية عن مجرى السياسة العالمية كما تقول « المنهل »^(١) و « رواية الحرب » .

تبدأ بالحديث عن غريزة العدوان في النفس البشرية وأنها أقوى دوافع الحرب ، وأن سطو القوى على الضعيف شيمة الإنسان منذ القدم ومن ثم فالضعيف عبد والقوى سيد :

إن داء الشعوب داء عصى
هو داء العدا داء الحقود
فتن الناس من قديم بسان يسـ
طوا على الأمنين سطو الفهود
فالضعيف المهـوان عبد لمولى
والقوى المغوار مولى العبيد .

فالدافع إلى الحرب دافع غريزي ومادامت في الإنسان هذه الغريزة فالحروب دائمة ومتجددة كلما قيل ولت أقبلت ، وهي في الشرق ربح عاصف وفي الغرب مرجل يغلى تحزن المرأة الشرقية العقيم لأنها عاجزة عن أن تقدم للحرب أبطالاً أما المرأة الغربية الولود فإن الحرب تتركها كالعقيم لأنها تحرق كل أبنائها هذه الحرب كلما قيل ولت .

هــ هذه الحرب كلما قيل ولت
أقبلت في جحافل وبنود
هي في الشرق زعزع مستطير
وهي في الغرب مرجل التهديد
وهي في الشرق غمسة لعقيم
وهي في الغرب عقم كل ولود

(١) المنهل : عدد رجب ١٣٥٨ هـ .

إوما دامت المعارك مستمرة بين البشر فإن آثارها ونخيمه فهي بلاء يحشر
الناس في الجحيم المبيد وهي وباء يسلب الناس نعمة البناء والتعمير ويترك
الأرض خرابا فهي الهلاك بعينه . .

هذه الحرب إن تثر فيبلاء
يحشر الناس في جحيم مبین
هذه الحرب إن تثر فوباء
يسلب الناس نعمة التشييد
هذه الحرب إن تثر فهي ويل
مطر بالحراب والتشييد

هذه هي الآثار العامة للحرب والعجب كل العجب أن الغرب يدرك ذلك
جيداً ومع ذلك يسرف في التسليح فهل تهاوت شمس الغرب في مهاوى
الفناء فعلى أو تعامى عن الحقيقة الواضحة إنه مفرع من الحرب وويلاتها
وتصعقه ذكرى الحروب وتراه مع ذلك يسرف في التسليح إنها الكبرياء إذن
وحب السيطرة والرغبة في استعمار الشعوب ومن ثم فحضارة الغرب برغم
ازدهارها لم تكتمل لأن يداً تبنى وأخرى تهدم « كلما تم أمر نقضته أنامل
التبديد » .

أتبى الغرب قد توارت ذكاه
في مهاوى من الفناء المسودى
قلبه جازع وتصعقه ذك
سرى نضبال يشيب فود الوليد
وتسراه مع ذاك وهو مكب
مسرف التسليح والتشييد
أشر الغرب واستطالت عسلاه
وتمطى في قنسة التجميع

وسمى في استعماره فوق سام
فعره السوار في التصعيد
سنة الله . كلما تم أمر
نقضته أناميل ألتبديد

ذاك شأن الغرب يصطلى نار الحرب ومع ذلك يسرف في التسليح
وحشد الجيوش حباً في السيطرة ورغبة في الاستعلاء فما حال الشرق ؟
أيدرك ما يدور حوله أم أنه مكبل بالقيود لا حول له ولا طول وهل
يشترك في حرب مبيدة كهذه أم أن التعقل والتبصر في عواقب الأمور
كفيل بصد الشرق عن هذه الحرب .

فهل الشرق مدرك كل هذا
وهل الشرق صاعد للقيود
وهل الشرق مستعيد ثوابه
في نضال يودى بكل عنيد
وهل الشرق المستفيد إرشاداً
إن في الهول فرصة لرشيد

تلك هي دوافع الحرب الطبيعية وآثارها وموقف الغرب منها ، مع
أمنية أن لا يشترك الشرق في الحرب القادمة فإن الشاعر نظم القصيدة
وطبول الحرب العالمية الثانية تدق وجمرها يشع من تحت الرماد ويوشك أن
يكون لها هيب يقضى على كل جهود السلام فهل من فتى رشيد يطفىء الجمر
قبل أن يصير ضراماً إن المنايا ترقص في كل واد والبشر في حالة ذهول
ينتظرون حتفهم وبذلك يسقط السلام ويضيع الأمن إذا ما قيل يوم الصراع
غير بعيد . .

ذاك جمر الهيجاء ذر شعناع
منه تحت الرماد في صهود

واستطال اللهب منه وأبندى
شرراً سوديا لفيض الجهمود
من فنى باسل عظيم أبى
يطغى الجمر قبل برح الوقود
المتنايا يزقسن فى كسل واد
عازفات فى رقصها بنشيد
والسرايا مشدومة فى انتظار
لالتهام النيران بيت القصيد
فسلام على السلام إذا ما
قيل يوم الصراع غير بعيد

عاطفة الشاعر فى هذه القصيدة هى حب السلام وكراهية الحرب ومن
ثمَّ نظر إلى غريزة العدوان الدافعة إلى الحرب على أنها داء يجب علاجه ونظر
إلى المعتدين على أنهم فهود تسطو على الأمنين ، وصوّر الحرب على أنها فى
الشرق « زعزع مستطير » وفى الغرب « رجل التهديد » وهى بلاء ووباء
وويل ممطر بالخراب وهى جمر يحرق السلام وجهود العاملين له ، والناس
يعيشون فى فزع ورعب وهم يرون المتنايا ترقص ، وقد وقفوا مشدوهين
فى انتظار الكارثة فإن يوم الصراع هو يوم سقوط السلام إن صور الشاعر
وليدة عاطفته وهذا ما يكسبها حيوية وقوة والتنسيق الفنى للعبارة يؤدى
دوره أيضا فى تجسيم المعنى حين يستعمل الشاعر اسم الإثارة ويكرر هذا
الاستعمال وكأن الحرب ماثلة أمام عينيه فهو يلفت إليها الأنظار ويستحضر
صورتها بالإشارة المكررة إليها فى أكثر من بيت وهو يعبر عن استمرارية
الحرب بهذه الكلمات ، « كلما قيل ولت أقبلت » فما يكاد الناس يفيقون
من هولها حتى تفجأهم من جديد فهم منها فى رعب مستمر دل عليه « كلما »
كما دل عليه الطباق بين أقبلت وولت .

تلك هى « رواية الحرب » ذات الوحدة الفنية المتكاملة فهو ضوعها واحد

وأفكارها واحدة والجو النفسى الذى يغلف الرواية واحد من بدايتها إلى نهايتها .

والشاعر نظم القصيدة كما قلنا والدنيا تستعد لاستقبال الحرب العالمية الثانية التى خلفت آثاراً بشعة ماتزال الإنسانية تئن منها حتى اليوم فالشاعر استقى تجربته من الحياة ومن أغمق النفس البشرية وأطماعها وغرورها المدمر وذرف دمعة حزن على السلام فى يوم الصراع .

وأكبر الظن أن الحرب العلوانية بنت الأطماع والأهواء مرفوضة لدى شعراء السعودية بل لدى الشعب السعودى كله والحرب التى يؤيدونها هى ما عبر عنها شوقي بقوله مخاطباً الرسول صلى الله عليه وسلم :

الحرب فى حـق لـديـك شـريـعة

ومـن السـموم النـافـعـات دواء

فالسـلام والأمن والرخاء والبناء والتشييد أنشودة الشاعر السعودى ومن ثمَّ صورَّ الحرب فى صورة منفرة مؤلمة فاتجاه الشاعر نحو السلام لا نحو الحرب .

دنيا السلام — للأستاذ محمود عارف (١) :

هذه ترنيمة السلام وأنشودة الفرح بانتهاء الحرب وأهوالها وإن خلفت الحاضر مثقلاً بالمجازر فقد اكتوى الناس بنار الحرب على يد كل غادر أثيم لقد خلفت وراءها الفقر والجوع والبؤس وعمَّرت المقابر .

هذه حقبة البلوى مضت بأثقالها وأوزارها وفى إثرها بدا نعيم المصير فى غد جد ناظر :

مضى الأمس مطويا فهل بعد حاضر

يجىء لنا الآتى بصفى مبادر

فلا عاد هول الأملس والحاضر الذى
تلاه وشيكا مثقلا بالمجسازر
ملاحم حرى فى لظى نارها اکتوت
عوالم شقى ذاك من صنع غادر
تنزى على حر الوطيس شواظها
ودارت بشقواها على رأس خاسر
فكم مدقع ذاق الطوى بين أهله
وكم بائس مثواه بين المقابر
مضت حقبة البلوى وفى إثرها بدا
نعم مصير فى غمد جدد ناظر

إن رجاء الشاعر معقود بناصية الغد الذى يجيء ومعه الصفو والنعم
فهل بعد حاضر يجيء لنا الآتى بصفو مبادر ؟ فالاستفهام خرج عن معناه
الحقيقى وأفاد معنى الرجاء فى غمد ناظر أحست به الدنيا وبما يحمل من رحمة
فإذا كان الماضى والحاضر هما حقبة البلوى حرب ونار وفقر وجوع ضاقت
الدنيا بالإنسان فلم يجد له مثوى إلا بين المقابر . إذا كان هذا شأن حقبة
البلوى التى مضت فإن حقبة الغد جد ناخرة شملت الحياة والأحياء فالطير
يغنى على الدوح وبين الطير والدوح همس كهمس الأزاهر كلاهما ناعم
بالأمن وهما فى نجوى كأنها شجو القيثارة كلاهما يعيش فرحة المني فالغصن
يميل ميل المعافر والطير تشدو الجدول الرقراق فى نشوة ونسمات الفجر
ساحرة ، وفى خلوات الليل قامت أفراح النجوم .

أحست به الدنيا بواد رحمة
بواطنها توى إلى كل ظاهر
كأنى وهذا الدوح للطير مرغن
وبينهما همس كهمس الأزاهر
كلا اتينهما فى ساحة الأمن ناعم
ونجواهما بالهمس شجو القيثارة

وفي الغصن ما في الطير من فرحة المني
تميل به نشوان ميل المعافر
وفي الجدول الرقراق أنباض نشوة
تفيض كسيال المني في السرائر
وفي نسبات الفجر نجوى صباية
ترف كسحر الوحي في نفس شاعر
وفي خطوات الليل أفراح أنجم
تلج بأشواق الظلام المسامر

إذا كان الشاعر قد رسم بريشته صورة الدمار في حقبة البلوى فقد
رسم هنا في حقبة النعيم صورة لفرح الطبيعة وبعث الحياة والحركة في صورته .
فالدوح أرغن للطير واستمع إلى أحلى همس همس الأزاهر وهذا الغصن يميل
نشوان ، وما أبلغ هذا التشبيه للجدول الرقراق بسيال المني فلم يقل سيال
المني كالجدول الرقراق وإلا لكان في سيولة الجدول ما يفوق سيال المني
والشاعر يهدف إلى أن المني كثيرة فهي ليست كالجدول ولكن الجدول هو
الذي يشبهها ومعلوم أن وجه الشبه في المشبه به أقوى منه في المشبه .

وفي خطوات الليل أفراح أنجم

كنت أفضل وضع هذا البيت قبل سابقه : وفي نسبات الفجر نجوى
صباية لأن الفجر في ترتيب الزمن يأتي بعد الليل لقد رسم الشاعر لوحة
عناصرها الدوح والطير والأزاهر والجدول والليل والفجر والنجم ، وقد
أحاط الشاعر هذه اللوحة الفنية بأنغام موسيقية عذبة بأنغام الأرغن والقيثار
وسلط عليها ضوءاً ساحراً جلداباً هو ضوء النجم والفجر ، وجعل لوحته
تنطق في خفوت هو همس الأزاهر ونجوى الدوح والطير .

وهذه الطبيعة الجليلة أسعدت الكون فخلق قلب العالم بالسرور
بتحقيق المني فقد انتصر السلام على الحرب ومن ثم فالغد مشرق ينظر من
عل في كبرياء وزهو يسم للمجد ودويواسي المسلوب ويزيل عن المأزوم

شقوة همه ويمحو الظلم عن المظلوم ، وينشر السباحة في الوجود ويقوى
أواصر الترابط بين الأمم والشعوب فيعيشون في أمن وحرية هناك في
فردوس السلام تحوطه الأنوار ويسعد المنصور وتردد الدنيا نشيد السلام ،
يوتصبح أحداث الرمان أحاديث ملهامة :

وفي رحبات الكون يخفق عبالم
سروراً بتحقيق المني خفق طائر
كأنى وهذا الدهر ينظر من عل
يطل على الدنيا ببسمة ظافر
ويبسم للمجد ود إذ عاد غانما
ويضئ على المسلوب عزمة صابر
وينضو عن المأزوم شقوة همه
ويمحو عن المظلوم نقمة جائر
ويبعث في روح الوجود سباحة
تطوف على الدنيا لربط الأواصر
هنالك حيث الأمن حرية الوري
تنال على دستور نهج التآزر
يرى الناس فردوس السلام مجللا
بنور التصافي لا يختل المصائر
فيسعد منصور بنعماء نصيره
ويرجع ملحور بأعباء داحر
وتنفجر الدنيا نشيداً مخسلاً
تردده الأيام ترديد ذاكر
وتصبح أحداث الزمان التي مضت
أحاديث ملهامة العصور الأواخر

، وهذه لوحة ثالثة للكون الضاحك الذي يخفق كالطائر وللزمن الذي يطل

من. عل مبتسما للمجلود ومواسيا للمسلوب ثم يدخل مع الناس فردوس.
السلام المضاء بأنوار الصفاء ويسمعون نشيد السلام تردده الأيام .

وكل ذلك أسكر الشاعر وبعث فيه النشوة فطرب وترنح وطلب المزيد.
من كؤوس الصفو والمنى فقد طاب الزمان وعاد عطاياه وعسى ذلك يشفى.
الأسى وما خلفته المخاطر فيعود الناس إلى يتابع الثقافة والحرية والحضارة
والحب والعدل فهذه ذخائر السعادة إنه فال تبتغيه الدنيا لينها جميع الناس.
في فردوس السلام :

فيا أيها الساقى أنلى تفضيلاً
كؤوسك من صفو النعيم الجاور
أنلى وقد طاب الزمان معاوداً
عطاياه من فيض المنى المتوافر
لعلك تشفى بعض ما بى من الأسى
وما خلفته موبقات المخاطر
هنا اليوم ينبوع الثقافة منزع
بأكرم ما يحي طمّاح المشاعر
هنا ملتقى حرية وحضارة
عجلى وثام حافل بالذخائر
ذخائر إسعاد تفيض عدالة
على عالم مستيقظ غير سادر
لعمرك فال تبتغيه مداين
للدنيا أضواء بالأماني النواضر
لينها جميع العالمين قريهم
وأبعدهم داراً بدنيا البشائر

هذا شاعر امتلأ قلبه بحب الطبيعة والكون والناس ففرح حين زال.
الكابوس الذى كان يخيم على الكل فرح حين أشرق وجه الحياة وعاد السلام.

وحل الوثام محل الخصام فرح بالأمن والعدل ليتجه الناس نحو البناء بناء الحضارة والثقافة والتعاون ويعيشوا على الأمانى النواضر وفى دنيا البشائر .

وهذه العاطفة الجياشة فى قلب الشاعر قد رسمها يرشته لوحات ناطقة .
معبرة كل لوحة فيها فرحة وغناء وطرب . وقد اختار للوحته ألوانا بهجة وظلالا ناعمة ونسق بين عناصر لوحاته فجاءت معبرة عن مكنون فؤاده ومستور عواطفه .

الطبيعة والمرأة :

ما موقف الشاعر السعوى من الطبيعة ؟

هل صور عاطفته وحنينه إلى الطبيعة ؟

وهل جمع بين المرأة والطبيعة فى شعره ؟

أم قدم ألوانا وأشكالا من الطبيعة فى صور تحمل طابع الإبداع والتجديد ذاك أمر يدعونا إلى أن نستعرض نماذج من شعر الطبيعة عنيت بها (المنهل) .

وهذه قصيدة « وحي العقيق »^(١) فى يوم انهماره « ذيلت بتوقيع الشاعر المجهول فقد انطلق الشاعر إلى وادى العقيق يوم انهماره (١٣٥٨/٢/١٢ هـ) وانتحى عن رفاقه جانبا وجلس وحيدا على ضفاف الوادى الذهبى الجميل يناجى فيه عبر التاريخ وروعة الحاضر ويستلهم جماله الناضر وحي الشعر . وكان الوقت أصيلا جنحت فيه الشمس للغروب ، وعكست أشعتها الذهبية على صفحات الوادى المنهمر فكان منظر بهيج فائق وقد جاءت هذه القصيدة فيض (وحي العقيق) ونتاح منظره الباسم فى ذلك المساء البهيج .

هذا مشهد من مشاهد الطبيعة إذن مشهد المطر المنهمر على وادى العقيق وما ينبجم عنه من حياة الأرض والجبال فى هذه البقعة حتى إن الناس

ليتخلون منها منزها فلا عجب أن يحتم الشاعر قصيدته بالدعوة إلى العناية بالعقيق مادام بهجة النفس وقرّة العين استهل الشاعر قصيدته بوصف وادى العقيق لحظة الانهمار وكان ذلك قبيل الغروب فالعقيق لم يعد مكانا عاديا بل أصبح إنسانا طلق الحيا يشدو مسرورا وهو متألّئ متدفق ينساب بين السهول والوعور مياهه وهذه الأمواج تتكسر فوق صخوره ، والنسبات تهب عطرا منعشا من جنباته ، وهو مزدان بأشجاره ونوارها الفاتن ، وحجارته السوداء أشرق وجهها بهطول المطر فقامت تعانقه وتبثه شجوها ولقد أصبح لونها كلون الذهب لمعانا وصفاء فاق لون الشمس وجمالها وقت الأصيل حتى إنها تغضى طرفها مفتونة بجمالها وتحاول أسرّه فلما استيأست من ذلك غربت فتطلع له بدر السما مشتاقا يود تقبيله أما النجوم فقد رقصت فوقه معجبة بجمالها .

لوحة فنية عناصرها : العقيق — المطر منهرا فوقه — الأمواج فوق صخوره — الشجرات المزدانة بالنوار — صخور الوادى الجميلة — الشمس عند الأصيل — القمر العاشق — النجوم الراقصة يقول الشاعر :

هذا | العقيق | وقدم | همى | مبتسما
 طلق | الحيا | شاديا | بسروره
 وتسراه | فى | لألائه | متدفقا
 ينساب | بين | سهوله | ووعوره
 تتكسر | الأمواج | فوق | صخوره
 فتئن | من | تأثيره | وعبوره
 وتهب | من | جنباته | نسائته
 فتفوح | عطرا | منعشا | بعبيره
 وتحفسه | شجراته | مزدانة
 بنواره | المغستر | من | تأثيره
 حرّاته | السوداء | أشرق | وجهها
 وتهلت | أبقيومه | ومروره

خفت تعانقسه وتشكو بؤسها
وشحوبها من هجره وحروره
اللون يحكى التبر في لعانه
وصفاء وجتبه ونقش سطوره
والشمس تفضى طرفها مفتونه
بجماله المكنون في تصويده
حتى إذا ما استياست من أسره
سقطت معاناة وراء بروده
فمرنا له بدر السما متطلعا
وأطل مشتاقا للشم ثنوره
وإذا النجوم الحبور ترقص فوقه
مشلوهة بشبابه أونضيره

ولم ينس الشاعر أن يعرج على التاريخ فيذكر أن للعقيق تاريخا بطوى
حكما ممزوجة بالحزن والسرور ، والعقيق يوحى بالكثير من مطويه للخبير
إن هذه الإشراقة المتألثة في جيد العقيق توحى بالجمال ينبعث من بين
صخوره إن المحزون يأوى إليه فتفرج أحزانه وهذا المريض يأوى إليه فيمنحه
النشاط والسعادة والصحة :

هذا العقيق يبين في مطويه
حكما تمازج حزنها بحبوره
هذا العقيق يبدق في إيجائه
ويعبر ذاك الوحي سمع خبره
انظره في إشراقة مثله
درر الجمال تضيء فوق صخوره
وانظره يوحى للشجي مباهجا
ويزيح عنه شجونه نحريه

ويعيد للجسم العبي نشاطه.

ويزيل عن عطفه عبء فتوره

إن دأب العقيق منذ القدم أن يترنم ويشلو عند نزول الأمطار وانهارها
إن سكانه وقصوره لن فرح عظيم وإن هذا الأريج يفوح من أزهاره
وأشجاره ليجذب إليه الزوار مستبشرين بفيضه وصلوره فتراهم على
حافاته زرافات ووحدا وكأنهم جاعوا ليسمعوا نشيد المطر وأهازيجه إنه
يوقع لحن الحياة وإن ذلك اللحن يجلو للزوار معنى السعادة والهدوء ويعيد
لهم سير الماضين ويجيش بالإلهام على قلوبهم إنه يرثي للماضي الجميل
وإنه لو في مخلص يأسى على من مضى من قاطنيه :

هذا العقيق وقد همر مترنماً

يشلو لنا بقطينه وقصوره

هذا العقيق وقد همى متأرجحاً

يشلو لنا بحياته وشعوره

يتوارد الزوار يوم وروده

مستبشرين بفيضه وصلوره

وتراهم زمراً على حافاته

يهمس لهم بنظيره ونشيره

مزجاً يغنيهم على أوتاره

وحى الحياة على عروض بحوره

يجلو لهم في وحيه وغنايه

معنى السعادة هادئاً بهديره

ويعيد في ألحانه سيراً لمن

أنخت عليهم ساعات دهوره

ويجيش بالآلام كامنسة بسنه

فيصوغها عقداً على مهجوره

يرثي لماضييه الجميل بشعره
ويسجل المأساة في تكريره
اسمه في زفراته متلثما
وانظره في نزواته وعشوره
تجد الأسى مستجمعا في قلبه
ويكاد ينفثه على معوره

أمثل هذا المكان التاريخي الجميل بهجر ؟ ولا يجد من العناية والرعاية-
ما هو أهل له ؟ هذه هي مأساة العقيق وهذا سرّ تجهمه وتألمه إنه يهفو لمن
يبيه الحياة لمن يشيد مكسورا هوى من دوره لمن يتحدث عن أفضاله لمن
يصغى إليه . ويستكشف الخبوء من مغوره . لمن يوليه عطفًا ورعاية لمن
يكسو رباه بالسندس الأخضر لمن يعنى بزراعته وإخصابه لمن يعنى بتلك
الأرض الذهبية فما ينبغي أن تهمل لتظل مصبر سرور ووحى سعادة :

هذا العقيق وقد همى متجهما
يحكى لنا مأساته بزفيره
هذا العقيق وقد همى متألما
يفشى لنا أسراره بزئيره
يهفو لمن يهب الحياة سكونه
فيشيد مكسورا هوى من دوره
يهفو لمن يزهى بفضل صفاته
فيتمم المتقوص من مقصوره
يهفو لمن يرنو لما في سرحه
يستكشف الخبوء من مغوره
يهفو لمن يوليه عطفًا مبهجا
يسمو بسنه المنظور عن مطموره
يهفو لمن يكسو رباه بسندس
يزهو بسنه الخبوء مد مأثوره

يهفو لمن يعنى بخصب جسوائه
حتى يفسوح بسنه نلدى زهوره

يهفو لمن يعنى بتسبر ثراه فى
أرجائه ليسلوم وحي سروره

إن منظر العقيق الباسم فى ذلك المساء البهيج قد أوحى إلى الشاعر بهذه القصيدة العصماء فالشاعر والعقيق والمطر والطبيعة والتاريخ والسرور تلك مكونات القصيدة والوحدة العضوية تتمثل فى وحدة الموضوع فكل شيء فى القصيدة من (وحي العقيق فى يوم انهماره) وأفكار القصيدة واحدة تنبعث من منظر العقيق فى ذلك المساء إذ يصف انهمار المطر وأثره فى العقيق ثم يذكر أن العقيق هكذا منذ الزمن البعيد يأتيه الزوار يوم انهماره للنزهة والراحة ومثل هذا المكان ينبغي العناية به فالأفكار متلاحمة تنبع من بؤرة واحدة وتنطلق فى مسارات يكمل بعضها بعضا .

والجاء النفسى فى القصيدة واحد فالشاعر سرور بما يرى ويود لو يظل العقيق وحي سرور .

وقد مارس الشاعر تجربته عمليا حيث عايش المكان وما حوى وما أوحى إليه ولكن الذى ألاحظه أن الشاعر برغم سروره بالطبيعة وبعثه الحياة فيها لم يندمج فيها ولم يشعر أنه فرد من أفرادها فهو قد انتحى عن رفاقه جانبا وجلس وحيدا على ضفاف الوادى الذهبى الجميل وكان بوسعه وقد شخص الوادى والطبيعة أن يتحرك بحركتها وأن يكون منها وإليها فيصل أحاسيسه بأحاسيسها ولكنه اكتفى بأن يكون مصورا من الخارج إن صح التعبير وهذه سمة ملحوظة فى شعر الطبيعة عند العرب .

يقول الأستاذ سيد قطب (١) « نلاحظ أن الطبيعة فى الشعر العربى لم تكن إلا قليلا متصلة بإحساس الشعراء العرب اتصال الصداقة والألفة ، وكان الإحساس بالطبيعة عند ألفتها عبارة عن منظر يوصف أو يلتذ لا

شخص تحيا وحياة تدب فالطبيعة مناظر جامدة للوصف المحسى والتشبيه بالمحسوسات وقد تحيا الطبيعة وتدب ويحس الشاعر بما يضطرم فيها من حياة ويلحظ خلجاتها ويحصى نبضاتها ولكنه هو لا يندمج في هذه الطبيعة ولا يحس أنه شخص من شخصها وفرد من أبنائها وأن حركته من حركتها ونبضه من نبضاتها وأنه منها وإليها وأحاسيسه موصولة بأحاسيسها .

أما قصيدة « جازان »^(١) للشاعر محمد أحمد عيسى فقد تحدث فيها الشاعر عن نفسه أكثر من حديثه عن حبيته « جازان » فهو بلبل جازان الشادى وهو صاحب القلب النابض الملهم وهو يتعشق الفجر ويرتوى بشعاع النور وهو ذو بيان فياض وعواطف سامية انجبت (جازان) فسرى نسبا عاطراً بالشعر مترسماً سنن الفضيلة ، يلمع قلمه كالبرق في متلاطم الأحلاك ليضيء مشاعل النهضة لطلائع الأجيال وإن أوتار شعره لترن بمسمع الدنيا إنه شاعر سامى الخيال مدله بهوى (جازان) هذا شاعر يفخر بنفسه وفنه بين يدي موضوعه وسيختم قصيدته ببكاء حظه العاثر وعدم تقديره في بلده جازان رغم تفوقه فلماذا هام بحبها وجعلها معشوقته فقال :

جازان إني من هواك الشاك
أفتنصتين لبلبل غنىاك
أصغى إلى همسات قلب نابض
متوثب الإلهام والإدراك
يتعشق الفجر الوضى ويرتوى
بشعاع نور كواكب الأفلاك
نشوان من خمير البيان يعب من
نبع تدفق بالرحيق الناكسى
نخضلت به دنيا الجمال فأخضبت
سامى العواطف والشعور الزاكى

(١) المنهل عدد صفر ١٣٧٠ هـ .

أنا ممن علمت ولا أقول مباحيا
 قد صاغ من در البيان حلاك
 أنجسته فمري نسيا عاطرا
 بالشعر يعبق في رياض عنلاك
 مرسماً سنن الفضيلة ضاربا
 مثلاً من الخلق النبيل مذكاً
 قلم هزرت به يميني فانبرى
 كالسبرق في متلاطم الأحلاك
 لمع تضيء على مشاعل نهضة
 لطلائع الأجيال فوق ثراك
 وتبريزن بمسمع الدنيا وفي
 رناته همس الفؤاد الباكى

ويبدو أن الشاعر كان يعاني من أزمة نفسية فهو وفي لجازان وهي لم ترع قدره ولم تعرف منزلته الأدبية ومن ثم جعل يتحدث عن نفسه ومكانته الأدبية وفي البيت الثالث ضعف في نشأ من تتابع الإضافات في شطره الثاني (بشعاع نور كواكب الأفلاك) وعلى كل فقد بدأ يصف طبيعة جازان في البيت الثالث عشر فذكر شواطئها الجميلة وغرد بجمالها وبالمساء على البحر حيث ترقص الأمواج تحت الأضواء من الشفق المذهب ونور الأشعة الفضي وقد انساب على الصخور فكست « قوز الشريعر » و « العشياء » جمالاً وبهجة فالرؤى على الشاطئ فتنة للناظرين كأنها صورة مجسمة للجمال فزهت رمال الشاطئ الندية برشاش الموج وهفا النسيم على التلال ليقبل رداء (جازان) أما الأمواج فهي قبل تطيع على ثغر جازان ، وما أعجب الجنوع الموائل وهي تبدو في صف واحد كأنه سطر خطته يد جازان . مفاتن خلابة يعجز الخيال عن تصويرها أو الإحاطة بها فهي ملهمة البيان وقصيدته :

ولقد نظرت إليك نظرة شاعر
 سامي الخيال مدله بهواك

يرعى شواطئك الجميلة هاتفا
ومغرداً بحماتها وصباحك
يجلو المساء على بحارك فتنية
رقصت لها الأمواج تحت ضياك
وهجاً من الشفق المذهب قد جرى
تبراً يشع على سماء فضائك
وتلألأت نور الأشعة فضة
ذابت على جمر الصخور هناك
فبدأ بها « قوز الشويعر » باقة
بيضاء قد رقت على يمنك
وتبرجت فيه « العشيا » غداة
نضت غلائلها هوى شطاكى
فتنت بمسحور الرؤى فى شاطيء
كلطار رسم للجمال حواك
فزمت رمال الشط وهى نديسة
برشاش رغو الموج فوق رباك
وهفنا التسم على تلاك دانيا
متعشراً يذنبو للثم رداك
وكأنما الأمواج حين تداقت
قبل طبعن على أغر لمناك
وتروقى تسلك الجملوع موائلا
صفاء كسطر بخططته يداك
فجلت مفاتن لا الخيال بقادر
تصويرها أو أن يحيط بسلك
غلانت ملهمة البيان بفنه
وقصيدة عنه « الوجود » روالك

إن الشاعر يقف أمام الطبيعة في جازان وقفة المصور المعجب لكنه وبرغم حبه لجازان . لم يندمج في هذه الطبيعة ويبتها آلامه وأحزانه بل على العكس رأى الشواطئ الجميلة والمساء الفاتن والأضواء الملونة والرمال الندية ... رآها كذلك فخیل إلینا أنه سعيد مبهج لكنه فاجأنا في آخر القصيدة بما يدل على أساه لعدم تقدير جازان له ولأمثاله من النابهين :

إن لم أقدر فيك رغم تنوقي
ويكون حظ النابهين جفساك
فلقد مضى أن النباهة في الوری
حفت كمثل الورد بالأششواك

على أن بعض عبارات الشاعر وقوافيه قلقة فقد كسر الكاف من (هناك) في البيت الخامس وحققها أن تفتح والصياغة غير دقيقة في البيت الثالث عشر إذ كان ينبغي أن يقول : لا الخيال بقادر على تصويرها ولا بقادر على أن يحيط بذلك فتكرار لا هنا لازم لوقوع اسمها معرفة وبطلان عملها ولكن الوزن دفعه إلى أن يقول كلاماً كينما اتفق .

(يا ليتني قمری) لحسين سرحان :

الشاعر ذو العاطفة الرقيقة والإحساس المرهف يرى أن سعادة الإنسان ليست في شبعه وتعاسته ليست في جوعه وإنما السعادة كل السعادة في العلم والحرية وصفاء الروح وإشراقها فإذا حرم الإنسان من هذه المتع الروحية شقى وتعس سواء كان جوعان أو شبعان .

والإنسان العادي لا يدرك ذلك وإنما يدركه الفنان فيشفي بحرمانه من هذه المتع ويحسد المتنعين بها وحين يرى المجتمع الإنساني خواء من ذلك يرمي نفسه بين أحضان الطبيعة والشاعر السعوى حسين سرحان من ذوى الحس المرهف والشعور الرقيق إنه شاعر رومانسى ضاق بالحياة وقيودها وظلامها فتمنى أن لو كان قمریا يترقب بين الرياض حين ينبثق نور الفجر إنها أمنية دعت إليها قسوة الحياة من حوله ودعا إليها تعاسة الإنسان بل

تعاسته هو أليس إنسانا يطلب السعادة لنفسه وللآخرين فالشاعر إذن يتخذ
من الطبيعة وسيلة للتعبير عن رؤية خاصة في الحياة حين يقول « يا ليتنى
قمرى ^(١) » .

فالدجى و سنان يحلم بالفجر ، والكواكب بعضها يسرى والبعض الآخر
لا يسرى ، والشاعر حين يجعل الدجى إنساناً نائماً يصور مدى التعاسة التى
يعانى منها ذلك الإنسان المظلم الذى يحلم بنور الفجر والكواكب أمامه بعضها
يسرى وبعضها لا يسرى فهو فى حيرة من أمره يريد أن يتبع النور ولا يسعفه
إلا جناحاً قمرى يطير بهما فى الموكب الفضى ويغازل فى هذا الجو القمراء
يبسط جناحيه تارة ويقبضها أخرى يطير معجباً مع المعجبين فى نشوة الزرى
ويتنقل من غصن إلى غصن ومن روض إلى آخر :

أمسى الدجى و سنان يحلم بالفجر
والكوكب الفتيان يسرى ولا يسرى
يا ليتنى قمرى

أغازل القمراء فى الموكب الفضى
وأنهب الأجواء بالبسط والقبض
فى أفقها الحمراء

من قال لى واهى قلت لى لى
ما ضرّ مسن باهى أن ينشئنى تيهى
فى نشوة المزرى

فى كل غصن مسال لى صمدحة سكرى
وكل روض سال من مقلّة شكرى
تسفع بالزهر

ولكن الليل يفقد إحساسه فلا يشعر بالشاعر الذى يشبه الألاء والذى
يعد نفسه من أنجم الليل وإنه ليتطلع إلى الفجر ينتظر أن تغنى بطلوعه الظلمة

وتزول الغمة إنه يشبه نفسه بمن صام نهار رمضان وأحيا ليله بالقيام والصلاة
يلتمس ليلة القدر إنها ليلة واحدة في شهر واحد ولكنها خير من ألف شهر
إن فيها السعادة التي يرتقبها الصائم وإن الشاعر ليبحث عن ليلة القدر التي
تريحه وتريح ذلك الإنسان التعس إنه وإن أحاط به الليل الجامد والدجى
الوسنان لم يفقد الأمل في الفجر ولا في ليلة القدر :

ليل على قبراء يفقد إحساسه
كأننى لألاء تستاف أنفاسه
بالرونق المغرى
أرى نجوم الليل كأننى منها
والضوء مثل السيل ينساح بي عنها
في منظر سحرى
كأننى صائم في شهره الموعود
وفي الدجى قائم قد أدرك المقصود
في ليلة القدر
ما أتعس الإنسان في حيشما كانا
إن اغتدى جوعان أو عاش شعبان
لو أنه يدري

هذا شعر مخلق كتخليق القمري اختار له الشاعر لحنا موسيقيا يتمشى
مع حركات القمري وقفزاته وفيه إبداع في الصياغة وتجديد في بعض الصور
مثل كأننى لألاء أرى نجوم الليل كأننى منها — الضوء مثل السيل . وسخط
الشاعر من النوع الخفيف إن صبح التعبير فهو ليس سخطاً مظلماً بقدر ما هو
إعلان عن رغبته وأمنية يمكن أن تتحقق وهو ينتظرها كما ينتظر الصائم ليلة
القدر لقد حرك الشاعر الطبيعة : الليل والفجر والكواكب والطيور والروض
والغصن والنجم والإنسان الذي أسهر ليله وجعل نفسه فرداً من هذه الطبيعة
وإن شئت فقل إن هذه أمنية (ياليتنى قمري) كل ذلك لينشد السعادة
للإنسان التعس وهو لا يدري ولو تأمل في الطبيعة من حوله لتعلم منها الكثير

تعلم منها الحرية وارتقاب الفجر وإن لفها الليل الذى فقد حسه وعلى كل
فهذه صدحة سكرى لشاعر. سراجان .

والشاعر السعودى الأستاذ حسين إعراب يقف إمتاملاً أمام جبل
« عيلم »^(١) فماذا رأى فى الطبيعة ؟ وبماذا أوحى إليه هذه الرؤية ؟

إنه يرى جبلا شامخا تغطى هامته الغيوم لعلوه وارتفاعه ، وإن الشمس
حين تشرق لتطل من خلف هذا الجبل رويداً رويداً فهو يحجبها حيناً وتبدو
من خلفه حيناً آخر . ومن ثم تصور الشاعر الجبل ذلك اللماح فى عليائه
سأهم النظرة يحاول الناس استجلاءه من ثنايا الأفق فإذا أشرق من بين الغيوم
هتف له الناس وانظروا الضوء وصحت أرواحهم .

الغيوم والضياء بينهما الجبل هذه هى الحقيقة والخيال بل هذه هى الدنيا
صحراء شعشاء الحدود :

أيها اللماح فى عليائه
سأهم النظرة مرموق الشحوب
يهرع الناس إلى استجلائه
من ثنايا الأفق النائي الرhib
كلما استشرفت من بين الغيوم
هتف الشوق بنسا يجلو ضياءك
وصحت أرواحنا بعد الوجوم
صحوة المدنف يستملى رواءك
ما الذى تخفيه من سر الوجود
بين أضوائك أو خلف الغمام
الدنا يبسداء شعشاء الحدود
أحرق الضاحى بها حبر الأوام

فالشاعر إذن لا يصور الطبيعة ولا يبحث فيها الحياة وحسب وإنما
يفلسف أحداثها ويسقط عليها آراء في الكون والحياة .

لقد بدأ بالجليل ساهم النظرة تخفيه الغيوم حيناً ثم تنهجا عنه وتشرق
الشمس فما الذي يخفيه من سر الوجود حين يشرق وحين يلفه الغمام ؟
أعندك أيها الجبل شيئاً من أسرار الوجود في حالتك أم أنك مثلنا لا تعرف
كيف المآب ؟ فإذا تغشاك ضباب فنحن أيضاً يتغشانا ضباب ومن ثم يفضل
العقل طريقه إلى الصواب وتستوى لديه الحقيقة والخيال (واستوى الماء
لديها والسراب) لقد امتزجت المياه بالدماء وبدأت صور الكون في
احمرار الشفق وجن الليل على الكون فحار العقل وعجز المنطق أمام ألغاز
الكون فما الدجى ؟ وما النوى ؟ وما سر الحياة ؟ وما امتداد العمر ؟ وما
الموت ؟ وما العقل ؟ وما الفكر ؟ وما المني ؟ أمور شقيت بها النفس وضاعت :

لست تدري مثلنا كيف المآب
أ من حياة يتغشاها الضباب
فضل فيها العقل منهاج الصواب
واستوى الماء لديها والسراب
الدم القاني جرى في مائها
فالمرائي في احمرار الشفق
والدجى ينثر في أرجائها
حيرة العقل وعجز المنطق
ما الدجى ؟ ما النور ؟ ما سر الدنيا ؟
ما امتداد العمر ؟ ما الموت السحيق ؟
ما النهى ما الفكر ما هذى المني ؟
شقوة أمست بها النفس تضيق

ويعود الشاعر إلى وحيه ومصدر إلهامه يعود إلى الجبل مرة ثانية فلماذا
لا ريحه رهو ولا جوه صحو ولا مأوه زلال . فأين يستقر الإنسان ؟ أين

يستقر وهو كالملاح أعجزه أن يرسو إلى شاطئه أى شاطئه حتى لو كان
شاطئه المهول الرهيب ولكن هكذا نمضى منية الإنسان في أمنيته والدهر سجل
للناس كتب بأحرف من نار ونور فالحلو معه المر والخير معه الشر والصراع
قائم ومستمر فإلى أين نمضى ؟ وإلى أين المصير ؟

وإذا كان الدهر سجل يكتب بأحرف من نار ونور فماذا سطر للشاعر
وبجليه أكتب تاريخ ذلك الرعيل بأحرف من نار أم بأحرف من نور إنه
رعيل لم يهتد إلى طريق الحق فليله مسود السرى وصبحه مريد الشروق .

على أن الشاعر لم يشأ أن يعمق تشاؤمه وأن يسير به إلى طريق مسدود
فعاد إلى أضواء الجبل تهادى في الروابي والسهول وتناسى الغمام والضباب
وتمنى لو أشرقت الأضواء في النفوس والعقول كما أضاءت في الروابي
والسهول ثم هو يتمنى من الجبل أن يبعث النور على الأرض لتزدهى الرياض
وينجاب الظلام فالحر وب قد أظلمات الأرض فمتى يروى بها السلام :

عالم لا رنجبه رهو ولا
جوه صحو ولا المساء زلال

أعجز الملاح أن يرسو إلى
شاطئه كالمهول مرهوب المنال

هكذا نمضى ويمضى غيبرنا
بين أيام وأعوام تسرور

والمنسايا جثمت فيها المنى
مثلما تجسم في الأيك الزهور

ياسجل الدهر والدهر سطور
كتبت للناس من نار ونسور

أين نمضى وإلى أين المصير
قد غفا السارى وأعياه المسير

نحسن من نحن رعييل مادي
كيف يستهدى إلى الحق الطريق
كم سهرنا الليل مسود السرى
وشهدنا الصبح مريد الشروق
هذه الأضواء منك انتشرت
تهادى في الروابي والسهول
ليتها لما بدت وانتشرت
قد أضاءت في نفوس وعقول
فابعث النور على هذا الثرى
يزدهى الروض وينجذب الظلام
إن هذه الأرض ظمأى كالورى
فمتى بالله يرويه السلام

إن هذه الوقفة التأملية أمام الجبل واستلهاام العبرة منه بل جعله منطلقا
لنوع من الفلسفة يجمع بين التشاؤم والتفاؤل بين الضياء والغمام بين النار
والنور هذه الوقفة وهذه النظرة بل هذه الرؤية الشعرية الفلسفية إن صبح
التعبير من عيون الشعر العربى السعودى لأن الشاعر لم يتركها بلجفاف العقل
والمنطق بل مزجها بالخيال وبالعاطفة مزجها بالحيرة أمام مظاهر الكون
وأحداثه ما الدجى ما النور ما الفكر وفكر بالصورة فجعل الجبل ساهم
النظرة والشوق يهتف والدنا بيداء استوى الماء لديها والسراب والدهر
سطور كتبت من نار ونور وهكذا . وتحرر من وحدة القافية لا من وحدة
الوزن فجاءت قصيدته كل بيتين منها على قافية ولئن كان ابن هانيء
الأندلسى قد سبق الشاعر إلى تشخيص الجبل فإن الإصالة والارتباط بالبيئة
وبالشخصية السعودية العامة المسألة تجعل قصيدة عيلم مستقلة غير نابعة
ولامقلدة .

وأرعن طماح اللثاوية باذخ
يطاول أعنان السماء بفارب
يلوث عليه الغيم سود عمام
لها من وميض البرق حمر ذرائب
أصخت إليه وهو أخرس صامت
فحدثني ليل السرى بالعجائب
وقال ألا كم كنت ملجأ قاتل
وموطن أواه تبثل تائب
وكم مرّ بي من مدلج ومؤوب
وقال بظلي من مطى وراكب
ولاطم من هوج الرياح جوانبي
وزاحم من خضر البحار غواربي
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى
وطاحت بهم ريح النوى والنواب
فحتى مستى أبى ويغمن صاحب
أودع منه راحلا غير آيب

فالشاعر الأندلسي تصوّر الجبل العالى شيخا وقورا يلبس عمامة سوداء
ويحكى للشاعر قصته فهو مأوى القتلة والتائبين و استراح فى ظله مدلج
ومؤوب وقال بظله المطى والراكب وتعرضت جوانحه لضربات الرياح
وزاحمت غواربه السحب ، والكل قد مضى وهو باق فحتى متى يبقى ؟
لكن نظرة أديب السعودية كانت أعمق وأدق فمن خلال الرؤية الواقعية
للجبل يلفه الغمام حيناً وتشرق الشمس من ورائه حيناً آخر انطلق الشاعر إلى
الحياة والإنسان ولم ينه قصيدته بالاستبطاء والضجر كما أنهاها شاعر الأندلس
ولأنما أنهاها بالتفاؤل والأمل فى أن يبعث الجبل النور على الثرى ليزدهى
الروض وينجذب الظلام فإن الأرض ظمأى وريها فى السلام فمتى يروىها

السلام فالشاعر السعودي حسين ليس تابعاً ولا مقلداً إنما هو ابن ،
بجدها وفارس حليتها عبر عن بيئته وعن شخصيته .

أنا والقمر :

وهذه نغمة أخرى من أنغام الحب العفيف يرددها من « الرياض »
الشاعر حسين قاضي في قصيدة « أنا والقمر (٣) » فالناس جميعاً ناموا إلا
الشاعر والقمر فكلاهما سهران ولكن شتان بين سهر وسهر فالقمر سهران في
أفق حالم حوله النجم يناجيه وفي سراه الهاديء عبر كثيرة ، وفي سناه
الوادع الساجي كثيراً ما التقى العاشقون في ليلتك الأغر وإنك تتخطى القمم
لتحمي الأغصان والزهر ، وترى الجلول الخافق يطرب الضففة من غير
وتر فتحبيه وتمضي والزهر يرنو إليك والشجر هكلدا يسهر القمر :

هجمع الناس ولكن يا قمر
نحن صنوان تألفنا السهر
أنت سهران أبافق إحالم
وأنا سهران في كف الغمير
حولك النجم تناجيه وفي
سيرك الهادي كم تبدو عبر
وسناك الوادع الساجي فكم
لف معشوقين في ليل أغر
وتخطى كل عالي قمة
ليحي كل غصن وزهر
ويرى الجلول يجرى خافقا
يطرب الضففة من غير وتر
فيحييه ويمضي راقصا
معه والزهر يرنو والشجر

هكذا يمضي ليله ساهراً مع النجم والعاشقين مع الأغصان والأزهار
مع الجلول يوقع ألقاه ويرقص هو والقمر على مرأى ومسمع من الزهر
والشجر .

أما ليل الشاعر فمعه الحيرة في شط الخطر معه الأرق والسهر بعيداً عن
إلفه وهواه يسكب العبرات كلما كفكف عبرة جاءه الوجد بعبرة وجدده له
الشوق شتى الذكريات . هكذا تمضي به الأفكار وهو شارد وتسرى روجه
حزينة والهة عل من تهوى ومن عليها تراه بعيون الروح إن عزت الرؤية
بالبصرية .

هكذا ليل الشاعر وهكذا سهره .

هكذا يا بدر : تمضي ساهراً
وأنا حيران في شط الخطر
لا أذوق النوم مما نابى
مغرداً بالسهد إن نيام البشر
بعيدت دارى وإلفى والهوى
يا ماضى يتعننا القسبر
كلما كفكف من عبرته
جساءه الوجد بعبرات أخسر
وإذا قال تولت ذكره
جدد الشوق له شتى الذكر
ومضت أفكاره شاردة
في خضم من أفانين الصور
وسرت روحاً حزينا والهأ
تعبير الكون إلى معنى سفر
عل من تهوى ومن عليها
بين جمع القوم في نادى السمر

تتروى منه حيناً عابراً
بعيون الروح إن شط النظر
هكذا ليلى وهذا سهرى
أيها البدر فشتان السهر

أما الرقة العاطفية فواضحة عند ذلك المعنى السهران وقد بعدت داره
والفهو والهوى وسرت روحه عليها تنظار روح من يهوى إن عز النظر المادى ،
وأما الصياغة الفنية فكفاء هذه الشاعر الصادقة حيث يعبر الشاعر باللون
الوادع الساجى فى سنا القمر وبألوان الزهر وأنغام الجدول ورقصات القمر..
إن القصيدة نبضات قلب ورؤى شاعر فى أعماق نفسه وفى آفاق الكون.
من حوله وقد نام الناس وصبحا هو والقمر .

أما إن ذهبت تبحث والحالة هذه عن أفكار عميقة ومعان دقيقة فلن
تظفر بطائل لأنك أمام شاعر يفضى بمكنون قلبه لا بثمار عقله .

أذكرينى : للشاعر السيد محمد هاشم رشيد :

شاعر متم أضيائه الغرام فطال فى الليل سهاده ، وعزاً فى الأرض مراده
وشجاء وداده وحوم فى آفاق محبوبته فؤاده ومن ثم فهو يطلب منها أن تذكره
دائماً لا منذ الصباح الباكر فحسب بل من السحر وحتى ساعة متأخرة من
من الليل إنه يريد منها أن تجعله أنشودتها المفضلة تترنم بها فى الأسفار
والبكور والأصال وإذا جنَّها الليل .

وهو يرسم لجببته لوحات فنية رائعة منذ أيقظها فى السحر عندما يفتت
النور وما هى ذى متجنية إلى الحديقة حيث الندى نشوان من ضوء القمر
مشرقاً حائراً بين الغصون والثمار والطيور تصدح بألحانها بين أمواج العطور ،
تناغى بالهوى ثغر الزهور ، والضوء ينساب فى الروض النضير ، إن الشاعر
فى قصيدته « اذكرينى »^(١) يطلب من حبيبته فى هذا الزمان وذاك المكان
أن تذكره فيقول :

عندما يفتّر بالنور السحر
والنمدى نشوان من ضوء القمر
مشرقاً كالدمع في جفن الزهر
حائراً ما بين غصن وثمر
فاذكّرني

عندما تصبى لألحان الطيور
وهي تشلو بين أمواج العطور
وتناغى بالهوى ثغر الزهور
والسنا ينساب في الروض النضير
فاذكّرني

تلك لوحة فنية نسج الشاعر خيوطها من الضوء والطير والزهر والعطر
والأغصان والثمار والندى .
ولست أدري سرّاً لذكر الدمع في جفن الزهر حائراً في هذا الجو
الشاعري البهيج ما كان أغنانا عن الدمع والخبرة أمام هذه الطبيعة الخلابة وقد
تصوّر الشاعر حبيبته بين أحضانها وهامو الزهر يرقب عيني حبيبته ويقبل
يديها ، والأغصان مالت للعناق والطيور خنت لالتلاقي وكل ألف راح يبت
شجونه واشتياقه فاذكرى أيتها الحبيبة إلفك ، اذكره وأنت تنجهين شطر
الساقية تحت أفياء الكروم ، حيث عناقيدها تشبه العيون الرانية وأوراقها كأنها
الأكف الحانية :

وإذا ما كنت والزهر لديك
ظامراً يرقب شوقاً مقلتيك
وترفقت فحيلاً ساعديك
ومضى بملاً تقبيلاً يديك
فاذكّرني

وإذا الأغصان مالت للعنساك
وظيـر الروض حنت للتلاق
كسل إلف راح يـنـدى ما يلاق
من شجون وشون واشتياق
فاذكـرني

وإذا يمت شطر الساقية
تحت أفياء الكروم الساجية
والعناقية عيون رانية
والورقيات أكف حانية
فاذكـرني

لقد رسم الشاعر لمحبيته حديقة غناء وأجلسها في هذه الحديقة وجعل
الزهور تحس بجمال عينيها ورقة ساعديها ويديها ، وها هي حبيبته تتجول عند
الساقية وتحت أفياء الكرم تلك كانت صحوة المحببة في حديقته الفنية .

أما في الأصيل ، فتقد سارت والنسيم الرطب ساج في الخميل وإنه ليهفو
نحو تلك الحبية كالصب العليل أو كذلمات رنا للسلسيل ، والشمس مالت
للغروب واحتواها الليل الرهيب فكأنما سلب الدنيا عرشها في هذا الوقت مع
النسيم العليل والأصيل والشمس والغروب اذكـرني .

وإذا سرت تنى في الأصيل
والنسيم الرطب ساج في الخميل
وهنا نحوك كالصب العليل
أو كذلمات رنا للسلسيل.

فاذكـرني

وإذا الشمس تسولت للمغيب
وهسوت في لجة الليل الرهيب

ورثنا العالم للأفق الحبيب

مثل ما يرنو إلى عرش سليب

فاذكريني

فلما جنّ عليه الليل وبدت النجوم في السماء حولها الظلمة تهفو كفؤاد
حائر بين اليأس والرجاء طلب من حبيبته أن تذكره .

وكما أيقظها في السحر أيقظها عند منتصف الليل والكون قد أغنى ونام
غير طير بات بنويه وأكبر الظن أن ذلك الطير هو الشاعر نفسه فقد طال في
الليل سهاده بعد أن عزّ في الأرض مراده وطوى الأيام يشجيه الوداد وصبا
فؤاده نحو حبيبته :

وإذا النجم تيسدى في السماء

حولها الظلمة تهفو والضياء

كفؤاد من نواح وغناء

حائر ما بين يأس ورجاء

فاذكريني

وإذا استيقظت وهننا والظلام

ساكن والكون قد أغنى ونام

غير طير بات ينويه السقام

ويناجي بين جنبيه الضرام

فاذكريني

فأنا من طال في الليل سهاده

وأنا من عزّ في الأرض مراده

وطوى الأيام يشجيه وداده

وصبها نحسوك كالطير فؤاده

تلك حبيبة مدللة تعيش بين الزهور والرياحين وتسير نحو الساقية تحت
أفياء الكروم وتغنى في الأصيل ومع ذلك أيقظها الشاعر في السحر وفي منتصف

الليل لأنه هو يقذفان لا ينام وذلك شاعر لا يطلب من حبيبته أكثر من أن تذكره إنه الحب العفيف إذن وإنها أشواق هائمة لا أقول على رمال الوجد والحزين بل على هام الغصون والثمار وتحت أفياء الأشجار مع السحر والضحا والأصيل والليل ألفاظ الشاعر منتقاة وذات بريق وإشعاع والصياغة الفنية جميلة وشعوره صادق ومن العبث أن نطلب من أمثال هذا الشاعر أفكاراً عميقة وهو هيمان في دنيا الغرام سكران بنشوة العشق .

ياليل :

تتلون الطبيعة عند الشاعر الأصيل بلون نفسه لأنه ينظر إليها من خلال وجدانه ويصاحبها أو يعادها والشاعر الأستاذ عبد الوهاب آشق في قصيدة « ياليل »^(١) يبدي تعاطفاً مع الليل لأنه يرى فيه مباهجه ويراه خير أنيس برغم ظلامه وصمته فالشاعر لا يرهب الليل لظلامه ولا يوحش منه لصمته بل على العكس يرى في صمت الليل فرصة للنجوى والسمر والحديث الهامس الموحى ، ويرى في سكون الليل وهدوئه فرصة للإصغاء لصوت الضمير والخلوة إلى النفس بعيداً عن الأهواء :

ياليل ما بالى وبالك نلتنى
فأرى لديك مباهجى ورضائى
أرهبت غيرى بالظلام وكنت لى
خير الأنيس وأصدق الخالصاء
ولئن صمت فلى بصمتك نجوة
حفلت بدنيسا السحر والإيحاء
أخسلو إليك فلا أرى لسيرتى
حرجاً ولا أخشى لظى الأهواء

فالشاعر عاشق لليل يهوى صمته وسكونه ويرى فيه مجالا للخلوة بالنفس ثم هو بعد ذلك فياض بالمباهج ملىء بصور الجمال فالذين زعموا أن الليل

(١) المنهل عدد ذو القعدة وذو الحجة ١٣٦٦ هـ .

صبغ الحياة بلونه الأسود قد ظلموه ولم يحسنوا التلقى عن الليل وجماله .
في النجوم اللوامع تسرى عن النفس الحزينة وتبثها شكوى المحب النائي
وتشيع في أطوائها حلم الهوى والمنى وطوارق الرجاء .

أما البدر في سناه مفاتن تغرى الخلى بوحيا اللألاء ، وترى نوره يغزو
الفضاء فيفتن الناس على الأرض وفي السماء فتراهم نشاوى بخمر الجمال
وسحره وانظروا إلى الزهور يفوح عبرها بالليل فيبعث شتى الخيلات
والرؤى حين تهبط عليها الأضواء وتجودها النسمات والأنداء .

صور شتى تبش لها النفوس صور النجوم والبدر والزهر والنسيم والندى .
تلك بعض مباهج الليل :

ظلموك إذ لهجوا بأنك راهب
صبغ الحياة بفاحم الأزياء
لا . لا فانت لمصطفىك مسرة
يهب الكلیم أطبايب الآلاء
هذى النجوم لوامع تزهو بما
ضمته من حسن ومن أضواء .
ترجى إلى النفس الشجيبة روحها
فتبثها شكوى المحب النائي
وتشيع في أطوائها حلم الهوى
بين المنى وطوارق البرحاء
وبالبدر يرسل من سناه مفاتننا
تغرى الخلى بوحيا اللألاء
يغزو الفضاء مترنحا في غرة
ترنسو إليه فواتن الخضراء
نشوان من خمير الجمال وسحره
يجلو كؤوس هواه للنسماء .

والزهر فواح العبير لمنم
شئى الروى كفسلائل الحسناء
وسنان يغمره الضياء مشعشعاً
وتجوده النسبات بالأنسداء
صور تبش لها النفوس صواديا
فتعرد رياء بهجة وصفاء

ثم يعمق الشاعر رؤيته الفنية لليل وعشقه إياه حين يجعل الليل ظرف
لغرام ويجعل أسراب المغرمين يلهون بالليل فى صبرة ولقاء يضمهم الليل تحت
جناحه فى حنان ورفق وإشفاق عليهم من الهوى الملهب بين الضلوع
والأحشاء . تراقص أمامهم الآمال فعند الليل أسرار العاشقين فهلا يحدثنا عن
الحب الضائع وما فعلت به أيدى العوادي ؟

وها هو الشاعر يصغى لليل ليحدثه ويروى له أخبار العاشقين فلقد
أطال الليل الصمت والشاعر كله آذان مصغية فى شوق لأحاديث الليل
وأسماره .

يا ليل يا ظرف الغرام وسرايه
يا لهون فيه بصيرة ولقاء
تحنو عليهم والهوى متلهب
بين الضلوع يعيث فى الأحشاء
تراقص الآمال فى جنباتهم
كتراقص الأنسبام فى الإمساء
هـلا تحدثنا عن المهج التى
قصد ضيقت فى الحب كل رجاء
هـلا تحدثنا بما فعلت بها
أيدى العوادي الغبر فى الغبراء

تردنى جوى عما تنوء به
رسل الهوى بين اللوا والبدا
إنى أرى فى البوح بعض علالة
للنفس نهي نخيصة وشقاء
فلقد أطلت الصمت والأذان للأ
صداء فى شرق وفى إصفاء

البناء الفنى فى القصيدة متماسك فقد بنيت القصيدة على فكرة أساسية هى
« مباحج الليل » وقد تمثلت هذه المباحج أول ما تمثلت فى أنس الشاعر بالليل
فالليل خير أنيس وأصدق الخالصاء وهذه الرؤية النفسية أضاعت جوانب
الشاعر وجعلته ينظر إلى بدائع الليل فى النجوم والبدر ونجوى العاشقين ومن
ثم رفض الفكرة المظلمة التى ترى فى الليل رداء فاحماً يغطى الكون وتغلغل
فى روح الليل الساكن الصامت حيث تحلو الخلوة على ضوء النجوم والبدر
وحيث الزهور فواحة العبير ينقل النسيم شذاها فى الأرجاء وفى هذا الجو
الحالم ينصت الشاعر إلى الليل ليحدثه بأحداث الجوى ويبوح له بأسرار
العاشقين . الفكرة الرئيسية ترفدها أفكار جزئية توضحها وعاطفة الفرح بالليل
ومباهجه تسرى فى أبيات القصيدة كلها وتشخيص الليل ومناجاة الشاعر له
ورغبته فى أن يفضى إليه بأسراره وتأتى الصور وليدة هذه العاطفة المتفائلة
فالنجوم لوامع تشيع حلم الهوى ، والبدر نثران من خمر الجمال يجلو
كؤوس الهوى والزهر فواح العبير يبدو فى رؤى شتى كغلائل الحسناء وهكذا .
كل شئ فى القصيدة جميل فكرتها وصورها وعاطفتها ونسقها
الموسيقى فقد اختار الشاعر « بحر الكامل » ليوقع عليه ألحانه وهو من البحور
الطويلة .

التسالودية (١)

جو القصيدة :

في وقت الأصيل حيث مالت الشمس للغروب وأرسلت خيوطها
الذهبية على صفحة البحر الأحمر الزرقاء وقد نسجت عليها ريح الصبا بساطاً
زاهياً جميلاً .

في ذلك الوقت أم الشاعر المجهول مقدم الباخرة (ثالودي) وعلى حافة
ذلك المقدم جلس وحيداً يتأمل هذا الجمال الراقص وتسهبويه مناظر الحيتان
وهي تداعب المركب وتسابقه وتسايره ، وكان من نتائج تلك الجلسة
التأملية هذه القصيدة .

البحر في الأصيل :

أضفت الشمس من سناها ملاء
قزحياً على أديم الماء
وبدا البحر في الأصيل بساطاً
نسجته ريح الصبا للذكاء
أنت يا بحر شبه صحراء زينت
بسرواء يفوق كل رواء
يسرح الطير في جواك فتبلى
مشعل روض في قبعة زرقاء

تعكس هذه الأبيات تصورات عدة للبحر رقت الأصيل إنه يرى
الشمس ترسل أشعتها الذهبية على أديم الماء فيخيل إليه أن الشمس قد نسجت
من سناها ملاء قزحياً غطت بها أديم الماء فهذه الملاء إذن هدية الشمس
للبحر .

ويبدو البحر في هدوئه وعدم اصطخاب أمواجه كأنه بساط جميل فمن
الذي نسج هذا البساط الأزرق ؟ إنها ريح الصبا الحنون وإنها لتقدم هنا

البساط هدية للشمس فالبحر تارة يلبس ملاء قزحيا وتارة يكون كاللبساط إلا
أن الملاء من نسج الشمس والبساط من نسج ريح الصبا .

ثم يسبح خيال الشاعر في البحر الممتد أمام ناظريه بلا نهاية فإذا به يشبه
يصحراء إلا أنها ليست صحراء عادية إنها صحراء صباغها خيال الشاعر فهي
صحراء مزدانة ذات رواء وبها . هذه هي الصورة الثالثة التي رسمها الشاعر
للبحر إنه صحراء مزينة ثم سرح الشاعر بطرفه في أجواء البحر فوقع على خيال
رابع إن البحر حديقة فوقها قبة زرقاء .

فاللوحة التي رسمها الشاعر للبحر عند الأصيل ذات عناصر أربعة :

الملاءة القزحية — البساط الجميل — الصحراء المزينة — الحديقة تحت
قبة زرقاء . وكلها رؤى تسر الناظرين وتبعث البهجة في النفس الراضية ،
وحقا إن الشاعر جلس على صفحة الماء يروح عن نفسه ويستمتع بجمال
الطبيعة ولكن اللوحات التي رسمها ليس فيها شيء من نبض شعوره ليس فيها
خفقات قلبه وإنما فيها إبداع قلمه وإن شئت قلت ريشته التي لم تخرج بمداد
من قلبه فهل ترك الشاعر لوحاته خلوا من نبض قلبه لتذهب فيها كل نفس
مندهبا وتتلقى عنها وحيها . ربما ولكننا نلاحظ أنه رسم الطبيعة من خارج قلبه
لا من داخله .

وعلى كل حال فإن الشاعر بعد أن رسم جو البحر عند الأصيل بدا له أن
يوازن بين عالم البحر وعالم البر فقال :

أنت يا بحر يا شفيف المحييا

غامض النفس غامض الأحناء

إن يك البر مفعماً برياض

وأناس في بهجة وعلاء

فرياض حويتهما وغياض

وأناس ضممتهم في خباء

ليفوقون ماحوى البر منهم

في عديد وفي حياة هناء

ليس فيهم من كرس العمر كشفا
لاختراع يسوقهم للغناء
ليس فيهم من يستبد ويروى
شأنه من كيد الجفاء
يستطيع الضعيف منهم هروباً
من قوى لمعشر كرماء
ويسامى الضئيل منهم اعظيماً
في نعيم بحجوفك المتناثي

يوازن الشاعر بين وجه البحر وقلبه وبين حدائق البر والحدائق السمكية.
وبين الأحياء من البشر والأحياء المائية فيرى وجه البحر شفيهاً واضحاً
لكن قلبه وباطنه لكن نفسه وحنياه كل ذلك يلفه الغموض بيد أنه الغموض
الذي يسبح فيه خيال الشاعر ، ويغوص في أعماقه باحثاً عن الحدائق السمكية
وما فيها من أشكال وألوان فإذا كانت على الأرض حدائق ذات بهجة
وأناس ينعمون في ظلالها فتمة في أعماق البحر الحدائق السمكية وأسماك الزينة
بأعداد وفيرة وفي حياة أهنأ من حياة البشر في حدائقهم الغناء فليس بين
الأحياء المائية مكتشف أو مخترع يصمم آلة من آلات الدهار كما يصنع
البشر ، وليس بينهم مستبد أو كائد . وإذا كان السمك القوى يأكل
الضعيف فإن في البحر مهرباً للضعيف .

وإذا كان السمك العظيم يتسامى في جوف البحار فإن الضئيل فيه ليس
أقل تسامياً من العظيم وفي البحر متسع للجميع .
ولا يزال الشاعر يتأمل صفحة البحر والماء الذي يأتيه من السماء وعلاقة
الإنسان بالبحر قديماً وحديثاً فيقول :

أنت يا بحر كالحديقة تسقى
بمعين من الشعاع السمائي
وجهك الأزرق الشفيف قنـاع
لأمـور جسيمة دكـاء

كنت خلقتا بهابك الخلق قبلا
غضبة منك مرجل الإفساء
وإذا | إبالإنسان | أو هو | إإبي
يستبيح الحمى بأى ازدهاء
فهو اليسوم بمخر الم وهذا
ثابت الجأش مفعماً بالرجاء
لا يبالي بموجيك المترامى
لا يبالي بظلمة وهو
بسفين بحرين طبولا وعرضاً
بيخاراً بحرين لا بالرخاء

إن مياه الأمطار تمد الحديقة وتمد البحر بعد أن تم عملية التبخير المائي .
على أن فكرة نصوص البحر التي أثارها الشاعر في المقطع الذى سبق ما تزال
تلازم الشاعر (غامض النفس غامض الأحناء) هذا بالرغم من شفافية مياه
ومن وجهه الأزرق الشفيف فالشاعر يرى هذه الشفافية قناعاً لأمر جسيمة
دكناء فالبحر كان قديماً مصدر رعب للإنسان ولكن إباء الإنسان أن يخضع
للطبيعة جعله يفكر في غزو البحر واستباحة حماه وتم له ذلك فهو يمحى
عباب البحر ليس في وضوح النهار ولكن في ظلمة الليل وفي شجاعة وثبات
لا يرهب الأمواج المتلاطمة ولا الظلمة الحالكة ولا الريح الزرع
إن السفن التي صنعها الإنسان اليوم تسير بالبخار لا بالريح الرخاء والشرع .
والشاعر يقدم أفكاره هذه في لوحات جزئية فقد جعل البحر كالحديقة ،
ووجهه الأزرق قناعاً ، وغضبة البحر مرجل على أن ثمة صوراً واقعية ذات
حركة ولون فالأمواج المترامية والسفين تجري والظلمة والهواء صور تشاهد
وتحس ولا ينسى الشاعر البانخرة (تالودي) تلك التي أتاحت له هذه الجلسة
الشاعرية التأملية فيخاطبها بأسلوب التعجب قائلاً :

يا لك الله من مليكة بحر
تهبدي في ليله كالضياء

يرعب الحسوت بالهدير المرجى
منك في ضحوة وفي إمساء
ويجاري الدرفيل منك جواداً
سابقاً للجيجاد دون عناء

لقد صورّ الباخرة في صورة مليكة تشع أنوارها في ليل البحر بيد أنه
في البيت التالي جعل صوت الباخرة يرعب الحسوت وفي البيت الثالث جعلها
جواداً يسابق الدرفيل . إن كل بيت من هذه الأبيات الثلاثة يعرض صورة
مستقلة للباخرة لا تندمج من حيث الأداء الفني واتساق الخيال مع سابقتها
فالمليكة لا يمكن أن يكون صوتها مرعباً ولا يمكن أن تكون جواداً فالشاعر
هنا اعتمد على الخيال الجزئي وعلى استقلال الصورة في كل بيت وكان
حريصاً على نقل الصورة الواقعية للباخرة حيث تتلأأ أنوارها وتنطلق
أصواتها في الصباح والمساء وتشق البحر في سرعة فائقة .

إن البواخر في البحار والسيارات في البر والطائرات في الجو كل ذلك
من ثمار العقل والعقل نعمة من الله فليهد الله الإنسانية سبل الرشاد ولينتظم
عقد الإخاء بين الناس ويتجهوا وجهة السلام لا الحرب ليظل البحر كالحميلة
هاديء الريح هادىء الأرجاء لا تكدر صفوه المعارك البحرية .

رب أنت الذى مننت علينا
بعقول حفيظة بارتقاء
فسفين كأنهن قصور
ساريات في اللجج كالكهـرباء
(وسوار) يقطعن في الأرض يبدأ
في انسياب الحوافز الرقطاء
(وجوار) في الجسويرفلن فيه
كنسور حفيضة بالمضياء
فأفض منك رحمة ورشاداً
ينظم الناس في عقود الإخاء

ثم وجهه سفينهم لسلام
ينقذ الأرض من كروب البلاء
واترك البحر كالحميلة رهواً
هاديء الريح هادىء الأرجاء

وواضح في هذا المقطع الختامى اعتماد الشاعر على التصوير الجزئى
فالسفين قصور تسير كالكهرباء والسيارات كالخوافز الرقطاء ، والطائرات
كنسور - وعقود الإنحاء والبحر كالحميلة .

وهكذا رأينا الشاعر فى جلسته التأملية يرسم صورة للجو والبحر عند
الأصيل ويوازن بين أحياء البر وأحياء البحر وبين موقف الإنسان من البحر
قدما وحديثا ثم يلتفت إلى الباخرة التى أتاحت له هذه الجلسة ويرى فيها وفى
غيرها ثمرة من ثمار العقل ويتمنى أن يسود السلام ليعيش الناس فى أمن
بعيداً عن البلاء والكروب .

لكن حب الشاعر للبحر أو كرهه له وفلسفته للموقف كل ذلك
لا تفصح عنه القصيدة اللهم إلا ذلك الشعاع الضئيل فى وجه البحر الشفيف
ذلك القناع الذى يخفى وراءه أمورا جسيمة .

(وتالودية) عبد القدوس الأنصارى تجعلنا نذكر على الفور مقدمة
(كبار الحوادث فى وادى النيل) لأمير الشعراء أحمد شوقي :

همت الفلك واحتواها الماء
وحداها بمن تقل الرجاء
ضرب البحر ذو العباب حوالب
سها سماء قد أكبرتها السماء
ورأى المارقون من شرك الأر
ض شباكاً تمسدها الدماء
وجبالا موانجها فى جنال
تسدجى كأنها الظلماء

ودويًا كما تأهبت الخبيث
كل وهاجت حماتها الهيجاء
لجنة عند لجنة عند أخرى
كهضاب ماجت بها البيداء
وسفين طوراً تلوح وحينئذ
يتسولي أشباخهن الخفساء
نازلات في سيرها صاعيدات
كالموادى يهزهن الحماء
رب إن شئت فالفضاء مضيق
وإذا شئت فالمضيق فضاء
فاجعل البحر عصمة وابعث الرحمة
فيها الرياح والأنواء
أنت أنس لنا إذا بعد الآن
س وأنت الحياة والأحياء
يتسولي البحار مهمما ادلمت
منك في كل جانب لألاء
وإذا ما علت فذاك قيام
وإذا ما رغت فذاك دعاء
فإذا راعها جلالك خرَّت
هيبة فهي والبساط سواء
والعريض الطويل منها كتاب
لك فيه تحية وثناء
يا زمان البحار لولاك لم تف
جمع بنعمي زمانها الوجناء
فقدماً عن وندها ضاق وجهه الـ
أرض وانقباد بالشرع الماء

وانتهت إمسة البحار إلى الشر
بق : وقام الوجنود فيما يشاء
لقد ألقى شوقي هذه القصيدة العصماء في المؤتمر الشرقى الدولى المنعقد في
جنيف في سبتمبر ١٨٩٤ م وكان مندوباً للحكومة المصرية فيه .
والقصيدتان : تنمقتان في الوزن والقافية فكلتاها همزية وكلتاها من بحر
الخفيف .

فاعلاتن مستفعـلن فاعـلاتن

فاعلاتن مستفعـلن فاعـلاتن

وشوقى تمخر سفنه عباب البحر الأبيض ذى الأمواج الكثيرة بينما ،
الأنصارى يجلس على مقدمة الباخرة (تالودى) الراسية في البحر الأحمر ذى
الأمواج القليلة . فلك شوقى تسير ويحيط بها الماء من كل جانب والبحر
شباك للمارقين وجبال تموج في جبال وللمجج متتابعة (بلجة عند بلجة عند .
أخرى) وللسفن دوى كصوت الخيل في الهيجاء ، والسفن تظهر طوراً
وتختفى آخر فتز قلب الشاعر فلا يجد إلا الله يطلب منه أن يجعل البحر عصمة
وأن يبعث الرحمة فيها الرياح فالله هو الأنس . إن عز الأنس والبحر آية من
آيات الله (والعريض الطويل منها كتاب) وعصر البحار قضى على عصر
الإبل صور شوقى متحركة وهو خائف من البحر ومن ثم جعله شباكاً
وفزع إلى الله يطلب رحمته ويتضرع إليه .

رب إن شئت فالفضاء مضيق

وإذا شئت فالمضيق فضاء

. موضوع القصيدتين واحد إلا أن الأنصارى جلس على شاطئ البحر
الأحمر يرسم لوحة شعرية كما يرسم الفنان اللوحات الزيتية بينما كان شوقى
كالملاح يقظ يرقب البحر وقد احتوى الفلك فيرصد حركة البحر وحركة
الفلك ويجد نفسه بين البحر والسماء فتلوث نفسه خشية الله . وقصيدة شوقى
رأت النور قبل قصيدة الأنصارى باثنين وخمسين عاماً فقد نشر الأنصارى .

قصيدته في أغسطس ١٩٤٦ بينما ظهرت قصيدة شوقي في سبتمبر ١٨٩٤ م
وأكبر الفان أن الأنصاري كان يرنو بإحدى عينيه إلى قصيدة شوقي وبالعين
الأخرى إلى (تالودي) وإلى البحر الأحمر وربما هاجت شاعريته حين قرأ
قصيدة شوقي لكن رؤيته للبحر تختلف عن رؤية شوقي فنفسه هادىء وهو
في حالة استجمام وبحره يلبس ملأ قزحيا وهو بساط نسجته ريح الصبا أما
بحر شوقي فهائج ذو عباب وأمواج كالجبال لها دوى والسفن نازلات
صاعدات ولا تكون البحار بساطاً إلا بفضل الله :

فإذا راعها جلالك خسرت

هيبة فهي البساط سواء

والأنصاري يذكر الأحياء المائية والحدائق السمكية وليس عند شوقي
شيء من ذلك .

والأنصاري يذكر السيارة والطائرة وشوقي لا يخرج من البحر ولا يفارق
الفلك وكلا الشاعرين يطلب الرحمة من الله يطلبها شوقي وهو في عرض البحر
فيقول :

فاجعل البحر عصمة وابعث الرحـ

مة فيها الرياح والأنواء

بينما يطلب الأنصاري الرحمة وهو جالس عند الشاطئ يرى في إخاء
العالم رحمة فيطلبها من الله .

فأفـض منك رحمة ورشاداً

ينظم الناس في عقود الإخاء

وعلى كل حال (فالتالودية) قصيدة جيدة تضاف إلى روائع الأنصاري .

أحلام الربيع للأستاذ طاهر الزمخشري :

يمثل هذا الديوان صفحات من الغزل العنيف مشبوب الحماسة موصول
النفس في غير كبح . جيش العاطنة في غير قدسية مترع بمواقف الهوى :

يمثل ذلك وصفته الصحافة السعودية (١) فهذا الديوان الغزل إنما يذكرنا
بمذهب قديم من مذاهب العشاق كمذهب عمر بن أبي ربيعة شاعر الغزل
الطليق عقاب الشوادن ، رصاد الظباء في بادية المبحاز مربع الحان والغزلان
ولكنه أيضا يقطع السبيل على الشعراء العذريين أمثال كثير وجميل وغيرهما
من شعراء الفقه والتوحيد فنحن نرى الشاعر شفيف الشباب فصاح الإهاب..
حيث يقول :

لا تعطني القسح المصنى .. مترعاً

بل هات ثغرك أهدا الأغيد

فطفقت أطوى حضره وفى إلى

فمه الجميل يعل منه فيرفد

فالمادية فيه طبع غلاب وعنده الحب فم على فم يعل منه ويتهل ، وهو
إن ذهب أحياناً إلى الهوى العذرى يتستر خلف نقابه فضحه الهوى والهوى
فصاح وظهت المادية ترفرف عليه بأجنحة من نار لا نور فلنسمع إليه.
يقول :

وفى حرم الهوى العذرى

تسلاقى الصندر بالصندر

وطوقها من الحصر

وقبلها على النحر

وهكذا يطوف الشاعر ما شاء له الهوى في مغاني الجمال ومرايع الصبوة
والصبايا حتى يلتقى عصاه في تخامة المطاف ويسلم سلاح الهوى المنهوك وينشد.
الفرار من جحيم الغرام .

جنة الحسن كبل مافيك حلو

وجميل إلا التجنى فسر

أنا من هام فاستبجاج التشكى

والهوى.. جامهم فأين المفر.

(١) المنهل : عدد شوال ١٣٦٦ هـ من مقال للأستاذ جبران أسعد المصري..

ومنى كان الشعراء فراراً ؟
ولكن الفراشات كما يقولون - حياتها النار - فهي أبداً تعود وتعود
ولا تسلو العود كالشاعر المفؤود:

فعديه على الوفاء لكيلا
ينشر الدمع شاكياً في القصيد
واملى جـوه الكئيب حنانا
فلقد حن للهوى من جديد

فهذه صورة غزلة مجملة من صور الديوان تعرض طيوفاً مختلفة وألواناً
متباينة من الهوى المنغوم ومن الإبداعية الشعرية والخيال الطليق .

يا حب من أنت

بحار الشاعر محمد عبد القادر فقيه في أمر الحب فيتساءل (يا حب من
أنت ؟) ولكنها حيرة خفيفة لا تصطرع منها الشاعر ولا تطول صحبة
الشاعر لها .

ففي البيت الأول من القصيدة تكمن الفكرة الرئيسية للقصيدة فالناس قد
اختلفوا شيئاً في أمر الحب وضلوا السبيل فيه . ثم فصل الشاعر بعد ذلك
ولكنه أول ما فصل عرض صورة لذلك الحب المذنف فهو مشرد النوم
مسلوب النهى جزع يهذى بأحلام وآمال وأخيلة ويجرى وراء السراب في ياته
حافلة بالرؤى والسحر وقد قنع بهذه الحياة وأعجبه سحرها فاعتزل الناس .
ولا شك أن هذه صورة للحب العذرى يخلق في عالم المثل :

يا حب ما أنت ما للناس قد جهلوا
معناك واختلفوا ما بينهم شيعاً
ضلوا السبيل فما ينفعك مدنفهم
مشرد النسيوم مسلوب النهى جزعاً

يهدي بحلم وآمال وأخيلة
ومسترع من سراب عنده تبعاً
حياته بالرؤى والسحر حافلة
بسحرها عن حياة الناس قد قنعا
كأنما الحب ألقى في بصيرته
غشاوة ملأت أبصاره خدعا

ولا شك أن الذي أملى هذه الصورة على الشاعر وجعلها تطفو أولاً
على سطح عاطفته وفكرته هو عدم اقتناعه بها وسخريته من يتخذها له
مذهباً حتى إنه جعل الحب يلقي في البصيرة غشاوة تعمي الرؤية وتطمس
معالم الحياة مع أن الصحيح أن الحب يلقي في البصيرة شفافية تحرق الحجب
وهذه التي افتتح بها الشاعر قصيدته أصبحت في عالم اليوم صورة نافذة
عزيزة المنال لأنها صورة يدوية عفيفة أصداق نموذج لها قيس بن ذريح وكثير
عزة وجنيل بثينة والصورة التي غلبت على الأدب العربي هي صورة الغزل
الحضري الذي أوضح معالمه عمر بن أبي ربيعة ثم يتساءل الشاعر عدة
تساؤلات متناقضة فهل الحب أسمى أم فرحة وباقية من زهر أم مارج من نار
تدين له الدنيا أم لا تدين وهل الحكيم من أحب أم من لم يحب .

قوم شقوا بالحب وآخرون سعدوا به . فالذي يغار على من يحب يشبه
في غيرته حمم البراكين يود تدمير الدنيا وإشعالها ناراً :

ياحب هل أنت في قلب المحب أسمى
أم فرحة وأمان بينهما زعماً
أم باقية من رياض الخلد ناضرة
أم مارج من لظى التيزان قد نزعاً
وهل تدين لك الدنيا بنصرتها
أم لا تدين بغشير الدمع منهثها

وأحكم الناس من لم يستلذ هوى
أم أحكم الناس من في الحب قد وقعوا
وما لقوم لقوا في الحب شقوتهم
وأخبرين تنضي جهنم متعنا
وما لغيران قد ثارت حفيظته
كأنها حمم البركان نندلعا
يود لو دمر الدنيا وأشعلها
ناراً وأرسل فيها الموت والهلعا

وبعد هذه الحيرة الخفيفة التي هي أشبه بخبرة المراهقين منها بخبرة
الفلاسفة والعاشقين يصل الشاعر سريعاً إلى بر الأمان فلن ينخدع بسراب
الحب .

هيات يا حب بعد اليوم نخدعي
منك السراب وتملي منهجتي طمعاً

أما وحدة القصيدة وتماسكها فأمر لا شك فيه فالشاعر حدد فكرته عن
الحب في البيت الأول من القصيدة ثم فصل هذه الفكرة في بقية الأبيات ،
وأما عاطفته نحو الحب فهو ساخر منه منذ البيت الأول وحتى الأخير فالذي
يقول للحب ما أنت ؟ ثم يقول في ختام القصيدة مخاطباً الحب :
هيات نخدعي منك السراب

الذي يقول هذا لا يمكن أن يكون قلبه مطمئناً بالحب .
وأسلوب الشاعر سهل واضح منوع بين النحبر والإنشاء مما بعث فيه
حيوية وتدققاً وإن كانت بعض عباراته غير مستساغة لابتدائها مثل : في
الحب قد وقع) ومثل منهما في البيت الثامن .

واستعان الشاعر بالصور لا يرايز فكرته وعاطفته فالحب مشرد النوم
مسلوب النهي والحب باقة من رياض أم مارج من لغى وهكذا .
وعلى كل حال فتجربة الشاعر ساذجة تدل على أنه مبتدئ في الفن

والحب لم يتحمل وطأة الحب فقهر سريعاً كالطائر المذخور وأجمل ما عنده
الصدق في التعبير عن شعوره وفكره وهذا يجعلني أترقب منه تطوراً وتحولاً
تحو الأفضل في عالم الشعر .

فجر سعيد

إذا كان الشاعر محمد عبد القادر فقيه قد رأى الحب سرايا وقال :

يا حب هينات بعد اليوم تخدعني
منك السراب ويملي مهجتي طمعاً .

فإن الشاعر حسن عبد الله القرشي يسير في عكس الاتجاه فالحب كل
شيء في حياته فإذا فقد كل شيء وإن ملك الدنيا بعد ذلك ففي (فجر
سعيد^(١)) يقدم لنا إحدى تجاربه العاطفية وفي البيت الأول من القصيدة
تكن الفكرة الرئيسية وتأتي الأبيات بعد ذلك مفصلة لها مينة الأفكار
الجزئية ممزوجة بمشاعر الفنان وأحاسيسه فالشاعر يرى أنه لو حاز كل شيء
إلا محيا حبيبته فكأنه لم يحر شيئاً فحبيه كل شيء في حياته هو فجره وحبوته
ونشيدته ونعيم عمره وهو قصده في الخيال واليقظة والمنام لقد ترقق الحبيب
في كيانه وأصبح جزءاً من وجوده لا غنى له عنه :

كل شيء إلا محياك عندي
لا شيء عندي
هو فجري وحبوتي ونشيدتي
وهو نغمتي
هو لي صدحة البلابل تشدو
لحسن ودي
وهو عندي نعيم عمري يهدي
عطري ورد

في خيالي في يقظتي في منامي .

أنت قصدي

أنت وجدي مرققا في كياني

أي وجدي

وتزيد تعلق الشاعر بهذا الحبيب الذي ملك عليه أقطار نفسه فيفديه بحياته حين يراه باسمأطروباً ويناغيه في أحلامه ويستطيب لثم خده ويرى ريقه عسلاً مصني وفي بريق عينيه ومضاً يقدح زناد حبه أما نبض النهد فقد هزه وجعله فنانا عبقرياً وأما القوام المزمر فقد أطل مهبه .

.. الابتسامة . القبلة . الريق الحلو . بريق العينين . نبض النهد . القوام الرقيق . من خلال هذه الجوانب الحسية تبلو لنا علاقة الشاعر بمن يهوى . وتبتلوا لنا سعادته بقربها وفداؤه لها بحياته . هذه لحظات القرب وأوقات اللقاء والصفو فكيف به إن أعرض عنه حبيبه وهجره . كيف به إن حيل بينه وبين هذه المتغ الصارخة ٩ .

إن نفسه تفرع إن أشاح عنه حبيبه ويخفق فؤاده لبعاده فمن الذي سيروى . حنين روحه إنه ليس أهلاً للهجر والصد فهو صلب يرفض الذل والتحدى . ويطلب الوصل والود فهما ربه وفجر سعيه .

تفرع النفس إن رأيتك مشيحاً

رهن حق

ويلسج الفؤاد بالحنق إما

رمنت بعدي

ليس يجدي إن أفتقدتك عرى

ليس يجدي

من سيروى حنين روحى لهيما

من سيروى

ياحيى ما كنت أهـلاً لهـجر
أو لصـنـد
لأنى الصب يرفض الـذل قـيـداً
والـتـحـسـد
فتعـال ارونى بوصلـى يغنى
فـجـسر سـعـسـدى
ولو دى الـدى عـرفت قـدـمـسـا
هـسـو ودى
ولست أدري ما يقصد الشاعر بالبيت الثالث من هذه الأبيات .
ليس يـجـدى إن افتقدتـك عـسـرى
ليس يـجـسـبـدى

فماذا يقصد بالعـرى ؟ أهـو العـرى الـدى يأتـيه الرـجل حين يغـشى المـرأة ؟
إن صـح هـذا كان فـحشاً من القـول وهـجر ا و كان قـمة من قـمم الإباحية أم أنه
يقصد العـرى من كل شـىء إن افتقد حبيبـه فـيكون هـذا البيت تـكراراً للبيت
الأول أم أن ثمة خطأ مطبعياً فى كلمة عـرى وضوايه عـمـرى ويكون البيت
هـكذا :

ليس يـجـدى إن افتقدتـك عـمـرى
ليس يـجـسـبـدى
ومن ثم تساءل الشاعر بعد ذلك :

من سـيروى حـنـين روخى هـيفـسـا
احتمالات عدة وأكبر الظن أن المعنى الأخير هو المراد وأن فى البيت
خطأ مطبعياً

ونلاحظ أن فى المتن « أورد هذه القصيدة على أنها من الشعر الحديث
وقد تصرف الشاعر فى توزيع تفاعيله فالقصيدة من بحر الخفيف جاء الشطر
الأول على تفاعيله الثلاثة .

فاعلاتن مستعملن . فاعلاتن

ليس يجدى إن افتقدتكَ عـرى

أما الشطر الثاني فتفعيلة واحدة .

ليس يجدى

فاعلاتن

فالشاعر إذن قد تصرف في الأوزان القديمة ولم يترك قصيدته بلا وزن
فهو موحدة الوزن موحدة القافية وليس على الشاعر من حرج فيما ذهب
إليه فمن حقه أن يجدد موسيقاه لأن الموسيقى نابعة من أعماقه ممتزجة بمشاعره
وهو لم يتنكر لقدمه بل استفاد منه وطوره .

الشعر المنشور :

موضع النقد لهذا اللون من الشعر كما يقول الأستاذ محمد على قطب (١)
ونحن نؤيده هو في تسميته « فلماذا اختاروا له اسم الشعر مثلاً » وهو أقرب
إلى النثر الفني في عباراته وتنسيقه منه إلى الشعر ؟

أما أنصار الشعر الجديد فينبرون للدفاع عن الشعر الجديد وتعليل
إطلاق ذلك الاسم عليه بقولهم : « إنك تجد في الشعر الجديد صفات ومميزات
لا تجدها في النثر الفني فكل عبارة فيه تطوى في نفسها معاني واسعة وخيالاً
خاصة وهذا ما ترمز إليه النقاط المتعددة بعد كل لفظ أو عبارة وإنك ترى
لكل شطر جرساً خاصاً به لا تشهده في النثر الفني البسيط التركيب المحدود
الفكرة ، وتوافر كل تلك الصفات فيه جعلته أشبه بالشعر منه بالنثر ، وليس
من عجب أن يعتبر شعراً جديداً وهو يختلف عن الشعر القديم المعروف
وإن اتفقا من حيث توافر مميزات الشعر وأهدافه ومعانيه ، وإننا لنجد كثيراً
من المتعصبين للشعر الموزون المقتفى من ينكز في بعض القصائد المنظومة
صلتها بالشعر لافتقارها إلى الخيال والرقّة وحسن الوقع ، والشعر الجديد في
تحرره من الوزن والقافية لم يتحرر من المغزى واللباب البلى تنسم به حقيقة
الشعر » .

والعجيب أن يزعم هؤلاء المدافعون أن النثر الفنى بسيط التركيب محدود الفكرة ولو قرأوا نثر ابن المقفع والجاحظ وأبي حيان التوحيدي فى القديم وفهموا بما قرأوه وتذوقوه لما زعموا هذا الزعم ، ولو أنهم قرأوا أيضا نثر طه حسين وأحمد أمين وتوفيق الحكيم فى الحديث وفهموا ما قرأوه وتذوقوه لما زعموا هذا الزعم . إن ما يرمون به النثر الفنى من سذاجة وفكر محدود لا صلة له بالحقيقة فالنثر الفنى صانع الأفكار القيمة وإن شئت الدقة فهو الميدان الأول لبسط الفكرة وتحريرها وفلسفتها يتسع فى كل ذلك لما يتسع له الشعر فالشعر يرمز إلى المعانى ويوحى بها ومن ثم فهمى محدودة فى الشعر غزيرة عميقة كثيرة فى النثر الفنى ولعلمهم أدركوا صلابة الشعر القديم واستقصاءه على الهدم وصموده لكل المحاولات الهدامة واستمساكه فى قوة واقتدار عبر العصور فحاولوا أن يكسبوا هذه الخاصية لشعرهم فزعموا أنه يلتقى مع الشعر القديم فى المغزى واللباب .

ويقول الأستاذ عبد القدوس الأنصارى عن الشعر المنشور (١) :

الشعر المنشور ضرب من الشعر ولكن هل هو ضرب من الشعر العربى ؟ هذا هو محك الخلاف فالبعض يرى أن الشعر المنشور ليس من الشعر العربى وليس فى الشعر العربى القديم نموذج للشعر المنشور وإنما الشعر لدى العرب هو ما التزم القافية والوزن ، والنثر ما التزم عدم الوزن وقد يكون ذا قافية وهو ما يسمى النثر المسجوع فى مقابل النثر المرسل والنثر المسجوع فى الأدب العربى قريب من الشعر ولذلك كانوا يستعملونه فى المواقف المهمة فى الخطب الحربية والاجتماعية وفى الحكمة وما إلى ذلك ولكنهم لا يسمونه شعراً إنه لنثر لديهم وحينما أراد العرب أن يعاندوا فى القرآن المجيد وقد اطمأنت نفوسهم من قرارها إلى أنه فوق مستوى أبلغ بسلامتهم

(١) المنهل خلد جهادى الأول ١٣٧٧ هـ من الحديث للأستاذ عبد القدوس الأنصارى بعنوان

(أدبنا فى معترك الآراء) .

بكثير ولم يريدوا أن يعلنوا ذلك للناس لأن فيه تصديقا للرسول عليه السلام بأن القرآن المجيد كلام الله ولذا جاء معجزاً . حينذاك فتق لهم شيطان مكرهم وعنادهم تسميته تضليلاً بالشعر وما هو بشعر حتى في مصطلحهم .

إن الشعر المنشور مقتبس من اللغات الأجنبية الشرقية والغربية التي لا تتقيد بما يتقيد به الشعر العربي اصطلاحاً ومن هذه الزاوية زاوية الاقتباس من الآخرين لا نعارضه بل نراه لوناً أدبياً جديداً أوجده الاختلاط بالشعوب الأخرى .

يقول الدكتور طه حسين : « وما الذي يمنع شعراء هذا اللون من أن يتأثروا بالشعر الغربي وهو مريح لا يكلفهم تعباً ولا عناء وهو في الوقت نفسه يخيل إلى الشباب أنهم يقلدون الشعراء الغربيين ويجددون في الأوزان والقوافي » .

إن هذا الحديث يلقي ضوءاً على سر من أسرار تهافت الشباب على هذا اللون من الشعر لقد خيل إليهم أنهم يقلدون شكسبير ولامرتين وموليير وغيرهم وكأن ليس لنا نحن العرب شعراء أمثال هؤلاء ولكنها عقدة تقليد المغلوب للغالب .

إن الشعر يقدم الفكرة في إيجاز وإيجاء بينما النثر يسهب ويطنب في عرض أفكارها وبسطها إذ ليست له قيود من الوزن أو القافية تحد من انطلاقه وتعوق انسيابه والشعر عاطفة جياشة تغمر الكون والحياة والإنسان وتسبح بهم في عالم من الرؤى والأطياف وتقدم لهم أنماطاً من الصور الفنية البديعة إن الشعر يخاطب في الإنسان قلبه وشعوره أولاً وقبل كل شيء بينما النثر يخاطب عقل الإنسان وينمي فكره ويثرى معلوماته . ومن ثم فالكلمة المفردة تؤدي في الشعر من العواطف مالا تؤديه في النثر إنها في النثر تحمل فكرة وقد توحى بعاطفة ولكنها في الشعر تحمل عاطفة وقد تحمل فكرة .

في ضوء هذه الحتمات الفنية ننظر في فنون الأدب عندنا فنجد فريقاً من الأدباء يحملون نفوساً شاعرة وأقلاماً ساحرة فإذا كتبوا قطعة نثرية حملوها

بالمزيد من العواطف والصور والإيحاءات حتى تكون شعراً في معناها دون
مبناها أو كما اصطلاح على تسميتها في عالم الأدب الشعر المنشور ، وقد عرف
الأدب السعودي هذا الاتجاه الشعري عرف الشعر المنشور شعر العاطفة
السامية والفن الرفيع .

وداعاً أيتها المناظر الخالدة

للشاعر المجهول : عبد القدوس الأنصاري :

جلس الشاعر في أصيل يوم جديد فوق هضبة سلع التي تشرف على أجمل
مناظر المدينة وأمتعها حيث الأراضي الذهبية الفيحاء . وحيث المناظر
الحميلة الدكناء ، وحيث البساتين الزمردية الغناء ففاض فؤاده بهذه المقطوعة
التي هي فيض من نبع روحه المتأثرة إن للشاعر في المدينة ذكريات راسخة
عاطرة فهو مرتبط بها كل الارتباط يرتبط بأماكنها التاريخية تنية الوداع
وجبل أحاء ، ويرتبط بحرارها الرابضة في أكتاف المدينة يرتبط بالنخيل
والآذن والوديان . ويرتبط بالإنسان في المدينة ارتباطاً وثيق ولذا كرر
الحديث عن ذلك الإنسان فتحدث عن الرفاق المتزهين ، وعن الأنحلاء
المدلفين وعن الأصدقاء المتجمعين .

إن هذا الحب العميق فاض به قلب الشاعر فأخذ يبدى فيه ويعيد فهو
يفصل الحديث أولاً ثم يجمل حين يقول :

وداعاً أي ثنية الوداع
وداعاً أيها الراكب المحبون
تغدون إلى المدينة وتروحون إلى العيون
وداعاً يا جميل أحسد
ياذا المنظر الجميل
والهواء العليل
وداعاً لشعابك الناضرة
ذات العنبر الطيب
وداعاً لماء غراسك العذب الصيب .

وداعياً أيتها الحرار الرابضة
في أكناف المدينة كما تربض الأسود
ترسل نظراتها في المساء والصباح على
هذه المناظر الجذابة فتكسبها بريقاً
ولمعاناً وجاذبية وإشراقاً
وداعياً أيتها الرفاق المتنزهون
تسيرون في الأصائل جماعات ووحداً
حول هذه الضواحي القيعاء
وداعياً أيتها النخيل المصفوفة
اصطفاف الحسان في انضر بستان
وداعياً أيتها المآذن المشرقة البيضاء
الذاهبة صعداً في السماء
وداعياً أيتها الأودية الذهبية
التي إذا فاضت بالمياه فاضت
معها الحيرات، وقامت على سوقها النباتات
وداعياً أي وادي بطحان
وداعياً لتدفقك الجميل
وانسيابك في البكرة والأصيل
وداعياً أيتها الأخلاء المدلفون
في شوارع المدينة وأزقتها
وداعياً أيتها الأصدقاء المتجمعون
في دور المدينة وقصورها

وبعد هذه الصور التفصيلية الموقعة على أوتار قلب الشاعر نراه يختم
المقطع بما يعد تلخيصاً له وذلك إذ يقول :

وداعياً أيتها البلدة الطيبة المباركة الغراء

إن هذا المقطع يرقى عن أسلوب النثر الفني إلى أسلوب الشعر بما فيه

من إيقاع وتصوير لأن العاطفة إذا غمرت قلب الشاعر فإنه يرى أن الأسلوب
النثرى لا يقوى على حملها ومن ثم يغنى ويصور فالركب المحبون يغدون
ويروحون إلى العيون فتكرار النون على هذه الشاكلة يعد موسيقى داخلية
ظاهرة .

والمزاوجة بين المنظر الجميل والهراء العليل أيضا موسيقى داخلية ظاهرة .
كما نلاحظ الموسيقى بين الشهاب الناضرة ذات العرف الطيب وماء مهران
العذب الصيب ومظهرها الازدواج الطيب والصيب وهكذا والشاعر
يعتمد على أنواع من الصور صور متحركة تبدو في الركب المحبون تغدون
وتروحون وفي الرفاق المتزهون تسبرون في الأصائل .. وصور ذات ألوان
كالآذن المشرقة البيضاء والأودية الذهبية .

وصور خيالية مثل التشبيه في الحرار الرابضة في أكناف المدينة كما
تربض الأسود .

والنخيل المصفوفة اصناف الحسان في أنضر بستان .

ففي هذا المقطع العاطفة الجياشة والإيقاع الجميل والتصوير البديع
ومن ثم رقى إلى عالم الشعر .

وفي المقطع الأخير يتحدث الشاعر عن بواغث وداعه الحار للمدينة
الطيبة إنها الذكريات اللامعة الراسخة العاطرة المغروسة ، ومن ثم صاغ
الوداع سبيكة ذهبية أنيقة من حبة فؤاده . على أنه حين يقول وداعاً أيتها
المناظر الخالدة فهو لا يعنى الوداع بالمعنى المفهوم وإنما وداد خالد مستديم :

إن الذكريات اللامعة الراسخة في أعماق الفؤاد .

وإن الذكريات العاطرة المغروسة في جوانح القلب المكشوم . لن تذهب
سدى، ولن تضحل أبداً .

وهذا الوداع هو سبيكة ذهبية أنيقة صيغت من حبة الفؤاد لتطوق جيد
الحياة .

فليس هذا في الحقيقة وداع بالمعنى المفهوم وإنما هو وداد خالد مستديم .

ونلاحظ أن الشاعر يخالف القواعد النحوية في قوله : ليس هذا في الحقيقة وداع والصواب وداعاً .

وعلى كل حال فالقصيدة متماسكة فهي ذات موضوع واحد هو مناظر المدينة الخالدة ، وذات جو نفسي واحد هو تعاطفه مع هذه المناظر وحبه الدائم لها ، وهي بعد مجموعة من اللوحات الفنية يكمل بعضها بعضاً وتعبر عن إعجاب الشاعر بها وتعلقه الكبير المستديم .

الشعر الفلسفي والتأملي — (دمة)

فلسفة الآلام :

الشاعر إنسان موهوب مرهف الحس رقيق الشعور ومن ثم يكون إحساسه بالآلم أعمق فإذا تدافعت نحوه الخطوب أهاجت شاعريته ونفسه والشعراء والحالة هذه أصناف فمنهم من يهرب من هذا الواقع المرير فيرتحى في أحضان المرأة أو الطبيعة أو الخمر ومعظم الشعراء الرومانسيين من هذا الصنف على تفاوت بينهم في الإحساس بالآلم وما ينتج عنه من تشاؤم قليل أو كثير ومن الشعراء من يعتزل الحياة وآلامها كما صنع أبو العلاء فمماذا صنع الشاعر السعودي أمام سيل الآلام الجارف ذلك ما تفصح عنه قصيدة « دمة »^(١) للشاعر إبراهيم هاشم فلالي إن الأستاذ إبراهيم قصاص أولاً وشاعر ثانياً ومن ثم جاءت قصيدته أشبه بقصة موضوعها الآلام والمصاعب التي يتعرض لها الشاعر واعتمد فيها على الحوار الأفلاطوني حيث أجرى الحديث بينه وبين حبيبة خيالية أسماها ليلي وهي فتاة مسلمة يبلى في تفكيرها أثر الإسلام وضحاً وكان لحديثها أثر في تفكير الشاعر ونفادته إلى الحياة وآلامها .

فالشاعر مفزع يحف به الخطر وتآتمر به الأرزاء كلما خطا نحو العلاء ردد القدر فحياته دمة الأيام المنهرة . إنه يحاول الصمود دون جدوى فكلما تغلب على كرب تجددت له كرب فهو في كفاح مستمر وهو صابر

وقد أصبحت الكروب لعبته كأنها الأكر فكورة وثانية وثالثة وهكذا إلى
ملا نهاية وكفاحه لم يثمر فقد خانه الحظ ولكنه ما عاش حديد ينصهر مرة
بعد أخرى .

أعيش . يحفى . المطبـ	بي الأرزاء تأتمـ
أمد إلى العلا خطوى	فيرجع خطوى القدر
كأنى دمعنة الأيننا	م تدرفها فتندر
صمدت لسكربى فأبت	صروف الدهر تنحسر
إذا ذلت إحداها	أثنى بعدها زمـ
أكافحها فيدهنى	كيز خلفها خطر
سلو الأرزاء لو نطقـ	لقلت إننى صبر
ألقاهـ فالفها	كان جموعها أكـ
ولكن خائنى حظنى	ولم يسعدنى الغفـ
عجبت لنا جد هزأت	بخس بلائبه الغـ
فرد تعجبنى أنى	حديد عشت ينصهر

وفى لحظة من لحظات الضعف الإنسانى حاول الشاعر أن يهرب من هذا
الواقع المرير ويغرق آلامه فى الكأس تقدمها له ليلاه . ولا تعجب إذا ذكرت
الكأس والمرأة من أديب سعودى فهو أولا بشر يخطئ ويصيب وثانيا
ينبغى أن نطيل النظر إلى كأسه جيداً فليس بلازم أن تكون كأس خمر بل
هناك شىء مهم جداً هو ليلاه التى عليها يغنى لأنها لا تقدم له سوى الرخيص
ولنما تقدم له الحب العفيف إن ربح الكأس عطر وإن مدامها شهد وإن فتاته
ذات دل وخضر وصوت ناعم حلو وطرف زانه الحوار ولكنها حكيمة
متزنة ترطب لسانها بذكر الله وإنها لتسأل صاحبها فى تعجب ودهشة :
أتأس ؟ فأين الله والقدر ؟ أين إيمانك والحياة كلها عبر وإنها لتضرب له
الأمثال بالغيوث الكثيرة تبلعها البحار فلا يبدو لها أثر ، وبعد ذلك تخرج
الدور من أعماق البحار . إنها ليست فتاة لعوباً ولكنها فتاة مسلمة رزان

حصان توقظ في قلب صاحبها حب الله والإيمان بالقدر لتدفع عنه اليأس
الذي ياني منه .

فهيأت الكأس باليأس
ففيها الأنس والحر
فمست كفيها نحوى
بكأس ريجها عطير
كأن مداهبها شهد
مصرى بدار خضر
وقد قالت لتسليتي
ونخفف سورتي الحفر
وصورت ناعم حنلو
وطرف زائمه الحور
هي الأيـام والعـبر
وأمر الله متظـلـر
أتيأس أن تـرى فرجـاً
فأبين الله والقـدر ؟
ودنيا الناس لو فتشـ
ت دنيا كلهم عـبر
فكم غيث مـبين الإعصـا
ر بسـين اللـج ينهمـر
ومـنـوج البحـر يلعـه
فلا يـسـدو لـنه أثر
وبه تـد المكث في الأعمـا
ق كم تبـادو لنا درر

ولكن الشاعر المعذب ما تزال جراحه تنزف وآلامه تفرعه فيرفض
ضرب الأمثال من ليلاه ويذكر لما أنه خبير بالبشر فكم عظمته إشاعات

كاذبة ، وكم من سديد الرأي . يسفه رأيه أناس كالبقر ، وكثيراً ما يتأمر
الحبشاء الماكرون على الطيبين الطاهرين كتأمر الذؤبان بالقفر على الجمال ،
وكثيرون هم أولئك الأراذل الذين ينعمون بالحياة مثلهم مثل الأنعام والحمير
تتمرغ على الخز ، وكثيرون هم أولئك العظماء الذين يغفل الأحياء شأنهم
ولا يعلمون من أمرهم شيئاً ولا يقدرونهم حق قدرهم وإن مثلهم مثل الكنز
في جوف الصخر فالصخر لا يعرف قيمة الكنز وكأن الشاعر يأسى من تنعم
الحمقى والجهلاء وشموة العلماء والمفكرين .

فقات معارضها ليل
كمين بالرجع يتل
دع الأمثال ياليل
فإني بالورى مخبر
فكم نجم يغيبه
ضباب البحر والبسك
وكم حر سديد السرا
ى لهم يخطىء لسه نظير
إذا ما قال فصل القسو
له سفه رأيه البقير
وكم جميل بمقبرة
بسه الذؤبان تأتمر
وكم خسر تمرغ فـ
قه الأنعام والحمير
وكم كنز بجوف الصخر
ر لهم يخفل ببه الحجر

وكان الشاعر يندب محظه التعس وعدم تقدير المجتمع له وإن شئت فقل
عدم تقدير المجتمع لأهل الحمقى والرأى والفكر والأدب اللباب بينا الحمقى
والسفهاء ينعمون بطيبات الحياة لأنها لشورة مكبوتة تحاول أن تنفجر ولكن

فتاته تهوّن عليه الأمر وتكبر فيه النبوغ والعبقريّة بيد أنها تذكر له أن ثمن
المجد غال وأن ما يعانيه من آلام وأشجان إنما هو نوع من الاختبار وأنه
لا يفوز بالمجد والعلا في آخر الشوط إلا الصابرون وكان لقولها أثر لدى
الشاعر :

فـقـنـاـلت بـعـيـدـمـا سـكـتت
وكنـان لـقـوـلـها أثـر
ألـم تـعـلـم بأن الحـمـم
سـر للـعـيـبـاء مـدـخـر
فـلـا تـعـجـب إذا حـسـير
مـن الأـحـداث يـنـعـصـر
فإن التـسـنـنـير بـعـيـد الصـهـر
سـر في التـيـجـان يـزـدـهـر

أجمل ما في القصيدة هذا النموذج المثالي الفريد للمرأة المسلمة الجميلة ذات
الدل والخفر والإيمان والفكر الميزن ترد يائسا إلى الصواب وتكبح جماح
ثورته مالمالكلم الطيب دون أن تغض من قدر من تهوى وجميل أيضا أن
يستجيب الرجل لنصيحة المرأة حين يتبين له وجه الإخلاص والصدق
والحق ، وجميل في هذه القصيدة أنها تذهب بمشاعر الرجل وانفعالاته إلى
الذروة حين يحفه الخطر من كل جانب وتأتي صروف الدهر أن تنحسر ولكن
أجمل منه أن يكون ذلك الرجل حديدا صهرته الأحداث ثم تكون لديه مسكة
من عقل يستعيد بها رشده وصوابه فيدرك فلسفة الآلام وأنها ثمن المجد وأن
العظيم يخرج من محنته نقيا صافيا لم تغير المحنة مبادئه ومثله كالذهب يصهر
بالنار فلا يتغير لونه .

وهكذا نرى أن ثورة الشاعر السعودي لا تنفجر فهو كبشر يأسى ويتألم
لما يجري حوله من خلل في التقويم والتقدير ولكن اتزانه وإيمانه يعصمانه من
التهور والاندفاع الماهر على أنه يجد من أحبابه من يبذل النصيحة في صدق
وإخلاص ومن يرده إلى الجادة جادة الحق والرجاء والإيمان .

محاورة نفس — محمد حسن في^(١)

جو القصيدة :

يؤرخ الشاعر لميلاد قصيدته ويذكر تاريخها فيقول :
هذه قصيدة قديمة جديدة ، قديمة لأنى نظمها منذ أمد بعيد ، وجديدة
لأنى عاودت نظمها أو استذكّارها على الأصبغ بعد أن فقدت الأصل
فأحببت استنساخ صورة عنه فهي لذلك حرب بن الذاكرة والذسيان ، وقد
حرصت على ما فيها من اضطراب سببه بعد الشقة بين النظم والاستذكّار
ليبقى للقصيدة طابعها الأصيل وهو صدق الإحساس وحسبى بهذا الطابع
من زخرف وتنسيق لا يغنيان في شيء والفكرة الموجهة في القصيدة هي
الصراع بين العاطفة والعقل وقد عبر الشاعر عن هذا الصراع بأسلوب الحوار
الداخلي الذي أجراه بينه وبين نفسه الأمر الذي أعطى القصيدة موسيقى
داخلية خفية وإن شئت فقل أحاطها إلى لون من الموسيقى الداخلية وبعث فيها
الحركة .

وأمنية الشاعر أن يعرف الطريق إلى نفسه فعندها الأمانى والأحلام وهو
لا يزدري نفسه لأنها تحب « فالزارى على الحب متعب » بيد أن الحب قد
يسبب لها الموهنة وهو يريد لها الإباء والنفس يتنازعها الجوى ولكنها لا تستطيع
السلوان ومن ثم فالشاعر يحذرهما من بطش الغرام فإنه يسبب لها العطب .
ويدعوها إلى واحد من اثنين : إما أن تحب وترضى بحكم الحب : وإما
اليأس من الحب ، وهي إن اختارت الأمر الثاني فإنها باختيارها لا تبعد
عن الحب « فاليأس في الحب مذهب » الكرامة والحب محور هذا المقطع من
القصيدة فلما أن تصون النفس كرامتها وتبعد عن الحب وإما أن تقبل بأمر
الحب . وقد استهل الشاعر قصيدته بهذا المقطع .

الكرامة أو الحب :

ياى أمانيك الحبيبة تغلب
وأى سيىل من هراك تقرب
لـ أن الأماني تستجيب لطالب
لكنت أماني التي أطلب
وما أنا بالزاري عليك بما جنى
ولا لك فالزاري على الحب متعب
ولكن نفساً ما تطيق مهانة
ينازعها فيك الإباء فتعيب
أقول لها يانفس قد هلك الجوى
وليس إلى السلوان ماعشت مذهب
حذاريك من بطش الغرام وهوله
فإن له بطشاً إذا هم يعطب
حذاريك قد أعذرت يانفس مرة
وأخرى وهـل إلاك من يتعذب
أفيئ فلما الحب ترضين حكيمه
ولما النوى واليأس في الحب مذهب
أفيئ فما تجدى المماذير ربهـا
غداة الهوى رب يطاع ويرهب

وإذا كانت النفس قد هدها الجوى، ومع ذلك فليس إلى السلوان مذهب
فكأن الحب وحكمه قد تغلب على كرامة النفس وإياها . ومن ثم رفضت
النفس نصيحة الشاعر وليس ذلك فقط بل هى أخذت منه موقف المتمتع
الراغب وقد صور الشاعر موقفه بالصياد يحمل حباله وطعمه وترى النفس
منه ذلك فتأخذ حذرهما ترنو إلى الطعم ولا تقرب حذراً من الصياد ومن
ثم فالمخاطرة ما تزال قائمة بينه وبين نفسه :

فتأبى على النفس نصحي حماقة
كأنى طلبت النفس ما ليس يطلب.
كأنى وإياها حباله صائد
وصيد حذور. ساغب يتذبذب
يمد له الصياد. أشراك قانص
صبور فما يدنو وما يتنكب.
يرى الطعم ريانا فيرنو. بطرفه
إليه ويشنيه الحذر فيهرب.
فلا هو بالواني ولا الصيد غافل
ولا الطعم مأكول ولا الصبر ينضب
ورب نصيح أوردته برغمه
نصائح نارا بها يتقلب

لقد ضم الشاعر إلى هذا المقطع ذلك التشبيه التمثيلي الرائع الذي زاد من حركة الحوار والذي أبرز موقف الصياد بين الشاعر ونفسه ينصحها فتأبى. ولكنها ترنو إليه وهي مستمرة في مذهبها الغرامي تهوى وتسلو صباة ومالال. حب وشكوى من الحب كل يوم صبوة جديدة ، ومن ثم فهي أهواء مختلفة الأشكال والألوان والشاعر غير راض عن هذا المسلك الغرامي فما يستوى محب وفي ومحب متقلب ، وإذا لم يكن الوفاء في الحب فضيلة فكيف يكون المهجر ذنبا وترى النفس أن المرء إبان حبه يتناسى كرامته :

أتهوى فتردني وتسلو منى انقضت
لبساتها أو لاح في الجور كوكب
صباها ما تنقضي ومالها
عجيب وشكواها من الحب أعجب
لها كل يوم صبوة مستجدة
يشايعها طبع عليها مسرب.

شكولا من الأهواء عانيت كلنا .
مضى مطالب منسباً تجدد مطلب
إذا لم ترى أن الوفاء فضيلة
فكيف ترين هاجريك تذنبوا
فما يستوى في الحب قلب معذب
وفي وقلب كالحسراي قسلب
وقد يتناسى البرء إبان حبه
كرامته فالذل في الحب يعذب

والشاعر الثاني من البيت الخامس صياغته قلقة « فالهاجريك » غير فصيح
إن لم نقل غير صحيح لاجتماع معترفين على معرف واحد أما المعرفين « قال
والإضافة » وأما المعرف فهاجد « كذلك استعمال الفعل تذنبوا بمعنى أذنبوا
غير فصيح من حيث الاستعمال ولم يرد في اللغة تذنب بمعنى أذنب وربما
كان الصواب حليفه لو قال :

(فهجرك لا عتب عليه ولا ذنب)

أما أن البرء يتناسى كرامته إبان حبه فهذا ينطبق على الحب الحسى وإن
ثبّت فقل على حب الشهوة وعلى النقيض من ذلك يقول أحمد رامى :

أصون كرامتى من قبل حبي
فإن النفس عندي فوق قلبى
رضيت هوانها فيما تقاسى
وما إذلالها في الحب دأبى
ولكنى أردت هوى عفيفا
ورمت لك الدنيا من كل قلب

على أن الشاعر محمد حسن فى لم يوفق حين أجرى هذا البيت على لسانه :
« وقد يتناسى البرء إبان حبه كرامته » فإنه يناقض قوله من قبل :

ولكن نفساً ما تطيق مهانة
ينازعها فيك الإباء فتعتب
وكنت أفضل أن يجرى البيت « وقد يتناسى المرء ... على لسان النفس
ويكون مكانه قبل البيت الأخير .

وحين ينقل هذا البيت إلى مكانه المقترح نرى حديث الأبيات بعده
يلتحم مع حديث الأبيات قبله فالبيت الذي قبله هو :

فما يستوى في الحب قلب معذب
وفي وقلب كالخرايى قلب
والأبيات بعد بيت التناسى للكرامة تقول :
وللحب رهط يكتوون بناره
فيطربهم مثل الخبوس التلهب
شجيون ما عاشوا مدينون للهوى
وما مطلوه الدين إن جاء يطلب
ضماثرهم رهن لديه فإن جنى
عليها فقد يحنى المدل المحب
سواء عليهم شقوة وسعادة
ويأس وتأميل وطل وصيب
فإن ترضخى فالحب فردوس عالم
وإن تشمسي فالحب كرب مطنب
وريثا تجرى العواطف والنهي
إلى غاية يرضى بها المتعصب

فهذه الأبيات تحليل وتفصيل للقلب المعذب في الحب فرهط المحبين
يكتوون بنار الحب ومع ذلك يطربون لأنهم مدينون للهوى وضماثرهم رهن
«لديه وسواء عليهم الشقوة والسعادة واليأس والأمل وقليل الحب وكثيره

يرضيه . والنفس بعد مخيرة إما أن ترضخ للحب فتعيش في فردوسه وإما
أن تأتي فتعيش في كرب .

وأما قول الشاعر :

فريثاً تجرى العواطف والنهى ...

فكلمة ريثاً ثقيلة في النطق أخف منها « ولربما تجرى العواطف والنهى »
وإجراء البيت على لسان الشاعر غير دقيق لأنه لا يتفق مع اتزانة ونصائجه أما
النفس المتساهلة فترى العواطف والنهى يجريان إلى غاية واحدة رمن ثم
فمكان البيت في المقطع الأخير من القصيدة على لسان النفس تخاطب الشاعر
وتختتم به القصيدة .

ثم نصل إلى لب القصيدة في الأبيات التالية :

وقلت لنفسي للرجولة سحرها

وللحسن سحر لا يقاوم مغرب

مشى في ركاب الحسن قلب مضلل

فناصبه العدوان عقل مجرب

غرائز تطويها الميسول عنيفة

وأحلام موتورين الما يغلبوا

صراع ضحاياها تسيّل جراحها

وليس لها من حومة الحرب مهرب

وما كبرياء العقل إلا هزيمة

ملفحة مادام للنفس مأرب

ذرى الطيع حراً تسريحي ومحمدى

عواقبه فالقيت للطبع مغضب

وقلت لها يانفس ما الحب عاراً

ينوء به المنخوب وجداً وينكب

ولا الهجر رهوباً ولا الخسف مخزياً

ولا الصوم يفتال الهناء ويسلب

بأعنف من قلب خلى تهافتت
عواطفه وانجباب عنها التوثب
فما بهجة الدنيا وما روعة المنى

إذا الناس لم يشقوا ولم يتعذبوا

محور الارتكاز في هذه الأبيات هو الصراع بين القلب والعقل فلمن
كانت الغلبة ؟

الواقع أن تكرين الإنسان على هذه الشاكلة معجز فالنفس لها مآرب
كثيرة لا تكاد تنقضى والقلب يسحره الحسن وللإنسان غرائزه وطباعه
فهو يترك القلب يهيم في وادى الحسن وتنطلق الغرائز بلا حدود ؟ فما قيمة
العقل إذن ؟ وما قيمة العقل المجرب وإذا كان الحسن يسحر القلب فالرجولة
والمروءة والفضيلة أمور كلها تسحر العقل ، ومن ثم يكون الصراع :

مشى في ركاب الحسن قلب مضلل
فناصبه العـلـوان عقل مجرب

صراع أزلى أبدي مادام للعقل تجاربه وللنفس مآربها ، ولولا هذا
الصراع لما كان العلم والحكمة فهما من ثمار العقل المجرب ، ولولا مآرب
النفس وسير القلب في ركاب الحسن يتبع الجمال لما كان أدب ولا فن
فلترك الطبع الإنساني والفطرة الإنسانية تسير دون أن تنضج في طريقها
الخارج والحدود تجرب العقول وتهوى النفوس وتنفق القلوب بالحب
والجمال ويحتك العقل بالقلب فهجة الدنيا وروعة المنى في ذلك الصراع
وما ينتج عنه :

ولست أدري كيف تجتمع البهجة والروعة مع الشقوة والعذاب في
قول الشاعر :

فما بهجة الدنيا وما روعة المنى

إذا الناس لم يشقوا ولم يتعذبوا

وأكبر الظن أن الشاعر يقصد أن الصراع بين العقل والقلب لذيد وأنه

يجعل الحياة محبة إلى الناس لأنه يدفعهم إلى الحركة واتخاذ مواقف معينة في الحياة .

وأكبر الظن أيضا أن الشاعر يميل مع الطبع والغريزة وإعطائهما الحرية المطلقة (فالقيد للطبع مغصب) وأن كبرياء العقل هزيمة مادامت للنفس مأرب فلتأخذ النفس حظها من الحب ولتتحمل نيران الهجر وقسوة العشق فذلك أهون من أن تترك القلوب خواء من العاطفة والحب هذه هي نظرة الشاعر إلى النفس نظرة ملؤها النصيحة والشفقة على النفس والضمير بها على الهوان وتصوير النفس في هواها وسلوانها وتحمل المحبين لنيران الحب ، ومحاولة البعض وقف تيار الحب العارم بسلطان العقل المحترَّب وزعم الشاعر بأن كبرياء العقل هزيمة مقنعة والخير في ذلال الحب بالرغم من متاعبه . فمتاعبه سر الحياة . قال الشاعر كل ذلك لنفسه وهو يحاورها فماذا قالت له النفس :

فقلت لي النفس اللجوج ألا ارعوى
فما أنت إلا شاعر تكذب
فسؤادك مشبوب الخيال مجنح
وفكرك مهوور الحقيقة مترب
تخيَّرت ورد الحب هيسان صاديا
وما ورده إلا السراب الخيب
ولو كنت مشدود العزيمة حاذقا
تهش وإن كنت العديد وتلعب
إذا لجت الأشجان لجت حتوفها
وإن عبث الهجران جادُ التجنب .
لخالفك التوفيق في الحب واستوى
لديك نفار كاذب وتجنب .

فكن خادعاً كالحب واجن قطوفه
طروباً فما يجدى الأسى والتقطب
وكسـن مرحاً كالطير إن صدَّ إلفه
تبدله والحـب خزيان ينـسـدب
وكن نحلة تغشى الرياض وتجتنى .
أزاهيرها منهومة ثم تذهب
كذلك يشقى المرء بالنفس راغماً
وتشقى به والغى كالرشد يـحـلب

إن النفس تحلل صاحبها وترسم معالم شعوره وتفكيره فهو شاعر وأعذب
الشعر أكذبه وإذن فهو يتكذب هو صاحب فؤاد مشبوب العواطف وخيال
مجنح وفكر مبهور وهو يريد حباً عفيفاً يرى الوفاء للمحب فضيلة ولكن
النفس تدعوه إلى حب واقعي وإلى معاملة المحبوب بالمثل إذا عبث المهجران
تجذب الحبيب وإذا كان الحب خادعاً فليلبس ثياب الخداع وتضرب النفس
الأمثال للشاعر في صور تشبيهية جميلة : فكن خادعاً كالحب — وكن مرحاً
كالطير — وكن نحلة تجنى الأزهار ثم تذهب .

والبيت الأخير يلخص الموقف كله فلغى سحره وللحسن سحره
وللرشد سحره — وللرجولة سحرها — وللعقل سحره وتجاربه ويتجاوز الغي
والرشد والعقل والقلب في ذلك الهيكل البشرى الذى يكون ميدان الصراع ،
ومن ثم يشقى المرء بالنفس وتشقى النفس به .

كذلك يشقى المرء بالنفس راغماً
وتشقى به

إن حديث الإنسان عن نفسه صعب وإفضاؤه بما في دخیلة تلك النفس
ليس بالأمر اليسير ومن ثم كانت المحاوراة التي أجراها الشاعر بينه وبين
نفسه من أنجع الوسائل في تحليل الشاعر النفس والتعبير عن خلجاتها وإبراز
كوامنها .

فهبل نقد هذه القصيدة تحليلاً لنفسية الشاعر محمد حسن فقي ؟ لا سيما وأنه حرص على استذكار القصيدة واستقبالها من عالم النسيان في صدق وإخلاص. علم ذلك عند الله أولاً ثم لدى الشاعر وفي بطنه ولكن القصيدة على أقل تقدير تصور مرحلة من مراحل المعاناة عند الشاعر ولكن هذه المعاناة لم تتأزم شأن كل أنواع المعاناة والصراعات في الأدب السعودي فلم يلبث الشاعر أن أنصف نفسه من نفسه « كذلك يشقى المرء بالنفس راعماً وتشقى به » .

وهو شاعر فنان ومن ثم انتصر للنفس والقلب ولم ينتصر للعقل :

وما كبرياء العقل إلا هزيمة

مانعة ما دام للنفس ——— أرب

إن هذه القصيدة تمثل اتجاه الشاعر السعودي إلى داخله يستنطقه ويقرأ صفحاته ويعرى حناياه والتجربة الشعرية التي صاغها الشاعر تقدم صورة نفسية كاملة ذات موضوع واحد هو الصراع بين القلب والعقل ومن ثم فنهى نموذج إنساني لكل من كان له قلب يعشق وعقل يجرب ، وهذه سمة من سمات الخلود في الشعر .

فراق — للأستاذ محمد حسن فقي (١)

يبدو أن الحوار الداخلي في القصيدة سمة فنية محببة إلى هذا الشاعر العظيم فضلاً عن النفس الشعرى الطويل وهو في هذه القصيدة يطالعنا بحوار جديد عن الفراق وفلسفته بعد أن أمتعنا « بمحاوره نفس » .

فالشاعر يذكر ألم الفراق ويتمنى ألا تطول أيامه وفي هذا الجو الحالم تتدافع الذكريات فيذكر أحلامها إنها ذكريات الطفولة البريئة ولكن ذلك لن يمحو الفراق ولن يؤجله وكان موقف مشحون بالمواقف والانفعالات إنه موقف الوداع وكان للشاعر مع صاحبه حديث حول فلسفة الفراق والحب والحياة رأى صاحبه أن البين يذكي الفراق أما هو فإنه لا يرضى إلا بالواقع ولا يتعلق بالسراب فليس صوفي المهوي فيقول له صاحب إن الحياة

حرب وسلام وسعادة وشقاء وربما كانت لذتها في ذلك وهذه النظرة
لاحظناها عند الشاعر في قصيدة « محاورة نفس » :

وعلى أى حال فإن تحليل القصيدة يوضح لنا أبعادها ومراميها .

فالفراق مرٌّ على القرب فكيف به على البعد ولكنه واقع لا محالة ومن
ثمّ فعلى الإنسان أن يوطد نفسه على ذلك ولكن هذا فاق شاعرنا ومن ثمّ تمنى أن
لو كان قد تداركه كما تمنى أموراً أخرى تمنى أن يكون قد عرف النوى
قبل أن تعرفه وأن تكون أيام الفراق قصيرة فقال :

فراقك يشجينا وإن كنت دانيا

فكيف وقد أمسيت تطوى الفياض

وكيف وقد أمسيت دونك (عيلم)

يرد حديد الطرف غرثان صاديا

ألا أيهذا الراحل اليوم ليتنى

توثقت من أمسى فلم أخش آتيا

ويا أيهذا الراحل اليوم ليتنى

عرفت النوى من قبل عرفانها ليا

ويا ليت أيام الفراق قصيرة

كأيام لقينا قصارا حواليا

الإحساس بالحسرة والألم طابع هذا المقطع وقد بدا ذلك واضحا في
صور الشاعر وتنظيم عباراته فهو يرنو ببصرة في عالم الرؤى والأخيلة إلى
صاحبه وقد طوى الفياض كما تطوى البسط وإذ ليتابعه ببصره ولكن الجبل
« عيلم » حال دون الرؤية إنه يزد حديد الطرف غرثان صاديا إن الطرف كان
يريد أن يشيع من رؤية ذلك المفارق وكان يود لو ارتوى ولكنه جاد جائعا
ظيآن .

ويبدو ندم الشاعر وحسرتة من الفراق في تمنيه لو أنه توثق من أمسه
وعرف النوى قبل أن تعرفه وتمنيه أن يكون الفراق قصيرا كما كان اللقاء

قصيراً . وتنويع الأسلوب بن الخبر والإنشاء يناسب تنويع الحياة بين اللقاء والفراق وقد بدا الندم والحسرة في قوله : فراقك يشجينا « في هذه العبارة الخبرية التي توحى بألم الفراق ومرارته والتي اتخذها الشاعر نقطة انطلاق حيث جمعت خلاصة رأيه في الفراق إنها العنصر الفكري الرئيسي الذي سيشرحه الشاعر ويفصله فيما بعد . كما تمثل الندم والحسرة في الاستفهام « كيف » وفي التمني « ليت » وفي أداة الاستفتاح « ألا » وفي نداء الراحل . ثم يخفف الشاعر من هذا الألم بذكر أيام الطفولة وإن كانت حلاوتها تزيد في الأسى إنه يذكرها وهو بين الفرحة والفرحة بما كان فيها من براءة وصفاء والفرحة لانقضائها إنه يقول :

أتذكر إذ كنا صغيرين نلتقي
غبيين لا نبدى الحياة كما هي
خليين إلا من هوى متبادل
عزوفين عن دنيا تجن اللواهي
بريشين لم يخطر بخاطرهم
هوان الهوى أو يركبا الحب غاوي
درجننا على فجر الهوى وضحاته
ولما يجد منا قلباً وتجاوينا
وسوف نرى بعد الغداة أصيله
وليس يرى إلا رضاء وتصافيا
وأحمد حب أن تكون محييا
وأن لا ترى فيمن تحب مضاهيا

هكذا كان حب الطفولة ساذجاً بريئاً لا يعرف ما تخبئه الحياة إنما هو حب طاهر عزوف عن مطامع الدنيا وهذا أحمد حب . والشاعر حين يذكر حب الطفولة البريئة يأسى على انقضائها وقد غلب أسلوب الخبر على حكاية هذه الذكريات الحلوة التي بدأت على فجر الهوى وضحاها وغداته وأصيله .

خالية من الهوان والقلى والتجافى وليس فيها إلا الرضى والتصافى .

وبعد هذه الاستراحة العاطفية التى أضاءت جوانب النفس بحب الذكرى .
تنبه الحبيبان على وافع الوداع فتعانقا وانهمرت منهما الدموع وتعطلت لغة
الكلام لحظات وتكلمت لغة العيون « فرجعت فيه الطرف ترجيع مشفق
ورجع فى الطرف وسنان حالما » : ثم عادت لغة الكلام وتمنى الشعر لو
يقبل الفراق فدية إذن لقلدى حبيبه برورحه ولكن هذا الحبيب يذكر له
أن الفراق يذكرى الغرام فما ينبغى لك أن تلقاه بنفس حزينة فستحمد منه
الشجو والوجد والبأس والحبيب يخشى الفراق عند التلاقى لكنه عند الفراق
يأمل اللقاء :

ولما تعانقنا وحنان افتراقنا
بكى وحبت الدفع فانهل آيسا
فكفكفت من دمعى وكفكفت دمع
وقال ارعوى إني سأرجع ثانيا
فرجعت فيه الطرف ترجيع مشفق
(ورجع فى الطرف هيملى ظاميا)
ورجع فى الطرف وسنان حالما
تطوف به الذكرى فيرتد صاحيا
فقلت لو أن البين يرضى بفدية
ويقصر عنا كنت بالروح فاديا
فقال أليس البين يذكرى غرامنا
ويشعل حباً كان بالقرب خائيا
فمالك تلقاه بنفس حزينة
وعين سكوب وهنو يلقاك حائيا
ستحمد منبه الشجر يشرف بالمى
على جنة ما دمت فى الشجو فائيا

ستجمد منه الوجد. يلقاك عاصفنا
فتلقاه طوداً لا يززع راسياً
ستجمد منه البأس يلقاك كاشراً
فتلقاه بساماً بحالك راضياً
إذا خفت من بعد اللقاء قطيعة
فإنك إن فارقت ترجو التلاقي
وإن خفت في القربى من الحب سلوة
فإنك لا تلتى من البعد ساليا

هذه كلمات فنان مصور يصور بالحركة حركة العناق وبالنظرة المشفقة
والحانية ونلاحظ أن القصيدة في البيت الثالث من هذا المقطع ذكرت
الشطر الأول ولم تذكر الشطر الثاني فأكملناه نحن هكذا .

ورجع في الطرف هيمان ظامياً

ولا ندرى لماذا حذف هذا الشطر ودار جوار بين الحبيبين عن الفراق
أعذاب هو أم غرام يراه الشاعر عذاباً « فقلت لو إن البين يرضى بفدية
ويراه الحبيب إذكاء للغرام » وهي رؤية شاعر فنان لأن الحرمان يولد الفنون
والإشباع يميت الفنون . وفضلاً عن التصوير بالحركة والنظرة كما ذكرنا
غثمة تصوير جزئي فالبين يذكى الغرام ويشعل الحب كأنما هو نار الحب
المقدسة وهو يلقاك حانيا وأنت تلقاه حزينا وهكذا .

بيد أن الشاعر لا يؤمن إلا بواقعية الحب لا بصوفيته لا يريد واقعا
مريراً وإن أعقبه الفرج يخاف من الآلام ويحب اللذة الحاضرة فلهوى عنده
ليس هجراً ووصلاً ولكن قرب ووصل دائماً ، لا يؤمن إلا بواقعية الحب
ولذة اليوم لا الغد وقد كان ينعم بقرب حبيبة ولذا فهو لا يقوى على بعباده
إنه يرفض الحب الأفلاطوني الذي يرفع بصاحبة في عالم المثل ويدعته يتشوق
إلى غاية لا تنال ولا قيمة للخب الذي لا يغنى مشاعره بل يحطمها ويريه
عذاب الهون وإنما هي واحدة من اثنتين إما أن يقضى الخمر كالطير تشاديا أو
يقضيه كالبوم ناعياً وقد اختار لنفسه الأولى فقال :

فقلت له إني امرؤ أمقت الدجى
وإن كان صبحي خلفه متوارياً
أخاف من الآلام ما كان ماثلاً
وأهوى من اللذات ما كان ثاوياً
أريد الهوى وصلاً وقرباً فإن يعد
قلبي وبعاداً لم أكن منه صالحاً
إذا لم أنل من واقع الحب بنيتي
فما ضرني ألا أنال الأمانيا
وأني لا أدري أحيى إلى غدد
وأدرك مما قد أجن مرادياً
أتترك يوى حافلاً بمسرتي
وأرقب يوماً قد تحجب نائياً
لقد كنت رياناً فأصبحت ظامئاً
وقد كنت شعباناً فأصبحت طاوياً
ولست بصوفى الهوى متشوق
إلى غاية ترمى بنفسى المرامياً
ولا دنف مستغرق في عماية
ومعتق حباً يشيب النواصياً
صرير متى يزجر عن الحب خائباً
يقبل في الغد المأمول ألقى جزائياً
وما نفع حب لا يغلب مشاعري
ولكنه يسطو عليهن ضارياً
يريني عذاب الهون إن جئت ضارعاً
فإن رحت غضباناً تسبج داعياً

إذا لم أقض العمر كالطير شاديا
فسوف أقضى العمر كالبوم ناعيا

وطال بالحبيبين الحديث ثم أفاقا بعد أن صرفا في ذلك وقتا طويلا تمنيا
لو صرفاه في تساقى كؤوس الحب ، وقد أزمع الركب المسير ومع ذلك
فكلام العاشقين لا يعمل ولا سيما في لحظات الوداع وتلك حبيبة الشاعر تذكر
له أن تلك سنة الحياة وصال وهجر وحرب وسلام وأن الحياة لو لم تكن
كذلك لكانت بغیضة ومن يطلب السعادة لم يكن خليقا به أن يتعالى عليها ،
وأنا نعرف طعم الحلاوة إذا ذقنا المرارة ، وأن الحياة الرتيبة تسبب الضجر
للإنسان ، وكذلك حالات الفراق وحالات اللقاء تمنع حياة المحبين الدفء
والحرارة فالنقيضان في الحياة يتعاقبان رضي وسخط وحلو ومر ووصل
وهجر .

ولكل من النقيضين سحره وجماله وإن كان سحر السخط أقسى
وسحر النوى أقوى من سحر الظلام ولكن إذا أظلمت دنياك فارتقب السفا
وافترق الحبيبان فانهارت لحظات السعادة تلك ولم يعد من رجاء لا في نظرة
معسولة ولا في كلمة حلوة ؛ وتلقى العاشق درسياً في الحب هو أن الهوى ليس
هيناً على القلب حتى يلهو به الإنسان .

فقال صرفنا الوقت في العتب ليتنا
صرفناه تزويداً لنا وتساقيا
هلم فإن الركب أزمع سيره
(وهذا نذير البين في الأفق باديا)

ولا تتفلسف فالحياة بغيضة
إذا لم تكن حرباً وسلاماً تواليا
ومن رام نشدان السعادة لم يكن
مخليقاً به نشدانها متعالياً

إذا لم تذقك الحادثات — رارة
فإنك لن تستطعم الحلو هانئاً
ستضجر من نغمي الحياة رتيبة
وتشتاقها لونا من البؤس كابياً
وتألف حالات الفراق فتتهى
من الحسن أن يزور عنك ملاحياً
فالسخط سحر مثلما يسحر الرضا
وإن كان سحر السخط أقسى معانيا
إذا أظلمت دنياك فارتقب السنا
فإن السنا مازال يتلو الدياجيا
وغادرنى فأنهار ما كنت راكناً
إليه وجافانى الذى كنت راجياً
وعلمنى حيله أن ليس هيناً
على القلب أن يهوى كما شاء لاهياً

وقد ترك الشاعر الشطر الثانى من البيت الثانى فأتممناه كما بدا لنا
والقصيدة من الوجهة الفنية متماسكة البناء وأفكارها واحدة وموضوعها واحد
والجو النفسى الذى يسودها واحد وتكشف القصيدة عن فلسفة الشاعر
فى الحب والحياة فهو يؤمن بواقعية الحب وأن الحياة مزيج من الخير والشر
ولكل سحره وإن كان سحر الشر أفلك بالإنسان وهى نفس الفاسفة التى
شاهدناها عنده فى « محاورة نفس » .

وكأن الشاعر يريد إشرارك القارىء معه فى عملية الإبداع الفنى ومن ثم
ترك له شطرين ليطمهما هذا عند حسن الظن وما لم تكن يد الرقيب الصحفى
آن ذك قد امتدت إلى الشطرين .

وعلى كل فالقصيدة من عيون الشعر السعودى إن لم نقل العربى كله وتشعرنا
(المنهل)

بأنها نتيجة تجربة إذ هي تقدم صورة نفسية كاملة عن الفراق والذكريات والوداع وفلسفة الحياة والحب كما تبدو لعاشقين في ساعة الوداع .

من الأعـراق

قصيدة للأستاذ محمود عارف (١) :

في لحظة استغراق شاهد الشاعر لونين من الصور :

الأولى هذه الصور التي التقطوها من الواقع .

والثانية صور المنى .

وبين هذين اللونين من الصور بون شاسع يزيد على مدى الآفاق أما صور المنى فقد رآها :

في الشاطئ المرموق من نفس ببدت

صور المنى في لحظة استغراق

ألقيت معلميها يفيض نصاعة

وقليلها متضائل الإشراف

فالحير في جنباته متأصل

يب التأمل والشعور العراقي

والنبيل في أرجائه مستحكم

طى أفؤاد الملوب الخفاق

والطهير في أنجبائه متغلغل

ضمن الدم المنساب في الأعراق

إن صورة المنى بدت في الشاطئ المرموق من نفس الشاعر وتمثلت هذه الصور في الحير والنبيل والبطير فهو يعتقد أن الحير له وجود جوهري قائم بذاته مستقل عن اللذات الحسية والإنفعالات العاطفية المعهودة وهذه بقية من بقايا التفكير النظري المجرد الذي كان يعنى يبحث الماهيات الثلاث :

(١) المنهل : عدد شوال وذى القعدة ١٣٧ هـ ص ٦٧ - ٦٨ .

الخير والجمال والصدق لقد اعتقد الشاعر في وجود جواهر مستقلة بذاتها أو كما سماها صور المني هي الخير والنبيل والطهر وليست الأشياء الخيرة أو النبيلة أو الطاهرة إلا مجالي جزئية أو كما يقول المنطقة (ماصدقات) له ولكن له كينونته القائمة بذاته وبالرغم من وضوح المعنى ودلالة الألفاظ عليها دلالة ممتازة إلا أنني لم أستسغ كلمة « ضمن » في قوله : « ضمن الدم المنساق في الأعراق » فهي كلمة مبتذلة ومثلها كلمة معظمها في البيت الثاني .

ولقد حاول الشاعر تحقيق هذا الاعتقاد والبحث عنه في واقع الحياة فبحث عن الرجل الخير وعن الرجل النبيل وعن الرجل الطاهر فماذا رأى ؟ وجد أن طريق هؤلاء مفروش بالشوك والعقبات :

وبقية الصور المطيفة حوله
تتمدد حيرى في مجال سباق
تعتاق مجراها مصائب جممة
طافت بجور النفس في أطراق
فلإذا مشت تبقى الحياة رقيقة
تمشى إلينا مشية المعتاق
والويل للرجل النبيل إذا مشى
بين الأنعام بواجب الأخلاق
تنتابه العقبات وهي شديدة
أيان يذهب أدنه^(١) بلحاق
وجبائل العقبات تبحك فخها
كف ابن آدم من خيوط شقاق
ما الصيد من أغراضه حين انبرى
للصيد بل شبق إلى الإرماق

(١) أدنه أى تقدمه . .

وإذا الذى يلقاك يوماً باسمها
متطامعا كمتطلع المشتاق
فى نفسه يخفى الأذى متربصا
يوماً ليؤذى دون ما إشفاق
فإذا صبرت على أذاه نبلة
متناسيا ألسم الأذى المنساق
حسب النبالة من وسائل عاجز
والصبر حيلة خيفة ونفاق
وإذا لسانك بالعفاف حبسته
عن ذم من أرخاه بالإطلاق
ظن العفاف جبانة وتقية
والصمت ضعفا جاء باستحقاق
هذى هى الصور التى شاهدها
فى معشر نشأوا على الإنخفاق
ما بين عالمهم وعالم خاطرى
بعد يزيد على مدى الآفاق

هذه هى الصور التى التقطها من الواقع فوجدتها خالية من الجوهر ووجدت
البون بعيداً بين الواقع والمثال بين عالم الناس وما فيه من صور وبين عالم
خواتمه وصور مناه فالصور المحسوسة المعبرة عن الجوهر حائرة فى الحياة
تلاقى فى مجراها مصائب جملة إنها تريد أن تكون واقعاً ملموساً فى حياة الناس
تريد أن تتمثل فى الرجل الخير والرجل الطاهر والرجل النبيل حتى لا تكون
فكرة تجريدية تعيش فى ذهن صاحبها فقط ولكنها تجد طريقها مليثا بالعقبات .

والويل للرجل النبيل إذا مشى
بين الأنعام بواجب الأخلاق

والحياة نفاق فالرجل يلقاك باسمها وهو يخفى فى نفسه الأذى .

والناس لا يعرفون معنى الصبر والنبيل والعفاف ويعدون ذلك جبنا وخوفاً .

هذه هي الصور التي شاهدها الشاعر في دنيا الناس وفي عالمهم وشتان بين عالمهم وعالم خواطر الشاعر ولذا عاد الشاعر إلى الشاطئ المرموق من نفسه عاد إلى صور المني عاد إلى لحظة الاستغراق والتأمل عاد يغني لقلبه ولنفسه فماذا قال :

القلب كالأوتار ينطقه الهوى
إمّا أحسّ بلذعة الإحراق
فيردد الألحان في روض المني
كالطير يسجع في ذرى الأوراق
في لحنه (آه) الحزين وشجوه
شكوى العذاب وحرقة الأشواق
والنفس كالأدواح تذبل تارة
في حين تورق أيمان إوراق
وتكون كالأزهار تنفج بالشذى
وتفيض فيض الجداول الرقراق
وتكون كالأجواء في سعة المدى
تهتز بالإرعاد والإبراق
فالبشر يلهمها السعادة . والأسى
يضمني عليها ظله كرواق
والنفس إن تغنم قشور سعادة
فهي إلى تعطى من الأعماق

نلاحظ أن الشاعر ينشد السعادة وقد بحث عنها في دنيا الناس فلم يجدها فليبحث عنها في روض المني وعالم الأحلام والمثل وقلبه كالأوتار يردد الألحان كأنه الطير يسجع ، وتسمع في لحنه آه الحزين ، ونفسه كالأدواح

مرة تذبل ومرة تورق أو كالأزهار تنفخ بالشذى أو كالأجواء سعة وراحابة
إنها تنشد السعادة ولكن الأسى يضئ عليها ظله كرواق .

والنفس إن تطعم قشور سعادة
فهى التى تعطى مـبـن الأعماق

أرأيت قناعة الشاعر ورضاه من السعادة بالقشور لأن النفس إن تغم
هذه القشور وما أجملها من غنيمة النفس إن تغم هذه القشور تعطى بصدق
وإخلاص من الأعماق .

القصيدة ذات وحدة فنية تمثلت فى موضوع واحد هو نشدان السعادة
والرضا منها بالقشور لأن السعادة هى التى تفجر ينابيع العطاء فى الإنسان أما
الشقاء فيعنى على هذه الينابيع .

وتمثلت الوحدة الفنية أيضا فى أفكار القصيدة التى ارتكزت على
عنصرين :

١ - صور المنى :

٢ - والصور التى شاهدها فى معشر نشأوا على الإخفاق .

والعلاقة بين الصورتين التضاد وصور المنى هى المقصد الأسنى والمطلب
المرجى أما الصور التى شاهدها فجاءت عرضاً ومن أجل الموازنة وإثبات
الفارق بين الصورتين فلما تبين له قبح الصور التى شاهدها عاد إلى صور
المنى وروضها واستنى صورته من الروض وما يتصل به الأوتار - الألحان -
الطير يسجع الأدواح تذبل وتورق - الأزهار تنفخ بالشذى - الأجواء
الواسعة وكل هذا يضئ على النفس سعادة يرضى منها بالقليل وبالقشور
لأن النفس التى تغم قشور السعادة هى التى تعطى من الأعماق .

إن الجو النفسى فى القصيدة واحدة من أول بيت إلى آخر بيت وهذا
يدل على أن الرؤية الشعرية كانت واضحة لدى الشاعر وأنه تمثل فلسفته
التجريدية كل التمثيل وإن كنا فى النهاية لا نقول إن الشاعر صور الحياة والتمقط
مناظر منها وإنما نقول إن قصيدته تصور انعكاس الحياة على نفسه .

شاعر يهبط إلى وادى الحياة :

لعبد القدوس الأنصارى :

حدثنا الأنصارى (١) بأنه تأثر بالشاعر على محمود طه ونرى أن واجب النقد التحليل هو البحث عن ألوان هذا التأثير ومظاهره ومن ثم اخترنا قصيدتين . ش. بهتين للشاعرين الأنصارى وعلى محمود طه محاولين الموازنة بينهما والتعرف على الشخصية الفنية لكلا الشاعرين ومتساولين : أكان الشاعر السعوى صدى للشاعر المصرى أم أن لكل منهما طابعه الفنى وملاحظه التى تمزجه ؟ وأن التأثير لا يعنى التقليد والمحاكاة وإنما يعنى الإعجاب وتقدير الآثار الفنية وضمها إلى الرصيد الفنى للمعجب ؟

سنعرض لقصيدة الأنصارى (شاعر يهبط إلى وادى الحياة) وقد نشرت فى (المنهل (٢)) وسنعرض لقصيدتين من قصائد على محمود طه نشرتا فى ديوانه الأول (الملاح التائه) عام ١٩٣٤ م أما القصيدة الأولى فبعنوان (ميلاد شاعر) ولن نقف عندها طويلا لأنها وإن كانت من مطولات على طه إلا أن ما يقابلها من قصيدة الأنصارى لا يعدو المقدمة وفكرة الهبوط وأما القصيدة الثانية لعلى طه فهى (الله والشاعر) وسنبداً بالأنصارى الذى تتصف قصيدته بالتطلع إلى الأعلى والدوى والولع بالجانب الروحى من حياة الإنسان فقد رسم لقصيدته منذ العنوان جوا من الجلال والروحانية بما تشتمل عليه من طوح وارتفاع وعمق وحين نتجاوز العنوان إلى القصيدة نجد أنها ضمت شعراً جمع بين الانفعال المتوهج الأصبل وبين الفكر الفلسفى العميق .

وتقع قصيدة (شاعر يهبط إلى وادى الحياة) فى ثمانية وثلاثين بيتاً وهى من حيث الموضوع والبناء العام تنقسم إلى أربعة أقسام ونخاتمة وسندرس هذه الأقسام فيما يلى بتلخيص مضمونها والتعليق عليها ويشمل القسم الأول من هذه القصيدة الأبيات من ١ - ١٣ : فالشاعر فى برجه العاجى وفى أوج سماه ينظر إلى وادى الحياة ويثنى أجنحة الفكر لكى يهبط الوادى ويعيش فيه

(١) المنهل عدد ربيع الأول والثانى ١٣٦٩ هـ .

(٢) المنهل عدد ذى الحجة ١٣٥٦ هـ - فبراير ١٩٣٨ م .

وَيَصِيدُ الْآنَسَ وَيَنْعَمُ بِالْحُبِّ فِي سَمَوِ وَعُفَافٍ وَيَجِيلُ الطَّرْفَ إِلَى وَادِي الْحَيَاةِ
لَعَلَّهُ يَرَى مَا يَسِرُّ الْعَيْنَ مِنْ حَيَاةٍ غَضَّةٍ هَادِئَةٍ . لَقَدْ ظَنَّ الشَّاعِرُ أَنَّ الْحَيَاةَ سَلَامًا
يَرْقَى بِهِ إِلَى السَّعَادَةِ وَجَنَّةٍ لَيْسَ فِيهَا شَكَاةٌ وَلَكِنْ بَدَّ لَهُ أَنَّ هَذِهِ أَوْهَامُ شَاعِرٍ
وَأَنَّ الْحَيَاةَ مَلَأَتْ بِالْأَذَاةِ :

نَظَرَ الشَّاعِرُ مِنْ أَوْجِ سَمَاءِ
نَظَرَةً الْهَانِي إِلَى وَادِي الْحَيَاةِ
وَتَنَى أَجْنَحَتَهُ الْفَكْرَ لِيَكُنِي
يَهْبِطُ السَّوَادِي وَيُخَيِّمُ فِي رَبَاهِ
وَيَصِيدُ الْآنَسَ مِنْ مَكَانِهِ
حُضْرًا كَانُوا هَمًّا أَوْ هَمًّا بِسَدَاهِ
وَيَغْنِي السَّمْعَ فِي تَحَنُّنَانِهِ
يَهْدِيرُ الْبَلْبِلَ الْحَيَّ صَدَاهِ
وَيَهْزُ النَفْسَ فِي نَبْوَوتِهَا
بَصِيحًا نَسَمَاتِهِ الذَّاكِي شِدَاهِ
تَمَلُّا بِالْعَذَابِ مِنْ أَنْهَرِهِ
جَانِبًا مِنْ كَرَمِهِ أَشْهَى جَنَاهِ
طَائِعًا لِلْحُبِّ فِي أَحْسَنِ كَامِهِ
فِي سَمَوِ وَعُفَافٍ وَتَقَاهِ
وَيَجِيلُ الْعَيْنَ فِي أَنْحَائِهِ
فَيَسِيرُ مَا يَهْجِجُ الْعَيْنَ رَوَاهِ
مِنْ حَيَاةٍ غَضَّةٍ هَادِئَةٍ
وَشَيْتَ أَكْنَافَهَا كُلَّ رَبَاهِ
وَصَفَاءِ وَإِخْبَاءِ شَامِلِ
وَاحْتِشَامِ لَيْسَ يَعْمُرُوهُ سَفَاهِ
هَكَذَا الشَّاعِرُ قَدْ خَالَ الْحَيَاةَ
سُلَمًا يَرْقَى بِهِ صَرْحَ هَنَاهِ

هكذا الشاعر قد خال الحياة
جنة تسمو على كل شكاه
وهم الشاعر فيما ظنـــــــــــــــــه
إن دنيا الناس ملأى بالأذاه

هبوط الشاعر من أوج سماه إلى وادي الحياة حدث كبير كان ينبغي على
الشاعر أن يبين أثره في الكون ولكننا لم يفعل لأنه ظن الحياة سلم الهناء وجنة
المأوى وقد خاب ظنه فكشف في مقلمته عن ختام قصيدته (فدنيا الناس
ملأى بالأذاه) مساوية من حيث الفكرة لآخر بيت في القصيدة وهو قوله :

إنما تهيون في دنياكم
فسوق بركان قد استشرى لظاه

لقد أوجز الأنصارى في هذا القسم وكان حقه أن يطنب وغلب فكره
عاطفته وإن حاول أن يثني أجنحة الفكر . أما الشاعر على محمود طه فقد
تناول فكرة هذا القسم في قصيدة طويلة تربو على المائة بيت وعنوانها
(ميلاد شاعر) واختلفت رؤيته الشعرية عن رؤية الأنصارى فهو معتز بهنه
فخور به كالأنصارى .

فهو ليس إنسانا عاديا وإنما له رسالة وقد حملها من أوج سماه وهبط
بها إلى الأرض .

هبط الأرض كالشعاع السني
بعصا ساحر وقلب نبي
لحمته من أشعة الروح حلت
في تجاليد هيكل بشرى
ألهمت أصغريه من عالم
الحكمة والنور كل معنى سرى
وحبته البيان ريا من السحر
بـه للقلوب أعذب رى

والطبيعة من فجر وصباح ونهار ومساء وليل وقمر ورياض قد احتفلت
بميلاد الشاعر :

حينما شارفت به أفسق الأرض
زهرا الكون بالوليد الصبي
وسبا الكائنات نور محيا
ضاحك البشر عن فؤاد رضى
فزها الفجر ما بدا وتجلي
وازدهى بالوجود أى ازدهاء
وحين تتسائل الكائنات من ترى ذلك الوليد ؟ .

من تراه ؟ رن صوت هتوف
من وراء الحياة شاجى السوى
إن ما تشهدون ميلاد شاعر

لقد أطنب على طه حيث يجب الإطناب وغلبت عاطفته فكرته ومن ثم
كثرت لديه الصور . الهبوط عند الأنصارى كان فكرة تجريدية يشارك صاحبها
في صحتها ومن ثم لم تترك آثاراً كباراً فى الكون ولكن الهبوط عند على طه
كان حركة ساحرة تركت سحرها وأثرها فى الوجود .

والقسم الثانى من قصيدة الأنصارى يتحدث عن أحلام الشاعر ورؤاه
ودوره فى الحياة التى هبط إليها ويبدو أن الأنصارى لم يكن مقتنعا بفكرته
كل الاقتناع فقد نثر إلى وادى الحياة من شرفته وتساءل : أترى الشاعر فى
فكرة الهبوط قد فقد الرشيد أم أن وراءها حكمة ؟ وهدهد الخيال البدوى
إلى أن الناس غم والشاعر هو الذى يحدو هذه الغم : والشاعر يرى صفحات
الكون من خلال كوته وإذا صوب إشعاعاته نحو أمر مبهم جللاه ومهما يكن
من شىء فإن أبيات القسم الثانى من قصيدة الأنصارى تدور حول هذه
الأمور :

١ — التردد في أمر المهبوط — مهمة الشاعر في الحياة — رؤى الشاعر
قبس من نور الله يكشف له غوامض الأمور يقول الأنصاري :

ورننا الشاعر ممن شرفته
لربيبا الوادي الذي خال نقاه
أتري الشاعر في فبكرته
فقد الرشد وأغسواه هـواه
أم تجري الشاعر في مهبطه
مستسراً حكمة فيها هداه
إنما الشاعر في أحلامه
بشر ينشد غنماً بحداه
وإذا أخطأه توفيقه
بعض حين فيتقدير الإله
وإذا حالفه توفيقه
بعض حين فمن الشعر سناه
جل حكم الله من حكمته
أودع الشعر بصيصاً من ضياه
يهتدي الشاعر في ديجوره
بأشعثه إن هـو تـاه
فإذا صوب إشعاعاته
نحو أمر مهم كانت جـلاه

ولست أدري لماذا يكون الخطأ بتقدير الإله والتوفيق من الشعر سناه ؟
فالتوفيق وعدم التوفيق من الله وإن احتاط الأنصاري فجعل من حكمة الله
أنه أودع الشعر بصيصاً من ضياه . وعلى كل حال فهذا كان تصور
الأنصاري للشاعر وأحلامه ورؤاه فكيف تصور على طه ذلك ؟ إنه يتحدث
عن ذلك في قصيدة (الله والشاعر) في الأبيات من (١٩ — ٩٥) فهو يرفع

إلى الله شكايه الخلق وتؤلف هذه الشكاية جوهر القضية الفكرية التي تطرحها القصيدة وهي ضرب من الآلام العامة التي يشترك فيها البشر جميعاً دون أن يختص بها الشاعر وتبدأ هذه الفقرة بالمقطع التالي يخاطب به الشاعر خالقه فيقول :

لا تعدني يارب في محنتي
ما أنا إلا آدمي شقي
طهرتني بالأمس من جنتي
فاغفر لهذا الغاضب المحنق
حنانك اللهم لا تغضب
أنت الجميل الصفح جم الحنان
ما كنت في شكواي بالمذنب
ومنك يارب أخذت الأمان

ونلاحظ أن ضمير المتكلم في هذه الأبيات لا يعني الشاعر وحسب وإنما يتسع حتى يشمل البشرية كلها فكأن الشاعر يمثل الإنسانية ثم يعرض الشاعر قضية البشر على الخالق وهو يلخصها بأنهم يعانون تمزقاً نفسياً سببه الصراع القائم بين أرواحهم وأجسامهم الخاضعة لتحكم الغرائز الدنيا على أن جوهر المشكلة مع ذلك ليس هذا الصراع وإنما هو الإحساس بأن الله يعاقب على الاستسلام إلى الغريزة الدنيا :

ما كنت إلا مثملاً ركب
غرائزي ما شئت لا ما أشاء
فلتجزها اليوم بما قدمت
وإن تكن مما جنته بسراء
وفيم تجزي وهي لم تأثم
أست أنت الصانع الطابع
ألم تسمها قبل بالميسم
ألم تصنع قلبها الرائع

الخبير والشر بها توأمان
والحب والشهوة في طبعها
حوراء والشيطان لا يبرحان
يساقطان السحر في سمعها

وهنا لابد لنا من وقفة نوازن فيها بين نفسية الأنصارى ونفسية على طه
فالأنصارى حلىر هادىء يحلو غنمه ويرضى بتقدير الإله ويرى الشعر
بصيصا من ضياء الله يهدى الشاعر به في دياجير الحياة فالهلوء والاتزان
والسير في نور الإيمان كل تلك الحصال تطبع نفسية المنتج السعوى وتعطيه
شخصية متميزة أصيلة لا مقلدة ولا محاكية وإنما متأثرة وهى في تأثرها تأخذ
وتدع تأخذ ما يحلو لها وما يتفق مع بيئتها وتقاليدها ودينها وتدع ما عدا ذلك
أما نفسية على طه فمعها اندفاعات الذهن واندفاعات العواطف الشخصية معها
ثورة مهيبة من عبد ضعيف يجأر إلى مولاه وإن أساء معه الأدب ولكنه مع
ذلك يكتب بروح من يؤمن بإيمانا عميقا بالله فلا يحتم مطولته إلا بمشهد خاشع
مؤثر من الابتهاال إلى الخالق يرفعه هو والبشرية كلها من بين سحب البخور
وأماج الدموع الحارة التى تغسل النفوس من ذنوبها ومثل هذه الروح بعيدة
عن عصيان الخالق .

وإن كنت أشم في دفاع على طه عن الإنسان وفي صلاته هو والبشرية
أشم في كل ذلك رائحة مسيحية فهو يذكركنا بالرهبان والقساوسة التى يطلبون
المغفرة للناس نيابة عنهم ويصلون ويحرقون البخور نفسية على طه مخالفة
لنفسية الأنصارى في أسلوب الضراعة وفى التأدب مع الله وعدم التأدب وهو
اختلاف جوهري في عالم الأدب ولكن الشاعرين اتفقا في الإيمان بالله
والخضوع له . والذي أهاج على طه أنه تصور الإنسان ضحية للطبيعة التى
كون منها ولا يد له فيها وبهذا يدافع الشاعر عن البشر بين يدي الخالق ثم
هو يرى للمعصية عنراً فالإنسان إنما يقع في الإثم لأنه يريد أن يفر من آلامه
الروحية بأن يغرقها في بحر اللذة وكأن متع الجنس مهرب له من عذاب

الروح وأكبر ألم عند على طه هو ألم الشعور بالموت المتربص وراء الليالي
يرتقب الفرصة ليثب فيها ويقضى على الإنسان إلى أبد الزمان :

أيصبح الإنسان هذا الرميم
والجيفة الملقاة عبر التراب

أيستحيل الكون هذا المهشم
والذالمة الجاشم فيها الحراب

نحن إذن بإزاء مشكلة الموت يحسها الشاعر بعمق ويتألم لها فلا يجد مهرباً
من العذاب إلا إلى ملذات الجنس وهو يجزع أمام عمق السر الذى يحف
بالموت وبالحياة نفسها فهل يلام إذا ما التزم التشاغل والغلو فيه ؟ هذا رأى
الشاعر لا رأينا نحن فإننا نرى أنه أسرف على نفسه وعلى الإنسانية حين نظر
إلى جانب العذاب ولم ينظر إلى جانب الرحمة (نبيء عبادى أنى أنا الغفور
الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم) وحين ينتهى الشاعر من إلقاء خطابه
بين يدي الله يحتم خطابه قائلاً :

هأنذا أرفع آلامه
إلى سماء المنقذ الأعظم
أنا الذى ترسل أنفاسه
قيطرة القلب ونأى الفم

ولكن أين وجد الشاعر ان : الأنصارى وعلى طه راحة الفكر ؟ لقد
مرت بالأنصارى لحظة شك خفيفة فى أهمية هبوطه وجدواها أهو عبث أم
أنه حكمة ؟ ولكن هذا الشك لم يطل به فما لبث أن عرف أحلام الشاعر
ورأى فى سنا الشعر بصيصاً من ضياء الله يهديه فى الحياة ويوجهه وكذلك على
طه رأى راحة الفكر فى عالم الشعر وخيالاته العذبة الرقيقة فينطلق فى تلك
الأفياء الهادئة تصحبه كتابة خفيفة أحياناً كما فى هذه الأبيات :

يارب ما أشقىتنى فى الوجود
إلا بتلبي ليتنه لسم يكن

في المثل الأعلى وحب الخلود
حملته العبد الذي لم ين
خلقه قلباً رقيق الشغاف
يهم بالنور ويهوى الجمال
حلت له النجوى ولد الطواف
بعبال الحسن ودنيا الخيال

وعلى طء يعزى العالم عن حزنه بأغانيه فهو يقضى حياته يطوف بالجنان
بين مطارف النور والندى يستقبل الضحى بالترنيم وتتعاقب عليه الفصول وهو
يردد أنغامه .

أما الأنصاري في القسم الثالث من قصيدته ويشمل الأبيات من (٢٤ -
٣٣) فقد احتكم إلى قاضي الشعر في أمر وادي الحياة وسكانه ذلك الوادي
الذي نخيله روضة تشبهها نفسه وسكان تلك الروضة يعيشون في حب طاهر
عفيف في صفاء وإخاء شامل واحتشام فبماذا حكم قاضي الشعر ؟ لقد حكم
يأن الروضة المشتهة بركان وأن سكانها يعيشون في نكد :

حكم الشاعر في منطته
قاضي الشعر فأهله قضاه
وجلا الأمر له منظاره
عندما صوبه نحو صواه
فإذا الوادي الذي قد خاله
روضة غناء فيها مشتهاه
هو بركان لقد ثارت به
سورة الطيش فأودت ببرواه
وإذا قطبانه في جوفه
طالما غشاهم سيل ببلاه

فهم من عيشهم في نسك
مستديم داؤه أعياناً شفاه
وهم في الخير إن فتشهم
نمير صالحهم ملء رباه
وإذا البلبل في تغسريده
منذر بالثوم في أشجى غناه
وصبا الوادي سموم قاتل
مستطير من براكين ثراه
كل شيء فيك يا وادي الحياة
مؤذن بالويل في أقصى مداه

التقى الشاعران حول الإحساس بشقاء البشر وآلامهم وأن الحياة جحيم لا يطاق وكل شيء فيها مؤذن بالويل إلى أقصى مداه ولكن موقف الشاعرين من شقاء الحياة وآلام البشر قد اختلف أما على طه فقد دافع عن الناس ورفع صوته بالشكاية إلى الله وانساح في الأرض يغري العالم عن حزنه بألحانه وأما الأنصاري فقرر العودة إلى برجه العاجي بعدما استيأس من سعد رجاء وهذا موضوع القسم الرابع من قصيدة (شاعر يهبط إلى وادي الحياة) وقد أنهاه الشاعر بحكمة استخلصها من هذه الرحلة الخيالية من عالم المثل إلى عالم الواقع وقد شمل هذا القسم والخاتمة الأبيات من (٣٤ - ٣٨) .

لقد قفل الشاعر من رحلته بعد أن أصيب باليأس مما رجاء من المربوط إلى وادي الحياة فعاد إلى برجه العاجي ثم ألقى نظرة ساهمة على عالم الواقع ورمى من قلبه في حصرة حكمة سجل فيها رأيه في وادي الحياة والأحياء وهي أن الحياة بركان قد استشرى لظاه وضحايا البركان بطبيعة الحال هم الأحياء :
قفل الشاعر من رحلته

بعدما استيأس من سعد رجاءه

واعتلى في جسوه ذا وجل

من لهيب النار أن يغزو حماءه

ثم ألقى نظرة ساهمة
جمعت في طيها كل أساه
ورى من فمسه في حيرة
حكمة سجل فيها ما أرتآه
إنما تحيون في دنياكم
فوق بركان قد استشرى لظاه

رضى الأنصارى من الغنمة بالإياب وخشى أن يمتد إليه أذى البشر
فيتبعه هيب النار ويغزو حماه . على أن الأنصارى يلتقى مع على طه في مرحلة
الفكر البريء التي عاشها على طه في ضباه يوم كان يتنقل في ليالى الشرق
المقمرة ظاناً الوجود جمالاً خالصاً لا يشويه نقص ولا ألم .

الكون يبدو هادئاً وادعوا
كأنه الفردوس في أمنه

فعلى طه ظن الوجود فردوساً وخاله الأنصارى روضة غناء، شتاه واكن
كلا الشاعرين يترك أن هذا المظهر الفردوس للكون ليس حقيقياً إنما توحى
به النظرة العاجلة السطحية فإذا حلق الشاعر تحديق الوعي صدمته الحقيقة
المررة .

مما كان إلا ريشماً حلقاً
حتى جلت دنياه عن سرها
أما الأنصارى فبعد أن ينجو بنفسه يلقى نظرة ساهمة ويقول في حيرة :
إنما تحيون في دنياكم
فوق بركان قد استشرى لظاه

هكذا قفل الأنصارى من رحلته واعتلى في جوه فإلى أين ذهب على طه ؟
وفيم كان يفكر ؟ لقد كان يفكر في سر الدنيا الذى تفضحه النظرة المحدقة .
المتأمل والشاعر يلخصه بقوله (الذئب والشاة وحرب البقاء) وقصة قتل دام .
بالباطل والبهتان ودم طاهر بريء يخضب أديم الثرى ومقتول يصرخ وقاتل .

يقسو ثم يقبل الليل ويختفي معالم الجريمة ويضيع السر وراء ضمت الليالى
وتمضى الحياة كأنه لم يكن ظلم ولا دم . وهذا ما عبر عنه الأنصارى بالبركان
ويصحو على طه من هذه التجربة الأولى مروءاً فيهم في الأرض على وجهه
يبعث عن الأمن والسلام والرضا وما يلبث حتى يصل إلى روضة ذات ظلال
ومياه فيتخذ فيها مجلساً على ربوة شعرية يمر فيها النسيم وتستغرقه فرحة هذا
الجمال الهادئ الموحى ولكنه سرعان ما يستفيق على صدمة تهز أعماقه حين
تقع عيناه على صلل يهاجم عشا فيمزق ما فيه من صغار الطير بأنيابه وعند
ذلك تدور الدنيا بالشاعر ويسد عليه الألم باب كل جمال ويتقزز من
الطبيعة التي تصبح عنده رمزاً للدم المسفوك ثم يصرخ هارباً من هذا الجمال
الذى تمده الطبيعة شركاً للأبرياء .

يا ضلالة الشاعر أين النجاة
وأين أي بن المنزل الآمن
أكل واد طرقته خطاه
طالعته منه الردى النكامن
حتى إذا ضاقت عليه السبل
وعز في الأرض عليه المقام
أوى إلى كهف بسفح الجبل
عساه يقضي ليله في سلام

وهكذا يبدأ الشاعر مرحلة جديدة من البحث عن السلام والأمن ولعل
الكهف رمز إلى فرار الشاعر من الحياة وهروبه إلى مأوى منعزل كما هرب
الأنصارى إلى برجه العاجى فراراً من الأذى غير أن الإشكال ما يلبث حتى
يلحق بغلى طه وهو في الكهف فإذا زلزال مدمر يثير البحر وترتجف له
الأرض وتعصف الرياح حتى كأن يوم الحشر قد أوف وحين يستقر العالم
الثائر ويطلع النهار يخرج الشاعر من مكانه فإذا عليها صمت القبور وينطلق
الشاعر فيطوف بالأرض يرثى العالم والبشرية . ويتهل إلى الله أن يحيط العالم
يرحمته ويرسم مشهد صلاة جامعة تقيمها البشرية كلها .

وهكذا نرى أن كلتا القصيدتين قد قلمت بحثاً فلسفياً في إطار من الشعر والصور والعواطف وقصيدة (شاعر يهبط إلى وادى الحياة) تعرض أزمة روحية يمر بها الشاعر إذ يتشكك أن يكون لعالم المثل والمبادئ وجود على الأرض في وادى الحياة ومن ثم يهبط إلى هذا الوادى باحثاً عن الفردوس المفقود ولكن يتضح له أن ماخاله فردوساً هو بركان وأن أهل الأرض يعيشون في نكد فيعود أدراجهم وأما أزمة على طه فتدور حول ضعف الإنسان وضلاله وضياعه وأن لا سبيل إلى الخلاص إلا بالابتهال إلى الله وغسل النفوس بالدمع والندم والتوبة ومن ثم كان موضوع القصيدة الصلة بين الله والإنسان.

وكلا الشاعرين يرى أن الشاعر يمثل أعلى النماذج البشرية وقد مال الأنصارى إلى الإيجاز والتركيز ومال على طه إلى التحليل والإطناب وإذا جاز لنا أن نحكم على الشاعرين في هذا الموقف فلاننا نرى أن الأنصارى حكيم وإنما الشاعر على محمود طه والأول وإن تأثر بالثاني إلا أن لكل منهما طابعه الفنى من حيث الأداء ومن حيث الإيجاز أو الإطناب والتجربة الشعرية محدودة عند الأنصارى فسيحة متسعة عند الملاح التائه والملاح فضل الريادة والسبق والإبداع وللأنصارى حساسية فنية تلتقط الأوابد والشوارد فتقرأ بتذوق وتفهم وتعجب ثم تضيف ما قرأت إلى رصيدها الثقافى والفنى ليكون نوراً وهداية على الدرب ليس غير .

الفصل الثامن

فن السيرة أو ترجمة الحياة

١ - التعريف بهذا الفن وبالأسس التي يقوم عليها . فن السيرة في الأدب
السعودي :

أولا : عبد القدوس الأنصاري رائد فن السيرة .

— قصة حياته بقلمه : مولده ونشأته وتعليمه والوظائف التي تولاهـا —
شيوخه — الجانب الأدبي — في عالم التأليف — أنشطة أدبية أخرى — المفكرون
والأدباء الذين تأثر بهم .

تراجع بقلم الأنصاري :

١ — حياة الفتح بن النحاس وشعره : خطة الدراسة — عقبات —
أهمية الدراسة .

٢ — السيد محمد المرزوقي .

٣ — محمد بن مانع : نسبه وبيئته — ولادته ونشأته وتعليمه — رحلاته
في طلب العلم — أساتذته ودراساته ورحلاته في نشر العلم — ملامحه وصفاته —
٤ — الشيخ محمد العمري : الأبعاد السياسية والاجتماعية والشكلية —
بيئته — نسبه ووصفه — مجمل حياته .

تراجع لمؤلفين آخرين :

١ — صقر الجزيرة لأحمد عبد الغنور عطار : الملامح العامة للكتاب
كما يراها الدكتور محمد حسين هيكل .

٢ — (تقي الدين الفاسي) مؤرخ مكة في القرن التاسع الهجري
للأستاذ حمد الجاسر : الاعتماد على المترجم له مع زيادة بعض إيضاحات —
مولد المترجم له ونشأته ورحلاته — مشايخ تقي الدين الحسني وتلاميذه —
الأعمال التي تولاهـا (نقد الترجمة) .

٣ — (محمد جميل حسن) محمد علي مغربي : شخصية المترجم له — رسالة المعلم .

٤ — (محمد سرور الصبيان) لعبد الله عريف :

حياة الحجاز في العهد السعودي — تاريخ الصحوة — مركز الاستجابة — قاعدة الحب والبغض .

فن السيرة :

هو الكتابة عن أحد الأشخاص البارزين والكشف عن عناصر العظمة عنده . والسيرة في الواقع عملية تحليلية لكل مركب من عناصر كثيرة مختلفة هو الشخصية ومن خلال هذا التحليل تبرز القيم الإنسانية التي تنطوي عليها الشخصية والتي يهم الآخرين الإطلاع عليها^(١) .

والشخصية مجموعة من المجالات فأنا مع أصدقائي غيري مع أقاربي وأنا مع تلاميذي غيري مع أساتذتي وأنا مع جاري غيري مع الشخص الغريب وهكذا في كل حالة من هذه يظهر جانب خاص من شخصيتي يكون هو الغالب على الموقف وهو يظهر نتيجة لوجودي مع شخص معين فوجودي مع ذلك الشخص حدد لي مجالا معيناً للتفاعل والتفاهم والسلوك بعامة في دراسة العلاقات التي تجمع الشخص بآخرين وكذلك التي تتمثل في تصرفات الشخص الخاصة في المواقف المختلفة أستطيع أن أحدد مجموع المجالات التي تتكون منها الشخصية ولسنا نستطيع أن نتصور الشخصية بغير مجالات . فترجمة الحياة عملية فنية تجمع بين عمل المؤرخ من جهة ارتباطها بسيرة إنسان عاش في بيئة بعينها وزمن بعينه وبين عمل المصور الفنان الذي يتخصص في رسم الصور للأشخاص .

ولا يكفي كاتب ترجمة الحياة أن يحشد الحقائق التاريخية حشداً وإنما يحتاج إلى نوع من الحس الفني في اختياره وصياغته وتنسيقه لتلك الحقائق

(١) الأدب وفنونه لعز الدين إسماعيل ص ٢٧٥ .

وكذلك يحرص الرسام على أن يقدم صورة صادقة للشخص الجالس أمامه وذلك في الوقت نفسه عمل فني .

ومن ثم يتحدد عمل كاتب ترجمة الحياة مبدئياً في جمع المصادر والحقائق وكل الوثائق المتصلة بالشخصية التي يترجم لها ثم تركيب صورة لحياة هذا الشخص بطريقة تجعل منها إلى جانب ذلك عملاً أدبياً بكل ما للعمل الأدبي من مقومات .

وحين يترجم كاتب لحياة ما فإنه لا يهتم بوقائع التاريخ إلا من زاوية واحدة هي مدى ما كان لتلك الوقائع التاريخية من تأثير في حياة المترجم له وتشكيل شخصيته وبلورتها .

وواجب كاتب الترجمة أن يزن الأمور ويتحقق من صدق المادة التي يجمعها ويفسرهما . وكثيراً ما يواجه كاتب الترجمة تناقضاً في المادة التي يجمعها وقد يكون التناقض راجعاً إلى عيب في المصادر نفسها وقد يكون راجعاً إلى نفس الشخص الذي يترجم له . ومن الخطأ نفي التناقض الثابت عن الشخصية التي يترجم لها ، وإنما يقتضينا الأمر إثبات هذا التناقض ومحاولة تفسيره بل إن تفسير هذا التناقض يصبح عملاً أساسياً بالنسبة لكاتب الترجمة .

مهمة كاتب الترجمة : هي أن يصور لنا البطل وهو يستكشف الحياة شيئاً فشيئاً كما يحدث في الواقع بالنسبة لكل فرد منا ، ولا شك أن نظرنا إلى الأمور تتطور وتبلور خلال مراحل حياتنا المختلفة فنحن إذن في كشف مستمر لأنفسنا وللحياة من حولنا . ومن ثم فإننا نتمرف على ملامح هذه الشخصية خلال هذا الكشف المستمر .

فن السيرة في الأدب السعودي :

أولاً : عبد القدوس الأنصاري رائد فن السيرة :

هذا الفن نوعان سيرة ذاتية يكتبه الفنان عن ذاته هو وسيرة غيره يتناول فيها الحديث عن غيره من العظماء وقد برز الأنصاري في النوعين الذاتي والغري .

للأستاذ عبد القدوس الأنصاري تراجم قصيرة تناول فيها حياة المشاهير في العلم والأدب والإصلاح وقد التزم فيها طريقاً واضح المعالم فهذه التراجم أولاً مبعثها الإعجاب والتقدير وثانياً فإن الأستاذ الأنصاري يبرز فيها صفات المترجم له سواء أكانت صفات شكلية أم موضوعية فهو يصف المترجم له وصفاً دقيقاً كأنما يرسم له لوحة فنية ويذكر النواحي التي تفوق فيها والموهبة التي اختصه الله بها والعمل الذي دخل به رحاب التاريخ .

والجدير بالذكر أن تراجمه جديدة فهو يخط في حقول أبكار بمعنى أنه يتحدث عن شخصيات لم يسبق بالحديث عنها في الغالب وهنا تبدو صعوبة البحث الرائد ويذكر له في نفس الوقت شرف البدء والريادة في هذا المجال وفن التراجم قديم جديد قديم اقترن بتدوين سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبتدوين الحديث الشريف ومن ثم اتجهت العناية الباحثين حول شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وحول أحاديثه الشريفة إلى العناية بالتحقيق والتدقيق لخطورة الموضوع إذ أنه يتعلق بالتشريع للأمة . ومن ثم كان منهج الجرح والتعديل .

بيد أن تراجم الحياة في العصر الحديث اهتمت بالجانب الأدبي والفني وتحليل الشخصيات ومن ثم فتح لها الأدب باباً وفن التراجم بهذا المفهوم جديد في الأدب العربي الحديث وقد تأثر بمدارس نقدية عالمية ما بين شرقية

وغربية وبرز فيه أدباء عرب عمالقة مثل طه حسين والعقاد وهيكل بيد أن ما يكتبه الأستاذ الأنصارى لمجلة المنهل « » من تراجم يأخذ شكل المقالة. ومن ثمّ فهو يتناول أبرز القضايا في حياة المترجم له .

وقد تعلو الترجمة وقد تهبط ولكننا يجب أن ننظر إليها في هذا الإطار . تراجم صحفية قصيرة تكتب للمرة الأولى ومن هذه التراجم حديث الأستاذ عبد القدوس الأنصارى عن سيرته الذاتية .

قصة حياتي

فقد كتب ملخصاً لقصة حياته أو لنزهته فيها كما أسماها وكان ذلك في ١٣٧٧/٢/٨ هـ بمدينة جدة وقد اطلعت عليها في كتيب صغير ملحق بعدد ذي القعدة وذى الحجة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م من مجلة المنهل الغراء .

وقد استهل الأستاذ الأنصاري حديثه بتقديم نبذة من تاريخ ميلاده ونشأته وحياته العلمية وحياته في الوظائف الحكومية فقال :

أنا عبد القدوس بن القاسم بن محمد بن محمد الأنصاري الحزرجي أمّاً وأباً ولدت عام ١٣٢٤ هـ بالمدينة المنورة . وقد ماتت والدتي واسمها آمنة بنت محمد بن زين وعمرى نحو أربع سنوات ومات أبي وعمرى نحو ست سنوات وكفاني المرحوم خال أبي الشيخ محمد الطيب الأنصاري عالم المدينة المنورة ومجدد شباب العلم الأدبي والديني فيها .

درست على يديه أول ما درست القرآن المجيد فكتاباً منظوماً صغيراً في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم اسمه (قرّة الأبصار في سيرة المشفع المختار) ثم (الأجرومية) في علم النحو وظللت أدرس لديه كتب النحو والصرف واللغة والمعاني والبيان والفقه والحديث والتفسير ... الخ حتى كانت سنة ١٣٤١ هـ ففتحت مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة أنشأها فضيلة المرحوم السيد أحمد الفيض بادي لتيسير التعليم الديني والعربي بالمدينة المنورة ولتجديد شباب العلم في بلد الرسول صلى الله عليه وسلم فعين فضيلة الحال رئيساً للمدرسة ودخلها طالب علم بها وفي المدرسة درست الدراسة الثانوية فإلمانية وأخذت الشهادة العالمية العالية منها بتفوق كان ذلك في سنة ١٣٤٦ هـ وكان قد حضر رئيس ديوان إمارة المدينة المنورة الشيخ إسماعيل حفظي رحمه الله الاختبار العمومي الذي أجرى لطلاب المدرسة إذ ذاك وكنت بينهم فلما ظهر له تفوقي أشار على وكيل المدينة المنورة المرحوم عبد العزيز بن إبراهيم بأن ألتحق بالديوان إذ ذاك فوافق أمير المدينة على الفكرة فأبلغني رئيس الديوان فوراً رغبته ورغبة الأمير

في تعييني بالديوان فوافقت بعد استشارة فضيلة الحال وثاني يوم بعد نجاحي في الاختبار الشاق العنيف كنت جالساً على مكتبي في ديوان إمارة المدينة موظفاً صغيراً بها أصغر من جميع الموظفين بالديوان كان ذلك في غرة شهر رمضان ١٣٤٦ هـ .

مكثت في الديوان أثقل في وظائفه حتى سنة ١٣٥٩ هـ حيث صدرت إرادة ملكية — برقية — من جلالة المغفور له الملك عبد العزيز بن سعود إلى إمارة المدينة المنورة في عهد المرحوم الأمير عبد الله السديري وكيل إمارة المدينة المنورة بنقل إلى مكة في وظيفة رئاسة تحرير الجريدة الرسمية (أم القرى) فانتقلت إذ ذاك إلى مكة بأسرتي الصغيرة ومكثت في رئاسة التحرير مضافاً إليها إدارة الشؤون المالية للجريدة حتى سنة ١٣٦١ هـ حيث صدر أمر سمو الأمير فيصل نائب جلالة الملك بالحجاز إذ ذاك أن أنتقل إلى ديوان سموه ومن يومئذ أي من سنة ١٣٦١ إلى ١٣٨٦ هـ مكثت في ديوان سموه الذي كان باسم ديوان نائب جلالة الملك ثم صار منذ سنة ١٣٧٣ هـ ديوان سمو ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء .

لقد تقلبت في هذا الديوان بعدة وظائف : سكرتير مجلس الوكلاء فمساعد مدير الشؤون المالية فمدير شؤون المشاريع والأنظمة فمدير الشؤون المالية فمستشار للشؤون المالية فمدير عام الشؤون المالية أخيراً .

شيوخه :

١ — الشيخ الطيب بن إسحاق بن الزبير الأنصاري (ابن العم وابن الحال) .

٢ — السيد أحمد الفيض آبادي في الحساب .

٣ — الشيخ عبد الغني مشرف في الجغرافيا والفرائض .

٤ — الجوجة شكري الخطاط في الخط العربي الأدبي .

٥ — مولوي محمد في مبادئ اللغة الانجليزية .

الجانب الأدبي :

في أثناء الدراسة لاحظت أن ما كان سائداً من ألوان الإنشاء هو لون الإنشاء القديم المسجع الركيك فضايقي ذلك في نفسى وصرت أبحث عن منفذ جديد واتفق أن وردت إلينا كتب المتغلوطى : العبرات والنظرات وغيرها كما وردت إلينا في ذلك الوقت بعض الصحف المصرية الأدبية البلاغ الأسبوعى - الهلال - المقتطف فأثرت هذه على اتجاهاتى وصرت أتهمها التهاماً وأعنى بمسايرة أسلوبها انفكاً كما من أسلوب الإنشاء المسجع الركيك الذى كنا نتلقاه من معلم الخط . وهكذا بدأت أرسم خطى الحديث جاعلاً من مطالعاتى أستاذى الخاص ثم بدأت أزال الإنشاء الحديث واتفق أن ورد ديوان حافظ كما ورد كتاب الأيام والشرقيات . وكان لى صديق زميل فى الدراسة على شيخنا الشيخ محمد الطيب الأنصارى هو السيد عبيد مدنى فعكفنا نحن الاثنين على هذا الاتجاه وسعينا لنشر الأسلوب الحديث الذى تزاوله فى الناشئة فى المدينة المنورة وقد بدئت الخطوة الأولى للحركة الأدبية الحديثة فى المدينة المنورة بتوجيه الاستفتاءات الأدبية المحركة للنشاط الفكرى وكانت أول يقظة أدبية حديثة سنة ١٣٤١ هـ وإذ كانت المدينة منعزلة تماماً عن العالم تقريباً فى أواخر عهد حكومة الملك حسين بن على وما إن دخلت حكومة الملك عبد العزيز وانتشر الأمن واتصلت المدينتان المقدستان المدينة ومكة ببعض وعرف بعضهما عن بعض مالم يكن يعرف الأمر الذى أدى إلى مضاعفة محاولات الوثبة بالأدب عند الناشئة . . .

وفى سنة ١٣٤٥ هـ بدأت المحاولة تعطى ثمارها فبدأت الأمانى الحاملة البعيدة المدى والتحقيق تطرق أدمغتنا بإنشاء صحف ومجلات تنشر أدبنا وأفكارنا وبدأنا ننشد عالماً أدبياً أفضل .

وفى عام ١٣٤٦ هـ نشرت أول مقالة لى فى مجلة الشرق الأدنى التى كان يصدرها الأستاذ أمين سبيد بمصر وموضوع المقال كان جريئاً بالنسبة لظروف ذلك العهد كان الموضوع (بماذا ينهض العرب) وقد أبدت رأى فى أن نهضة العرب مرتبطة بوحلتهم ووجدتهم مرتبطة بوجود زعيم عربى

يوقظ النائمين ويتقدم سير القافلة إلى قسم الوحدة المنشودة وأحدث المقال دويلاً . وقد أعجبت بالمقال كما يعجب المرء بأول وليد ثم نشرت بعدها في صحيفة المرشد العربي التي كان يصدرها المرحوم عبد الله فضل باشا من أعيان (ظفار) بحضرموت نشرت بها عدة مقالات مطولة متعددة وتابعت النشر بعد ذلك في الصحف العربية إذ لم تولد لدينا صحافة وطنية بعد فنشرت في مجلة السياسة الأسبوعية وفي مجلة المقتطف بمصر وفي مجلة العالم الإسلامي بسومطرة وفي غيرها .

وفي عام ١٣٤٨ هـ اتضحت لدى سبل إصدار مجلة أدبية علمية تدفع عن العروبة والإسلام التيارات الجارفة إذ ذاك من الاندفاع نحو التغرب في كل شيء وتجدد شباب الأدب العربي في هذه البلاد فقدمت طلباً بذلك إلى إدارة المدينة المنورة وكان الاسم الذي وقع عليه اختياري هو « المنهل » ورفع الطلب إلى سمو نائب جلالة الملك بالحجاز الذي رفعه بدوره إلى جلالة الملك عبد العزيز آل سعود .

ودارت المعاملة عدة دورات وعادت بعد نحو أربع سنوات إلى إمارة المدينة بالاستعلام عن مدى كفاءتي الأدبية والعلمية فقدمت ما كنت نشرته من مقالات في الصحف الخارجية ورفع ذلك إلى الديوان الملكي العالي وفي ذي القعدة ١٣٥٥ هـ صدر الأمر الملكي بالموافقة على إصدار (مجلة المنهل) وبعد استكمال الإجراءات النظامية في المحكمة المستعجلة صدر منها صك شرعي بالإذن لي بإصدار (مجلة المنهل) فبادرت بالشروع في عملية إصدار المنهل وكان الأخوان السيد علي وعثمان محافظ لديهما مطبعة قديمة صغيرة هي الوحيدة في المدينة إذ ذاك فاتفقت معهما على طبع المنهل بها وقبل صدور العدد أصدرت منشوراً عن موضوعات المحلة المرتقبة وأهدافها .

وقد صدر أول عدد من المنهل في ذي الحجة سنة ١٣٥٥ هـ ضيفاً مهلهلاً في طباعته وإخراجه ومواده وكل شيء فيه ولكنه خرج على كل حال وكان صدوره إذ ذاك يعد شيئاً مهماً ولم يكن معي سوى أربعين ريالاً سعودياً

وقت إصداره دفعتمها كلها للمطبعة وبقي على قيمة إصدار العدد الأول عشرون ريالاً ولكنني لم أياس فدفعت بمواد العدد الثاني عدد المحرم ١٣٥٦ هـ إلى المطبعة فصدر أيضاً ثم رأيت نقل طبع المجلة إلى مكة فطبع بها العدد الثالث وهكذا توالى صدورهما منذ ذلك الوقت حتى الآن .

في عنالم التأليف :

أما من ناحية التأليف ففي عام ١٣٤٨ هـ نشرت أول قصة طبعت في المملكة العربية السعودية على ما أعرف وهي (التوأمان) وقد كانت محاولة ناشيء متطلع ثم دأب المنهل على نشر القصص وتشجيعها .

وفي عام ١٣٤٨ هـ عن لي أن أكتب تاريخ آثار المدينة بأسلوب حديث مركز على الاستقراء والمشاهدة والمقارنة والبحث العلمي الدقيق فنكتبت ثمانية أعوام أجوب أنحاء المدينة المنورة وضواحيها القريبة فتجمعت لدى مواد الكتاب في سنة ١٣٥٣ هـ كتبت فصوله فلما أنجزت مسودته ومببضته عرضته على أساذنا المبرور السيد أحمد الفضل آبادي رحمه الله فعرضه بلوره على شقيقه فضيلة السيد محمود أحمد رحمه الله فوافق على أن تقوم المكتبة العلمية التي تشترك فيها المدرسة والأستاذ سامي حفظي بنفقات طبعه فطبع الكتاب في مطبعة الشرق بدمشق الشام وقد ترجم ملخصها إلى لغتين هما الأندونيسية والفرنسية .

وفي سنة ١٣٥٣ هـ أيضاً جمعت ما كنت أنشره في صحيفة (صوت الحجاز) ونشرته في كتيب تحت عنوان (إصلاحات في لغة الكتابة والأدب) في سنة ١٣٦٤ هـ ألقت كتاب (بناء العلم في الحجاز الحديث) وطبعته في مصر ثم ألقت كتاباً متتابعة منها : تحقيق أمكنة في الحجاز وتهامة - ديوان الأنصاريات - تاريخ مدينة جدة - تاريخ العين العزيزية بمجلة - لمحات عن مصادر المياه بالمملكة العربية السعودية - بين التاريخ والآثار - بنو سليم - نشاط وزارة المواصلاات - الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي - رحلة الرياض - رحلة الباحة - رحلة الحجاز - رحلة بني تميم .

وقد طبعت كل هذه الكتب .

أنشطة أدبية أخرى :

عملت على نشر اللغة العربية الفصحى في المدارس . كنت مدرس الأدب في مدرسة العلوم الشرعية فألزمت الطلاب الارتجال في ظهر كل يوم خميس في منتدى عام بهو المدرسة وكان فضيلة مدير المدرسة ومؤسسها السيد أحمد الفضل آبادي مسروراً بكل هذا النشاط محققاً له بكل التشجيع بالقلب واللسان واليد فكان يهب المتفوقين في الارتجال مكافآت سخية .

وأثناء ذلك أسست وزملائي (الحفل الأدبي للشباب العربي السعودي) بالمدينة المنورة واستأجرنا له محلاً خاصاً في أجمل بقعة بالمدينة . وكان هذا النادي الأدبي أول ناد أنشئ علناً بالمملكة العربية السعودية ، وأول ذكر للشباب العربي السعودي .

وقد نشر تعريف للحفل ورسوم أعضائه ومؤسسه في جريدة السياسة الأسبوعية بمصر وبعد هذا النادي أنشئ نادي المحاضرات بالمدينة .

وحين انتقلت إلى مكة رئيساً لتخزير جريدة أم القرى الرسمية كان قد أنشئ هناك نادي الإسعاف للمحاضرات فألقيت به بعض المحاضرات وقد نشرت في كتاب (محاضرات الإسعاف) الذي طبع وصدر بمكة المكرمة إذ ذاك سنة ١٣٦١ هـ .

وحين أنشئت محطة الإذاعة السعودية ألقيت فيها أحاديث شتى متنوعة وأخيراً في السنوات الأخيرة التزمت إذاعة أحاديث متنوعة تحت عنوان (أوعية وغلal) وقد طبعت عدداً خاصاً من مجلة المنهل حوى هذه الأحاديث الملاءمة .

وحينما أنشئت بالمملكة العربية السعودية لجنة المصطلحات الطبية المنشقة عن المجمع اللغوي بمصر عينت من أعضائها ونائب رئيسها وقد نشرت في الصحف المحلية كثيراً من المقالات المتنوعة في الأدب واللغة والاجتماع وما أشبه .

هذا هو المرني الجليل عبد القلوس الأنصاري صاحب مجلة المنهل

الغراء ولقد نشأ على يديه جيل من الشباب المثقف الذين يعرفون فضله على العلم والأدب يوم كان يدرس الأدب العربي في مدرسة العلوم الشرعية في المدينة المنورة ، ولا يزال أبناء الجيل الحديث يرتشفون ذلك الرحيق السائغ من منهل العذب الذي سد فراغاً كبيراً ما كان لعملاءه إلا أدب عبد القدوس الأنصارى وعلمه .

المفكرون والأدباء الذين تأثر بهم :

يذكر الأستاذ عبد القدوس الأنصارى أنه تأثر ببعض الكتاب القدامى وبعض كتاب مصر المحدثين — في النثر — كالجاحظ وابن خلدون والمنفلوطي وفريد وجدي . هذا في المبدأ ثم تأثرت في النثر أيضاً بطله حسين وما زالت مأخوذاً بروعة أسلوبه وبساطته وقوته وعمقه . وفي الشعر تأثرت بالنابغة الذبياني وأبي تمام والمتنبي وشوقي ومحافظ وإيليا أبي ماضي والزهاوي وعلى محمود طه المهندس والكاشف . وقد حاولت التحرر من ذلك التأثير واكن العجز يحول دون ذلك حتى الآن (١) .

وإذا كان الأستاذ الأنصارى لم يذكر الأستاذ عبد العزيز البشري بين من ذكرهم من الأدباء الذين تأثر بهم فأكبر الظن أن الأنصارى قد تأثر بذلك الأديب المصرى الفكه الساخر تأثر به في فن الترجمة القصيرة فقد تناول البشري شخصيات أدبية وسياسية واجتماعية فرسم شخصياتهم بريشته الفنية (في المرأة) ذلك الكتاب الذي تحدث فيه عن شوقي ومحافظ والدكتور محجوب وغيرهم فالمنهج الذي سلكه الأنصارى هو منهج البشري من حيث العناية برسم الشخصيات وإن اختلف الأديبان بعد ذلك فغلب الجانب العلمى على تراجم الأنصارى وغلب الجانب الفنى والأدبى على تراجم البشري ويبقى للبشري فضل السبق والأستاذية .

حياة الفتح بين النحاس وشعره (١)

تمهيد :

هذه دراسة يعدها الأستاذ الأنصاري عن شاعر حجازي عاش في عصر
سلطان المماليك فما الخطوة التي وضعها للدراسة ؟ وما العقبات التي صادفته ؟
وما أهمية هذه الدراسة ؟

خطوة الدراسة :

١ — أحوال القرنين : العاشر والحادي عشر الهجريين وذلك ليتوصل
للبيئة التي عاش فيها الشاعر .

٢ — العوامل الخاصة التي كونت منه شاعراً خالداً .

٣ — معرفة معين شاعريته واكتشاف وجوه تفوقه وتحليقه ، وتبين
ألوان ضعفه ومحاكاته لسواه وتقليده .

٤ — الهدف من هذه الدراسة التعرف على الفتح بن النحاس وشعره في
بحث طويل عريض عميق أخرجه للناس في سفر خاص ليكون أول دراسة
مستفيضة لشاعر حجازي مبدع أكل عليه الدهر وشرب ، وليكون أول
كتاب من نوعه في المكتبة الحجازية الحديثة .

عقبات :

وأنا عالم أن سيقول قوم في هذه الدراسة ماشاء لهم تفكيرهم وآراؤهم
الخاصة ، وهذا الشعور أجده فيه حافظاً كبيراً ومشجعاً عظيماً يدفعني إلى
الإقدام بدل أن يدفعني إلى الانهزام .

وسيقول قوم : أليس هو أحد شعراء القرن الحادي عشر . أليس هو
من أبناء هاتيك الفروق الوسطى التي ضرب الجمود عليها أطنابه ونجم عليها
التقليد .

ولكن أرجو أنهم سينصرفون عن فكرهم هذا متى درسوا هذه الفصول

دراسة معتدل منصف هم إقرار الحق ومبدؤه تفر الحقيقة دون الإصغاء إلى
الخيالات المستمدة من التفكير القاصر المحدود على أن من الجمود نفسه أن
يخال الإنسان أن أواخر القرون الوسطى لم تنتج أعلاماً في الفكر والعلم
والأدب فما التفكير السامي إلا شعلة منيرة وقبس وضاء يودعه الله من يشاء
من عباده كيفما شاء وأنى شاء .

أهمية الدراسة :

وشاعرنا الفتح بن النحاس هو من هذه الطبقة المستنيرة التي جلست إلى
مائدة التفكير السامي مبتعدة في كثير من نتائج تفكيرها عن حضيض التقليد
الأعمى فهو يسمو في تغنيه بالطبيعة وإشاداته بشعر الحب السامي وفي وصفه
لألوان الجمال السامي إلى أوج الشعاعين : عمر الخيام وحافظ الشيرازي ،
وهو يتسامى في جزالة اللفظ وحسن السبك إلى أوج شعراء البيتمة كأبي الفتح
الهمسي وأبي فراس والمتنبي وأضرابهم . فمن كان هذا شأنه وهو من أهل
القرن الحادي عشر قرن بلبلة الأفكار وزلزلة الآثار فأحرى به أن تحرر في
الإشادة بسموه ونبوغه المجلدات والأسفار .

إن شاعرنا الفتح بن النحاس له مزايا عدة في شعره وأدبه فهو
شاعر عصري حديث سبق أوانه وتخطى عصره وزمانه ورفرف بشاعريته
الخصبة على عصر البارودي وشرقي وحافظ وإن له في عالم الحكم وعالم
الوصف وعالم الشعر النفس لأشعاراً من حقها أن توضع في مفرق الأدب
المعاصر ومن حقها أن يتحلى بها كل أدب طريف .

وأنا سأكتب هذه الفصول عن مفخرة شعراء الحجاز في القرن الحادي
عشر الذي دانوا له بالسبق والتفوق ، وأجمعوا على براعته وسموه عنهم
فلقبوه « محلك الأدب » سأكتب هذه الفصول عن هذا الشاعر الذي لم يندثر
شعره من أفواه الأجيال المتعاقبة في هذه البلاد برغم اندثار أكثر أشعار
من عاصروه ومن تأخروا عنه .

لقد كان الأستاذ الأنصاري دقيقاً في تفكيره ومنظماً في دراسته يقلر
(المنهل)

الكلمة وأعباءها ولكنه في نفس الوقت يقلر شرفها ويستهن بالصواب في سبيل المبدأ الذي يؤمن به وهذه الخطوة التي وضعها تدل على أن الأدب السعودي أو أن الدراسات الأدبية في السعودية تقرب من النضج .

على أن العقبات التي تحدث عنها الانضاري ما تزال تمنع الأسف تتردد على أفواه بعض المفكرين بما ينذر بشر مستطير لهذا الأدب فمعظم الدارسين والباحثين في الأدب السعودي يلقون صموداً وإعراضاً من إناس كان يرجى منهم التشجيع والتأييد لأنهم هم من أعمدة هذا الأدب وسيأتي اللور الذي يكونون فيه موضع الدراسة والبحث حينما تنطلق المسيرة في مجال الدراسات الجادة والجامعية للأدب السعودي .

السيد محمد المرزوقي

ترجم الأستاذ عبد القلوس الأنصاري « أبو نبيه » السيد محمد المرزوقي أبو حسين بطريقة أراد أن يعطيها ثوباً قديماً فوضعها تحت عنوان « وثائق الأعيان »^(١) وابتدأ بالحديث عن وفاة المترجم له فقال : اختطفت يد المنون في يوم ٢٥ من شهر صفر الماضي عالماً جليلاً من علماء هذه البلاد وأخذ أعلام الفقه والقضاء فيها ؛

والذي يدل على أن الأستاذ الأنصاري قصد إلى إضفاء جو القديم على الترجمة أنه في هامش الصفحة الأولى التي ذكرت الافتتاحية قال : ولد في اليوم الحادي عشر من شهر ربيع الأول عام ١٢٨٤ هـ وتوفي في ٢٥ صفر ١٣٦٥ هـ فله من العمر واحد وثمانون عاماً

ثم تحدث الأستاذ الأنصاري عن نسب محمد المرزوقي معتمداً على قاعدة استقفاها كما يقول من علماء الأحياء مطبقاً إياها على المترجم له فقال : يقول علماء الأحياء . إن للبيئة التي يولد في محيطها المرء كثيراً من الأثر في توجيهه وتكييفه ، وكانت البيئة التي ولد فيها المترجم له بيئة علمية فأبوه وجده لأمه عالمان فأما أبوه فهو عبد الرحمن الذي قدم من مصر إلى مكة عام ١٢٦٠ و جاور بها وطلب العلم لدى السيد محمد حسين الكتبي وتزوج بها على ابنته المرزوقة له من بنت مفتي المالكية بمكة السيد أحمد المرزوقي وقد أنجبت له المترجم فسماه والده بمحمد المرزوقي تفاؤلاً بأن يكون في العلم كجده لأمه .

وانتقل الأستاذ الأنصاري بعد ذلك إلى الحديث عن مولد السيد محمد المرزوقي وفرح والده به ومشاركة الشعراء للوالد فرخته بقضائده أرخوا فيه ميلاد الابن على النمط الذي كان سائداً في ذلك الجيل :

ثم تحدث عن نشأته وتعليمه مشيراً إلى نظام التعليم في عصر المترجم له فقال :

رباه والده تربية قوية وهذبه وعنيت به التثقيف العلمي العالي بمقتضى أوضاع عصره وتراتبية التعليمية فاستظهر القرآن المجيد ثم انهمك في تلقى العلوم الدينية والعربية حتى ثقفها وخاصة علمى التفسير والحديث وعلم الفقه .

وكان المسجد الحرام حينئذ غاصا بالعلماء يدرسون فيه صنوف العلم في مختلف الأوقات فمكنه ذلك الجو العلمى العبقى من التقدم فى طلب العلم والارتواء من مناهل أولئك العلماء المنقطعين للعلم وقد لازمهم واستفاد منهم

وكانت الإجازات العلمية فى ذلك الوقت شأن ما تقلعه من زمن تقوم مقام ما نسميه الآن « الشهادة العالمية » فكان الطالب إذا كمل تحصيله وأنس أساتيلته برأعته فى العلوم وتأهبه لتدريسها نفحوه بإجازة مرسومة لها تراتيب وشروط وخطط مقررة معلومة وعلى هذه الوتيرة أعطاه علماء عصره إجازات أصبح بموجبها عالماً معترفاً له بالعلم والتأهل لبثه بين الطلاب وقد جلس للتدريس بالمسجد الحرام .

ثم ذكر الأستاذ الأنصارى الوظائف التى تولاها الأستاذ محمد المرزوقى وأخيراً ختم الترجمة بالحديث عن ملامحه وأخلاقه فقال :

كان قمحى اللون طويل القامة نحيف الجسم أبيض الشعر كث اللحية عريض الجبهة واسع الأنف مع شمم فيه واسع العينين أزج الحواجب سبط الأصابع وفيه بعض احديداب لازمه أيام الدراسة لجلده وانكبابه على المطالعة .

هذه صفاته الجسدية أما صفاته النفسية فقد عهدناه دمث الأخلاق ، طلق الحيا هينا رقيقاً معتدلاً رزيناً كيساً لطيف المحضر متواضعاً لبقاً حسن التصريف والتقدير لما يناط به من أمور ولما يحوط به من أجواء . وتلك عبقرية نادرة تستحق التسجيل وقد اشتهر بتبحره فى الفقه الحنفى وبخبرته فى شئون القضاء وكان حريصاً فى المحافظة على اللغة العربية الفصحى فى أحاديثه وبحوثه ودفن بالمعلاة فى مقبرة السادة العلوية .

ولا شك أن السيد محمد المرزوقي من الشخصيات البارزة ذات القدر وأن الأستاذ الأنصاري كشف عن عناصر العظمة فيها من خلال المجالات التي عاش فيها منذ ولادته وقد غلب الجانب التاريخي فيها على جانب التصوير حيث حشد الحقائق التاريخية حشداً ثم ختم الترجمة بذكر ملامح المترجم له بناء على خبرته الشخصية .

إنه سرد حياة المرزوقي مبتدئاً بالحديث عن وفاته ثم وصف شخصيته وهذا المنهج لا يمكن أن يخلق التعاطف بين القارئ والشخص المترجم له ذلك التعاطف الذي لا بد منه كي تؤدي الترجمة مهمتها وتثبت فنيها .

محمد بن مسانح

ترجم الأستاذ عبد القلوب الأنصاري الشيخ محمد بن مانع ترجمة لا يمكن أن ترقى إلى مستوى الترجمات الأدبية الممتازة ذلك أنها ركزت وفي عناوين جانبية على الجوانب التاريخية لحياة المترجم له فيتحدث عن: بيئته ونسبه - ولادته ونشأته وتعليمه - رحلاته في طلب العلم - أساتذته ودراساته - رحلاته في نشر العلم .

وقد بدأ حديثه معتمداً على أثر البيئة فذكر أن من شأن البيئة الطبية أن توجه الناشئ إلى الحياة الطبية الحديثة ^(١) الخ .

وإذا كان الأستاذ الأنصاري قد بدأ حديثه معتمداً على البيئة وأثرها في النشء فإنه انتقل بعد ذلك إلى مبدأ نفسه هو النبوغ والتطلع والطموح ذلك أن النفوس الطامحة كما يقول الأستاذ الأنصاري تأبى على أصحابها القناعة بالمحصل السهل القريب ، وهي لذلك تدفعهم دفعا إلى مقاومته من سبيل تدفعهم إلى المغامرة ، ومن مظاهر هذه المغامرة في طلب العلم قديماً وحديثاً تحمل الطلاب مشاق الغربة والوحدة في سبيل تحصيله من رجال العلم في مختلف الأقطار .

ثم ذكر رحلة الشيخ لذلك الغرض إلى البصرة ثم إلى بغداد . ثم إلى البحر الزاخر في مصر الشيخ محمد عبده فحضر دروس الشيخ وتردد على صاحب المنار ودخل الجامع الأزهر وقرأ فيه على مشايخه الكبار .

ونختم الأستاذ الأنصاري حديثه عن الشيخ محمد بن مانع تحت هذا العنوان الجانبي :

ملاحه وصفاته وأشياء أخرى :

ولم أستسغ كلمة « أشياء أخرى » وهي تدل على أن الأستاذ الأنصاري لم تكن لديه خطة محددة لهذه الترجمة وأنه وجه كل اهتمامه إلى التاريخ لحياة الشيخ محمد بن مانع وقد ذكر كعادته في الترجمة وصفاً شكلياً للشيخ

(١) المنهل : عدد جمادى الأولى ١٣٦٦ هـ ج عدد جمادى الثانية ١٣٦٦ هـ .

مزوجاً بصفاته المعنوية فقال : إنه الآن في أواسط العقد السابع من حياته وهو ربعة في القوم قمحى اللون عربى الملامح عليه سمة العلماء وسمت الوقار وسياء العزيمة والإخلاص تقرأ ذلك في نبرات حديثه وتقرؤه على ملامحه حيناً يتحدث إليك وحيناً يتأمل في موضوع أو يستغرق في تفكير وهو واسع العينين أزج الحواجب الخفيف العارضين غريص الجبهة وفي عرنيته شمم وهو بشوش ، ومن مزاياه تقديره للعلم وحفاوته بالعلماء وبأهل الفضل وهو يسغى بكل ما أوتي من جهد لإنعاش المعارف .. ويعتبر من كتاب العلماء الذين لا تجول أقلامهم في مختلف حقول الإصلاح الدينى والثقافى والاجتماعى وذلك ما يدلنا على رفعة مستوى تعليمه ووعيه الحميد لواجبات العالم الذى ينصب نفسه ليكون مرشداً ومصلحاً .. ولسعادته فى الصحافة جولات تم عما فى طواياه من حكمة فى التوجيه والإرشاد .

الشيخ محمد العمرى ^(١)

١٣٨٢ هـ - ١٣٦٥ هـ

هذه ترجمة أدبية تحدث فيها الأنصارى عن الأبعاد السياسية والنفسية والاجتماعية والشكلية الجسدية للشيخ محمد العمرى ولم ينس أن يحدثنا عن بيئته ثم عرض نموذجاً من نثر المترجم له جاء مقلنة لإحدى قصائده ثم ذكر نماذج من شعر المترجم له مصحوبة بانتقادات نحوية ولغوية وفنية .

ولقد كان الأنصارى فى هذه الترجمة أدبياً أكثر منه مؤرخاً فلم يشأ أن يفتح ترجمته للشيخ محمد العمرى بالحديث عن نشأته وتاريخ حياته وإنما بدأه بالأحداث الجسام التى كان لها تأثير فى شاعرية الرجل ومجرى حياته لقد عاصر العمرى ثلاث حكومات متوالية هى حكومة آل عثمان التركية وحكومة الهاشميين والحكومة السعودية فى زمن الأتراك كان يرى الأشياء من منظار عثمانى محض وقد اجتذبه إلى ذلك عاملان :

عامل الحياة الاجتماعية التى يحياها والتى تشمل بيئته جمعاء . وعامل آخر ألا وهو حب وحدة العالم الإسلامى تحت راية الدولة القائمة إذ ذاك بصرف النظر عن عدم عروبتها إذ يكفى أنها دولة تدين بالإسلام .

وعلى هذا الأساس كان يوجه قوارع اللوم والتأنيب لمن حاولوا أو يحاولون الخروج على الدولة العثمانية فلما استتب الأمر لأولئك الخارجين بعد لآى انزوى الشيخ الشاعر فى بيته خائفاً محذراً من مجريات الأمور . حتى إذا أدرك أنه آمن فى سربه خرج ليلرس بالمسجد النبوى وليشارك بقدر محدود فى الأحداث الجارية وفى الأحاديث الجارية فى المجالس الخاصة التى يهمس بها الناس فى المدينة ما بين سنتى ١٣٣٨ - ١٣٤٢ هـ ولكنه لم يغمس قلمه فى دواة ليسجل هذا الذى يهمس به الناس فى قصيدة ذلك أن شعره قوى عام ونقله حساس صارم والناس سيروون ما يقوله فى مجالسهم الخاصة

(١) المنهل : عدد ربيع الأول ١٣٧٧ أكتوبر ١٩٥٧ م ، و ربيع الثانى ١٣٧٧ هـ

توفى ١٩٥٧ م .

والعامة وهو لا يأمن أن يطير رشاش من هذا الشعر إذا نظم إلى آذان الحكيم
فيئاله الأذى ولذلك التزم جانب الصمت وهذا أعصابه مرغما فكان كالنار
تحت الرماد إلى أن قرب زوال تلك الحكومة فكان لشاعريته المشهورة أثر
في توجيهه وجهة أخرى . كان شعره معروف العنقوان فقصائده في سنى
الحرب العالمية الأولى كان لها دوى لدى الأصدقاء والخصوم على السواء ومن
ثم اجنذبه إليه قائد المدينة واسمه (عبد الحميد) في ظلال الحكم القائم إذ ذاك
فأنشأ له بعض القصائد التي سمعت بعض أبياتها إذ ذاك تحت دوى القنابل وأزيز
البنادق وهكذا مال الشيخ العمري إلى من كان يميل عنهم بسبب الصداقة الشخصية
السياسية التي بسطها له عبد الحميد قائد حامية المدينة المحنك . فلما انقضى ذلك
العهد أيضا عاد الشيخ العمري إلى بيته فانزوى فيه أمدا حتى وافته منيته .

وعلى ما لازم الشيخ من ظاهرة غريبة في حياته الاجتماعية والشعرية تتمثل
في التباعد عن الولاة والدولة القائمة حتى إذا بدأت شمسها بالأقول كان في
جانبا في ساعات المحنة إلى أن تتوارى عن الأنظار كانت معه ظاهرة أخرى
عجيبة تتمثل في أن شاعريته كانت ملهمة إنه ينلر بالأحداث قبل وقوعها
بأزمان ثم ترى تلك الأحداث تقع بعد لآى لما تخيل فلعل هذا من نوع
الفراسة التي تنتج عن الدراسة العميقة للحاضر أبى المستقبل كما يقولون .

والعجيب أن علم الشيخ العمري وأغلبه كان الفقه لم يؤثر على شاعريته
مطلقا فلا تكاد ترى في شعره مصطلحات الفقهاء ولا ما يشتم منه رائحة الفقه
إنه شعر مجنح في أغلب الأحيان فشاعريته طغت على عالميته . وكانت شاعريته
لا تنطلق في كل مناسبة إنما لا تنطلق إلا إذا وجدت روافد من استجابة
نفسية حساسة .

نسبه ووصفه :

يروى الأستاذ الأنصارى عن الشيخ العمري أنه ينتسب إلى عمر بن
الخطاب رضى الله عنه ومن هذه التسمية قيل له العمري . وكان ذا صوت
غير جهورى وكان قمحى اللون ملفوف البدن ربعة مفتول العضلات عصبي

المزاج إلى محد بعيد يستثيره الشيء فيخرج عن هبلوئه ثم يهدأ فإذا هو المنهل العذب الصافي ولم يكن واسع العينين وكان أزج الحواجب كبير الأنف متوسط عرض الفم ذا لحية كثة وكان ذا حافظة قوية وذا ذاكرة قوية يحفظ الكثير من قصص العرب وأشعارهم ويحسن رواية ما يحفظه وكان عنيفا في حبه وعنيفا في بغضه .

وكان لما يحس به من البؤس وعدم التقدير أثر عكسي على صفحات نفسه بالنسبة للمجتمع الذي كان يعيش فيه إنه يرى أكثر من في هذا المجتمع من وراء منظار أسود في أغلب أحيائه وقلما تصفو له الرؤية كان يحب أفراداً فأثروا عليه فأبغضهم إلى آخر الدهر وكان حرباً صارخة عليهم حتى الممات . وكان يحب آخرين فوالاهم حتى الممات ولا غزو فقد كان هؤلاء يعطفون عليه ساعات المحنة ويواسونه مواساة كريمة ويحذبون عليه حذبا عظيما ويعطفون ويغضون عن هفواته فقابل خيرهم بخير وحبهم بحب وعطفهم بالثناء ولا غرو أن ينشئ فيهم غرر القصائد فالشاعر مرآة ما ينطبع في نفسه يظهر على صفحات شعره من حب وبغض ولذا اعتقد أنه كما كان يمدح من يحب يهجو من يبغض إليه ويذكر الأستاذ الأنصاري أنه لم يقف له على هجو فرد وإنما وقفت له على نقد دول وحكومات وثورات وناثرين .

في الشيخ العمري لا محالة شيء من شذوذ العباقرة إنه كان عبقريا فريداً في شاعريته في المدينة المنورة وهو يشعر بعبقريته هذه المظمورة المهمة فيضني عليه هذا الشعور المكبوت طوفان من الآلام والشذوذ وعصبية المزاج .

وقد خلف الشيخ ولداً وحيداً هو شاعر أيضا ويقم بالمنطقة الشرقية ، واسمه عبد السلام العمري .

مجمـل حياته :

ولد حوالي عام ١٢٨٢ هـ وأصله من العرب الذين هاجروا إلى إفريقية وكانت ولادته في إحدى المدن بالجزائر (بسكرة) وهاجر إلى المدينة المنورة في حدود سنة ١٣٠٣ هـ وكان أشهر أساتيد به الشيخ عبد الجليل برادة

ويعتقد الأستاذ الأنصاري أنه كان للعمري صلة بالشيخ حبيب الرحمن وأضرابه من علماء ذلك الجيل في المدينة ..

وحدثت العمري أنه عمري النسب أي أن جده الأعلى هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولا بد أنه تلقى مبادئ الدراسة في بلده فقد هاجر بعد ولادته بتسعة عشر عاماً ولكن بخل تعليمه كان بالمدينة . ويدل على ذلك خطه الرقعة الأنيق فإن المغاربة ما كانوا يستعملون هذا الخط ولا بد أنه تعلمه من أستاذ بالمدينة نفسها .

وقد مكث بالمدينة طيلة حياته المدينة وقد مرت عليه بها شذائد من المعيشة القاسية والحياة المضطربة والخوف واكتنه مع ذلك لم يرم عنها حولا . أما وفاته فيظن السيد عبيد مدني أنها كانت في عام ١٣٦٥ هـ أو ١٣٦٦ هـ ثم عرض لنا الأستاذ الأنصاري نماذج من أدب الشيخ العمري نثراً وشهراً وله تعليق على ذلك النثر وجولة مع هذا الشعر أي أن الأمر لم يقف عند حد ذكر النموذج بل تجاوزه إلى التعليق والنقد مما حملنا إلى نقل الحديث عنه إلى فصل (المقالة النقدية) .

ثانيا : تراجم لمؤلفين آخرين

ترجم الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار سيرة (صقر الجزيرة) جلالة الملك عبد العزيز آل سعود وإذا أردنا أن نتعرف على الملامح العامة لهذه الترجمة من خلال الصحافة فإننا نجد الدكتور محمد حسين هيكل يبرز لنا أهم ملامح الكتاب في المقدمة التي كتبها له والتي نشرت في مجلة « المنهل »^(١) فالكتاب يعرض طرفاً من أعمال الملك عبد العزيز في صورة أدبية جذابة وهو في نفس الوقت يعرض تاريخ الجزيرة العربية في حقبة تاريخية من أدق الحقب في حياة الشعب العربي إذ تمثل يقظة هذا الشعب السعودي وتطوره تطوراً صاغه الملك عبد العزيز بحكمة وحزم وحسن سياسة ، وكان لسياسة الملك عبد العزيز أثرها في إقرار السلام في شبه الجزيرة العربية ، وفي توجيه النهضة في تلك الأرجاء توجيهاً يهتد به بخير النتائج فأنت ترى في هذا الكتاب

كيف تغلب (صقر الجزيرة) على ما كان بين اليمن والمملكة العربية السعودية من خصومات أدت غير مرة إلى القتال ثم انتهت إلى إقرار حالة الرخاء والأمن بين الملكين وبين الدولتين ، وأنت ترى فيه كيف استطاع الملك عبد العزيز أن يقر علاقاته مع الدول الكبرى وفي مقدمتها بريطانيا وأمريكا على أساس من المودة وحسن التفاهم من غير أن يضيع على بلاده حقاً أو يحقق لطامع مطمعاً ، وأنت ترى فيه ما قام به عاهل الجزيرة من إصلاح أحوالها وتوجيهها إلى الاشتراك في الحياة العالمية العامة ، أنت ترى هذا وغيره مفصلاً تفصيلاً دقيقاً يهديك السبيل إلى تعرف الطريق الذي رسمه العاهل العظيم لهذه البلاد التي كانت مجهولة حتى أمس في كل ما لا صلة له بـعلمها الإسلامية المقدسة والتي أصبحت اليوم محط الأنظار تقديراً للجهد السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي يبذل فيها .

هذا من حيث مضمون الكتاب أما أسلوبه فيجمع إلى السهولة الصفاء ويتأثر بالحوادث حتى ليروى ما بعد عهده منها وكأنه حدث أمس وكأنك تطالع في الكتب السيارة مع فارق التحيص الذي يتاح للمؤرخ بقليل لا يتاح للصحفي .

وهذا الأسلوب الممتلئ بالحياة يدفعك لتتضي في مطالعة الكتاب فلا تقف منه حتى تبلغ آخره . إن أسلوب الكتاب علمي متأدب يعرض تاريخ الجزيرة وصقورها في عهد اليقظة العربية فهو كتاب تاريخ بالدرجة الأولى قبل أن يكون ترجمة حياة .

تقي الدين الفاسي (١)
مؤرخ مكة في القرن التاسع الهجري
٧٧٥ - ٨٣٢ هـ

للأستاذ حمد الجاسر

أراد الأستاذ حمد الجاسر أن يوفي هذا المؤرخ حقه من بيان حاله والإشادة
بفضلته فعول على المؤرخ نفسه فيما كتبه عن نفسه في كتابه «العقد الثمين» مع
زيادة بعض إيضاحات تتعلق بمؤلفاته.

وقد بدأ الأستاذ الجاسر حديثه بذكر مولد المترجم له ونشأته ورحلاته
فقال : ولد المؤرخ الحافظ أبو الطيب تقي الدين محمد بن الإمام العلامة القاضي
شهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي الحسيني المكي المالكي الشهير «بالفاسي»
في ليلة الجمعة ٢٠ من ربيع الأول سنة ٧٧٥ بمكة من أسرة علوية النسب
كرامة الحسب اشتهر كثير من أفرادها بالعلم والفضل وتولى كثير منهم المناصب
العلمية من قضاء وإفتاء وإمامة في مكة والمدينة.

..... ثم بعد أربع سنوات من ولادته نقل مع والدته وأخيه عبد اللطيف
إلى المدينة لأن خالهما قاضي الحرمين كان مقبلاً بها قاضياً ، ولمّا
بلغ من العمر ثلاث عشرة سنة عاد مع أهله إلى مكة وبعد إحدى عشرة سنة
من عودته إليها سافر إلى الديار المصرية لطلب العلم وعمره إذ ذاك أربع
وعشرون سنة ثم رحل من مصر إلى دمشق ومنها عاد إلى مكة وبقي فيها أقل
من سنة ثم رحل الرحلة الثانية إلى مصر في سنة ٧٩٩ هـ ومنها زار المسجد
الأقصى ثم عاد إلى القاهرة واستمر يتردد بين القاهرة ودمشق والإسكندرية
وفلسطين وغيرها من البلدان العربية لطلب العلم واجتمع بمشاهير علماء تلك
البلدان في ذلك العصر وكان في أسفاره دعواً على الاستفادة والإفادة مشغلاً
بالتأليف .

ثم انتقل الأستاذ الجاسر للحديث عن مشايخ تقي الدين الحسيني وتلاميذه
فقال معتمداً على المترجم له أيضاً :

(١) المنهل : عند ذو القعدة وذو الحجة ١٣٦٦ هـ .

أما مشايخه الذين أخذ عنهم فقد وصفهم بأنهم كثيرون جداً قال (ولعلهم يبلغون خمسمائة) وهم من أفاضل العلماء وقد يجد الباحث في ثبت العلماء الذين روى عنهم كثيراً من فضليات النساء ممن اشتهرن بالعلم والفضل والصلاح في ذلك العصر الذي يصفه البعض بالجهل وبالظلمة مثل السيدة أم الحسن فاطمة بنت مفتي مكة الجرادى ومريم بنت أحمد الأخرجى وعائشة بنت عبد الهادى وأم عيسى بنت أحمد الحنفى وفاطمة بنت عبد الهادى وغيرهن ممن ترجمهن في كتابه « العقد الثمين » ومن شيوخه الذين تلقى العلم عنهم فيلسوف المؤرخين العلامة ابن خلدون ومن أقرانه الذين استفاد منهم الحافظ المحدث ابن حجر العسقلانى صاحب فتح البارى وغيره من المؤلفات الجليلة .

ثم انتقل الأستاذ الجاسر إلى الحديث عن الأعمال التى تولاها فقال :

١- فى سنة ٨٠٧ هـ ولأجله الملك الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق قضاء المالكية بمكة منفرداً وهو أول من وليه بالانفراد .

٢- وفى سنة ٨١٤ ولّى تدريس المالكية فى المدرسة السلطانية الغياثية « ثم استعير الأستاذ الجاسر بذكر نبذة عن هذه المدرسة من كتاب « العقد الثمين » للمترجم له فذكر الأستاذ الجاسر أن المترجم له قال فى ترجمة السلطان أعظم شاه بن اسكندر شاه غياث الدين والمظفر صاحب بنجالة من بلاد الهند وصاحب المدرسة التى بمكة على باب أم هانئ من المسجد الحرام كان ملكاً جليلاً له حظ من العلم والخير وبعث إلى مكة والحرمين بصداقات طائلة غير مرة ففرقت بهما وعمّ بذلك النفع وبعث مع ذلك بمال لعمارة مدرستين بمكة ومدرسة بالمدينة وشراء عقار يوقف عليهما .

وأكملت عمارة مدرسة مكة فى النصف الأول من سنة ٨١٤ هـ وفى جمادى الآخرة ابتداء فيها التدريس فى المذاهب الأربعة ودرست فيها لطائفة « المالكية » ... وقسم الوقف خمسة أقسام : قسم للمدرسين الأربعة بالسوية بينهم وثلاثة أقسام للطلبة وهم سبعة ونفراً وعشرون من الشافعية وعشرون من المالكية وعشرون من الحنفية وعشرة من الحنابلة بالسوية بينهم .

نقد الترجمة :

لقد صرح لنا الأستاذ الجاسر بأنه اعتمد على ما ذكره تقي الدين الحسني عن نفسه في كتابه «العقد الثمين» وارتبط ارتباطاً حرفياً بذلك وكنا نود لو أنه استنى مادته العلمية من هذا الكتاب ومن غيره ثم عرضه بأسلوب حديث وما أكثر أساليب الترجمة في العصر الحديث إلا أن الأستاذ الجاسر حرص على أن يقدم صورة من ذلك القديم كما هو وكأنه يريد أن يقول إن ذلك القديم على قدمه عظيم لكننا نتفق مع الأستاذ الجاسر في استقاء المادة العلمية من مصادرها الأولى على أن تكون طريقة العرض متمشية مع طبيعة العصر الذي نعيش فيه ، فلو أنه عقد فصلاً عن الحياة التعليمية في ذلك العصر وتحدث فيه عن مشايخه وتلاميذه وعن تعليم المرأة وعن المدرسة السلطانية الغياثية لكان في نظرنا أكثر دقة ونظاماً .

على أن ثمة ما يلفت النظر فقد ترجم تقي الدين الحسني لنفسه كما ترجم أستاذه ابن خلدون لنفسه وهذه ظاهرة فنية كان ينبغي أن يقف عندها الأستاذ الجاسر أو يشير إليها لأنها تبشر بميلاد الترجمة الذاتية في الأدب العربي على أن الملاحظ على ترجمة الأستاذ الجاسر أنها تاريخ كلها وليس للأدب فيها نصيب ، وكان الأستاذ عبد القلوس الأنصاري غير راض عن قول تقي الدين الحسني أثناء توزيع الوقف على الأساتذة والطلاب فذكروا ثلاثة أقسام للطلبة وهم سبعون نفرأ ، كأن الأستاذ الأنصاري غير راض عن كلمة « نفرأ » ومن ثم قال في هامش الصفحة « نفر لغة الجماعة وكان الصحيح أن يقول شخصاً أو طالباً أو نحو ذلك » بيد أننا نرى أن المؤلف ربما قصد إلى كلمة نفرأ متأثراً بقول الله سبحانه في آخر سورة التوبة « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » فالاستعمال إذن ليس صحيحاً فقط بل فصيح وأفصح مما ذهب إليه الأستاذ الأنصاري .

محمد جميل حسن

.. حين يكتب الأستاذ محمد علي مغربي عن أستاذه في المدرسة « محمد جميل حسن »^(١) يركز حول شخصية الأستاذ ورسالة المعلم ونجاح الأستاذ في دروسه برغم جفاف بعضها وضربه القلوة الحسنة لتلاميذه وفهمه لأصول التربية ونظم التعليم فأستاذه كان شخصية محبوبة مهابة . كان أستاذاً بمدرسة الفلاح بمجدة لبضعة أشهر فقط ولكن أثره ما يزال قويا في نفس تلميذه لأنه كان ذا شخصية قوية تفرض نفسها على الناس وكان تأثيره فيمن حوله مزيجاً من المحبة والمهابة أو من الحب الذي يوجب الاحترام ، وكثير من الناس ذوى الشخصيات القوية يحبون أو يهابون ولكن اجتماع الصفتين للشخصية هو دليل قوتها واكتمالها والأستاذ محمد جميل حسن من هذا الطراز الفريد من الناس .

عبرى سبق عصره وزمانه فقد كان يعد البلاد العربية كلها مواطناً لكل عربي في وقت كان كل قطري عربي فيه يدعو إلى إحياء قوميته ويتمسك بإقليميته ، وكانت الوحدة العربية ما تزال حلماً في ضمير الزمان .

وكان مؤمناً برسالة العلم فوهب نفسه لها مدرساً في المدرسة الفلاحية عفيف اليد واللسان . كان يحترم نفسه ويحترم العلم ، وكان كل همه أن يثبت هذه الرسالة في تلامذته وطلابه . وقد عاش وحيداً كالمفرد العلم لم يربط نفسه إلى زوجة ولم تهف نفسه إلى ولد فجعل من أبناء الأمة أبناء له ومن الوطن العربي الأكبر بيتته التي يأوى إليها أينما حل ورحل .

كان أصلي ما يكون أستاذاً أو قائداً عظيماً أو زعيماً مجاهداً .

كانت الدروس التي يلقاها هي : الجغرافيا والهندسة والحساب .

استطاع أن يخلق من درس الجغرافيا مادة للدراسة التاريخ بل للدراسة الوطنية وهو مثل من الأمثال الرفيعة التي تدعو إلى الاعتقاد بأن العلم أستاذ لا كتاب ولا مادة .

وقد لقن تلاميذه درساً آخر هو أن شخصاً يهب نفسه لفكرة لابد أن يحققها بتوفيق الله إذا كان مخلصاً لها ومؤمناً بفائدتها .

(١) المنهل عدد ذو القعدة وذو الحجة ١٣٦٧ هـ .

كان مثلاً عالياً من أمثلة الخلق الرفيع فلم تلحق اسمه شائبة ولم يذكر اسمه إلا مقروناً بالاحترام والمهابة فقد صان نفسه عن كل ما يضع النفوس أو يزرى بها كان قنوة حسنة لتلاميذه ومريديه وكان يحب النظام ويحرص عليه ويدعو له .

كان يرى أن الفسحة التي تمنح للتلاميذ وضعت لتكون فرصة للترفيه عن التلاميذ من عناء اللرس والمراجعة فلا يسوغ أن تستعمل إلا في هذا الغرض .

وكانت له فراسة خاصة في تلاميذه فإذا ما رأى من أحدهم ذكاء أخذ بيده فشجعه وأولاه عنايته .

أجمل ما في هذه الترجمة أنها ركزت على جوانب من شخصية المترجم له ذات مساس بالحياة الاجتماعية وذات تأثير في سلوك الأفراد ركزت على ما يهم الناس من شأن المترجم له وهذا اتجاه حسن في الترجمة يدخل بها إلى عالم الأدب ولكن حين يقف الكاتب عند حياة المترجم وبيئته وتعليمه ووظائفه فإنه يدخل بالترجمة عالم التاريخ وحبذا الجمع بين الاتجاهين .

رجل وعمل^(١)

للأستاذ عبد الله عريف

يتزعم الأستاذ عبد الله عريف لأبي النهضة الأدبية في البلاد العربية السعودية ويعرف بوطنية (محمد سرور الصبان وألمعيته) فيقول : عندما يجيء اليوم الذي تؤرخ فيه حياة الحجاز في العهد السعودي فإن صفحة خطيرة من صفحاته ستفرد ولا شك لحياة محمد سرور الصبان ذلك أن تاريخ حياته الفكرية جاء من تاريخ الصحوة الذهنية التي جاءت في حياة الحجاز عقب الثورة العربية الكبرى وما وليها من انقلاب سياسي تبعها حيوات اقتصادية وأدبية وإدارية ، وكان لمحمد سرور الصبان من التأثير في تلك الحيوات الثلاث. وهي أظهر مظاهر نهضتنا ما جعل منه قوة بارزة الأثر في كل حركة يراد منها تدعيم وإنشاء مظهريين عن حيوية الأمة ويدل على مشاركتها الأهم في الميراث الإنساني اليمام . ولقد عاش ولا يزال في مركز الاستجابة لكل ما جوله ولا يزال الناس يغدروهم الإحساس بوجوده والتطلع إلى فعاليته كلما حز بهم أمر أو دفع بهم إلى مشروع جماعي أو فكرة فردية فما أكثر ما يقولون محمد سرور .

وهذا لا يعنى الإقرار المطلق بمكانته كرجل وبشخصيته كبطل ذلك أن قاعدة الحب والبغض والنيل والحرمان التي نجعل منها الفكر العادي مقياساً لحياة العظماء والزعماء لا تند عن طريقها في تشخيص مكانة محمد سرور الصبان فالناس من أمره على أشد ما يكون الخلاف بين رأيين .

هكذا يقول الأستاذ عبد الله عريف في كتابه (رجل وعمل) شارحاً شخصية هذا الرائد العربي ومقوماتها العظيمة فيكسب الأدب كتاباً جديداً في فن الترجمة الصادق ويلقى نوراً أمام العالم العربي على شخصية رائدة نزيهة حرة جديرة بأن تدرس وبأن يقتدى بها في أقطار العروبة فهو زعيم الحركة الأدبية منذ نشأتها ومن الرعيل الأول الذين أسهموا في بناء صرح الأدب .

على أن خير ما في حديث الأستاذ عبد الله عريف هو عدم الخرافة عن مناهج التحليل والتعليل وإصدار أحكامه عن تفكير صحيح وتقدير دقيق وموازنة معتدلة بين الأشياء وإذا استقامت للكاتب هذه الخصال التي تعصمه من الجموح فلا غرابة في أن يكون نتاجه ممتعا وترجمته أدبية ناجحة .

نتائج وحقائق

قادتنا هذه الدراسة إلى ضرورة المنهجية في البحث العلمي لأن العلم بمنهجه لا بموضوعه ومن ثم كانت هذه الدراسة رائدة في الأدب السعودي الحديث لأنها قامت على خطة توجهها قوانين علمية واعتبرت على أهم مصادر ذلك الأدب وهو مجلة (المنهل) أقدم مجلة أدبية في السعودية وقد كتب لها الاستمرار في أداء رسالتها حتى اليوم فهي من قوى النهضة الفكرية والأدبية والاجتماعية في السعودية وهي في نفس الوقت مرآة صافية وصادقة لهذه النهضة في مجالاتها المختلفة فالحكومة السعودية شأهت صراع الحضارات ولكنها انتصرت للحضارة العربية الإسلامية واتخذت التوحيد لها شعاراً والوحدة أسلوباً والسلفية عقيدة وشريعة مع الأخذ بالوسائل المادية الحديثة في الحياة المدنية والجيش وكانت شخصية الملك محور السياسة أول الأمر إلى أن تشكل مجلس الوزراء والعلاقة بين الحكومة والشعب تقوم على التعاون والتناصح ونفس الأسلوب يسود حياة الناس فلا صراع وإنما تعاون على البر والتقوى .

وقد اهتمت المنهل بحياة الإنسان في السعودية وبتصوير طبيعة ذلك الإنسان وهي مزاج من البداوة والحضارة ومن العقل الشرقي والغربي ومن القديم والجديد وهو في تصوراته يرتبط بالمنطق اليهملي لا التجريدي ، وقد سعد ذلك الإنسان حين تفجر البترول في أرضه وصار ذلك السائل الأسود عصب الحياة .

وقد حرصت (المنهل) على إحياء تاريخ هذه البلاد كوسيلة من وسائل

التعبئة المعنوية للأفراد لينهضوا من جديد ومن ثم عرضت تاريخ التعليم والأدب والصناعة والتجارة والزراعة وما إلى ذلك .

وإذا كانت قضية الأدب في السعودية تهمنا بالدرجة الأولى فلأننا نرى أن ذلك الأدب عبر عن اهتمامات الناس وصور بيئته أصديق تصوير ومن ثم كانت النظرية الإقليمية من أهم الوسائل المساعدة والموجهة للدراسة ذلك الأدب .

وكانت المنهل منبراً عاماً أدلى منه المفكرون والأدباء بأرائهم ومقترحاتهم في النهضة وهذه الآراء والمقترحات صارت فيما بعد واقعاً محسوساً بحيث نستطيع أن نقول إن أدباء السعودية ومفكرها هم زعماء الإصلاح في السعودية الحديثة وأن دعواتهم لم تذهب أدراج الرياح . لقد كانوا قلب السعودية النابض وعقلها المفكر فشعروا بنواحي النقص في البلاد ، والشعور بالنقص أول مراتب الكمال ، وكانت المنهل هي الميدان وكان الهدف هو الانطلاق نحو الإصلاح الاجتماعي الشامل في ظل هذا المبدأ (لا طفرة ولا جمود) .

وقد أسهمت (المنهل) في تنمية الوعي وتحريك الرأي العام في شتى المجالات : الأدبية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية فعقدت الندوات وأجرت الاستفتاءات المتنوعة والتساؤلات تلو التساؤلات مثل : هل الأدب أثر من آثار الصحوة أم عامل من عواملها وهل التقدم الأدبي يسبق التقدم العلمي أو العكس هو الصحيح ؟ وهل التقدم السياسي يسبق التقدم الأدبي أم العكس هو الصحيح ؟ وكان للأدباء في كل ذلك آراؤهم تتفق أحياناً وتختلف أحياناً إلا أنها جميعاً عملت على النهوض بالحركة الأدبية السعودية لأن النقاش كان موضوعياً والنقد كان بناء واتفق الجميع على أن الأدب وحده لا يلبس الثروة على البلاد .

وثمة ألوان أخرى من الاستفتاءات تطل على المجتمع وقضاياها فالمنهل تعرض هذا الاستفتاء : كيف نرسم برنامجاً عملياً قابلاً للتطبيق في رفع مستوانا الاقتصادي؟ واستفتاء آخر : أيهما ألزم لنا الآن الزراعة أم الصناعة ؟

«وسؤال ثالث : هل الأخلاق شيء مكتسب أم هي فطرية ؟ واستفتاء رابع : هل الحرب تطوى الحضارات أم تنشرها ؟ وسؤال خامس أ : هل العقول سواء ؟ وحول هذه الاستفتاءات وتلك التساؤلات دارت المناقشات هادئة هادفة تريد الإصلاح ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ومن كل ذلك نذكر حرص (المنهل) وكتابها على ربط التفكير بالتطبيق والدعوة إلى ضرورة الأخذ بالأسلوب العلمي في معالجة الأمور والحرص على النقد البناء والرغبة في التقدم ومعالجة اهتمامات الناس جميعا وأبناء الأمة كلهم : المثقف والعامل والفلاح والغنى والفقر والعمل على حل مشاكلهم والنهوض بهم في مجتمع يبدأ من الصفر .

ومصر في مرآة (المنهل) كانت الموجهة للحركة العلمية والأدبية في السعودية وهي في نفس الوقت تقوم بالتشجيع والوزن لهذه الحركة .
أما أثر (المنهل) في النهضة التعليمية والثقافية فقد تمثل علاوة على ما مضى في العمل على العناية بالتعليم تاريخيا ونشراً ومتابعة لتطوراتهِ وتوجيهات كبار المربين وسياسة التعليم ومشاكل الطلبة والامتحانات ورصد حركة النهضة بين التأثير والتأثر والثقافة وأثرها ووسائلها من قراءة ومكتبة ومدرسة والجانب الإلهي في الفكر السعودي من خلال الربط بين الإيمان والمعرفة كما عرضت للوحدة الثقافية العربية وللمؤتمر الثقافي الأول المنبثق عن اللجنة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية الذي عقد في جدة ودلالة انعقاد المؤتمر في السعودية على المستوى الثقافي الذي وصلت إليه البلاد .

إن الذي يطالع (المنهل) يجد فيها صورة شاملة لألوان النهضة السعودية ويذكر الدور الكبير الذي قامت به في الحياة الاجتماعية وتنمية الوعي وتحريك الرأي العام وقضايا الثقافة والتعليم التي شغلت أذهان الناس واستحوذت على تفكيرهم على أن الذي يهمننا أكثر من غيره هو قضية الأدب في السعودية . ذلك أن الفكرة الأدبية كانت رائدة إلى النجاح في شتى الموضوعات الحيوية ومع ذلك ثار حولها جدل طويل ونقاش ساخن لكنه كان كغيره من الجدل

والنقاش الذي تاز على ضفاف (المنهل) كان جده لا مشمراً كما كان نقاشاً هادفاً فقد قصد من وراء هذا وذلك بلورة الفكرة الأدبية في السعودية وتبسيط الأنصواء على قضية الأدب لتري النور في قوة ووضوح .

وكان التركيز حول رسالة الأدب وأهدافه العامة والخاصة فالأدب يدعو إلى الخير وينفر من الشر ويلتمس طريق الحق ويعمل على إزهاق الباطل وهو في كل ذلك يحرص على مقاييس الجمال الفني ويلتمس أسراراً ومن ثم فكلمة أديب شرف لا يجوز أن يدعيه كل إنسان ولولا الأديب السعودي لما كانت (المنهل) ولا غيرها من صحف السعودية فالذين أنشأوا الصحافة السعودية أو أشرفوا على مسيرتها وبذلوا ما بذلوا من تضحيات جسدية ومالية وعقلية هؤلاء كانوا أدباء أولاً وأخيراً ومن ثم كانت الصحافة حاملة لواء الأدب ورسوله ومقدمة جيشه المكافح لبناء المجتمع وتوجيه التيارات الفكرية والثقافية ورسم الخطوط العريضة للمستقبل في رزاة واتزان سالكة الطريق الوسط بين الإفراط والتفريط وذلك طريق الفضيلة والحق والخير والأدب فالأدب هو الحياة بمباهجها ومسراتها وبآلامها ومتاعها وبمطالبها ورغباتها وبجواندها وسوالبها وبجميع ما تحتويه الحياة من ماديات وروحيات وبذلك يبدو أن موضوع الأدب عام وشامل للفن وشامل للحياة فالفن جزء من الحياة والأدب ذو جناحين : الفن والحياة وخيال العرب لا يتجاوز بحال من الأحوال مناطق الحقيقة التي يصفونها إذا وقعت أو يتخيلون وقوعها وفي إمكانهم تحقيق ما يتخيلون هذا بينما يتخيل غيرهم من الشعوب ما لا يستطيعون تحقيقه ولهذا يشط بهم الخيال إلى تصور ما يستحيل تحقيقه فالمدينة الفاضلة التي تخيلها أفلاطون للعالم الغربي لم تتحقق مطلقاً بينما أقام العرب المدينة الفاضلة فعلاً في (يثرب) وفي كل مدينة تولوا أمرها من مدن الدنيا . ولقد أدرك الأديب السعودي هذه الحقيقة فالتزم بها وإن عاش بعض الأدباء السعوديين في البرج العاجي قليلاً ولكنهم لم يلبثوا أن هبطوا إلى أرض الواقع ومن ثم دعا الأديب السعودي إلى واقعية إسلامية في الأدب تستمد أنوارها من (يثرب) لا من (أثينا) وهو أدب إنساني رحيب شعاره الأخوة والتسامح والاتحاد

وأسلوبه أنحصر في شكله وغاياته والخضرة في لغة الفن تعني البهجة والابتسام والتفاؤل وملاقة الصعاب بقلب إيجابي كبير ، وهو يدعو إلى الانطلاق والتحرر من قيود الوثنية الفكرية مع الأخذ بأسباب التقدم والقوة والاعتماد على النفس بعد الله وبشر بحياة عربية حرة يعيشها هذا الشعب كما عاشها أجداده في عصور مجدهم التليد . فالأدب الحديث هو خلاصة آداب العصور القديمة العربية وخلاصة آداب الغرب وثقافته وعلمه وهو يستخلص دراساته من هذا المزيج الذي أنتجته عبقریات كثيرة ومدنیات سائلة هي تراث الفكر الإنساني في شتى العصور والأزمان والنهضة الأدبية الحديثة في السعودية نهضة عصامية لم تعتمد إلا على دراسات فردية خاصة يعاونها اطلاع نهم وإخلاص نادر وذكاء وقاد ورغبة خالصة في الثقافة والعلم ولعل هذا هو ما يفسر لنا السرب في ازدهار الأدب في عهد صحافة الأفراد وعلى رأسها مجلة (المنهل) .

وقد مرّ الأدب السعودي في تطوره بمراحل ثلاث :

١ — البداية من ١٣٣٥ هـ — ١٣٤٣ هـ .

٢ — التكوين من ١٣٤٣ — إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية .

٣ — الازدهار وهو أدب ما بعد الحرب حتى الآن . وقد لحظ الأدباء والمفكرون في السعودية عدم انتشار الأدب السعودي خارج السعودية مع أنهم يلاحظون انتشار آداب الشعوب الغربية الأخرى في البلاد السعودية فتشككوا في أدبهم ووقفوا وقفة محاسبة ووزن لذلك الأدب وكان استفتاء للمنهل بعنوان (أدبنا وهل يصلح للتصدير) وقد أدلى أدباء السعودية بآرائهم وبإفاضة في هذه القضية فزعم بعضهم أن عدم انتشار الكتاب السعودي والأدب السعودي خارج السعودية راجع إلى أن ثقافة الأدب السعودي سطحية وإلى عدم وجود وسائل للنشر خارج البلاد

والحق أن الكتاب السعودي كان حديث عهد بالحياة وأن الأدب السعودي الحديث كان في بداية ازدهاره فلم يكن الوقت قد حان لتصدير

الأدب السعودي إلى الخارج ومرت الأيام ونضج الأدب السعودي فاشتركت السعودية في معرض الكتاب الدولي بالمقاهرة عام ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م وكرمت الدولة أدباءها عام ١٤٠٤ هـ ولكن الأديب السعودي حين طرح استفتاء التصدير كان في مرحلة قلق وكان يفكر في المستقبل الأدبي تفكيراً جدياً ومن ثم طرح استفتاء آخر في (المنهل) حول أفول نجم الأدب وتعاसे الأديب فمن قائل إن الأديب بطبيعته تعس بائس وإنه لا مستقبل للأدب لأن العصر عصر العلم ومن قائل إن نجم الأدب لم يأفل وما زال متألقاً وثمة اتجاه ثالث يجعل الأدب والعلم رفيقين يعملان على تحقيق السعادة للإنسان بدلاً من أن يتصارعا فيدمرا نفسيهما بل يدمران الإنسان أيضاً وذلك ما يحكيه الأستاذ محمد عالم الأفغانى في أقصوصته (طائران إلى القمر) على أن دولة الشعر على وجه الخصوص قد تأثرت أكثر من دولة النثر بضجيج الآلة والسرعة الحديثة الحثيثة . والأدب الحديث في محنة سببها مزاحمة المتأدين للأدباء ، وضعف الثقافة العميقة في الشعوب ومدت المنهل جسورها خارج المملكة تتبادل الأفكار والآراء مع أدباء البلاد العربية الشقيقة في قضية مستقبل الأدب . وفي غيرها من القصايا وهذا هو الأستاذ عمر بن الهسكرى مدير مدرسة الفتح بسطيف في الجزائر يقول :

الأدب لا ينقطع لأنه من جملة الحوادث التاريخية والتاريخ يعيد نفسه . وهذا هو نتاج أدباء السعودية في المقالة والقصة والشعر وترجمة الحياة يشهد بازدهار الأدب وأن ما ثار حول مستقبل الأدب وفائده إنما كان ظاهرة صحية ودليل انتعاش وقد ترك آثاراً طيبة في عالم الأدب والنقد فالمقالة متعددة الأنواع بحسب الفن والعلم والأسلوب والموضوع وقد كانت الصحافة السعودية قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها صحافة مقال تعتمد في تحريرها اعتماداً كبيراً على المقالات المختلفة الأمر الذي دفع بالأنصارى إلى أن يقول إن الناس ملوا أدب المقال ومن ثم فهو يريد أن ينتقل بهم إلى أدب الحوار ثم تحولت الصحافة السعودية إلى صحافة مقالة وأقصوصة وكان للخبر في هذه الصحافة دور ثانوى وقد نشأت المقالة السعودية نشأة طبيعية في

هذه الأرض. ولم تستجلب من خارجها حيث كانت المرحلة الأولى لنشأة المقالة محاولة لإحياء فن الرسالة ثم تكون فن المقالة ونضج فتحة طائفة من الأدباء استطاعت أن تخلق في هذا الجو وتصوغ نماذج صالحة تلونت عند البعض باللون الحوارى وبذلك كانت المقالة معبراً إلى القصة . على أن هذه المقالات صورت فيما صورت من أفانين القول ومعسول البيان طبائع بعض النفوس والعلاقات الاجتماعية بين الأفراد وسيطرت المادة على تلك العلاقات كما في مقال (وفاء الأصدقاء) للأستاذ الأنصارى . ولم يقف الأمر بأدب الحوار على ما كان يدور في ندوة (المنهل) من أحاديث حول التعليم والزراعة والصناعة والاقتصاد والأدب بل صار الأديب الواحد يجرّد من نفسه شخصاً آخر ثم يجرى الحديث فيما بينه وبينه على نحو ما نشاهد ذلك في (محاور دينية) لعبد الرحمن بن ناصر السعدى وطبيعى جداً أن تخطى المقالة الدينية بنصيب موفور في المنهل .

ففي السعودية ظهر الإسلام وفيها الأماكن المقدسة وقلوب المسلمين تهفو إلى مكة والمدينة . على أن المقالة الدينية في السعودية لم تقف عند هذا الحد بل كانت (المنهل) تتابع التطورات الاجتماعية والاقتصادية على المستوى العالمى وتقوّمها من وجهة نظر الإسلام وتلدود عن دين الله وشرعه مثل مقال الأنصارى (من مفارقات الاشتراكية) .

أما المقال الأدبى فإن الأديب السعودى قد عبر فيه عن عواطفه وأفكاره من خلال الصورة الأدبية بألوانها وظلالها وحركاتها وأصواتها ولا سيما حين يكون المقال ذا صلة بالطبيعة على نحو ما نشاهد ذلك في مقال الأستاذ الأنصارى (ذكرى اليوم المطير والسيل الخطير) فهو مجموعة لوحات فنية كما يبدو التصوير الحسى الناطق أيضاً في مقال (خيال الراعى) للأستاذ عبد الله أحمد سراج و (يوم الربيع) للأستاذ أحمد رضا حوحو . إن المقالة الأدبية السعودية أشبه ما تكون بالقصيدة الغنائية فهي وليدة عاطفة جياشة تحملها صور حية وهى ليست خالية من الأفكار ولكن الأفكار فيها تنساب مع مع العاطفة ويظهران معاً من خلال الصورة ومن الكتاب من يعمد إلى الإجمال

ثم التفصيل مستغلا عنصر التشويق في تحريك نفس القارىء ثم مفاجأته بالفكرة التي يريد لها في أدب خفيف لذيذ مفيد كما في (أهل الجوع) للأستاذ حسين سرحان .

أما المقالة الفلسفية فتدل على أن صاحبها صافي الذهن لا تكثر فكره الشوائب وأنه ينصت لصوت العقل يستنير به في مسيرة الحياة في (فلسفة الحب) يرفض الأستاذ أحمد السباعي أن يترك العقل الباطن يؤثر في سلوك الإنسان وثقافته وأن على العقل الواعي أن يقف وقفة أمام العقل الباطن لينقي السلوك والثقافة الإنسانية وكان مجال التطبيق في عالم الحب ودار الحوار أفلاطونيا بين الأديب الفنان وبين إحدى الفتيات تستخدم هي أسلحة أنوثتها ويستخدم هو نور عقله وهدى بصيرته ، والمقالة تعالج مشكلة الحب . أهو فكرة أم عاطفة ؟ وقد مزج الأستاذ السباعي بين الرأيين حين جعل الحب عاطفة تصونها مسكة من العقل لأن فلسفته الخاصة تأبى إلا أن ترد كل علة في الحب إلى أضلها في الحياة .

وإذا كان الأستاذ أحمد السباعي مثاليا فيما ذهب إليه فإن (فلسفة الخلاف) للأستاذ إبراهيم هاشم فلاي لا تعتمد على التفكير التجريدي ، وإنما يرتبط الكاتب بالكون والحياة والإنسان ومن ثم يقيم أدلته من الواقع الملموس .

وفي المقالة الرمزية (من وحى الحرب) بين مدافع المقاومة وطائرات الانقباض المهاجمة) توحى إلى القارىء بأن هذا لون من ألوان أدب الحرب ولكن القارىء حين يبدأ في قراءة المقال ويتأمل أفكاره وطريقة عرضه يتضح له أن المقال رهنى ولو عرض بأسلوب الحقيقة والوضوح لما عدا أن يكون إعلانا من إعلانات وزارة الصحة عن أضرار الناموس وضرورة مقاومته وقد أهداه الكاتب إلى نفسه مبالغة في الرمزية وهي رمزية واضحة . وإن حاول الكاتب تغليفها بذلك الإهداء واستغلال الحرب الدائرة آنذاك .

والأديب السعودي يحكم بناء مقاله إذ يقدم بين يديه قاعدة فلسفية ثم يأخذ في توضيح تلك القاعدة والبرهنة على صحتها بأحداث من التاريخ على

نحو ما نشاهد في المقال السياسي (الشرق والغرب هل اقتربا تلاقيهما في مجال
النهوض أم لا يزال البون شاسعاً) للأستاذ محمد حسن فقي . والقاعدة التي
قدمها هي (أن التنافس هو المهماز الذي يدفع بالأمم إلى الاختراع الذي
تغلب به على منافسيها وتستكمل به إلوازم السيادة والتوسع . وقد انتهى في
مقاله إلى أن الاختراع والابتكار وقف على الأهم الكبيرة) .

وفي المقالة النقدية يبدو بوضوح وصراحة تأثر الناقد السعودي بمقاييس
النقد المصرية فالأستاذ عبد الفتاح أبو مدين ينقل وجهة نظر الدكتور محمد
النويهي في الأدب والنقد فثقافة الناقد الأدبي ينبغي ألا تكون ثقافة أدبية
فحسب بل لابد من دراسة الأدب دراسة علمية والتفكير النظري المحض غير
كاف فالأدب كلمات يصبرها الأديب حين يلاقى تجارب خاصة لينفس عن
شعور خاص بجده في نفسه ، والشخص العادي يتلذذ بالأدب لكن تلذذه
قائم على الاستجابة الآلية ووظيفة الناقد لا تنحصر في أن يستجيب للأدب
استجابة آلية محضة بل هو محتاج ليسأل نفسه كيف استجاب ؟ وما أسباب
التأثير ؟ وعلى أن يتخيل حال الأديب حين أنشأ هذه الكلمات وهل مرت به
حالة مثلها ؟ ويرى الناقد السعودي متأثراً بالناقد المصري أنه لابد من دراسة
الأدب الغربي دراسة عميقة . ليستطيع المقارنة بين الأدبين . والناقد السعودي
يضع لنفسه خطة عملية قابلة للتطبيق في مجال التاج الفني وتقوم هذه الخطة على
الأسس التالية :

١ - النظر إلى المعنى العام .

٢ - اللغة .

٣ - الوحدة الفنية - الاحتكام إلى مقاييس نقدية لا يخرج عنها .

والنقد مقياس الأدب وطريق خلوده والناقد قاض وطبيب وقد فحص
الناقد السعودي بعض الظواهر الأدبية كظاهرة الهروب مثلاً وهو نوعان
هروب سلبي ناتج عن خيبة الأمل والفشل في الحياة وهو يؤدي إلى التماسك
الفكري أو الانسحاب والخوض في الحزن . أما الهروب الإيجابي فهو هروب

الشاعر إلى الطبيعة أو إلى الفلسفة فراراً من مواجهة مطالب الطموح على نحو ما نرى عند المتنبي والهروب سمة الشعراء البارزين .

ومن الظواهر الأدبية التي فحصها الناقد السعودي ظاهرة استثمار الخيال . ذلك أن التصورات الخيالية تعترض دون تحقيقها أسلاك شائكة إذ لا بد من نقلها إلى القراء بألوانها الزاهية وصورها الناطقة ومناظرها الفاتنة وألحانها الراقصة فما الآلة التي تعكس هذه المناظر بكل دقة ؟ إنها دراسة البيان ومملكة التصوير إنها ثروة أدبية واسعة تبدد غيوم الجهل وتصير باللفظ ما يغنى عن الرسامين ومن الظواهر الأدبية التي ناقشها الناقد السعودي ظاهره القديم والجديد فالأستاذ فؤاد شاكر يرى أن النظريات الأدبية لا جديد فيها والزمن يجعل الجديد قديماً والحقيقة ثابتة وإنما يتغير الأشخاص والفكرة مستمدة من طه حسين بتصريف هذا بينا نجد السيد أمين مدني يرد على طه حسين الذي يرفض المقياس السياهي لتاريخ الأدب بينا يؤيد مدني ذلك المقياس في مقاله (آفاق جديدة في الأدب العربي وأثره في تخليد الدول) وذلك حين يقول : من الذين درسوا تاريخ الأمة العربية ... "من" نخرج بنتيجة عكسية بين الأدب العربي والدولة العربية تبين الفارق الشاسع بين حال الأدب والسياسة وأنه في الوقت الذي تضعضعت فيه سياسة الدولة العباسية كان الأدب العربي في أوج نهضته وأنصر روعته ويرى الأستاذ مدني أن النهضة الفكرية والتقدم العلمي يتأخران عادة عن النهوض السياسي ريثما تنضج ثمارها وريثما تهضم الأفكار ما يجد على مألوفها ومن ثم فالاضطرابات السياسية تؤثر على النهضة العلمية وهكذا قدر للنهضة الأدبية عند العرب قديماً أن تصطدم بالانقلابات السياسية فتساقط أهدافها وقدر لرجال النهضة أن نعبث بهم تيارات السياسة وكما أثرت هذه الانقلابات على سياسة الأمم الإسلامية فقد أثرت على الأدب العربي واتجاهاته ووجد فيها الأديب العربي ما أدهشه وراعه ففاض يكشف لنا النواحي النفسية مصوراً ما تزخر به حياته من متناقضات كانت النتائج المتوقعة لتفاعل ورد فعلها وكانت الطابع الذي طالعنا به أدب القرن الرابع والخامس والسادس فالأدب في جميع

أدواره صوراً في الحياة والأديب فنان يصور لك ضروب الحياة .

ولم تنحصر نظرة الأديب السعودي في المحيط العربي بل تطلع إلى الآداب العالمية الكبرى وأخذ يقارن بينها وبين الأدب العربي وشهدت (المنهل) هذا اللون الجليل وعمات على نشره ومن الأمثلة على ذلك مقال للأستاذ محمد سيد أحمد بعنوان (بين الأدب العربي والأدب الإنجليزي) .

وفي مجال النقد التحليلي تطالعنا نماذج من النقد الموضوعي المتزن الذي يعتمد إلى الحقيقة ليجليها ليس غير على نحو ما نشاهد في مقال (هؤلاء المصلحون الأربعة لم يكونوا مختلفين) لمحمد سعيد العامودي وهو رد على مقال للأستاذ محمد حسين زيدان بعنوان (اتجاه الوعي القومي) تكلم فيه عن محمد بن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ذهب فيه إلى أن هؤلاء الأربعة مختلفون وإن كان كل منهم قد شب نار اليقظة في بيئته بيد أن أتباعهم توحدوا لإنقاذ فلسطين ، وقد اتفق العامودي وزيدان حول شخصية الإمامين ابن عبد الوهاب وجمال الدين واختلفا حول الكواكبي ومحمد عبده فزعم زيدان أن الكواكبي لم يهتم إلا بالفكرة العربية ولم يحسب للدين حساباً ورد عليه العامودي بأن هذا الكلام غير مستقيم عن مؤلف كتابي (أم القرى) و (طبائع الاستبداد) وقد ألف الكواكبي كتابه الأول للدفاع عن الإسلام والدعوة إلى الرجوع إلى تعاليمه الصحيحة ومحاولة إيقاظ المسلمين من سباتهم العميق ثم أورد العامودي فقرة من (أم القرى) تؤيد دعواه وحين يقول زيدان عن الكواكبي (إنه لا يهتم بأداب الاجتماع بل يرضى الدولة أولاً يرد العامودي بقوله : (إنني لم أفهم مقصوده من هذا فإن كتاب (طبائع الاستبداد) يتناول علاقة الحاكم بالمحكومين ويركز على الحاكم المستبد وأثره السيء على شعبه أليس هذا في صميم علم الاجتماع ؟ . وزعم زيدان أن محمد عبده نشأ في مصر ورأى أنه لا رجاء في الخلافة ولا جامع للعرب ثم هو ذو نزعة قومية فدعا لقومية ضيقة (مصر للمصريين) فرد عليه العامودي بأن محمد عبده كان أبعد الزعماء

المصريين عن هذه النزعة القومية الضيقة وأن فكرة مصر للمصريين إنما كانت شعار غيره من الزعماء . إنه مؤلف (رسالة التوحيد) و (الإسلام والنصرانية) و (الإسلام والرد على منتقديه) . وشريك السيد جمال الدين في تحرير مجلة (العروة الوثقى) وفي جهاده فإن صبح عنه أنه قال مع القائلين (مصر للمصريين) فلأنما كانت هذه دعوة إلى تحرير مصر من الحماية الطارئة عليها لا أكثر ولا أقل كيف لا يتفق هؤلاء الثلاثة مع الإمام المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهو السابق إلى الدعوة الإصلاحية الكبرى . ألا ترى أن دعوتهم جميعاً وانحدرت شعارها التوحيد ونهايتها تحرير الدين من أوصار الخلافات والعمل على جمع كلمة المسلمين .

ويعيش الناقد السعودي مع الخالدين من علمائنا السابقين كما عاش الأنصارى (مع ابن خلدون في مقدمته) فقدّم لقراء (المنهل) بحثاً متسلسلاً عن المقدمة تقريناً وتحليلاً ونقداً حيث يعرض آراء ابن خلدون في المقدمة ثم يعلق عليها وينقدها يوافقه تارة ويخالفه أخرى فيقول : إذا استعرضنا نقد ابن خلدون لتلك المغالط نجد الأساس صحيحاً متيناً ولكن التطبيق العلمى عراه بعض الخلل ... نوافق على أن أسباب نكبة البرامكة لا تؤول إلى قصة العباسية وعلاقتها بجعفر بن يحيى البرمكى بقدر ما تعود إلى استبداد هؤلاء بشئون الدولة ونخالف ابن خلدون حين يجارى المؤرخين الذين قالوا بفتح التبابعة لكل تلك الأقطار بدون استثناء أو اشتراط .

أما (شذرات الذهب) لأحمد إبراهيم الغزاوى فتطوف في رياض الأدب واللغة والتاريخ يقطف الغزاوى من كل بستان زهرة ثم يبرز محاسنها ومفاتها بتعليقاته القيمة وآرائه السديدة وكانت (المنهل) هى المعرض لهذه الكنوز الثمينة من تراثنا نشرأ وشرحاً وتعليقاً ودعوة صريحة إلى ضرورة الالتفات إلى هذا التراث الخالد ليكون غذاء للروح وتعبئة معنوية للجيل الصاعد بجوار الأسس المادية التى تقوم عليها الحضارة المعاصرة .

ففى الوقت الذى كانت (المنهل) تطل على الماضى بعين فاحصة كانت تنظر إلى العصر الحديث بالعين الأخرى .

وفى (شعراء من الجنوب) للأستاذ محمد سعيد العامودى خطة نقدية. تقوم على تعريف موجز بالشاعر وبيان اتجاهه الشعرى ونزعتة الفنية وخصائص أسلوبه وملبى ملاعبة العنوان القصيدة مع عدم التغاضى عن الخطأ النحوى مادامت لم تدع إليه ضرورة ، وينبغى أن نلاحظ أن تذوق الشعر هو الأساس الذى قامت عليه هذه الخطة .

أما الأستاذ الأنصارى فنقده فى تأثرى تاريخى وذلك واضح فى حديثه عن الشيخ العمرى وشعره فقد لاحظ على المقدمة الثرية التى كتبها الشيخ لأحدى قصائده أن أسلوبه مرسل يخالف لأسلوب العصر الذى كتبت فيه. وهذا يدل على شغوف ذهن الأديب وسمو إدراكه وفتح وعيه للجديد كما لاحظ الأنصارى أن العمرى لم يفتح قصيدته فى الخط الحديدي بالمدينة المنورة بالغزل وإنما دخل إلى الموضوع رأساً مخالفاً بذلك تقاليد بيئته الفنية. وإن جاءت قصيدته مضاهية للشعراء المجددين فى العصر الحديث كشوقي. وحافظ فلعله كان يرقب آثارهم واتجاهاتهم ثم التفت الأنصارى إلى نسق التعبير عند الشاعر ودلالته على بعد نظره واتساع خياله وما الشعر إلا خيال مجنح يلد غرائب الحقائق كما التفت الأنصارى إلى جمال الصورة الأدبية عند الشاعر واكتماها وارتباطها بالبيئة ثم التفت إلى موضوع الشعر عند العمرى فرأى أن شعره كان يمتاز بالانغماس فى الأحداث العالمية الكبرى وأنه كان الصدى الوحيد لها فى الحجاز وأنه كان من أنصار الدولة العثمانية وكان شعره دعاية قوية لها كما تحدث عن معارضة العمرى للرصافى .

ولم يخرج نقد الأنصارى للشاعر المجدد حسن عبد الله القرشى عن الدائرة الفنية التأثرية التاريخية فهو يقول عن قصيدته (سارية الأحلام) قصيدة ذات جرس خاص وغزل رفيع مطعمة بالفلسفة المحبة والوجدان الدافق الحساس ، ماذا كان وزن هذه القصيدة ؟ وماذا كانت قافيتها ؟ وشاعرنا ذو طبيعة حساسة يشلو بجمال الكون وهو ذو فلسفة صوفية دقيقة الإحساس ينظر دائماً إلى خواتيم الأمور كما ينظر إلى المجهول والأنصارى حريص على التأريخ لقصائده شاعره وأسرار الجمال الفنى عند الشاعر المجدد هي :

١ - تصوير ذو حيوية باهرة وخيال مجنح .

٢ - امتلاك الشاعر لأزمة البيان .

٣ - الألم المكبوت الذى يتمثل فى ثورة جامحة جناحها اليأس والقنوط ولكنها ما تلبث أن تستحيل إلى هدوء ربما عبر عنه اختيار الواقع .

ولم يخل المجال النقدي على ضفاف (المنهل) من غبار معركة نقدية محدودة بين محمد حسن عواد ومحمد السنوسى حول ديوان السنوسى (القلائد) فالعواد يرى أن الطابع العام للديوان مجرد بيان وأن اتجاهه سلفى يرجع بنزعتة إلى أذواق طبقة خاصة من القدامى كان لها عذرها من ثقافة عصرها وروح الأدب وتركز هذه الأذواق بصورة واضحة فى تسميتهم لنتاجهم ... وقد تابع السنوسى هذا الدوق فسمى قصائده القلائد .. وذوق الأدب الحديث يصدف عن هذا وكان فى قدرة الشاعر أن ينطبع بالواقع وأن يعيش فى القرن الرابع عشر لا مع أدباء القرن الرابع ..

ورد عليه السنوسى بأن الشعر الخالد لا يخضع للزمان ولا للمكان ولا يقاس بمثل هذه المقاييس المختلفة وأن فى تعابير العواد وأسلوبه ما يرجع إلى عصر المهلهل وابن حلزة وهذا لا يضيره فى نظرى فالمعول فى ذلك على الأصالة والجودة . أما أن نسمية الديوان ذات ذوق بيانى سلفى فهذا ما أعترض به :

ويقول العواد إنه نصيح الشاعر بأن يحذف من الديوان قصائد المدح الاتباعى والمجاملات الجوفاء والاستخذاء والتصنع .

ويرد السنوسى بأن هذا دليل على أن العواد لم يقرأ الديوان إذ ليس فى الديوان من هذا اللون إلا ما يواكب الأحداث فى مسيرها الصاعد نحو المحد

أما شعر المجاملات والتصنع فماذجه كثيرة فى ديوان العواد (نحو كيان جديد) والمهم فى الشعر هو الصورة الشعرية النابضة والمثل الأعلى الذى يرسمه الشاعر . وشعرى استحق النشر فى صحف أدباء المهجر بأمرىكا وترجم إلى اللغات الأجنبية وشهد له العواد بالسبق والتفوق حين فضلى على كثير من

الشعراء الذين اشتهروا في مسابقة مجلة الرياض وحكم بالجائزة الأولى
لقصيدتي (حطّم المارد القيود) .

هجوم ودفاع هذه هي طبيعة الأسلوب الذي دار بين العواد والسنوسي
ولكننا من خلال هذا الهجوم وذلك الدفاع نستطيع أن نستخلص عناصر
الحلود في الشعر وهي :

١ - الذوق الأدبي الرفيع .

٢ - تخطى حدود الزمان والمكان ومخاطبة الإنسان من حيث هو إنسان
ليس غير .

٣ - التصوير الحي .

٤ - المثل الأعلى .

وبقي أن تعلم أن هذه الأصول التي أثارها الناقدان السعوديان مستقاة من
كتاب (حافظ وشوقي) لطله حسين وقد لمح إلى ذلك الشاعر السنوسي .

وفي مقابل الدفاع والهجوم تجد أمانة الكلمة وإحساس الفنان بمسؤوليته
وإخلاصه لفنه على نحو ما نجد عند الأستاذ محمد عالم الأفغاني الذي انتقد
بنفسه قصيدتيه (ما يعجز الشيطان عن منحه) و (الأرقاء) لأنه يرى أن الفنان
أبصر بمواطن أخطائه من غيره إلا أنه يعجز العجز كله لير أنه أراد أن
يستجلى الفكرة المرتسمة في أذهان قرائه عند قراءة عمله ومن هنا بدأت أهمية
المشور بالنسبة للكاتب على ناقد يبصره بموقعه من الجادة المستقيمة .

أما نقده لقصة (ما يعجز الشيطان عن منحه) فيتمثل في أنه لم يمهّد لهذه
القصة بتفسير يحدد هدفها ويبين موضوعها من الفن القصصي فهي قصة
رمزية وإن اختلف مفهومها على القراء فظنها البعض قصة واقعية وظنها
الآخرون أسطورة فالأستاذ على مثلاً يرمز إلى الشرق القوي بأخلامه بينما
الشيطان في هذه القصة يرمز إلى أساليب الغرب الماهرة في سلب هذا الشرق
من شوقيته ليصبح لا شرقياً ولا غربياً .

(المنهل) .

وكان ينبغي أن أعود إلى الأسلوب الممنهج لأتمكن من إشاعة الجوهر الرمزي فيها .

«أنا (الأرقاء) فكان ينبغي أن استعزذ في بعض المواضع فلم أفعل كما أنني لم أعتن بالأسلوب .

وتناولت المقالة النقدية أيضا عرض آراء القدماء بطريقة حديثة كما فعل الأستاذ محمد حسن عواد في مقاله (مظاهر التحديد في شعر أبي تمام) فقد رأي أن ما قاله الأقدمون عن أبي تمام هو ما نسميه اليوم المدرسة العقلية في الشعر وهي في أن يكون الشعر أفكاراً وتجارب نفسية تظهر حقيقة العقل الإنساني .

وهناك تجديد آخر عند أبي تمام هو نقل المعاني إلى صور الماديات وتأكيد هذا للنقل بإنجاء بجصاص مادية وإفراغها على المعاني ويرتقى هذا المذهب إلى درجة أخرى تسمى (التشخيص) وهو نقل المعاني والماديات إلى صور الأشخاص الأدبية وإلباسها صفاتها وأحوالها ولكن العواد يسمي التشخيص باسم آخر هو (التشكيل الحي) لأنه إبراز للمعاني في أشكال تسري فيها حياة آدمية .

لقد كان الأديب السعودي معترساً برأيه حريصاً على إبدائه بجول في ميادين شتى من دينية وأدبية ونقدية ونفسية وهذا هو الأستاذ محمد عالم الأفغاني في ظاهرة (الاستخفاف في هجاء ابن الرومي) يجول بنا جولة مع علماء النفس والأدب إذ يرى أن السخر والاستهزاء يصلحان عن كبت العواطف ليشبع شهوة التشفي والتأثر في عالم الخيال وهو لون من ألوان الترويح عن عقلنا الباطن الذي تحال إليه كل القضايا البطيئة التنفيذ بخلاف ذلك المستخف الذي يشعر في قرارة نفسه بنقص ما فينتقص كل أحد ليتساوى معه في نقصه ولئلا يشعر المستخف بفرح وجلد عندما يشاهد إنساناً ما يهوى من ذروة الفضيلة إلى درك الرذيلة طبعاً ومن غير قصد وعلة ذلك النقص النفسي أو التركيبي الذي جبلت عليه تلك الشخصية . وهنا يكمن سر الاستخفاف عند

ابن الرومي فتطيره نوع من الاستخفاف بالناس لأنهم يسيبون له الضر والبلاء وهو يستخف بالناس من حيث لا يشعرون . ابن الرومي يهجو الرجل من حيث هو إنسان فهو يرفع من أن يشترك مع الناس في نسبتهم إلى أبيهم آدم فاضطر الناس إلى كرهه والنيل منه فأخملوا ذكره فابتعد هو بدوره عن الناس ساخطا وفضل العزلة ومن هنا كان منشأ تطيره لكن كان هذا الابتعاد والتطير سر نبوغه وعبقريته ويضيف الأستاذ محمد إبراهيم جلع حلقه جديدة إلى الرحلات الخيالية في الأدب العربي وذلك بحديثه عن رحلة ابن شهيد الأندلسي في (التوابع والزوابع) وابن شهيد في هذه الرحلة يعلق على أقوال الشعراء الذاهبين ويطارحهم النشيد حتى إذا ما أنسوا منه قوة أجازوه وحديثه يتم عن طريق بطل خيالي هو زهير ثم يعلق الأستاذ جلع على كل رحلة من هذه الرحلات وقد ضمن ابن شهيد في أقوال بطله فكرته عما يجب أن يكون عليه الشاعر من جودة التفكير وحسن التقيح حين يريد أن يعبر عن فكرته شعراً ويكون هذا للكاتب أيضاً ويدعو الأستاذ جلع إلى الاقتداء بهذا المسلك الفني وقد اعتمد الأستاذ جلع في هذه الدراسة على المنهجين التأثري والتقري .

وفي (تيه ونور) للشاعر ميشيل موسى سنواجه دراسة ونقد للأستاذ خليل إبراهيم النعمة تعتمد على المنهج التأثري مع الاستعانة بآراء كبار الشعراء وقد ركز نقده على دراسة شخصية الشاعر ونزعاته الوطنية والإنسانية وحل أفكاره وشاعره وذكر تأرجح الشاعر بين عاطفته الوطنية وتعرضه للصعاب وبين تشاؤمه المميت ومر سريعا على عبارات الشاعر .

وقد سلك الأستاذ عبد العزيز الرفاعي المنهج التأثري أيضا في نقده للملحة (أرض الشهداء) وهي ملحمة شعرية عن مأساة فلسطين للشاعر البحراني (إبراهيم العريض) إذ أنه بحث عن أثر الملحمة في نفسه من حيث إنها تعالج موضوعا معينا فلم يجد لها أثراً ولكنه مع ذلك يقدر الشاعر ويذكر بعض حسناته بل ويحاول الدفاع عنه والتماس العذر له بأن هذا الفن جديد في الأدب العربي ولعلنا نلاحظ أن الناقد السعودي قد انطلق خارج نطاق السعودية إلى

الشام وإلى العراق وإلى مصر والسودان وغيرها من البلاد العربية والإسلامية
باجتباً منقياً ودارساً ناقداً للآثار الأدبية. وهذا هو الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين
يعرض ويحلل وينقد كتاب (الشاعران المتشابهان : الشابي و التيجاني) ،
للأستاذ أبو القاسم محمد بدوي ولقد أخذ الناقد السعودي على المؤلف عدم
الدقة في استعمال الكلمات وعدم الالتفات إلى الأخطاء النحوية والعروضية
بل إنه لم يدرس القصائد ولم يعلق عليها بما تستحق ، ولم يرض عما فعله المؤلف
من عرض صورتين مشوهتين لكل من الشابي والتيجاني وتحت كل صورة
قصيدة من شعر صاحبها دون دراسة وهو حين درس قدم دراسة ناقصة وكان
ينبغي أن يدرس شعرهما ويقارن بينهما من جميع أوجه الشبه والمزايا التي
اتفقا فيها والصور التي اختلفا فيها وأهدافهما في الحياة وأن يتقصى الأمور التي
كانت تحيط بهذين الشاعرين والعوامل التي تأثر بها كل منهما وأن يدرس
البيئة التي عاشا فيها دراسة استقصاء والفترة التي كان يعيش فيها الشاعران لأن
دراسة الشعر ونفوس الشعراء وما يحيط بها تحتاج إلى كثير من التعمق .
فالأستاذ أبو مدين يصدر في دراسته عن أصول فقهية وبائية ونفسية حين
يحكم الأستاذ أبو القاسم محمد بدوي ونلاحظ أن النقد الأدبي في السعودية
يقتضى أثر النقد الأدبي في مصر ويتلمذ على يد نقاده الكبار إلا أن الناقد
السعودي كان على جانب كبير من الذكاء وحسن التصرف يأخذ ما يراه حقاً
ويترك ما عداه ويطبق المقاييس النقدية التي ارتضاها النقاد المصريون على
النتاج الأدبي لهؤلاء النقاد كما فعل السيد أمين مدني في نقده للدكتور طه
حسين وكتابه (حافظ وشوقي) وكما فعل محمد بن علي السنوسي حين تعرض
أيضاً لكتاب (حافظ وشوقي) فقد رضى الأديبان السعوديان عن بعض
مناحي الكتاب وسخطا على بعضها الآخر ومن ثم احتفظ كل منهما بشخصيته
الفنية مستقلة .

وحين ينقل الناقد السعودي أساس الخصومة بين طه حسين والبراغمي
حول (ماهية التجديد) يذكر رأي الناقلين الكبيرين ولا ينسب التعليق على

رأى كل منهما بما يراه صواباً وهو يتصيد قضية اتفق فيها رأى الناقلين
الكبيرين ألا وهي الاعتراف بنبوغ الشاعر على محمود طه :

وإذا كان الناقد السعودي قد حاول تقويم ناقلين كبيرين من نقاد مصر
فإن الناقد السعودي محمد العامر الزميع حاول تقويم شاعر من شعراء مصر
الكبار أعجب به الناقد السعودي إعجاباً جاوز الحد إلا أنه ناقد ذو خطة
ومنهج فقد ابتداءً بعرض فكرة عامة عن أبي شادى ثم تحدث عن الجانب
الأدبي عند أبي شادى بعامة وعرض للجو الأدبي في مصر قبل (أبلو) ثم
تحدث عن هجرة أبي شادى لأمريكا وكيف استقبلته أمريكا حكومة وشعباً
بالتكريم ثم كانت له جولة استعراضية في ديوان (من السماء) بدأها بالحديث
عن مقدمة أبي شادى لديوانه عن (التجربة الشعرية) ثم تحدث عن شعر
أبي شادى .

فالأديب السعودي لم يتخذ مادة نقده كما رأينا من الأدب السعودي
الحديث وحده ولكن من القديم والحديث ومن السعودية وغير السعودية
واهتم بالأدب المصرى الاهتمام كله فأعجب به ودرسناه ونقده ليس أدب
الرجال وحده بل وأدب المرأة المصرية أيضاً فالأستاذ حسن عبد الله القرشى
يعرض بالنقد لقصة (هندية) للأديبة المصرية جميلة العلايلي فيعرفنا بالكاتبة
ودورها في الأدب المصرى الحديث ثم عرض لغنوان القصة فذكر سبب
تسميتها (هندية) والسبب أنها تحكى قصة فتاة عاشت مثلها وأحلامها وقد
غمرتها موجة روحية طاغية كان مثلها الأعلى فيها غاندى زعيم الهند الروحى
ثم عرض خلاصة القصة وانتقد بغض مواقفها ورأى أن هدفها تقديم صورة
من صور الشذوذ الإنسانى عند الأنثى أشقى بطله القصة ومن يتصلون بها
وهو يرفض مثل هذا الهدف ورأى أن أسلوب القصة يغلب عليه السرد كما
يغلب على أفكارها عنصر المجاذبة المجردة ومع كل هذا فالأستاذ القرشى يرى
لقصة (هندية) وزناً فى رصيد الأدب الأنثوى الحديث .

هذه هي مجالات فن المقالة فى الأدب السعودي وتلك أبعادها واتجاهاتها
ويتفرع من المقالة فن أدبى آخر هو الخاطرة وإن اختلفت عنها من عدة

وجوه إذ هي فكرة عارضة طارئة لا تحتاج إلى أسانيد وججيج وهي أقصر من المقالة ومن أمثلتها في الأدب السعودي (كلمة المهرر) في المنهل للأستاذ عبد القلوس الأنصاري .

ولقد كانت المقالة الأدبية ذات الطابع الحوارى خطوة نحو القصة السعودية الحديثة . وإذا كان الأستاذ عبد القلوس الأنصاري قد زعم أن الناس ملئوا أدب المقالة ومن ثم فهو يريد أن يأخذ بيدهم إلى أدب الحوار فإن الأستاذ أحمد رضا حوحو يزعم أن أدب المقالة قليل للنفع ومن ثم فهو يدعو لأدب القصة ويزدري مخطئا أدب المقالة .

وأدب القصة قديم قدم التاريخ واهتمت به الكتب السماوية وقد تطوّر بتطور الزمن وتقدم الإنسان في ميادين الحضارة فانتقل من وسيلة لشغل أوقات الفراغ إلى وسيلة لنشر الإسلام وأخذ في السموات تارة والهبوط أخرى حتى أتبع له الازدهار في العصر الحديث .

وقد أخذت القصة السعودية في الازدهار منذ ١٣٥٦ هـ وكان من حسنات (المنهل) دعوتها إلى أدب القصة واعتناؤها بتقديمه فاستطاعت في سنوات قليلة أن تلفت الأنظار إليها وأن تكون محل المناقشة والحديث . وبعض كتاب القصة السعودية اكتفوا بنشر قصصهم في الصحف مثل محمد عالم الأفغانى وأمين يحيى وثمة نفر آخر لم يكتفوا بذلك ونشروا قصصهم مستقلة مثل أحمد السباعى ومحمد على مغربى والقصة هي الباب الواسع الذى يدخل منه هواة المطالعة من مختلف الطبقات بما يجدونه من قول مثير للذيد وموضوعات شيقة وعرض منسجم .

وأدب القصة بحاجة إلى ثقافة عالية واتساع أفق وتغلغل في ألوان الحياة وممارسة لعقده وحلوله وتكوين أبطاله واستنطاقهم وحبك فكرة شاملة عن موضوع حتى وتقديما في ثوب قشيب مقبول وأدب القصة أنواع تقوم على أسس فنية فمنها الرواية والقصة والأقصوصة وقد نشأت الأقصوصة ونمت في ظل الصحافة ومن هنا اشتدت عنايتنا بها . وقد التزمت أقاصيص (المنهل)

باللغة العربية الفصحى أسلوباً فنياً لا تقيده عنه لتحرره وانطلاقه نحو التوسعة العربية .

ونرى أن رائد فن الأقصوصة في الأدب السعودي الحديث هو الأستاذ محمد عالم الأفغانى الذى مارس هذا الفن عن موهبة وثقافة فنية ومصادر مذهبية. الفنى ترجع إلى الناقد الفرنسى « تين » ونظريته فى الجنس والبيئة والزمن كما ترجع إلى « إميل زولا » فى « أسرار مرسيليا » وما فيها من نفحات رومانسية حاملة ، وإلى مدرسة فرويد فى التحليل النفسى والأحلام والعقل الباطن .

وهو يرى أن القصة التى تكتب على صورة اعترافات تخضع للرومانسية كلما كان الاهتمام منصرفاً إلى بطل واحد . وتقرب من الواقعية كلما اتجهت النية إلى توزيع الحياة فى أشخاص القصة على حد سواء ومن ثم فنحن نجد عنده أنماطاً من القصة منها الواقعية كما فى قصة (الثأر) والقصة بين الواقعية والرومانسية كما فى (عودة سعيد) والقصة الرومانسية الرمزية كما فى (أحلام) وكما فى (شهر زاد) التى تظن أنه تأثر فيها بطله حسين وتوفيق الحكيم وهو فى قصصه يميل إلى التحليل النفسى ويتخذ شخصيات مريضة لمساعدته على تحقيق هدفه وهو يتخذ الشك طريقاً إلى اليقين ويقلب وجوه الرأى بحثاً عن الحرية والمعرفة إنها نغمة قصصية جديدة فى الأدب السعودى .

ويبدو أن (فرويد) كان له تأثير قوى على اتجاه القصة السعودية وأن الأمر لم يكن مقصوراً على (الأفغانى) وحده فالأستاذ عبد السلام هاشم يحافظ لجأ أيضاً إلى عالم الرؤى والأحلام ليكون ذلك العالم وسيلة فنية للإشباع الرغبات المكبوتة عند أبطال أقاصيصه كما فى أقصوصة (فاطمة) كما لجأ إلى التحليل النفسى لغرام المراهقين فى (لها ماضى) وفى عالم الحب ودنيا المرأة أيضاً يتنازل إنسان لآخر عن فتاة أحلامه وهو تنازل عجيب يقابله الفاتر بإهداء ابنته إلى من تنازل له عن خطيبته فى (وفاء) على أنه ليس هناك حد فاصل بين الاتجاه النفسى والاجتماعى فمادة التحليل النفسى إنسان يعيش فى مجتمع له قضايا ومشاكله وهيئات هيئات الفصل بين الإنسان ومجتمعه والمسألة تكمن

في اللون الذي يغلب على الأقصوصة أكثر من غيره فإن غلبت نوازع النفس فالأقصوصة نفسية وإن غلبت قضايا المجتمع فالأقصوصة اجتماعية ومن المشاكل الاجتماعية الصعبة في السعودية مشكلة الزواج وهي من موضوعات الاتجاه الاجتماعي في الأقصوصة وقد عالجها محمد علي مغربي في (المترهبة) تلك الفتاة التي كانت ضحية الحب الأعمى من جائب اليب والسلبية المطلقة من الإبناء والأم.

على أن المرأة تتعرض لنحنة أخرى حين يتحقق حلمها بالزواج السعيد وتنتقل إلى بيت زوجها إذ ينشأ صراع بينها وبين حمايتها حول الزوج المسكين ذلك موضوع أقصوصة (فاطمة) لمحمد أمين يحيى .

وحين ينتشل إنسان نبيل طفلاً من بين أحضان أمه الميتة ويربيه ويعلمه ويزوجه ثم تنزل كارثة بذلك الإنسان النبيل ويتنكر له الطفل الذي صار رجلاً يكون الوفاء في أزمة تحكيها أقصوصة (الإحسان الضائع) لمحمد مليباري وإذا كان شباب المدارس قد يتعرضون لأزمات عاطفية في مرحلة المراهقة فيتنافس صديقان في حب فتاة تميل إلى أحدهما وتحترم الآخر فإن ذلك هو موضوع أقصوصة (نبل ووفاء) للأستاذ محمد حسن سعيد وقد قامت الفتاة المسلمة بدورها في الصلح بين الصديقين وانتهت الأزمة نهاية سعيدة .

وقد عانت الأسرة السعودية من مشكلة الفقر ولا سيما حين تفقد عائلها ولم يكن للزوجة عمل ولا ثروة تقوم بمطالب الحياة كما يتضح ذلك في (مأساة أم) للأستاذ محمد سعيد العامودي .

وثمة فن آخر من فنون الأدب السعودي له أصالته ووزنه ذلكم هو فن الشعر وهل هو موهبة وثقافة أم موهبة فقط ؟ وأما كان الأمر فإن شجرة الشعر العربي نهبت في نجد ثم امتدت فزوعها إلى الآفاق ثم انتقلت بأور دوحة الشعر إلى الأقطار الأخرى فصوِّح منها موطنها الأصلي وكان ذلك في القرن الرابع الهجري ونحات البلاد من كل نشاط وصار في المؤخرة من كان في الطليعة ثم بدأ عصر البحث العربي في أعقاب حرب الدولة العثمانية

مع إيطاليا فبدأت البلاد تسترجع أمجادها ، وانتقل إليها علوى الشعور بالذاتية .
 وبحمل راية الشعر السياسى إبراهيم الأسكوبي من المدينة المنورة وخلفه على هذه
 الأمانة محمد العمرى المدنى وكانت له جولات موفقة فى عالم الشعر السياسى
 والاجتماعى كان ذلك قبل الحرب العالمية الأولى ثم نشأت ناشئة ما بعد تلك
 الحرب تلك الناشئة التى فتحت أعينها على الثورة العربية ضد الدولة التركية
 وقدم إلى البلاد وفود من شتى الأقطار العربية وكان فى مقدمتهم الشيخ فؤاد
 الخطيب الذى أضرم جذوة الحماسة الشعرية فى ناشئة البلاد وكان فى طليعتهم
 محمد عمر عرب وأحمد إبراهيم الغزاوى .

وساعد على تنمية طاقة الشاعرية الحديثة هذا الفيض الجارف الوارد من
 طاقات الشعر العربى الحى الحديث الذى يحمل مشاعل الثورة من مصر
 والعراق والشام ولا ريب أن كل هذا كان بمثابة روافد لتكوين مبادئ
 شخصية الشاعر السعودى وكانت البداية محاكاة للمجددين من أعلام الشعر
 العربى الحديث ومحاولة الخروج من الأغلال القديمة ومسيرة التطور الحديث
 ومعالجة الموضوعات الوطنية والسياسية والاجتماعية وتم ذلك عن طريق أفراد
 فجيل الغزاوى خطا خطوة ثم تلاه جيل محمد سرور الصبان ومحمد عمر
 عرب ثم جيل محمد السنوسى وحسن القرشى وبالجملة فإن هذه الأجيال
 الثلاثة تمثل عصر البعث وكان كل جيل منها يدفع حركة التطور بما يستطيع
 من قوة ونشاط .

والشعر السعودى مصدر من مصادر الإلهام والبعث للفرد والمجتمع وله
 طابعه المميز فهو مرتبط بهذه البيئة وببنفسية الإنسان السعودى وهو متعدد
 الاتجاهات وخيال السعودى لا يتجاوز مناطق الحقيقة التى يصفونها إذا وقعت أو
 يتخيلون وقوعها وفى إمكانهم تحقيق ما يتخيلون وشعرهم تصوير للواقع
 ولهذا ما كادت الجزيرة تنتفض انتفاضة الإفاقة والتنبيه حول دعوة التوحيد
 ووراء الأئمة من آل سعود حتى نطق أبناء الجزيرة مسجلين هذه الیقظة فى شعرهم
 الذى بدأ معها يقوى ويفصح .

وإذا كان شعراء البعث والتفتح مصداقاً من مصداق الإلهام فإن شعراء عهد النضج قد نسجوا خيوط شعرهم من أحاسيسهم وتجاربهم وقد أقبلوا على صنع الملاحم الشعرية وشعر الملاحم السعودي أول المراحل الفنية في الدفاع عن الحرية الفكرية . شعراء التفتح نظروا إلى الدنيا نظرة الشاعر الذي يحس فيعتبر وشعراء النضج نظروا إلى الكون نظرة الفيلسوف الذي يفكر ويتدبر والشعر الجيد في نظرنا هو الذي يصدر عن شاعرية ملهمة وعاطفة جياشة وفن أصيل وموسيقى تهز النفس ولا فرق بعد هذا أن يكون من شعر الملاحم أم شعر المناسبات أم من شعر الوصف .. الخ والشعر الجيد هو الذي يحمل إلينا معاني الحق والخير والجمال ومن الأدلة على ذلك قصيدة (من سماء الشعر) ألقاها الشاعر السيد صالح الحامد العلوي في الحفلة التي أقامها النادي الأدبي العربي بسنغافورة تكريماً للشاعر وتقديراً لشعره البليغ فالقصيدة من وحي سنغافورة وطبيعتها وناديتها وقد التقى الشاعر بالطبيعة والنادي وجها لوجه فكانت تجربة عملية نقلها إلينا في تجربة شعرية جيدة ارتفع الشاعر إلى سماء الشعر وكانت رؤيته واضحة مزج فيها مذهب الشعرى بالطبيعة بالوداع ونقل هذه التجربة عبر صور جميلة وألفاظ شفاقة .

أما قصيدة (أو خيال مجسم في ابن خمس) لأحمد إبراهيم الغزاوي فقد نفخ بها (المنهل) بمناسبة عيدها الخامس ولقد نوع بن أسلوب الخبر والإنشاء وعرض صوراً متتابعة جسمها له خياله أو جسم فيها كما يقول ابن خمس ولكنه حين أدخل فكرة السؤال عن بحقيقة الأمر وفك الرمز أدخل لونا من الحوار الداخلي أضفى على القصيدة جوا قصصيا وكأن في الأمر عقيدة تتطلب حلا وإذا بالشاعر في الأبيات الأخيرة يكشف النقاب عن وجه الحقيقة ويصرح بأنه يعني (المنهل) الذي يضم الشعر والنثر ويمزج قديم الفن بجديده وقصيدة (الشاعر الطموح المتنبي) للسيد محمد هاشم رشيد يعبر فيها الشاعر عن إعجابه بالمتنبي ويصور آمال المتنبي وطموحه وأنه كان ذا بيان ناري وحياة متقلبة كما أنه كان حاقداً على الناس لأنهم لا يقدرُون عبقريته ، والقصيدة ذات موسيقى راقصة اعتمدت على بعض الصور البيانية غير أن

عنصر الفكرة غلب على الشاعر فهو يأتي بالفكرة ويعمل لها ، والصور التي ذكرها صور توضيحية لا تحمل إشعاعات نفس ولا ومضات قلب ومن ثم فهي صور جميلة من حيث الشكل والقصيدة من شعر الفكرة .

وأغاني الشاعر السعودي الدينية تجيء من الدعاة إلى الله وتتحدث عن قيم ظهرت على هذه الأرض المقدسة وذكريات كانت السعودية مسرحها على نحو ما نجد في (قيس من الهجرة) لحسن عبد الله القرشي فالشاعر إنما يستلهم قلبه المؤمن أولاً وبيئته المقدسة ثانياً في مقدمة هذه القصيدة تطالعنا الخطوط الكبرى للقصيدة فهي تقدم ملامحها الفكرية العامة ممزوجة بعواطف الشاعر ثم يفصل الشاعر أفكاره مصورة ويقف بها عند غار ثور وجاءت خاتمة القصيدة تلخيصاً لها . والشاعر يغني ويقص في آن واحد فلم يتغلب التاريخ على الفن .

أما قصيدة (الذكرى المشرفة) لأحمد إبراهيم الغزاوي فتبدو أفكارها غير مرتبة ووحدتها الفنية مختلفة والصوت الخطابي الديني هو المسيطر على القصيدة لقد أثارت الذكرى المشرفة في نفس الشاعر معاني وأفكاراً فسردها ولم يصنعها صياغة شعرية وإن كانت القصيدة موزونة ومقفاة لكن ما تثيره في نفوسنا لا يرجع إلى الصياغة الشعرية وإنما يرجع إلى أنها قصيدة في مولد الرسول ﷺ لقد غلب الدين على الفن في قصيدة الغزاوي ولو أن الدين والفن سارا معاً لسمعنا شعراً لا نظاماً .

والاتجاه الاجتماعي في الشعر السعودي ليس ببعيد عن الاتجاه الديني فهو ثمرة من ثمار الوعي واليقظة وإدراك الشاعر لدوره في البنية الاجتماعية فالشاعر إبراهيم فطاني في قصيدته (إلى الشباب) يفخر بكونه معلماً تخرج على يديه كثير من الأدباء والمربين وتلك نعمة يحسن التحدث بها وينظر إلى الشباب على أنه معقد الأمل يرجى لبناء مجد البلاد وليس في قلب الشباب موضع لليأس لصلاية عوده واستهائه بالمصاعب وألوان نشاطه متعددة منها الاجتماعي والأدبي وهو ينصح الشباب بالتضحية والجهد لأن العصر الذي يعيشون فيه عصر سرعة ومضاء وينبغي أن لا يعيشوا في العصر الحديث بعقلية القرون

الأولى ويدعوهم إلى عدم الاكتفاء باللحاق بركب الحضارة بل عليهم أن يسبقوا الركب لاسترداد مكان القيادة للعالم فقد كنا سادة قادة فصرنا تابعين مستعمرين حتى طمع فينا اليهود فاحتلوا فلسطين ومن ثم يجب تصحيح الوضع وإعادة الأمور إلى مجاريها .

إن الشاعر السعودي يحول ويحول في شتى الميادين على ما مر بنا وقد دخل الميدان السياسي أيضا وما هو الشاعر إبراهيم الأسكوبي في قصيدته المشهورة بالأسكوبية يوجه صيحة إرشاد وتنبية إلى الدولة العثمانية وقد نظمها الشاعر أثناء هجوم إيطاليا على طرابلس الغرب قبل الحرب العالمية الأولى وقد مات الأسكوبي منفيا عن بلاده بسبب هذه القصيدة مع أنه لم يضمنها سوى النصيح والتوجيه من شاعر مسلم مخلص للدولة العثمانية فلم يكن الأسكوبي من أصحاب فكرة الانفصال عن الترك ولكنه لاحظ ولوع آل عثمان الأتقيين بالحرب يشبونها باستمرار على من يجاورهم من الدول الأوروبية وكان ذلك من أهم أسباب تكتل هذه الدول فيما بعد وقيامها بمحاولة القضاء على هذا التحدي والقصيدة فريدة في الشعر السعودي منذ بدأ ينهض فالعصر الذي عاش فيه الأسكوبي كان عصراً متخلفاً في ناحيتي الفكر والبيان .

ومن ألوان الشعر السعودي السياسي تلك القصائد الكثيرة التي نظمت حول (فلسطين) فالشاعر محمد أحمد باشميل ينظم قصيدة بعنوان (فلسطين الشهيدة) يستهلها بمقدمة غزلية في أسلوب نخواري شاذج أجزاء الشاعر بينه وبين من أسماها (سليمان) فصورها فتاة لعوباً تحاول إغراءه بأساليب شتى بيد أنها لم تفلح فقد اعتصم الشاعر بدينه والنموذج الجمالي الذي رسمه الشاعر لفتاته لم يخرج عن النموذج القديم عند الشاعر الجاهلي .

إن طرف الشاعر ساهر وفكره شارد وليس ذلك عن عشق وإنما لزيادة الخطوب التي أملت بالعرب والمسلمين فهذه فلسطين الشهيدة قد هوت بلطمة وغدر وهذا شعبها العزيز قد تخاذلت حماته وجرعه كأس المنايا أقاربه فأصبح شعباً مشرداً لا جناً تفتك به المسغبة . وقد انتقل الشاعر من المقدمة إلى موضوع القصيدة انتقالا نفسيا فهو ساهر الطرف مهوم فما سر هذا السهر ؟ أحب

عارم أم كارثة مروعة ؟ أما الحب فقد انصرف عنه : بقيت الثانية وهي الكارثة وبشخصية الشاعر المعذبة هي جسر العبور من المقدمة إلى الغرض الأساسي وهو فلسطين الشهيدة . ومن هذا المنطلق وهو أن الكارثة عار وهوان انفجرت عاطفة الشاعر تصب جام غضبها على العرب أنا وعلى إسرائيل أنا وعلى الذين عاونوها أولاً وأخيراً .

وأكبر الظن أن الشاعر حين نظم هذه القصيدة وضع نصب عينيه يشار بن برد والمتنبى وشوقي وحافظ . فآثار هؤلاء واضحة عند باشميل . والشاعر ذو عاطفة وحشية بدوية وقد لجأ إلى أسلوب السرد والتقرير ولا سيما في ختام القصيدة .

وإذا كانت قصيدة باشميل غضبية ناثرة فإن (فلسطين) للأستاذ محمد علي مغربي ترنيمة حرب فالتضحية بالنفس والمال هما وسيلة تحرير فلسطين . وقد نذر العرب أنفسهم للتحرير ودفع شذاذ الآفاق من الصهاينة عن فلسطين . وحين ينطلق المناضل العربي لتحرير فلسطين إنما يحقق هدفين : تطهير الأرض وتحقيق وعد الله في اليهود واستيلاء اليهود على فلسطين كان خطة مدبرة بين سياسة العالم الكبار وبين اليهود . وإن هؤلاء الساسة وحوش في صور آدمية . وقد عرض الشاعر هذه المعاني خلال قصيدته ثم عاد إلى تلخيصها في ختام القصيدة . وكلمات القصيدة وموسيقاها من الرقة بحيث تصلح للتلحين والغناء وكأن الشاعر وضعها نشيداً للحرب وصور الشاعر وعباراته جميلة توحى بالموقف .

وإذا كان الشاعر السعودي قد غنى لحرب فلسطين فلأنها حرب مقدسة لحماية الدين والوطن أما الحرب للسيطرة والاستعلاء في الأرض فإن الشاعر السعودي يرفضها ففي (رواية الحرب) للشاعر المجهول عبد القلوس الأنصاري يبدأ الشاعر بالحديث عن غريزة العدوان في النفس البشرية وأنها أقوى دوافع الحرب وما دامت في الإنسان هذه الغريزة فالحرب دائمة ومتجددة ، وهي في الشرق ربيع عاصف وفي الغرب مرجل بغلي ، وما دامت المعارك

مستمرة بين البشر فإن آثارها وخيمتها والعجب كل العجب أن الغرب يدرك ذلك ومع هذا فهو يسرف في التسليح لأنها الكبرياء إذن وحب السيطرة ومن ثم فإن حضارة الغرب برغم ازدهارها لم تكتفل لأن يبدأ تبني وأخرى تهدم فما حال الشرق ؟ إن أمنية الشاعر أن لا يشترك الشرق في الحرب القادمة فقد نظم الشاعر قصيدته وطبول الحرب الثانية تدق فهل من فتى رشيد يطفى الجمر ؟

إن المنايا ترقص في كل واد والبشر في حالة ذهول ينتظرون حتفهم. وبذلك يسقط السلام. ويضيع الأمن إذا ما قيل يوم الصراع غير بعيد . إن هذه القصيدة نبعت من عاطفة تحب السلام وتكره الحرب ومن ثم نظر إلى غريزة العلوان الدافعة إلى الحرب على أنها داء يجب علاجه ، وصور الشاعر وببساطة عاطفته وهذا ما يكسبها حيوية وقوة ، والقصيدة ذات وحدة فنية متكاملة فموضوعها واحد وأفكارها واحدة والجو النفسى الذى يغلف الرواية واحد من بدايتها إلى نهايتها والشاعر استقى تجربته من الحياة ومن واقع النفس البشرية . إن السلام والأمن والرخاء والتشيد والبناء أنشودة الشاعر السعوى ومن ثم صور الحرب في صور منفرقة مؤلمة فاتجاه الشاعر نحو السلام لا نحو الحرب .

وهذه (دنيا الغد) لمحمود عارف ترنيمة للسلام وأغرودة فرح بانتهاء الحرب وأحوالها وإن خلفت الجاضر مثقلا بالمحازر ولكنها مضيت بأثقالها وأوزارها وفي أثرها بدا نعيم المصير في غد جده ناظر وإذا كان الشاعر قد رسم بريشته صورة الدمار في حقبة البلوى فقد رسم في حقبة النعيم صورة لفرح الطبيعة . وبعث الحياة والحركة في صورته ، وهذه الطبيعة الجليلة أسعدت الكون فحقق قلب العالم بالسرور لتحقيق المنى فقد انتصر السلام على الحرب ومن ثم فالغد مشرق وكل ذلك أسكر الشاعر وبعث فيه النشوة فطرب وترنح وطلب المزيد من كؤوس الصفو والمنى ورجا أن يعود الناس إلى ينابيع الثمافة والحرية والحضارة والحب والعدل فهذه ذخائر السعادة .

وبين أحضان الطبيعة كانت للشاعر السعوى جلسات شعرية مغردة

قال أنصاري في قصيدته (وحي العقيق في يوم انهماره) قد استلهم العقيق ذات مساء بهيج فأوحى إلى الشاعر . هذه القصيدة العصماء التي دجل في نسيجها الشاعر والعقيق والمطر والطبيعة والتاريخ وجاءت مكتملة الوحدة الموضوعية والفكرية والشعورية فالشاعر يصف انهمار المطر وأثره في العقيق ثم يذكر أن العقيق هكذا منذ الزمن البعيد يأتيه الزوار يوم انهماره للنزهة والراحة ومثل هذا المكان ينبغي العناية به وقد مارس الشاعر تجربته عمليا حيث عايش المكان وما حوى وما أوحى اليه ولكن الشاعر على رغم سروره بالطبيعة ، وبعثه الحياة فيها لم يندمج فيها ولم يشعر أنه فرد من أفرادها فهو قد انتحى عن رفاقه جانبا وجلس وحيدا على ضفاف الوادي الذهبي الجميل وكان بوسعه وقد شخص الوادي والطبيعة أن يتحرك بحركتها وأن يكون منها واليهافيصل أحاسيسه بأحاسيسها ولكنه اكتفى بأن يكون مصورا من الخارج .

أما قصيدة (جازان) للشاعر محمد أحمد عيسى فقد تحدث فيها عن نفسه أكثر من حديثه عن حبيبته (جازان) أنه يفخر بنفسه وبفته بين يدي موضوعه وختم قصيدته ببكاء حظه العاثر وعدم تقديره في بلده (جازان) فلماذا هام بحبها وجعلها معشوقته ؟ يبدو أن الشاعر كان يعاني من أزمة نفسية ومن ثم ضحك وبكى . لقد ذكر شواطئ جازان ومساءها على البحر حيث ترقص الأمواج تحت أضواء الشفق على الصخور وحيث رمال الشاطئ الندية برشاش الموج والنسيم يهفو على التلال وجلود الأشجار موائل في صف واحد . كل هذه الرؤى ارتسمت في خيال الشاعر وعبر عنها من الخارج كما فعل الأنصاري .

أما الشاعر حسين سرحان فهو الذي حرك الطبيعة وجعل نفسه فردا من أفرادها وإن شئت فقل إن هذه أمنية (ياليتني قمرى) .

إن الشاعر يرى السعادة كل السعادة في العلم والحرية وصفاء الروح وإشراقها ولا يلزم ذلك إلا فنان مثل حسين سرحان ذلك الشاعر الرومانسي الذي ضاق بالحياة وقيودها وظلامها فتمنى أن لو كان قمريا يزقزق بين الرياض حين ينبثق نور الفجر إنها أمنية دعت إليها قسوة الحياة من حوله .

وَدَعَا إِلَيْهَا تَعَامُةُ الْإِنْسَانِ بَلْ تَعَاثَتْهُ هُوَ أَلَيْسَ إِنْسَانًا يُطْلَبُ السَّعَادَةُ ؟ إِنْهُ
يَنْتَحِزُ مِنَ الطَّبِيعَةِ وَسِيلَةً لِلتَّعْبِيرِ عَنْ رُؤْيَا خَاصَّةٍ فَهُوَ حِينَ يَجْعَلُ الدُّجَى إِنْسَانًا
نَاقِمًا يَصُورُ فِيهِ التَّعَاثُةَ الَّتِي يَعَانِي مِنْهَا ذَلِكَ الْإِنْسَانُ الْمَظْلَمُ الَّذِي يَحْلُمُ بِنُورِ
الْفَجْرِ .. وَلَقَدْ اخْتَارَ الشَّاعِرُ لِحَنًا مُوسِيقِيًّا يَتَمَشَّى مَعَ حَرَكَاتِ الْقَمَرِ
وَقَفْزَاتِهِ وَسَخَطِ الشَّاعِرِ مِنَ النَّوعِ الْخَفِيفِ إِنْهُ لَيْسَ سَخَطًا مُظْلَمًا بِقَدْرِ مَا هُوَ
إِعْلَانٌ عَنْ رَغْبَةٍ وَأَمْنِيَةٍ يُمْكِنُ أَنْ تَتَحَقَّقَ وَهُوَ يَنْتَظَرُهَا كَمَا يَنْتَظِرُ الصَّائِمُ
لَيْلَةَ الْقَدْرِ .

وَالشَّاعِرُ السَّعُودِي حَسَنٌ عَرَبٌ يَقِفُ مُتَأَمِّلًا أَمَامَ جَبَلٍ (عِلْمٌ) فَمَاذَا
رَأَى فِي الطَّبِيعَةِ ؟ وَمَاذَا أَوْحَتْ إِلَيْهِ هَذِهِ الرُّؤْيَا ؟ إِنْ الشَّاعِرُ لَا يَصُورُ
الطَّبِيعَةَ وَلَا يَبْعَثُ فِيهَا الْحَيَاةَ وَحَسَبَ وَإِنَّمَا يَفَلْسُفُ أَحْدَاثَهَا وَيَسْقُطُ عَلَيْهَا
آرَاءُ فِي الْكَوْنِ وَالْحَيَاةِ لَقَدْ بَدَأَ الْجَبَلُ سَاهِمَ النَّظَرَةِ تَخْفِيهِ الْغُيُومُ حِينَ ثَمَّ تَنْجَابُ
غَنَاهُ وَتَشْرِقُ الشَّمْسُ فَمَا الَّذِي يَخْفِيهِ مِنْ سِرِّ الْوُجُودِ حِينَ يَشْرِقُ وَحِينَ يَلْفَهُ
الْغُمَامُ ؟ أَعِنْدَكَ أَنَّهَا الْجَبَلُ شَيْثَانٌ مِنْ أَسْرَارِ الْوُجُودِ فِي حَالَتَيْكَ أَمْ أَنَّكَ مِثْلُنَا
لَا تَعْرِفُ كَيْفَ الْمَنَآبِ ؟ فَإِذَا تَغَشَّاكَ ضُبَابٌ فَتَحْنُ أَيْضًا يَتَغَشَّانَا ضُبَابٌ وَمِنْ
ثُمَّ يَضِلُّ الْعَقْلُ طَرِيقَهُ إِلَى الصُّوَابِ وَتُسْتَوِي لَدَيْهِ الْحَقِيقَةُ وَالْخَيَالُ . إِنْ هَذِهِ
الْوَقْفَةُ التَّأَمُّلِيَّةُ أَمَامَ الْجَبَلِ مِنْ عِيُونِ الشَّعْرِ السَّعُودِي لِأَنَّ الشَّاعِرَ لَمْ يَتْرَكْهَا
لِجَفَافِ الْعَقْلِ وَالْمَنْطِقِ بَلْ مَزَجَهَا بِالْخَيَالِ وَالْعَاطِفَةِ مَزَجَهَا بِالْحَيَاةِ أَمَامَ مَظَاهِرِ
الْكَوْنِ وَأَحْدَاثِهِ وَفَكَرَ بِالصُّورَةِ وَتَحَرَّرَ مِنْ وَحْدَةِ الْقَافِيَةِ لَا مِنْ وَحْدَةِ
الْوِزْنِ .

أَمَّا (أَنَا وَالْقَمَرُ) لِلشَّاعِرِ حَسَنِ قَاضِي فَتَمَّ عَنْ رَقَّةٍ عَاطِفِيَّةٍ عِنْدَ ذَلِكَ
الْمَعْنَى السَّهْرَانِ وَقَدْ بَعْدَتْ دَارُهُ وَإِلْفُهُ وَهَوَاهُ وَمَسَرَّتْ رُوحَهُ عَلَيْهَا تَنْظُرُ
رُوحٌ مِنْ يَهْوَى إِنْ عَزَّ النَّظَرُ الْمَادِي وَالصِّيَاغَةُ الْفَنِيَّةُ كَفَاءً هَذِهِ الْمَشَاعِرُ
الصَّادِقَةُ حَيْثُ يَعْبُرُ الشَّاعِرُ بِاللُّونِ الْوَادِعِ السَّاحِرِ فِي سَنَا الْقَمَرِ وَبِأَلْوَانِ الزَّهْرِ
وَأَنْغَامِ الْجُدُولِ وَرَقَصَاتِ الْقَمَرِ . إِنْ الْقَصِيدَةُ نَبْضَاتُ قَلْبٍ وَرُؤْيَا شَاعِرٍ فِي
أَعْمَاقِ نَفْسِهِ وَفِي آفَاقِ الْكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِ وَقَدْ ثَامَ النَّاسُ وَصَبَحَا هُوَ وَالْقَمَرُ :
فَإِنْ ذَهَبَتْ تَبَحُّثُ وَالْحَالَةُ هَذِي عَنْ أَفْكَارٍ عَمِيقَةٍ وَمَعَانٍ دَقِيقَةٍ كَثَلَتْ الَّتِي

كانت عند حسين عرب فلن تظفر بطائل لأنك أمام شاعر يفضي بمنكتون قلبه لا بثمار عقله ومع الشاعر السيد محمد هاشم رشيد في (اذكريني) تحس أنك مع شاعر متم أخصاه الغرام فهو يطلب من حبيبته أن تذكره دائماً وأن تجعله أنشودتها المفضلة وهو يرسم لحبيبته لوحات فنية رائعة منذ أيقظها في السحر واتجه بها نحو الحديقة ثم قال لها (اذكريني) ولقد نسج الشاعر لوحته من خيوط الضوء والطير والزهر والعطر والأغصان والثمار والندى ، وهو يطلب إليها أن تذكره في الأصيل مع النسيم العليل والشمس عند الغروب . فلما جن عليه الليل طلب إليها أن تذكره أيضاً ولو كان ذلك عند منتصف الليل والكون فقد أغنى ونام . إن هذه القصيدة أشواق هائلة لا أقول على رمال الوجد والحنين بل على هام الغصون والثمار وتحت أفياء الأشجار في السحر والضحي والأصيل والليل .

إن الطبيعة تتلون عند الشاعر الأصيل بلون نفسه لأنه ينظر إليها من خلال وجدانه فيصاحبها أو يعاديهما والشاعر عبد الوهاب آش في قصيدة (باليل) يبدي تعاطفاً مع الليل لأنه يرى فيه البهجة والسرور ويراه خبز أنيس برغم ظلامه وصمته فالذين زعموا أن الليل صبغ الحياة بلونه الأسود قد ظلموه ولم يحسنوا التلقى عنه وعن جماله في النجوم اللوامع والبدر الفاتن والزهور يفوح عبرها بالليل ، والليل ظرف الغرام فتحت أستاره يلهو المحبون في صبوة ولقاء وحنان ورفق . هذه مباحج الليل .

وللبحر والفلك نصيب في الشعر السعوى فقصيدة (التالودية) ، لعبد القدوس الأنصاري كانت ثمرة جلسة تأملية على مقدمة الباخرة (تالودي) رسم فيها الشاعر صورة للجو والبحر عند الأصيل ووازن بين أحياء البر وأحياء البحر وبين موقف الإنسان من البحر قديماً وحديثاً ثم التفت الشاعر إلى الباخرة التي أتاها له هذه الجلسة فرأى فيها وفي غيرها ثمرة من ثمار العقل وتمنى أن يسود السلام لكن حجب الشاعر للبحر أو كرهه له وفلسفته للموقف كل ذلك لا تفصح عنه القصيدة ونحسب أن الأنصاري قد (المنهل)

تأثر يشوق في وصعد الفلك والبحر في مقلعة قصيلته (كبار الحوادث في وادي النيل) .

وإذا كنا فيما مضى قد غرضنا شغل الظلمة مزوجاً بشعر المرأة فنحن مع ديوان (الأحلام الزبع) لظاهر الزمخشري نعيش مع شعر ينور حول المرأة والتغزل بها والزمخشري منهج متبع عمر بن أبي ربيعة فالغزل عنده مادي والحب فم على فم يعل منه وينهل وقد ظل يطوف في مغاني الجمال ومرايع الصبوة والصبايا .

وإذا كان من شعراء السجودية من رأى الحب سرايا فإن منهم من رأى الحب كل شيء في الحياة فإذا فقد فقد كل شيء وإن ملك الدنيا نجدها على نحو ما شاهد ذلك في قصيدة (فجر سعيد) لحسن البغدادي القرشي اللبي يري أنه لو حاز كل شيء إلا محيا حبيبته فكأنه لم يحز شيئاً وبجيه مابدى أيضاً يتحدث عن لثم الخلد وعسل الريق ونبض البهد والقوام المزور إلى غير ذلك

ويحار الشاعر محمد عبد القادر فقيه في أمر الحب فيتساءل (يا حب من أنت) فالناس قد اختلفوا شيعاً وأحزاباً في أمر الحب وضلوا السبيل إليه فهذا محب مدنف مشرد النوم مبلوب النهي يجرى وراء السراب وقد قنع بهذه الحياة وأعجبه سحرها فاعتزل الناس وحلق في عالم المثل والفقيه غير مقتنع فيما يبدو بهذا المذهب في الحب وتساءل : هل الحكيم من أحب أم من لم يحب ؟ وقصائد الغزل بصفة عامة ذات وحدة فنية وإن سار بعض الشعراء على منهج القصيدة القديم وسار البعض على المنهج الجديد في الشعر المنشور .

والشعر المنشور محاولة لتطعيم الشعر العربي بأشعار أجنبية كالانجليزية أو الفرنسية مثلاً وقد دعا إلى ذلك منطق الحياة المتطورة . وموضح النقد لهذا الشعر الجديد هو تسميته فلماذا اختاروا له اسم الشعر وهو أقرب إلى النثر الفني ؟ أما أنصار الشعر المنشور فيقولون : إنك لتجد فيه صفات ومميزات لا تجدها في النثر الفني فكل عبارة فيه تطوي في نفسها معاني واسعة وخيالاً خصباً ولكل شطر جرس خاص وهو لم يتحرر من المغزى واللباب الذي

تقسم به حقيقة الشعر .. ولعلهم أدركوا بحلاية الشعر القديم عبر العصور
فحاولوا أن يكسبوا هذه الخصائص للشعرهم فزعموا أنه يلتقي مع الشعر القديم
في الجزى واللباب إن الشعر المنتور يضرب من الشعر ولكن هل هو ضرب
من الشعر العربي ؟ هذا هو بحث الخلف بالشعر لدى العرب هو ما ألزم
القافية والوزن ، وحينما أراد العرب أن يعاندوا في القرآن المجيد فتح لهم
شيطان فكرهم وعنادهم . تسميته تضليلا بالشعر وما هو بشعر حتى في
مصطلحهم .

إن هذا اللون من الشعر تأثر بالشعر الغربي وهو مريح لا يكلف الشعراء
تعبا ولا عناء ويحيل إلى الشباب أنهم يقلدون الشعراء الغربيين ويجددون في
الأوزان والقوافي .

إن الشعر يقدم الفكرة في إيجاز وإيجاء ممزوجة بحافظة جياشة مصورة
تصويراً بديعاً .. وهذه الخصائص توجد في الشعر المنتور وقد عرف الأدب
السعودي هذا الاتجاه الشعري ومن الأمثلة عليه (وداعا أيتها المناظر الخالدة)
لعبد القلوس الأنصاري وهي قصيدة متماسكة ذات موضوع واحد هو
مناظر المدينة المنورة : ثنية الوداع - جبل أحد - الحرار الرابضة -
النخيل والمآذن والوديان والبساتين . ولم ينس الشاعر رفاقه في المدينة بل
لم ينس كل الذين يعيشون في هذا البلد الطيب ، والقصيدة ذات جو نفسي
واحد هو تعاطف الشاعر مع هذه المناظر وحنينه إلى أهل المدينة .

والشاعر إنسان موهوب مرهف الحس رقيق الشعور ومن ثم يكون
إحساسه بالألم أعمق والشعراء والمخالة هذه أصناف فمنهم من يهرب من هذا
الواقع المرير فيرتحى في أحضان المرأة أو الطبيعة أو الخمر ومعظم الشعراء
الرومانسيين من هذا الصنف ، ومنهم من يعزل الحياة وآلامها . فماذا صنع
الشاعر السعودي أمام سيل الآلام الجارف ذلك ما توضح عنه قصيدة
(دمة) للشاعر إبراهيم هاشم فلان وهي أشبه بقصة موضوعها الألم واعتمد
فيها الشاعر على الحوار الأفلاطوني فالألمه متتابعة وهو في صراع معها وهو

صابر بيد أن كفاحه لم يثمر فحاول أن يهرب من هذا الواقع المرير وتفرق
آلامه في كأس تقلبها له ليلاه وهي فتاة مسلمة حكيمة جميلة تقدم له كأساً
خلالاً وتري حبيبها كذلك فتقول له : أتأيس ؟ فأين الله والقلدر ؟ أين إيمانك ؟
ثم تضرب الفتاة له الأمثال ولكن الشاعر يرفض ضرب الأمثال ويذكر أنه
خير بالبشر فهو متألم من تنعم الحمقى وشقوة العلماء إنه لشورة مكبوتة تحاول
أن تنفجر وليكن فتاته تهون عليه الأمر وتكبر فيه النبوغ والعبقرية وتذكر له
أن ما يعانيه من آلام إنما هو اختبار فليصبر فاستجاب لها وهكذا نرى أن
ثورة الشاعر السعودي لا تنفجر لإيمانه واتزانه .

وفي (محاورة نفس) لمحمد حسن في صراع بين العاطفة والعقل وقبـد
عبر الشاعر عن هذا الصراع بأسلوب الحوار الداخلي الذي أجراه بينه وبين
نفسه ، وأمنية الشاعر أن يعرف الطريق إلى نفسه وهو يدعوها إلى واحد من
اثنين إما أن تحب وترضى بحكم الحب وإما اليأس من الحب ، والشاعر يرى
الوفاء للمحب فضيلة ولكن نفسه تدعوه إلى حب واقعي وإلى معاملة المحبوب
بالمثل . : إن هذه القصيدة تمثل مرحلة من مراحل المعاناة عند الشاعر وهو
شاعر- فنان ومن ثم انتصر للنفس والقلب ولم يتصر للعقل ويبدو أن الحوار
الداخلي في القصيدة سمة فنية لهذا الشاعر العظيم فضلاً عن النفس الشعرى
الطويل فهو في قصيدة (فراق) يطالعنا بحوار جديد عن الفراق وفلسفته بعد
أن أمتعنا بمحاورة نفس فالشاعر يذكر ألم الفراق ويتمنى ألا تطول أيامه .

وفي هذا الجو الحالم تتدافع الذكريات فيذكر أحلاماً إنها ذكريات
الطفولة البريئة ولكن ذلك لن يمحو الفراق ولن يؤجله . كان موقف
مشحون بالقوافي والانفعالات إنه موقف الوداع . وكان للشاعر مع
صاحبه حديث حول فلسفة الفراق والحب والحياة رأى صاحبه أن البين يذكر
الفراق أما هو فإنه لا يرضى إلا بالواقع ولا يتعلق بالسراب فليس صوفي الهوى
فيقول له صاحبه : إن الحياة حرب وسلام وسعادة وشقاء وربما كانت للبتها
في ذلك . وهذه النظرة لاحظتها عند الشاعر في قصيدة (محاورة نفس)
وذلك يدل على أنه اتخذها مذهباً بل ربما كان الأمر أعظم من ذلك وأشمل

بالأدب السعودي. تنازعه اتجاهان فلسفيان ارتبطا بأجدهما بالواقع وبالأرض. وارتبط ثانيهما بعالم المثل. أما المذهب الواقعي فقد شاهدنا نماذج كثيرة له من قبل. وأما عالم المثل فيبدو لدى شاعرين محمود عارف في قصيدة: (من الأعماق) وعبد القدوس الأنصاري في بداية حياته الفنية في (شاعر يهبط إلى وادي الحياة) أما محمود عارف في لحظة استغراق شاهد لوتين من الصور الأولى هذه الصور التي اللقطتها من الواقع والثانية صور المني أو عالم المثل. قد وجد الشاعر اليون شاسعا بين الواقع والمثال. إن الشاعر ينشد السعادة وقد بحث عنها في دنيا الناس فلم يجدها فليبحث عنها في روض المني وعالم الأحلام والمثل إنه يرضى من السعادة بالقليل لأن السعادة هي التي تفجر ينابيع العطاء في الإنسان أما الشقاء فيغنى على هذه الينابيع.

أما الأنصاري فقد كان في برجه العاجي وفي أوج سماء ينظر إلى وادي الحياة ويشي أجنحة الفكر لكي يهبط الوادي ويعيش فيه ويصيد الأنس وينعم بالحلب في سمو وعفاف ويحبل الطرف في وادي الحياة لعله يرى ما يسر العين من حياة غضة هائلة لقد ظن الشاعر أن الحياة سلماً يرقى به إلى السعادة وجنة ليس فيها شكاة ولكن بداله أن هذه أوهام شاعر وأن الحياة ملأى بالأذى فقرر العودة إلى برجه العاجي بعدما استيأس من سعادته ورضى من الغنيمة بالإياب وخشى أن يمثد إليه أذى البشر فيتبعه لهب النار ويغزو حماه.

والجدير بالذكر أن الشاعر المصري علي محمود طه كان ماثلاً نصب عيني الأنصاري وغيره من شعراء السعودية.

وفي نهاية بحثنا هذا نلتقي بفن السيرة في الأدب السعودي ومعلوم أن هذا الفن عملية تحليلية لشخصية عظيم من العظماء بحثاً عن القيم الإنسانية عنده وهو يتحرك مع الحياة والناس. وفن السيرة يجمع بين عمل المؤرخ وعمل المصور الفنان حتى يستطيع أن يقدم عملاً أدبياً.

وزائد هذا الفن في الأدب السعودي هو الأستاذ عبد القدوس الأنصاري فقد كتب تراجم صحفية قصيرة كما كتب سيرته الذاتية وأحسبه قد تأثر يابن خلدون في كتابة سيرته الذاتية. وفي حديث الأستاذ الأنصاري عن

(حياة الفتح بن النعمان وشعره) خطة دراسية تناولت عنصر الشاعر وبيئته والعوامل الخاصة التي جعلت من الفتح شاعراً خالداً ونهى أول دراسة في الملكية الجوازية الحديثة لباحث معتدل منصف همسه لإقرار الحق دون الإصغاء إلى الخيالات المستمدة من التفكير القاصر ..

أما ترجمة الأستاذ الأنصاري للسيد محمد المرزوقي فقد أراد الكاتب أن يعطيها ثوباً قديماً فوضعها تحت عنوان (وفيات الأعيان) وأبتدأ بالحديث عن وفاة المترجم له وذكر نسبه وبيئته وأنه نشأ في أسرة علمية وتحدث عن مولده وفرح والده به ومشاركة الشعراء للوالد فرحته بقصائده أرخوا فيها ميلاد الابن على النمط الذي كان سائداً في جيله وتحدث عن نشأته وتعليمه مشيراً إلى نظام التعليم في عصر المترجم له والوظائف التي تولاها وختم الترجمة بالحديث عن ملامحه وأخلاقه لقد سرد حياة المرزوقي وهذا المتهج لا يمكن أن يخلق التعاطف بين القارئ والشخص المترجم له ذلك التعاطف الذي لا بد منه كي تؤدي الترجمة مهمتها وتثبت قنيتها . وقد نسج الأنصاري على نفس المنوال في ترجمته للشيخ محمد بن مانع وإن كانت ترجمة ابن مانع لا ترقى لمستوى الترجمات الأدبية فقد ركزت وفي عناوين جانبية على النواحي التاريخية لحياة المترجم له وذكرت نبوغه وتطلعه وطموحه وأكبر الظن أن الأنصاري لم تكن لديه خطة محددة لذلك الترجمة . وعلى كل حال فإن ترجمات الأنصاري تقوم على عنصرين :

١ - رسم صورة للمترجم له .

٢ - حياته وبيئته .

وقد ترجم الأنصاري للشيخ محمد العمري ترجمة أدبية تحدث فيها عن الأبعاد السياسية والنفسية والاجتماعية والشكلية الجسدية للمترجم له ولم ينس بيئته وأدبه وبدأ الترجمة بالأحداث الجسام التي كان لها تأثير في شاعرية الرجل ومجري حياته ولعل هذه الترجمة أفضل تراجم الأنصاري الغيرية . . .
فإذا تركنا الأستاذ الأنصاري والتقيتاً بغيره من مفكري السعودية وأدبائها

فلما نلتقى فيمن نلتقى بهم بالأستاذ أحمد عيه الغفور عطار في سيرة (صقر الجزيرة) الملك عبد العزيز وأسلوب الكتاب علمي متأدب يعرض تاريخ الجزيرة وصقرها في عهد اليقظة العربية فهو كتاب تاريخ بالفرنسية الأولى قبل أن يكون ترجمة حياة .

أما ترجمة (تقي الدين انقاسي) للأستاذ حمد الجاسر فقد عول الجاسر فيها على ما ذكره تقي الدين عن نفسه في كتابه (العقد الثمين) مع زيادة بعض إيضاحاته وبدأ بذكر مولد المترجم له ونشأته ورحلاته ، ومنشأته وتلاميذه والأعمال التي تولاها .

لقد ارتبط الأستاذ الجاسر ارتباطاً حرفياً بما قاله المترجم له عن نفسه وكنا نود لو أن الجاسر استقى مادته العلمية من كتاب (العقد الثمين) وغيره ثم عرضه بأسلوب حديث . ولقد ترجم تقي الدين انقاسي لنفسه كما ترجم أستاذه ابن خلدون لنفسه وهذه ظاهرة فنية كان ينبغي أن يشير إليها الأستاذ الجاسر لأنها تشرع في ميلاد الترجمة الذاتية في الأدب العربي ..

وحيث يكتب الأستاذ محمد علي مغربي عن أستاذه في المراجعة (محمد جميل حسن) يركز حول شخصية الأستاذ ورسالة المعلم ونجاح الأستاذ في دروسه برغم جفاف بعضها وضربه القلوة الحسنة لتلاميذه وفهمه لأصول التربية ونظم التعليم .

وفي ترجمة الأستاذ عبد الله عريف تقرأ تحليلاً لشخصية (محمد سرور الصبان) وأثره في الحركة الأدبية بل تقرأ تاريخ الصنوعة الذهنية في الحجاز وقد التزم فيها منهج التحليل والتعليل فأصدر أحكاماً عن تفكير صحيح .

الفهرس


الصفحة

٣	الفصل السادس — فن القصة
٤	من المقالة إلى القصة
٥	ثورة على أدب المقالة والقصيدة
٧	تاريخ القصة العربية السعودية
١٠	في أصول القصة
١٣	استخدام العامية في حوار القصة
١٣	اتجاهات القصة القصيرة في السعودية
١٣	(١) الأنثى في عالم القصة
١٩	(ب) سيكلوجية التسامى والمراهقة عند عبد السلام هاشم حافظ
٩١	(ج) الاتجاه الاجتماعي وقصص الأسرة السعودية
١١٦	الفصل السابع — فن الشعر
١١٨	ثقافة الشاعر العربي الحديث
١١٩	تطور الشعر السعودي
١٢٤	الشعر والتطور الحديث
١٢٦	بين التفتح والنضوج
١٢٧	الشعر الجديد
١٤٧	الاتجاه الديني
١٧٥	الاتجاه الاجتماعي
١٨٩	الاتجاه السياسي
٢١٩	الطبيعة والمرأة
٢٦٨	الشعر الفلسفي والتأمل
٣٠٨	الفصل الثامن — فن السيرة أو ترجمة الحياة
	السيرة في الأدب السعودي
٣١١	أولا : عبد القدوس الأنصاري رائد فن السيرة
٣٣١	ثانيا : تراجم لمؤلفين آخرين
٣٣٩	نتائج وحقائق

رقم الإيداع ٨٦/٣٥٥٤

مطبعة نهضة مصر

مفجالة — القاهرة

 Bibliotheca Alexandrina



1169645

قرش جنييه